

العربية

خصائصها وسماتها

دكتـــور
عبد الغفار حامد هلال
استاذ ورئيس قسم أصول اللغة
وعميد كلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهـر

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الخامسة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللغة رمز التعبير ووسيلته، وهى الأداة التى تنقل الأفكار وتترجم عنها، ولا ريب أن تلك الأفكار تنتقل إلى طالبها فى قوالب خاصة هى الألفاظ، وهذه الألفاظ يختارها كل مجتمع حسب حاجته وأحواله الاجتماعية، فأرباب الصحراء يميلون إلى وعورة اللفظ وخشونته، وأرباب المدينة تحمل ألفاظهم سمات مدنيتهم وحضارتهم من رقة وعذوبة، ولاريب أن المعانى التى تحملها هذه الألفاظ مر عليها - منذ نشأتها - مراحل تاريخية كما هو الحال الآن، فاللغات البشرية قد قطعت مراحل طويلة الأمد، وتقلبت عليها أجيال متعاقبة منذ أقدم العصور.

وكل جيل له سمات ورث بعضها عن أجداده أو أخذه ممن يخالطهم وابتكر بعضها الآخر تبعا لمقتضيات حياته، وبيئته والأحداث التى مر بها اجتماعية، ونفسية.

ولاريب - كذلك - أن الألفاظ تمر فى تلك المراحل وتتلقفها الأجيال بما تحمل من معان قد تبقى وقد تتغير وقد تنحرف حسب عادات وأسباب لا يمكن التنبؤ بها جميعها، ولكن يمكن من دراسة الألفاظ نفسها الوقوف على بعضها كما أن المعنى نفسه قد يتغير مفهومه لدى الأجيال من الشرف إلى الضعة وبالعكس.

كذلك أصوات الألفاظ عرضة لهذا التغير، ولكل لغة قواعدها المنتظمة التى تتبعها فى سيرها عبر التاريخ، غير أن الأيام تؤثر فيها وتدخل بعض التغييرات عليها.

والمعروف من دراسة اللغات أنها بدأت مع وجود الإنسان للتعبير عن حوائجه، والإنسان البدائى كان محدود الأفكار لا يذهب عقله إلى أكثر مما يقع تحت حواسه فكان يستعمل - مثلا - (قطع) فى معناها الحسى المعروف ثم بعد أن ارتقى واتسعت مداركه ولد معانى أخرى لهذا اللفظ لها صلة بمعناه الأول

مثل (قطع فى الأمر) : جزم و(قطع الحوض) : ملأه إلى نصفه ثم (قطع الماء) فحمل عليها مجازا[١].

وهذا التطور الذى نلمسه فى ألفاظ اللغات يدل دلالة أكيدة على تطور الجماعات البشرية، وهما مقترنان فى السير فى طريق واحدة، فإذا تخلف مجتمع عن ركب الحضارة تخلفت لغته معه، ونالها البلى والكساد أما إذا تقدم المجتمع فإن ذلك يدعو إلى حيوية لغته وانطلاقها إلى آفاق بعيدةولذلك فإن اللغة تنقل من جيل إلى جيل آثار المتكلمين وعاداتهم وتقاليدهم وشخصيتهم المتميزة، وكل ما يحيط بهم، فهم يتركون على لغاتهم – بألفاظها ومعانيها واستعمالاتها – بصمات من أيديهم وشفاههم وما يدور حولهم.

واللغة العربية فى مقدمة اللغات جميعا تعبيرا ودلالة، وتصويرا للمجتمع الذى لهج – ويلهج – بها ففى ألفاظها التى قطعت الأزمان التاريخية المتطاولة ما يدل على أصلهم وتاريخهم وعقليتهم، فالكتابة والشكل والرسم والبلاغة والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة أقوام رعاة وقبائل مترحلة فالكتابة والشكل، بمعنى القيد، والرسم: أثر خطو الإبل على الرمل فى رسيمها أو سيرها على العموم، والبلاغة: من الوصول إلى غاية المسير، والفصاحة: من اللبن الفصيح الذى زال رغوه والدلالة للقافلة كالدلالة فى الكلام[٢].

ولفظ «الصديق» فى العربية من الصدق و«العدو» من العدوان فى حين أن كلمة ami = صديق فى الفرنسية مشتقة من لفظ يفيد معنى المحبة وennemi = عدو لفظ مركب يفيدنفى المحبة أى بمعنى البغض فالمفهوم العربى للصداقة مبنى على الصدق وللعداوة على العدوان على حين أنه عند الفرنسيين مبنى على أساس الحب والبغض.

ولفظ «عقل» – فى العربية – مأخوذ من العقل بمعنى الربط والتقييد، ويدل ذلك على أن فى معنى العقل عند العرب مفهوما خلقيا بالإضافة إلى العنصر الفكري فهو يعقل عن المنكر والشر ولا يدل لفظ raison الفرنسى على مثل ذلك فإن أصل معناه العد والإحصاء[٣].

---

(١) جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص١٠٩ . (٢) عباس العقاد : اللغة الشاعرة ص٤٢ .
(٣) د. محمد المبارك : فقه اللغة ص١٣٨ .

وهى تضم مجموعة هائلة من الألفاظ التى تحمل معاني متعددة تبعا لتعدد درجات الحدث، فالظمأ والصدى والأوام والهيام كلمات تدل على العطش إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته فانت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء ثم يشتد بك العطش فتظمأ ويشتد بك الظمأ فتصدى ويشتد بك الصدى فتئوم ويشتد بك الأوام فتهيم وإذا قلت: إن فلانا عطشان فقد أردت أنه بحاجة إلى جرعات من الماء لا يضيره أن تبطىء عليه أما إذا قلت: إنه هائم فقد علم السامع أن الظمأ برح به حتى كاد يقتله، و هذا على حين أن الفرنسى لا يستطيع أن يؤدى هذا المعنى إلا فى ثلاث كلمات:

إذ يقول «مائت من الظمأ» Mourant de soif أو فى سبع كلمات ليكون المعنى أوضح فيقول: «على وشك أن يموت من الظمأ»

Sur le point de mourir de soif

ففى كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة[1].

ولغة العرب بها أصول وفروع تولدت من طرق عديدة تبعا للحاجات الاجتماعية النامية كالاشتقاق والقياس والقلب والإبدال وغيرها وبفضل الاشتقاق غزرت المادة اللغوية باعتبارها من أكثر اللغات احتفاظا بالاشتقاق واهتماما به حتى ليقول الأستاذ عبد القادر المغربي فى مقدمة كتابه «الاشتقاق والتعريب» «الاشتقاق فى أصول كلمات اللغة العربية بمثابة النتاج والتوليد فى الأفراد المتكلمين بها، والتعريب فى الكلمات الدخيلة الطارئة على تلك اللغة كالتعريب بالنسبة للدخلاء فى الأمة العربية والملتحمين بها».

ولقد بلغ عدد كلمات العربية بالاشتقاق والتوالد قدرا كبيراً جداً حتى قالوا: إنها قد احتوت على مشتقات قدرها سبعون الف كلمة.

وهذا على طبيعة العرب فى السخاء اللغوى كما هى عاداتهم فى سخائهم الطبيعى والمادى ولذلك ترى ما تعجب له فقد وضعوا لبعض المعانى أسماء تفوق التصور، فللسيف ألف اسم وللأسد خمسمائة وللداهية أربعمائة حتى قال الثعالبى: تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى، ولعل فى نص الثعالبى السابق ما يوحى بقدرة العرب الخارقة وطواعية لغتهم لهم.

---

(١) د. عثمان أمين: فلسفة اللغة العربية ص٥٨، ٥٩.

وكلمات اللغة العربية تتلاقى فى إطار واحد وتتجانس وتتشاكل إلى حد يمكن منه معرفة الشقيق والغريب والدخيل، ويمكن منه معرفة نشوء اللغة وكيف تطورت معالم ألفاظها ومعانيها وارتباطها بعضها ببعض فكل مادة فيها تدور حول معنى واحد مهما تتصرف والاشتقاق يكشف هذه الحقيقة فلو تتبعنا مادة معجمية ودرسناها وأمعنا النظر فى المعانى التى تدل عليها ألفاظها لوجدناها ترتبط بمعنى عام يشمل هذه المعانى ويعد مركزا لها تتفرع عنه وتدور حوله، فمادة «س. ل. م» تدور حول معنى السلامة ومنها: سلم - يسلم - سالم - مسلم.. إلخ. ولو قلبت المادة لبقى المعنى كذلك.

ومادة «ح.د.ق» تدور حول الإحاطة والاستدارة ومنها: حدقة العين - الحديقة - أحدق بهم الخطر - ونحو ذلك، وهذا الدوران حول معنى واحد توصل إليه علماء الاشتقاق - وعلى رأسهم ابن جنى - فى تقسيمهم للاشتقاق إلى صغير وكبير، ويعد من ميزات لغة العرب التى لا تتمتع بها اللغات الأخرى، ففى الفرنسية كلمات Canine و Chien لا يوجد ما يدل على أنهما من أصل واحد، كذلك Capitaine و Chef لهما أصل معنوى واحد ولا يشتركان فى مادة واحدة مع أنهما يرجعان إلى كلمة Caput اللاتينية ومعناها «الرأس» ومثل هذه الأمثلة كثير.

كذلك فإن بعض ألفاظ العربية تتضح فيها المناسبة بين الصوت والمعنى مثل: خضم وقضم فالخضم - بالخاء - لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء والقضم - بالقاف - للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها، ومنه: النضح والنضخ فالحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه، وعليها جاء قول الله تعالى عن الجنتين للإنس والجن: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ بمعنى أنهما فوارتان بالماء لا تنقطعان، وقد كشف ابن جنى عن مشاكلة ألفاظ العربية للطبيعة بما يدل على براعة هذه اللغة وإن كان قد بالغ فى هذا الشأن[1].

والصيغ فى هذه اللغة تلعب دوراً مهما فى المعانى فأنت تقول: قطع وكسر - بفتح الطاء والسين - فيكون لهما معنى ثم تضعف العين - الطاء والسين -

---

(١) انظر فى ذلك الخصائص لابن جنى ٢/١٤٥ - ١٦٨.

للدلالة على قوة الفعل فتقول : قطع وكسر، وهناك فرق بين قدر واقتدر وكسب واكتسب.

ومما ذكره المستشرق الفرنسى كارادوفو تفرقة العربية بين الكبر الداخلى والكبر الخارجى، فالداخلى هو استعداد فى النفس والخارجى ناتج عن أفعال الجوارح، واللفظ الفرنسى الذى يدل على معنى الكبر هو orqueil أما التكبر فأولى أن يكون مرادفه الفرنسى Superbe ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد إلى اللغات الأخرى وخلص من هذه الملاحظة إلى التنويه بما تنطوى عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق ما دام أن إحداث تغيير طفيف فى بنية اللفظ العربى يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التى تطابقها[١].

والحركة فى اللغة العربية تدل على معان مختلفة كعلامات الإعراب وكذلك الأوزان والصيغ تدل على معان وصفات وأحوال مثل (فعلان) كعطشان و(فعلان) كهيمان و(فعال) كصراخ و(فعيل وفعللة) مثل صهيل وقعقعة وصلصلة . . إلخ[٢].

وقد حاولت طائفة من العلماء العرب والغربيين الكشف عن دلالة الألفاظ والقوانين التى تحكمها ونشأ عن ذلك علم الدلالة الذى ظهر اسمه Semantique فى مقال نشره ميشيل بريال سنة ١٨٨٣م وعنى بالبحث فيه كثير من علماء الغرب منهم الأساتذة بريال الفرنسى ووتنى الإنجليزى وكروس الإيطالى وفونت الألمانى.

وقد بذل هؤلاء وغيرهم من علماء الغرب مجهودا كبيرا وصلوا بعده إلى دراسات مجدية فى هذا العلم على أساس من دراسة الأصوات واللهجات الشعبية وعلم النفس اللغوى.

بيد أن علماءنا العرب قد أدركوا – قبل الغربيين – مفهوم هذا العلم لما تمتعت به لغتهم من ثراء واسع وتصرف معنوى لم تحظ به أية لغة فى العالم فهى

---

(١) د. عثمان أمين: فلسفة اللغة العربية ص٤٦، ٤٧. (٢) المصدر السابق ص٤٤، ٤٨.

تقف على رأس اللغات التى تمتاز بالدلالة وأثرها فيها لهذا لم يكن الأستاذ العقاد مبالغا حين قال : « إن هذا البحث يجمع بين أغراض التاريخ وأغراض البيان وأغراض الدراسة النفسية والاجتماعية »[١] . والدلالة هى قوام اللغة، ووظيفتها، ومقياس كفايتها وارتقائها عند المقارنة بين اللغات[٢] .

وتاريخ الدراسة اللغوية يثبت أن علماء العرب تناولوا موضوع الدلالة التى « بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى فى العصور الحديثة »[٣] ومن القضايا التى تناولوها فى هذا الفن الاشتقاق والحقيقة والمجاز والتضمين ودلالة اللفظ على عدة معان ودلالة عدة ألفاظ على معنى واحد والتى يدخل تحتها المشترك والمتضاد والمترادف وغير ذلك من بحوث علم الدلالة .

وعقد أحمد بن فارس فى كتابه (الصاحبى) فصلا بعنوان (باب القول فى حاجة أهل العلم الى معرفة اللغة العربية) أوجب فيه « العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا حتى لا يخطىء فى الأحكام »[٤] .

وعقد ابن جنى فى كتابه (الخصائص) فصلا بعنوان (باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) طلب فيه من علماء الشريعة أن يتفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها وأن يعرفوا مجازاتها لأن الجهل بها يؤدى إلى ضلال بعيد وضرب أمثلة للجهل باللغة الذى أوقع بعض المفسرين فى الخطأ فى تأويل بعض الآيات والأحاديث الشريفة [٥] .

وللحاجة إلى مباحث علم الدلالة لتعلقها بالشريعة والقوانين الدينية عنى علماء أصول الفقه بكثير من مسائل الألفاظ ودلالتها[٦] .

وإن روعة اللغة العربية وروعة الدراسة التى حظيت بها من علمائنا كانت الأسس التى اعتمد عليها دارسو اللغات الإنسانية قديما وحديثا بما يؤكد أن ما يحاوله المستشرقون – وغيرهم – الآن من نسبة النظريات اللغوية إليهم يحتاج

---

(١) العقاد : اللغة الشاعرة ص٧٢ .

(٢) من مقال للأستاذ العقاد بمجلة الأزهر، عدد شعبان ١٣٨١هـ ص ٩٢٢ .

(٣) د. محمد المبارك : فقه اللغة ص١٣١ . (٤) ص ٦٣ – ٦٥ .

(٥) ج ٣ ص ٢٤٥ – ٢٥٥

(٦) انظر د. نجا : فقه اللغة العربية ٤ / ٥، ود. المبارك : فقه اللغة ص ١٣٤ .

إلى مراجعة وتريث فإن معظم هذه النظريات مستمدة من أصول عربية سبقت ما قالوه بقرون عديدة.

هذا - وغيره كثير - يدل على قوة اللغة العربية وصلاحيتها للتعبير عن المعانى الجديدة، ويكشف أسرار نموها وسعتها.

وقد رأيت أن يكون هذا مضمون كتابى (العربية: خصائصها وسماتها).

وسنعرض فى هذا الكتاب لبعض خصائص اللغة العربية وسماتها التي تفردت بها ونقدم لذلك بالحديث عن نشأة فقه اللغة، وأهميته، ولغة الإنسان الأولى وتفرع اللغات، ثم نفصل القول فى اللغة العربية من حيث نشأتها وأطوارها ونتحدث عن مميزاتها وعوامل نموها وما لها من سمات وخصائص.

وقد أضفت إلى هذه الطبعة كثيرا من البحوث التى تجلى طبيعة العربية وتكشف سر تفوقها على غيرها من اللغات، وحذفت بحوثا أخرى رأيت أن تنشر فى مجال آخر.

والله أسأل أن يجعل عملى خالصا لوجهه وأن ينتفع بهذه البحوث علماء العربية وطلابها.

القاهرة فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ

٤ من يونية سنة ٢٠٠١م

المؤلف

دكتور/ عبدالغفار حامد هلال

مدخـــــل

- معنى فقه اللغة
- الهدف من دراسته.
- تاريخ هذا العلم وأطواره عند العرب.
- صلته بالدراسات الاجتماعية والتاريخية والنفسية.

معنى (فقه اللغة)

لشرح معنى (فقه اللغة) يجدر بنا أن نحلل جزئية (فقه) و(لغة) ببيان مفهوم كل منهما، على النحو المعجمى، حتى نصل إلى المراد من الدراسة التى أنشأها علماء العربية، ويتضح لنا مفهومها.

مادة (فقه) :

(الفقه) العلم بالشىء، والفهم له، و(فقه) علم وفهم، قال تعالى: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أى: ليكونوا علماء به، ودعا النبى - ﷺ - لابن عباس فقال: (اللهم علمه الدين وفقهه فى التأويل) أى: فهمه.

يقال: (فقه) - بكسر القاف - و(فقه) - بضمها -: صار فقيها، و« رجل فقيه »: عالم، وكل عالم بالشىء فهو « فقيه »، ومكسور العين لازم ومتعد، ومضمومها لازم - كما نعرف - و الوصف من الجميع على فعيل، كما رأيت، و« فاقهته »: باحثته فى العلم[1].

مادة (اللغة) :

يذكر اللغويون، وأرباب المعاجم: أنها مشتقة من الفعل (لغا يلغو) إذا تكلم، أو من (لغى يلغى) - بكسر الغين فى الماضى وفتحها فى المضارع - إذا لهج[2]، وبالاشتقاقين قال ابن جنى[3] وبالأول قال الفيروزابادى ففى قاموسه: « لغا لغوا: تكلم »[4] وبالثانى قال الراغب الأصفهانى، ففى مفرداته: « لغى بكذا: أى لهج به لهج العصفور بلغاه، أى بصوته، ومنه قيل للكلام الذى يلهج به الناس فرقة فرقة لغة »[5] ومع ذلك ذكر كل منهما الاشتقاق الآخر، إلا أنه رجح ما ذهب إليه.

وقيل: إن فعله (لغى) - بكسر الغين - إلا أنه فتح حرف الحلق، فيكون ماضيه (لغا) ومضارعه (يلغو) و(يلغى)[6].

---

(١) لسان العرب ١٧ / ٤١٨، ٤١٩.
(٢) المصدر السابق ٢٠ / ١١٧ وما بعدها.
(٣) الخصائص ١ / ٣٣.
(٤) ط السعادة ٤ / ٣٨٦.
(٥) ص٤٥٢.
(٦) اللسان ٢٠ / ١١٧.

والمادة – كما وردت فى المعاجم – تدل على الأصوات الإنسانية، وغيرها وما يمكن أن يشبهها من معان مختلفة.

فكما تطلق على أصوات الإنسان، يمكن أن تطلق على أصوات الطيور، والوحوش، وغيرها من الكائنات الحية، ويمكن أن تنسب – أيضا – إلى كل ما يصدر عنه صوت، أو له صلة بحدوثه، ولو كان جمادا، آلة أو نحوها، وعلى هذا يقال: لغة المدافع، ولغة الحروب.. إلخ.

ولكن علماء العربية، خصوا (اللغة) – فى اصطلاحهم العلمى – بما يصدر عن الإنسان من الأصوات، فهى عندهم:

«أصوات يعبر بها كل قوم، عن أغراضهم».

فالقوم، خاص بالإنسان فقط، والتعبير عن غرض يجعل اللغة – فى رأيهم – مختصة ببعض الأصوات الإنسانية.

ولعل علماءنا القدماء قصدوا بهذا التخصيص الحديث عن اللغة التى تلبى حاجات الجماعة، ويهتم بها المجتمع، لأنها الوسيلة الى تفى بأغراض الناس وشئونهم فى الحياة.

وهذا هو ما قصده علماء الاجتماع – فى العصر الحديث – حين عرفوا اللغة بأنها:

«نظام من رموز، ملفوظة، عرفية، يتعامل ويتعاون بها أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة».

وبفهمنا لكل من جزءى المركب – على النحو السابق – نرى أن المقصود من فقه اللغة هو:

فهم تلك الأصوات، ومعرفة خصائصها اللفظية، والتركيبية.

هذا على المعنى التركيبى، بفهم مدلول كلمة (فقه) وضمها إلى صاحبتها (لغة).

وإذا أردنا أن نبين مفهوم تلك الدراسات اللغوية – باعتبارها علما من

العلوم أطلق عليه هذا المصطلح دون نظر إلى جزئية، كل على حدة - فهو : العلم الذى يبحث فى اللغة العربية، مفرداتها، وتراكيبها، وخصائصها اللغوية[1] .

الهدف من دراسته :

لا ريب أن دراسة هذا العلم توقفنا على كثير من المباحث المهمة، وتكشف لنا عن كثير من أسرارها، فهو يتناول :

١- الأصوات، وخصائصها، وكيف تتكون منها الكلمات .

٢- دلالة الألفاظ على المعانى المختلفة الموضوعة لها، وتطورها .

٣- التطور الذى مرت به الكلمات، وما أصابها من قلب أو إبدال، أو تركيب، أو نحت، أو أصالة أو فرعية أو استعمال، أو إهمال .

٤- لغة الإنسان الأول، كيف نشأت؟ ومتى؟

٥- لهجات اللغات، منشأها، وتاريخها، وصراع اللغات، واللهجات، وعوامل قوتها، أو ضعفها، و لهجات اللغة العربية، وسر توزعها .

٦- القوانين التى بها يسلم اللسان من الخطأ، وأسرار الاستعمالات اللغوية .

٧- ما يتعلق بعوامل نمو اللغة، وزيادة ثروتها، وصلاحيتها للحياة، والحضارة، وهذا يكشف عن أهمية الاشتقاق - مثلا - فى اللغة العربية، وتنوعه، واشتماله على مصدر الثروة اللغوية، إلى جانب غيره من العوامل، التى تكسب العربية نشاطا وحيوية .

٨- كما أن هناك ناحية أخرى يستفيدها دارس هذا العلم، وهى الاستقرار النفسى، والهدوء، نتيجة الوقوف على أسرار التعبيرات اللغوية، وشرح قضايا اللغة، التى قد يظل الإنسان حائرا بالنسبة لها، وإذا توافر له البحث، ومعرفة الحقيقة اطمأن وارتاح، فإن ظهور العلة المناسبة فى هذا التعبير أو ذاك تترك أثرها فى نفس الإنسان .

تاريخ هذا العلم وأطواره عند العرب :

كان الحفاظ على كتاب الله، ودينه، السبب القوى لنشأة الدراسات اللغوية، عند العرب، وقد بدأ بارتياد طائفة من الرواة، وعلماء اللغة، للبادية

---

(١) انظر تفصيلا لذلك فى كتابنا « اللهجات العربية نشأة وتطورا » ص٢٤ وما بعدها .

لجمع اللغة من العرب الخلص، وكانت نتيجة هذا الجمع، تدوين طوائف من الألفاظ فى موضوعات خاصة، كالإبل والخيل، والوحوش، والنبات، والشجر والأنواء، وأشهر ما دون فى ذلك رسائل الأصمعى[١] وأبى حنيفة الدينورى[٢].

كما وجدت بعض الكتب، التى تجمع ألفاظ اللغة الموضوعة للمعانى المختلفة كألفاظ ابن السكيت[٣] والألفاظ الكتابية للهمذانى[٤].

ويعد الخليل بن أحمد[٥] أول من نظر إلى البحث اللغوى، نظرة عميقة، واتجه إليه اتجاها جديا، فقد أدرك قيمة الدراسات الصوتية، ورتب عليها كتابه (العين) وأمكن للخليل بذلك أن يناقش قضايا لغوية، وأن يفسرها تفسيرا صوتيا كالإبدال والإدغام، والقلب فى اللغة، وتابع الخليل على ذلك تلميذه سيبويه[٦] مع دقة فى التحليل، والتفصيل.

وكان هم الباحثين، فى القرون الثلاثة الأولى، منصبا على مفردات اللغة، وما يتصل بها من أخبار، ولم يكن ينظر إلى الجمل أو التراكيب.

فلما جاء القرن الرابع الهجرى، واتسعت الثقافات، وكثرت العلوم نتيجة لامتزاج الثقافة العربية، بالثقافات الأجنبية، استفادت الدراسات اللغوية من هذا الامتزاج، بين الثقافات، فتحرر النحاة، من القيود، فى دراساتهم، ورأينا بعض اللغويين يعود إلى طريقة الخليل بن أحمد، فينظم اللغة، متبعا طريقة الخليل فى (العين)، كالأزهرى[٧] فى التهذيب، ويأخذ ابن دريد[٨] طريقة التقلبيات، إلا أنه يتبع نظام الترتيب الهجائى العادى، فى تأليف معجمه (جمهرة اللغة)، وييسر إسماعيل بن حماد الجوهرى[٩] على طريقة جديدة فى جمع اللغة هى الأبجدية العادية، ملاحظا جعل آخر الكلمة بابا، وأولها فصلا، مجددا لهذا النظام ومسهلا له وذلك فى معجمه (تاج اللغة وصحاح العربية) وبذلك قضى على سوء الترتيب، الذى كان موجودا من قبل فى كتب الأصمعى، وابن الأعرابى[١٠] وأبى زيد[١١] وغيرهم.

---

(١) ت ٢١٦هـ. (٢) ت ٢٨٩هـ. (٣) ت٢٤٤هـ.
(٤) ت ٣٢٧هـ. (٥) ت ١٧٠ أو ١٧٥هـ. (٦) ت ١٨٠هـ.
(٧) ت ٢٧٠هـ. (٨) ت ٣٢١هـ. (٩) ت ٣٩٣ أو ٢٩٨هـ.
(١٠) ت ٢٣١هـ. (١١) ت ٢١٥هـ.

كما ناقش هؤلاء العلماء، مادة اللغة، ومشكلاتها النحوية، والمعجمية، وكانت طريقة التقليبات – وبخاصة عند ابن دريد – وكذلك طريقة الاشتقاق، التى سار عليها فى كتبه، لاكتناه أسرار العربية، فاتحة عهد جديد، فى إدراك خصائص العربية، وقد مهد ذلك الطريق الوعر، ابن جنى [1] ومعاصره أحمد بن فارس[2] فقد ألف ابن جنى كتابيه (خصائص العربية، وسر صناعة الإعراب) وأودعهما من أسرار العربية، وأصولها ما بز به السابقين، فهو مؤسس الاشتقاق – بنوعيه – الكبير والأكبر، الذى أرسى على أساسه العربية وبين أصولها، وما يحدث لها من إبدال، وغير ذلك مما يدل على سمو العربية ويبين مبادئها اللغوية.

كذلك ألف ابن فارس معاصره كتابه (الصاحبى فى فقه اللغة) وضمنه كثيرا من المباحث اللغوية الهامة، كنشأة اللغة، وطريقة العرب فى مخاطباتها والاشتقاق وغير ذلك، كما أن معجميه، (المقاييس والمجمل) اللذين رتبهما على الأبجدية العادية تناولا مادة اللغة، وخصائصها، ولاسيما الاشتقاق.

ومنذ نهاية القرن الرابع الهجرى توالى التأليف فى متن اللغة، وفقهها، ولكن دون مناهج مبتكرة أو مادة علمية جديدة فى أغلب الأحيان.

فظهرت فى القرن الخامس مؤلفات لغوية، تحوى بحوثا متعلقة بفقه اللغة، ومتنها، ككتاب (فقه اللغة) للثعالبى[3] ففيه مباحث عن معانى الألفاظ والكلمات المعربة، كما أن فيه كثيرا من مادة متن اللغة، وكتاب (مبادىء اللغة) للإسكافى[4] وهو يتعلق بمتن اللغة أيضا.

وفى المخصص لابن سيدة[5] كثير من بحوث متن اللغة، وفقهها كدلالة الألفاظ متمثلة فى المشترك، والمتضاد والمترادف، والمجاز، والمعرب، وهو يقع فى سبعة عشر مجلدا.

وكذلك مؤلفه (المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة) وهو معجم مهم سلك طريقة التقليبات الصوتية.

---

(١) ت ٣٩٢ هـ. (٢) ت ٣٩٥هـ. (٣) ت ٤٢١هـ.
(٤) ت٤٢١هـ. (٥) ت ٤٥٨هـ.

وفى القرن السادس يؤلف أبو منصور الجواليقى[1] كتابه (المعرب من الكلام الأعجمى) وهو يتناول بعض الألفاظ المعربة، وفى مقدمته بعض شروط التعريب وأماراته ونشأته.

وإلى جانب ذلك ظهر معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى[2] ويتميز بأنه يفصل بين المعانى الحقيقية، والمجازية.

وفى القرن السابع ألف ابن منظور الأفريقى[3] (لسان العرب) جامعا معظم مادة اللغة.

ثم ظهر فى القرن العاشر (المزهر فى علوم اللغة) للسيوطى[4] وهو مرجع مستفيض فى بحوث اللغة، وفقهها كدلالة الألفاظ، والأصيل والدخيل والصحيح والضعيف، والقلب والإبدال، وغير ذلك من المباحث.

وفى القرن الحادى عشر يؤلف الشهاب الخفاجي (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) وفيه كثير من الكلمات المعربة والدخيلة، كما نبه على بعض شروط التعريب، وأماراته.

ومعظم هذه المؤلفات يعتمد على جمع آراء السابقين، لكنها - على كل حال - دراسة مفيدة، إلى جانب ما يبدو لأصحابها من آراء مدعمة بالكثير مما ورد فى كتب السابقين.

ولما انطفأت شعلة العلم، بانهيار الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ وسقوط الأندلس سنة ٨٩٧هـ على يد الفرنجة، نزح كثير من العلماء إلى مصر، والشام وازدهر العلم هناك، لكن عهد بنى عثمان قضى على جذوة العلم، وأخمدها، لاهتمامهم بلغتهم التركية، ومحاولة إضعاف العربية.

فلما جاءت العصور الحديثة، واتصل العرب بالأفكار الغربية عن طريق البعثات وانتشار العلوم، وظهور الصناعات ووسائل الإعلام، كالإذاعة وغيرها وظهور فن الطباعة نهضت اللغة العربية، وأنشئت المجامع اللغوية فى مصر،

---

(١) ت ٥٣٩هـ.
(٢) ت ٥٣٨هـ.
(٣) ت٧١١هـ.
(٤) ت ٩١١ هـ.

والعراق وسوريا، وظهر للمحدثين اتجاه ينم عن ثقافتهم واطلاعهم على ما استحدث فى علم اللغة، كأحمد فارس الشدياق فى كتابه (سر الليال فى القلب والإبدال) ففيه يعالج نظرية جديدة فى دوران المادة حول معنى واحد، والعلاقة بين أصوات الكلمات ومعانيها إلى غير ذلك.

وكذلك بحوث الأب أنستاس الكرملى فى كتابه (نشوء اللغة العربية) الذى دافع فيه عن ثنائية اللغة، وظهر نشاط المشتغلين بالدراسات اللغوية فى الجامعات العربية. ولا تزال البحوث تجد كل يوم(1).

صلته بالدراسات الاجتماعية والتاريخية والنفسية:

إن الدراسات اللغوية التى نحن بصددها، لها قواعدها، ونظمها، التى ترتكز عليها، والتى لاغنى عنها، فى بيان جوهر اللغة، واتجاهاتها، وأسرارها وهى تلك القواعد التى تصف اللغة، وصفا ذاتيا واقعيا لا اتجاها فلسفيا بحتا، ولذا فإن اللغة فى نظر الباحثين فى هذا الفن، ظاهرة اجتماعية، لها كل ما للظواهر الاجتماعية من قوانين، وقد ثبت ذلك من دراسات العصر الحديث، ولذا فإن للعلوم والدراسات الاجتماعية صلة قوية بدراسات (فقه اللغة)، فبحوث هذا العلم تعتمد – فى صحة نتائجها – على هذه العلوم الاجتماعية.

فدراسة الأصوات اللغوية – مثلا – تحتاج إلى دراسة البيئة، والمجتمع الذى تنتشر فيه اللغات لمعرفة طبيعة هذه الأصوات، ووظائفها من خلال الحياة الاجتماعية التى يعيش عليها أفراد هذا المجتمع، كما أن طبيعة البيئة الجغرافية وتقلب الأحوال الجوية عليها يعطى انطباعا خاصا لدراسة تلك الأصوات، وتوجيهها، فالشعب المثقف له طريقته النطقية، والشعب البدائى له كذلك طريقته الخاصة فى النطق كما أن طبيعة البيئة الجبلية تختلف عن البيئة السهلية، وبلاد الصناعة غير بلاد الزراعة، وهكذا.

ودراسة الأصوات – كذلك – تحتاج إلى علوم أخرى غير العلوم الاجتماعية، كالعلوم الطبيعية، والتشريح؛ إذ إن الصوت الإنسانى يصدر من اتصال أعضاء النطق بعضها ببعض، والصوت – فى علم الطبيعة – هو الأثر السمعى الذى

---

(1) انظر تفصيلا لذلك فى كتابنا « علم اللغة بين القديم والحديث » ص٣٢ ومابعدها.

يصدر عن احتكاك جسم بآخر، كما أن الهواء هو الوسط الذى ينتقل فيه الصوت من مكان لآخر، وطبيعة هذا الوسط تتحكم فى طريقة نقل الصوت، وضوحا أو غموضا سرعة أو بطئا، كما أن أعضاء النطق عند الإنسان وهى الرئتان والقصبة الهوائية والحنجرة والفم كلها تتحكم فى خروج الصوت، وقوته، ودراسة هذه الأعضاء تحتاج إلى علم التشريح ليوضح وسائل قوتها، ودقة عملها وما يعوقها عن العمل وكذلك الأذن التى هى أداة استقبال الصوت، فى حاجة إلى بعض المعلومات، من التشريح لبيان وظائف أجزائها، وقيمتها فى سماع الأصوات.

وهنا - أيضا - نلحظ أن دلالة الألفاظ محتاجة إلى معرفة العلوم الاجتماعية، والنفسية، على السواء، لأن الارتباط بين اللفظ ومعناه حادثة اجتماعية، ثم إننا نلحظ أنه لا يستقر على حال بل يتطور من عصر إلى آخر، فما سبب هذا التطور والاختلاف؟. إن ذلك محتاج إلى دراسة التاريخ ومراحله وآثاره كما نعلم من تاريخ الإسلام، وإماتته بعض الألفاظ الجاهلية، وإحيائه بعض الألفاظ الإسلامية، ولا ريب أن البيئة الجغرافية لها آثارها فى معانى الألفاظ.

وكذلك فإن الدراسات الحديثة أثبتت أن حالة المتكلم النفسية لها أثرها فى إبراز الأصوات، والتعبير بها عن المعانى المختلفة، فهى أصوات فيها وضوح، وأناة عند الواثق بنفسه، وتتصل بمعناها اتصالا وثيقا، لا التواء فيه، على حين أنها مزعزعة، ملتوية، لايبرز معناها عند سوء الحالة النفسية.

ولا ريب أن (علم فقه اللغة) يشتمل على المقارنات اللغوية، ودراسة التاريخ اللغوى، وقد نشأت - كذلك - علوم فى الغرب عرفت بعلم (القواعد المقارن) وعلم (القواعد التاريخى) ومما لا مراء فيه أن هذين العلمين، وبحوثهما تحتاج إلى علم التاريخ ومعرفة البيئة الاجتماعية للظاهرة اللغوية، المدروسة[1].

وهذا يؤكد صلة (فقه اللغة) بما وصل إليه علم الاجتماع وعلم البيئة، وعلم النفس، من قواعد وقوانين تخدم الدراسات اللغوية، وتبرهن على صحتها.

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا «علم اللغة بين القديم والحديث» ص٧٥ ومابعدها.

الباب الأول : اللغة الإنسانية الأولى

- مذاهب العلماء فى نشأة اللغة.
- أىُّ الأجناس أسبق: الأسماء أو الأفعال أو الحروف؟

تمهيـــد :

ثبتت ضرورة اللغة للإنسان – منذ نشأته – إذ لابد له من أداة يعبر بها عما يريد، وقد ارتقت تلك الأداة إلى حد استخدام الأصوات، التى صدرت من جهاز النطق الدقيق عنده وهو يستخدم هذا الجهاز منذ خلقه الله، وما صدر عنه من أصوات كونت بطريقة خاصة، كانت صدى لتجاربه، وما مر به من أمور، وكان لها قواعدها التى اتبعها، وسار على نهجها، وكذلك مفرداتها التى استمد منها مادة الكلام، ومعانيها التى تم استخدامها فى إطار البيئة التى نشأ فيها والحاجات التى تطلبتها حياته، فى هذا الأوان.

ولا ريب أن أبا البشر آدم – عليه السلام – قد نزل إلى الأرض، فى حقبة من الزمان وكانت له لغته التى تفاهم بها مع بنيه وقومه، وتلقى بها الوحى من الله عز وجل، وقد حكى القرآن الكريم جانبا كبيرا من الحوار الذى دار بينه وبين الملائكة وسبب استخلافه فى الأرض، وكذلك حديث الله تعالى معه، والوحى إليه، وكان هذا مثار جدل بين الباحثين فى نشأة اللغة الأولى، ويحكى السيوطى فى المزهر بعض هذه الآراء.

وحول لغة الإنسان الأولى اختلفت الآراء، وكل منها يثبت وجهة نظر خاصة، قامت على تفكير معين، وأدلة ارتآها أصحابها مناسبة لهم، ومؤيدة لقصدهم.

وقد اعتمد كثير من أصحاب هذه الآراء، على نظريات فلسفية، وأدلة غير واقعية، أثبت البحث الحديث عدم نضجها أو صحتها.

وفسرت بعض الآراء نشأة اللغة الأولى بناء على دراسة الظواهر اللغوية، والمؤثرات عليها، فوصلت إلى نتائج تحتمل الصدق.

والذى سبب تشعب الآراء – كما سنرى فى هذا الباب – هو عدم قيام الدليل الأكيد على الطريقة التى نشأت بها لغة الإنسان الأول، فلم يأت الوحى بذلك على لسان نبى، مؤكدا نشأتها بهذا الطريق أو ذاك، ولم تأت كتب تاريخية معتمدة ببيان كيفية النطق الأول للإنسان، ولم ترد تجارب معينة أو تسجيلات صوتية قديمة تثبت ما خفى علينا من أمر هذه اللغة الأولى.

ومن هنا يعد البحث فى نشأة اللغة الأولى (ميتافيزيقيا) - غيبيا - يعتمد على الحدس والتخمين، لكننا لا نرى مانعا من إثارة هذا البحث، - وإن كان لايزال غامضا - فإن البحوث الحديثة تتوالى فى الكشف عن أسرار الكون وخفاياه، وربما كشفت التجارب الحديثة والمعلومات التى تتأكد لنا كل يوم، عن جديد فى هذا البحث، يؤيد الرأى الذى يستحق القبول.

وسنعرض - بناء على ذلك - للآراء التى قيلت فى نشأة اللغة الإنسانية الأولى، قديما وحديثا ونناقشها - كما نرى - على ضوء ما تتيحه المناقشات العلمية المبنية على الحقائق، والأدلة الصحيحة، بعيدين عن الهوى، والتعصب ضد أى منها.

وبجلاء الحقائق للعيان يبدو ما نميل إليه من رأى تدعمه البراهين والحجج السليمة.

* * *

مذاهب العلماء فى نشأة اللغة

للعلماء فيها مذاهب، أهمها:

المذهب التوقيفى:

يرى جماعة من الباحثين، أن اللغة وحى من عند الله، والقائلون بهذا الرأى من الفلاسفة، واللغويين قديما وحديثا، فمن الفلاسفة (هيراكليت)[1] وأبو الحسن الأشعرى ودبونالد، وقد نسب هذا الرأى لأفلاطون، ومن اللغويين أحمد ابن فارس وأبو على الفارسى.

وقد فسر هذا الرأى بالأوجه التالية:

(أ) أن الله تعالى لقن آدم عليه السلام، أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات التى وجدت إلى الآن، والتى ستوجد إلى قيام الساعة، كالعربية، والإنجليزية، والفارسية وغيرها.

(ب) أن الله تعالى علم آدم أسماء الكائنات من حوله، من دابة، وأرض، وسهل وجبل، وأشباه ذلك.

(جـ) أن الله تعالى علمه كيفية تقطيع الأصوات، وتكوين الكلمات، فى جميع اللغات.

(د) أن الله تعالى علمه من اللغات ما احتاج إليه فى زمانه.

ثم إن أولاده لما كثروا تفرقوا فى الأرض، فتكلم كل منهم بلغة من تلك اللغات ونسى ما عداها.

أدلة هذا المذهب:

البرهان على أية قضية من القضايا إما عقلى، أو نقلى، وقد زاد العلم الحديث البحث التجريبى، والأدلة التى ساقها أرباب هذا الرأى تكاد تكون نقلية، وإن كان بعضها قد عرض على أنه دليل عقلى وسنعرض لكلا النوعين:

(أ) الأدلة النقلية:

للمسلمين أدلة اقتبسوها من القرآن الكريم، و لغيرهم أدلة مقتبسة من التوراة.

---

(١) فيلسوف يونانى ولد عام ٥٧٦ وتوفى ٤٨٠ ق.م.

فالآيات القرآنية التى اعتمد عليها المسلمون هى:

١- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] فالأسماء كلها معلمة، من عند الله، والاسم: ما كان علامة على مسمى، فدخل فيه كل كلمات اللغة من أسماء وأفعال، وحروف، وفسر النحاة الأسماء فى الآية بما اصطلح عليه عندهم، واكتفى بها دون الأفعال والحروف لما لها من القوة والأولية فى النفس، والرتبة، كما أنه لابد لكل كلام مفيد من الاسم وليس كذلك الأفعال والحروف.

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[النجم: ٢٣] فقد ذم سبحانه وتعالى عبدة الأصنام على تسميتهم لها دون وحى إلهى، وذلك يقتضى كون غيرها من الأسماء توقيفيا.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢] فالمراد بالألسنة: اللغات، والألسنة اللحمانية غير مراده، لعدم اختلافها، ولأن بدائع الصنع فى غيرها أكثر.

واعتمد غير المسلمين من الفرنجة، على ما ورد فى سفر التكوين الإصحاح الثانى الفقرتين ١٩، ٢٠ «والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول، وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء، لجميع الحيوانات المستأنسة، ولطيور السماء، ودواب الحقول».

الرد على هذه الأدلة:

١- الآية الأولى لا تصلح دليلا لهم، إلا إذا كانت (علَّم) بمعنى (لقَّن ووقَّف) و(الأسماء) بمعنى (الألفاظ) ونحن نقول لهم: إن هذا التفسير لا يتعين، لجواز أن يكون (علَّم) بمعنى (أقدر) و(الأسماء) بمعنى (صفات الأشياء ونعوتها وخواصها) وإذا كان هذا التفسير محتملا - مع أنه فى رأينا أقوى من الأول - سقط الاستدلال بهذه الآية، لأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال، كما يقول علماء المنطق.

٢- الآية الثانية، ليست ذما لهم، لاختراعهم أسماء لبعض الأصنام بل لعبادتهم لها، واعتقاد أنها آلهة، من دون الله، وقد سماها الله بتلك الأسماء

فقال ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح: ٢٣] ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ﴾[النجم: ١٩ - ٢٠].

٣- الآية الثالثة، لا يتعين أن يكون المراد باختلاف الألسنة اختلاف اللغات، فلم لا يكون المراد اختلاف الألسنة اللحمانية نفسها، أو اختلاف مخارج الحروف، أو نغماتها، وأصواتها، لدى الشعوب والأفراد..؟ فلا تصلح الآية دليلا لهم.

٤- أما ما ورد فى سفر التكوين من النص السابق فلا يدل على شيء مما يقول به أصحاب تلك النظرية بل هو دليل عليهم فآدم هو الواضع للأسماء كما هو صريح النص.

(ب) الأدلة العقلية:

١- إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم (أى لهجة قريش) والاستشهاد بأشعارهم، و لو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا، لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق.

٢- أن علماءنا الأوائل أدركوا أن اللغة أمر توقيفي، لا يجوز لأحد أن يزيد فيه من عنده، «فلقد بلغنا عن أبى الأسود الدؤلى أن امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الأسود، فسأله أبو الأسود عنه، فقال: هذه لغة لم تبلغك فقال له يا ابن أخى، إنه لا خير لك فيما لم يبلغنى» فعرفه بلطف أن الذى تكلم به مختلق.

٣- لم يبلغنا أن قوما من العرب، فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء، مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم، وقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر فى العلوم الشريفة، ما لا خفاء فيه، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم.

٤- لو كانت اللغات اصطلاحية، لا حتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليها الكلام، ويلزم إما الدور أو التسلسل، فى الأوضاع وهو محال، فلابد من الانتهاء إلى التوقيف.

٥- الكلام أجل من أن يبدعه الإنسان، وكيف يبدعه، وهو إنما يفكر بألفاظ متخيلة، يناجى بها نفسه فالفكرة متوقفة على الكلام، وإذا كان الطفل لا يفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه، فكذلك الإنسان الأول لا يفكر إلا بعد أن يكلمه الله.

فاللغة – بما فيها من قوة بيان، وروعة سحر، وحسن نظام – تدل على أنها من صنع الإله، لا من صنع الإنسان، وهذا ما أشار إليه ابن جنى بقوله «واعلم – فيما بعد – أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث، عن هذا الموضع، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى مختلفة جهات التغول على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر.. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجل، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه، وأنها وحى»[1].

الرد على هذه الأدلة:

١– أجيب عن الدليل الأول، بأن الاحتجاج يختص باللهجة القرشية، الموحدة التى هى عصب القومية العربية، ولا صلة لهذا بنشأة اللغة الإنسانية.

٢– وعن الثانى والثالث، بأن الواقع بخلاف ذلك، فألفاظ اللغة العربية – كغيرها من اللغات الأخرى – دائمة التغيير، فألفاظ تموت وأخرى تولد، وثالثة تتجدد فى صيغها، ومعانيها، كلما مرت عليها، عوامل الحياة والتطور.

٣– وبعد الإسلام، ماتت ألفاظ، وتراكيب، وعادت أخرى إلى الحياة وتطورت بعض التراكيب، والمفردات، ولايزال التجديد اللغوى مواكبا لركب الحضارة والصناعة، مما يدل على أن اللغات من صنع الإنسان، لأن الموحى به لا يتغير، ولا يتبدل.

٤– وعن الرابع، بأن الاصطلاح لا يستدعى تقدم اصطلاح آخر، بدليل تعليم الوالدين للطفل، دون سابقة اصطلاح ثمة.

٥– وعن الخامس، بأن الفكرة تتوقف على الكلام النفسى، لا الكلام الصوتى الذى نتحدث عنه، ونحن نتكلم عن اللغة الإنسانية الأولى، وهى – بالطبع – لم تكن تبلغ درجة الإبداع التى وصل إليها الكلام فى العصور المتأخرة بعد أن تطورت اللغات وارتقت ذروتها[2].

---

(١) الخصائص: ١/٤٧.

(٢) انظر: الصاحبى (باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح) ص٦ – ٩، والمزهر ١/١٧ – ٢٦.

المذهب الوضعي:

ذهب فريق من الباحثين إلى أن الإنسان، هو الذى وضع ألفاظ اللغة الإنسانية بجميع فروعها التى يتكلم بها الناس، فى شتى بقاع الأرض، من عربية، وعبرية، وفارسية، وانجليزية، وفرنسية، وغيرها من فروع اللغات، فهو مخترعها، وصانعها، بفكره الخاص وحسب حاجته فى هذه الحياة.

وقد قال بذلك فلاسفة ولغويون، فمن الفلاسفة أبو هاشم الجبائى من المتكلمين العرب، ومن الغربيين، قديما، ديمو كريت، وحديثا، آدم سميث، وريد، ودجلد ستيورات، كما ذهب إليه عدد كبير من علماء فقه اللغة العربية كالفارسى.

وطريقة المواضعة – كما تصورها أصحابها، وكما حكاها ابن جنى – هى «كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة، فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل و احد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره ويغنى بذكره عن إحضاره، . . . بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره، كالفانى، وحال اجتماع الضدين، على المحل الواحد، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة، والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم، فأومئوا إليه وقالوا إنسان إنسان، فأى وقت سمع هذا اللفظ، علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد. عين. رأس. قدم، أو نحو ذلك، فمتى سمعت هذه اللفظة، من هذا عرف معنيها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك من بعد ذلك، أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذى اسمه إنسان، فليجعل مكانه مرد، والذى اسمه رأس فليجعل مكانه: سر وعلى هذا بقية الكلام، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنتقل ويولد منها لغات كثيرة، من الرومية، والزنجية، وغيرهما»[1].

ولهؤلاء أدلة نقلية وعقلية:

١ – من أدلتهم النقلية:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وهذا يقتضى تقدم اللغة على البعثة.

---

(١) الخصائص ١/٤٤، ٥٤.

٢- ومن أدلتهم العقلية:

(أ) الألفاظ ومدلولاتها، تتغير، فما يسمى باسم يمكن أن يطلق عليه اسم آخر، وينقل اسمه الأول إلى غيره، فما يسمى (حديدا) يمكن أن يوضع له اسم آخر، ويجعل اسم (الحديد) لغيره وهكذا، فاللغة لا تحدد معانى الألفاظ بطريقة عقلية، أو منطقية وذلك نقص فيها فلا يليق بالله الكامل أن يأتى الأمور التى تتصف بالنقص.

(ب) كون اللغة من عند الله، يقتضى إيماء، وإشارة، وذلك محال بالنسبة له تعالى، لأنه يحتاج إلى جارحة، وهو منزه عنها.

وبهذا يثبتون أن اللغة من عند البشر، ومن مواضعتهم، واصطلاحهم.

الرد على أدلتهم:

١- أجيب عن الآية الكريمة، بأنها ليست نصا، فى تقدم اللغة، بطريق الاصطلاح على البعثة، لجواز أن تكون اللغة موجودة قبل الرسول، بطرق أخرى، غير المواضعة، كالوحى أو محاكاة الأصوات، ولجواز أن يكون آدم قد أوحى الله إليه باللغة مع الرسالة، فعلمها لقومه، ثم بلغهم رسالته، فتكون اللغة متقدمة على الرسالة بهذا المعنى.

٢- كون الألفاظ، ومدلولاتها، لا تحددها قواعد منطقية أو عقلية وذلك نقص فيها، فلا تليق بجلال المولى عز وجل أن يكون واضعا لها، أو موحيا بها، ينفى كونها من عند الله، ولكن لا يثبت القول بوضع البشر لها، فمن الجائز كونها ناشئة عن محاكاة الأصوات أو وسائل أخرى، اجتماعية سنتحدث عنها.

٣- القول بمواضعة البشر، بناء على استحالة الإشارة، والإيماء من الله، لأنه ليست له جارحة، يرد عليه بما رد على سابقه، على أن ابن جنى رد هذا الادعاء بأن ذلك يصح من الله وإن لم تكن له جارحة، بأن يصدر الصوت من خشبة، أو غيرها، مشيرا إلى ما يريد تعليمه، ووضع أسماء له، فتقوم الخشبة فى هذا الإيماء وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم.

٤- كيف كان هؤلاء الحكماء يتفاهمون عندما اجتمعوا لوضع اللغات؟ إذ لابد لهم من لغة صوتية يتفاهمون بها، وهذه هى موضوع البحث، وإلا فإذا لم تكن لهم لغة، فكيف كانوا يتفاهمون؟ وكيف استطاعوا أن يضعوا كل اللغات،

كـاملة، مع أن العـقل يأباه، وبخـاصـة فى تلك الأزمـان، الأولى التى لـم يكن الإنسان فيها، على درجة من التقدم والمعرفة، تسمح له بذلك.

٥- هذه النظرية تتعارض مع النظم الاجتماعية، للشعوب المختلفة، على أنه من المستبعد وضع الألفاظ للأمور المعنوية، التى تتعذر الإشارة إلى مدلولاتها.

المذهب الاجتماعى:

تفترض هذه النظرية، أن الإنسان الأول، قد التقى مع إخوانه من البشر فى أعمال تحتاج إلى جهد كبير يبذل منهم متكاتفين على النظام الذى نشاهده فى عصرنا الحديث لجماعة من العمال يقومون بعمل شاق ويصدرون أصواتا تعينهم على عملهم مثل (هيلا هوب) (هب ليصا) ونحو ذلك.

فالإنسان الأول خفف عن نفسه عبء العمل، فى مثل هذه الظروف بتنفس عميق، أثر فى أوتاره الصوتية تأثيرا نجم عنه هزات (ذبذبات) صوتية لم يكن لها معنى - فى أول الأمر - ثم صار لها معنى - بعد ارتباطها بالعمل - وأصبحت وسيلة للتفاهم من بعد.

وقد اعترض على هذه النظرية بأنه يترتب عليها أن الإنسان لم ينطق باللغة .،منذ وجوده، بل مر عليه زمن طويل قبل أن ينبس ببنت شفة، وأنه نطق بالأصوات المعبرة الواضحة، دفعة واحدة عندما التقى بغيره.

وليس من المعقول أن ينطق الإنسان بأصوات متكاملة، لم تتدرب عليها أعضاؤه الكلامية، من قبل، بل الذى يتمشى مع المنطق أن يبدأ بأصوات مبهمة، أو يقل وضوحها ثم تنمو وتتطور، شيئا فشيئا، حتى تصل إلى درجة الوضوح الكاملة على نحو ما نشاهده الآن تبعا لتدرج تلك الأعضاء النطقية فى النمو والاكتمال.

مذهب الغريزة الكلامية:

يصور هذا المذهب أن الإنسان - كما هو معروف - قد ركب فى طبيعته غرائز كثيرة مثل (غريزة التعبير الطبيعى عن الانفعال) وتحدث ردود فعل عنده نتيجة لنوع الانفعال الذى يعتريه، فالغضب - مثلا - أوالحزن أوالخوف يؤدى إلى حدوث انقباض فى أسارير الوجه، أو البكاء، والسرور - مثلا - يؤدى إلى انبساطها، أو الضحك أو نحو ذلك، مما يناسب هذا اللون من التأثر الطبيعى،

للإنسان عند وجود مسبب له فى أحوال الإنسان المختلفة، وحاجاته المتعددة، ومواقف الآخرين منه وهذه الغرائز متحدة عند جميع البشر، وما ينجم عنها.

وتبعا لذلك فالإنسان الأول، كان مزودا بغريزة خاصة تعرف باسم (الغريزة الكلامية) عبر بها عن أغراضه المختلفة، محسوسة أو معنوية، وتلك الغريزة متحدة النوع عند جميع الأفراد، ولذلك كانت اللغة الإنسانية الأولى فى تعبيراتها متشابهة لديهم واستمر الإنسان على ذلك حتى نشأت اللغة الأولى ثم بعد أن لم يعودوا فى حاجة إلى تلك الغريزة انمحت، ونشأ بعدها الكلام الصناعى.

وقد قال بهذا الرأى جماعة من الفلاسفة المحدثين منهم: العلامة الألمانى مكس مولر، والعلامة الفرنسى رينان.

دليل هؤلاء:

١- أن الباحثين اكتشفوا أن للغة الهندية الأوروبية خمسمائة أصل.

٢- تدل تلك الأصول على معان كلية.

٣- لا صلة بين تلك الأصول الخمسمائة. ومعانيها.

وبناء على ذلك:

(أ) يبطل مذهب التوقيف لأن التوقيف اللغوى يتطلب كمال اللغة فتشتمل على المعانى الكلية، كما تشتمل على المعانى الجزئية، وهذه الأصول تدل على الأولى فقط، فلا توقيف.

(ب) يبطل مذهب المواضعة، لأن المتواضعين، لابد لهم من وسيلة يتفاهمون بها، فإذا قلنا: إنها الإشارة فإن هذه الأصول تتعارض معها، لأنه لا يمكن الإشارة إلى معان كلية، وإنما يشار إلى المحسوسات وإذا قلنا: إنها كانت لغة صوتية فليس بمعقول، لأن المفروض أنهم اجتمعوا ليضعوا هذه اللغة، لأنها لم تكن موجودة من قبل.

(جـ) يبطل مذهب المحاكاة للأصوات الطبيعية، وأصوات الحيوان، الذى سنتكلم عنه، بناء على عدم وجود صلة بين الألفاظ التى هى الأصول المذكورة وبين معانيها، وذلك يناقض تلك النظرية التى تنبنى - أساسا - على وجود هذه العلاقة.

وإذا بطلت تلك المذاهب لم يبق إلا أن يكون الكلام قد نشأ عن الغريزة الكلامية.

وهذا المذهب بنى على أساس غير سديد :

(أ) لا نسلم لهم بأن تلك الأصول الخمسمائة، تمثل اللغة الإنسانية، الأولى إذ لا دليل على ذلك وكل ما تثبته أنها أصول للغة الهندية الأوروبية (السنسكريتية) ولسنا نبحث عنها، وإنما نبحث عن اللغة الأولى، التى تعد أصلا لجميع اللغات وهى لغة الإنسان الأول.

(ب) لا يمكن أن تمثل تلك الأصول الخمسمائة، اللغة الإنسانية الأولى لأنها تدل على معان كلية، وإدراك المعانى الكلية يحتاج إلى عقلية راقية، لم يصل إليها الإنسان إلا بعد أن قطع طريقا طويلا، من التقدم، فقد كان لا يعبر إلا عن المحسوسات، ثم تدرج منها إلى المعقولات، على حد ما نشاهده فى الأمم البدائية الموجودة الآن.

فقد أجمع علماء (الأنتوجرافيا) الذين قاموا بدراسة هذه الأمم، بأمريكا واستراليا، وافريقيا، وغيرها على ضعف عقلياتها بهذا الصدد، وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها، ففى لغة الهنود الحمر - مثلا - يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء، وهكذا، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم.

وفى لغة الهورونيين[1]، يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ولكن لا يوجد للفعل نفسه، لفظ يدل عليه فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز، ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقة باللحم وثالث فى حالة تعلقه بالزبد، ورابع فى حالة تعلقه بالموز، وهكذا، ولكن لايوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل، على العموم، أو الأكل فى زمان ما[2].

ولما كانت تلك الأصول، تدل على معان كلية، فلا يعقل أن تكون أصلا للغة الإنسانية الأولى، وإنما هى مرحلة متأخرة، للغة حديثة، مرت بها أزمان متطاولة، فى الحضارة والتقدم، على أن بعض العلماء ينفى أن تكون أصلا لأية لغة إنسانية، ويعدها أصولا افتراضية بحتة.

(جـ) عدم ارتباط هذه الأصول بمعانيها لا ينفى نظرية المحاكاة فمن الجائز

---

(١) من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية. (٢) علم اللغة: د. وافى ص٩٤.

أنها كانت حال وضعها الأول، مرتبطة بمعانيها ثم خفى هذا الارتباط فيما بعد، نتيجة تغير البيئات، والأزمان، وعوامل الحياة الاجتماعية، والنفسية، وغيرها.

(د) هذه الغريزة الكلامية غامضة، لا ندرى كنهها، ولا كيفية انتقال الكلام، منها إلى طريقته الصناعية، ولماذا اختص بها الإنسان الأول دون من أتى بعده من بنى آدم إلى الآن؟

المذهب الطبيعى:

فسر بعض المفكرين، نشأة اللغة، على أنها نتاج طبيعى، صدر عن انفعالات الإنسان نفسه، أو المؤثرات الخارجية عليه، أو محاكاة أصوات الحيوان، والأشياء الموجودة بالكون، وقد اتخذت تلك الاتجاهات صورة نظريات مستقلة فى الحديث عن مبدأ اللغة، ولكن الناظر فى جوهرها يتبين دورانها حول معنى واحد، هو طبيعة الكائنات، التى صدر عنها، من انفعالات أو حوادث خارجية أثرت فى الإنسان، أو أصوات حيوانية، أو غيرها حاكاها الإنسان الأول، ونحن — على الرغم من اندماجها تحت (الاتجاه الطبيعى العام) — سنشرح كل جانب منها على حدة.

(أ) صدور اللغة عن أصوات الانفعالات الإنسانية:

يذهب فريق من العلماء إلى أن اللغة الإنسانية نشأت عن أصوات الانفعالات الطبيعية التى صدرت عن الإنسان فى حالات الفرح، أو الحزن، أوالدهشة، أو التعب أو الألم، أو نحو ذلك.

فالإنسان الأول نطق باللغة فى صورتها الأولى على هيئة انفعالات كتلك التى نشاهدها عند الشعوب مثل قول العربى (أف) حالة الضجر، أو (أوه أو آه) حالة التعب أو (أه) حالة الدهشة ، وقول الألمانى au والفرنسى (ahi) والإنجليزى (oh) أو (ow)عند الدهشة.

ثم تطورت تلك الأصوات وانتقلت، إلى معان اقتضتها الحاجات الإنسانية، ثم ما لبثت أن تفرعت، وتعددت صورها، حتى وصلت برقى أعضاء النطق الإنسانى إلى ما وصلت إليه بوجود اللغات المعروفة.

وقد فسر نشأة اللغة عن الانفعالات بأن (الشعور بالاحتقار أو الاشمئزاز —

مثلا - يصحبه - عادة - ميل إلى النفخ، من الفم، أو فتحات الأنف، وهذا يؤدى إلى إبراز أصوات خاصة مثل (بوه) pooh أو (بش) pish وفزع الإنسان أو إصابته بدهشة مفاجئة، يصاحبه فى الحال، ميل إلى بذل جهد، طويل لفتح الفم باتساع، وذلك لسحب شهيق سريع، طويل، وعندما يتبعه زفير كامل فإن الفم، يقفل إلى حد ما، وتمتط الشفاه، وصورة الفم بهذا الشكل - إذا بدل الصوت - تنتج صوتا قد يعبر عنه بصوت (أو) (o) وهذا الصوت ونحوه قد يتطور على حسب الموقف إلى (أوه) oh أو (آه) ah أو آخ.. إلخ[١].

ويبعد أن تكون تلك الأصوات أساسا للغات البشرية:

١- هذه الأصوات لا تحدث إلا عند العجز عن الكلام، وهى بصفاتها التى تخرج عليها، وباشتمالها على عناصر صوتية معينة، مثل أصوات اللين المهموسة[٢] تبعد كثيرا عن الكلام المتعارف عليه، مما يجعل عدها أساسا له أمرا صعبا.

٢- هى أصوات فجائية، اضطرارية، فى حين أن الكلام يصدر عن إرادة الإنسان.

٣- هذه الأصوات مختلفة، لدى الشعوب، وقد ذكرنا فيما سبق كيفية التعبير عن الدهشة عند العربى، والألمانى، والفرنسى والإنجليزى، وهذا يقتضى تعدد اللغات الأولى للإنسان، لا أن تكون لغة واحدة كما هو المنطق المعقول.

٤- لم يقم دليل واقعى أو تاريخى، على أن اللغة الإنسانية نشأت من تلك الأصوات الانفعالية كما يقول سابير.

(ب) صدور اللغة عن المؤثرات الخارجية:

يرجع بعض العلماء منشأ اللغة، إلى الحوادث الكونية، التى تحيط بالإنسان فكل منها، يقتضى منه، تصرفا، خاصا، وكل تصرف، يحتاج إلى ألفاظ، تعبر عنه، والحوادث متعددة، وتختلف فى طبيعتها، وأشكالها،وأوقات حدوثها، مما يقتضى هو الآخر، اختلاف الألفاظ التى تصدر عن الإنسان فى مناسباتها المختلفة،

---

(١) قضايا لغوية ١١٨ ، ١١٩ و(أخ) كلمة تقال عند التأوه وهى محدثة أو مولدة، انظر المزهر ١ / ٣٠٥.

(٢) دلالة الألفاظ د. أنيس ٢٠.

وقد قاسوا ذلك على الأشياء المحسوسة، كاصطدام الأجسام فالطرق على الحديد، أو النحاس، أو الخشب، ينجم عنه أصوات مختلفة، تبعا لنوع الرنين المعين الذى يصاحب طرق كل من تلك الأجسام المختلفة فى طبيعتها، وهكذا فلكل حادثة رنين خاص، ووقع معين على الإنسان، يختلف عن غيرها من الأحداث تبعا لاختلاف طبيعة تلك الأحداث، وظروفها فينشأ عن ذلك تعدد الألفاظ والأصوات المركبة منها، لتكون مشابهة لتلك الحوادث، التى صدرت عنها.

فاللغة نشأت عن ذلك الرنين الذى صاحب الأحداث، التى مرت بالإنسان على اختلاف أنواعها.

وهذا الرأى غير مقبول، لغموضه، ونزعته الفلسفية، التى لا نعرف منها، كيف تم وضع الألفاظ للأحداث وكيف تعددت، وتطورت حتى وصلت إلى النمو اللغوى، الذى نراه.

(جـ) صدور اللغة عن محاكاة الأصوات:

ذهب إلى هذا الرأى كثير من فلاسفة العصور القديمة، ومن مؤلفى العرب فى العصور الوسطى، ومنهم الخليل بن أحمد، وفيلسوف العربية، ابن جنى، ومعظم المحدثين من علماء اللغة، وعلى رأسهم العلامة وتنى وسبنسر، وأحمد فارس الشدياق.

وملخص هذا الرأى «أن كل المفردات، قد خرجت من صيحة تشبه نباح الكلب، أو من سلسلة من الأصوات، توحى بتمثيل الأشياء، عن طريق المحاكاة»[1]. كما يقول الأستاذ فندريس، أو كما يقول عالمنا ابن جنى «إن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوى الريح وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبى، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد»[2].

وقد حاكى الإنسان أصوات الأشياء، والحيوان، ليدل بالصوت على مصدره أو ما يتصل به، مما يريد الإبانة عنه، ثم مكنته قدراته التى منحه الله إياها، من تقطيع الأصوات، وتكوين الكلمات بعد ذلك، وقد كانت لغته - فى أول الأمر

---

(١) اللغة: ٤١.   (٢) الخصائص ١/٤٦، ٤٧.

– قليلة الألفاظ، والتنوع، وشبيهة بأصوات مصادرها الطبيعية، ثم ارتقت برقى الإنسان، وتعددت أنواع الدلالة فيها، حتى انتقلت من طور المحسوسات، إلى طور المعقولات، وأصبحت وافية بكل ما يحتاجه وكانت – فى أول أمرها – تستعين بالإشارة ثم استغنت عنها بعد رقيها.

وقد اعتمد القائلون بهذا الرأى، على ملاحظات لغوية، تتعلق بالطفل والأمم البدائية:

(أ) فالطفل فى المرحلة التى تسبق الكلام، يحاكى أصوات الأشياء، من حوله ليعبر عن مصدرها، أو عما يريده، بالنسبة لها، فهو يسمى الدجاجة (كاكا) والشاة (ماما) والقط (نونو) وذكر الجاحظ فى كتابه (الحيوان) أن طفلا سئل عن اسم أبيه وكان يسمى كلبا، فقال: (وو وو) والطفل فى تلك المرحلة يستخدم الإشارات المساعدة، ثم يستغنى عنها، شيئا فشيئا بتعلمه اللغة من أبويه، حتى يتقنها، وما الإنسان إلا طفل تاريخى.

(ب) ثبت من دراسة أحوال الأمم البدائية، أن لغاتها، تشبه فى خصائصها ما نحن بصدده، من خصائص اللغة الإنسانية الأولى، ففى هذه اللغات، تكثر المفردات، التى تشبه أصواتها، أصوات ما تدل عليه، كما أن أربابها يستعملون الإشارات اليدوية، والجسمية، أدوات مساعدة فى فهم المقصود وإفهامه للآخرين.

فمثلا «سكان استراليا وأواسط أمريكا الجنوبية يضطرون لنقص لغاتهم عن الوفاء بأغراضهم، لاستخدام الإشارات، فنراهم إذا تكلموا صوتوا، وأشاروا بأيديهم، وأرجلهم، وأعينهم[1]، بل إن بعضهم – كالحيوان الأعجم – يستخدم الإشارات فقط لغة له[2].

(جـ) أول ما يبدو فى كلام الأطفال، وما نلاحظه فى البيئات البدائية، هو التعبير عن المحسوسات، ولا يوجد ما يدل من الألفاظ، على المعانى إلا بعد فترة طويلة، من حياة الطفل، وتقدم تلك الأمم ورقيها، ومن هنا كانت حياة الطفل، والأمم البدائية مماثلة لحياة الإنسان الأول، وما يصدق على هذه يصدق على تلك، خطوة بخطوة، وتطورا بتطور.

---

(١) الفلسفة اللغوية: ١٢.
(٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ١٣.

وقد وجهت إلى تلك الوجهة نقود:

١- تهكم (رينان) الفرنسي، من النظرية قائلا: «ليس من المعقول أو المفهوم، أن الإنسان، وهو أرقى المخلوقات، يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه، وأحط»[١].

٢- تقليد الأصوات - على النحو السابق - يجعل للصوت معنى فى فم المقلد، وفى عقل من يسمعه، وقد كان بلا معنى حال صدوره من الحيوان وغيره.

٣- يسخر (مكس مولر) من النظرية بقوله: «إن نظرية المحاكاة إنما تصلح إذا كنا نتعامل، مع الحيوانات، أو الطيور»[٢].

٤- يعترض (سابير) على هذه النظرية، بأنه لا يؤيدها دليل تاريخى ويقول: إن كلمات مثل: ماء ونهق، لم تنشأ عن الطبيعة، ولكنها من صنع العقل وخطرات الخيال الإنسانى[٣].

٥- ويعد الدكتور كمال بشر تلك النظرية بعيدة - أيضا - لأن لغات بعض الشعوب البدائية، تكاد تخلو خلوا تاما، من مثل هذه الكلمات[٤].

٦- والدكتور محمد المبارك يرى أن تلك النظرية (لا تكاد تثبت للحجة، والدليل ولا تصدق الا فى القليل النادر، من الفاظ كل لغة، ولو صحت هذه النظرية، لما تعددت اللغات، ولتماثلت، أو تشابهت على الأقل، فإن أصوات الطبيعة واحدة)[٥].

ولكن الرأى السائد لدى علماء اللغة، أن تلك النظرية مقبولة، من الوجهة العلمية، والاجتماعية، فهى تتفق مع سنة النشوء، والارتقاء، التى تخضع لها الكائنات، وظواهر الطبيعة، واللغة كائن اجتماعى، ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها، وتتفق وحال الطفل والأمم البدائية، على ما سبق بيانه.

أما الاعتراضات السابقة، فقد أجيب عنها، بما أزال الشبه، وأكد صواب النظرية، والأخذ بها على أنها أرجح الأقوال:

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ١٨، وفقه اللغة د. نجا ٢١.

(٢) فقه اللغة د. نجا ٢١ وقضايا لغوية ١٢١.

(٣) فقه اللغة للمبارك ١٦١.

(٤) قضايا لغوية ١٢٢.

(٥) فقه اللغة للمبارك ١٦٠، ١٦١.

١- ليس بمعيب على الإنسان، أن يقلد الحيوان، فيما يفيد، وطالما قلده فى أشياء كثيرة، وقد حاول - قديما أن يطير، بنفسه، ولما عجز تمكن من الطيران عن طريق اختراع الطائرات ولا عيب في ذلك، وقد قلد ابن آدم الغراب في دفن أخيه حين قتله ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[المائدة: ٣١].

والإنسان لم يكن فى تلك المرحلة، يقتصر على محكاة الحيوان بل كان يحاكى أصوات الطبيعة والأشياء الأخرى، والأصوات التى تصدر عن بنى جنسه.

٢- مهارة الإنسان تظهر فى أنه انتقل بالأصوات المبهمة إلى الدلالة على المعانى وهذه مرحلة أرقى اختص بها الإنسان فهو لم يستعمل الصوت كما يخرج من فم الحيوان، دون دلالة على معنى حتى يعد عيبا، بل عبر به عن مصدره، أو عما يتصل به، فعد ذلك أمرا دقيقا، انفرد به الإنسان.

٣- إن الإنسان تعامل عن طريق المحاكاة مع بنى جنسه، لا مع الطيور والحيوانات فالزئير للأسد، والصهيل للفرس، وغاق للغراب، وهيقم للبحر، وغير ذلك من أسماء الأصوات التى تعرف فى النحو العربى، وورد بعضها فى أشعار العرب، للدلالة على ما يراد منها، بما يعود بالفائدة على الإنسان.

٤- عدم وجود الدليل التاريخى، لا ينفى هذا الرأى، والعذر واضح، فى أن البحث يتعلق بنشأة الإنسان، الأول، الذى لم يكن يعرف التسجيل أو التدوين، فى تلك العهود السحيقة.

٥- وكون بعض الشعوب البدائية، تخلو لغاتها من تلك الألفاظ لا يدل على نفى النظرية، أيضا فإن تلك الشعوب قد مرت بأزمان متطاولة، ولعل لغاتها قد تحولت، وتطورت، وانتقلت ألفاظها إلى معان غير الموضوعة لها، فى أصل نشأتها، مما أبعد تلك الصلة بين الألفاظ، ومعانيها.

وبذلك - أيضا - نفسر قلة هذا النوع من الكلمات، فى بعض اللغات الإنسانية الموجودة الآن، كما أن الدكتور المبارك يعلم أنه لا يمكن اتحاد اللغات البشرية، لأن العوامل الجغرافية، والاجتماعية تحول دون ذلك وقد أثبتت التجارب استحالته.

رأى جسبرسن:

لم تحز كل الآراء، السابقة، فى نشأة اللغة، القبول لدى جسبرسن الدنمركى لأنها تصور الإنسان وقد ظل بلا كلام صامتا فترة طويلة، من الزمن، ولذلك حاول أن يجعل لنفسه رأيا آخر يجعل اللغة نشأت مع الإنسان، منذ بدء حياته الأرضية واختلاطه بغيره، فصورها على الوجه التالى:

١- نشأت اللغة الأولى فى صورة لعب، وغناء، وحب، علي أن الحب كان له دور كبير فيها، وكانت فى ذلك مشابهة لأصوات الطفل، والحيوان، والطير.

٢- كانت - فى بدئها - ساذجة، لسذاجة المتكلمين بها، وكانت تعبيراتها مبهمة، ومعقدة، ثم تطورت وارتقت، بعد ذلك.

وقد وصل جسبرسن إلى هذا الرأى بعد قيامه ببحوث، لغوية، توصل من خلالها إلى نتائج حصل منها على قوانين عامة للتطور اللغوى، وظواهر اللغات البدائية.

وقد قامت بحوثه، على أسس ثلاثة:

(أ) لغة الطفل.

(ب) لغة الشعوب البدائية.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية.

(أ) لغة الطفل:

لاحظ علماء الأحياء التشابه بين أطوار الجنين فى بطن أمه وأطوار الجنس البشرى، على مدى السنين الطويلة، ومن هنا استنتج أن لغة الإنسان الأول توافق لغة الطفل فى أطوارها.

ولكننا نقول: إن المرحلة التى تتشابه فيها حياة الطفل مع الإنسان الأول، هى مرحلة ما قبل الإدراك، لأن الطفل بعد أن يمكنه إدراك ما حوله، يتلقى اللغة عن المحيطين، به من أفراد أسرته، وغيرهم، والإنسان الأول لم يجد من يحاكيه، كالطفل، وبهذا نلاحظ أن المقارنة غير مقبولة.

(ب) لغة الأمم البدائية :

وجد جسبرسن، شبها قويا، بين الأمم البدائية، والإنسان الأول، فى حياتهما العامة، والمؤثرات عليها، ولذلك اتجه إلى أنه يمكن إدراك الملامح العامة للغة الإنسانية الأولى استنتاجا من القياس على لغات تلك الأمم البدائية.

وقد وصل جسبرسن من خلال دراسته إلى الظواهر اللغوية الآتية :

١- ظواهر صوتية :

(أ) كانت تشيع فى اللغات البدائية الأصوات الصعبة، ولذلك نرى التطور اللغوى، يؤدى إلى الخفة، والسهولة، مثل (سدأ) فى العامية المصرية، بدلا من (صدق) فى العربية الفصحى، فالسين أخف من الصاد والهمزة أخف من القاف.

(ب) اعتمدت اللغات البدائية، على النبر والتنغيم، فالكلمة الواحدة، يمكن أن تدل على شيئين، باختلاف موقع النبر، مثل: (محمد جه) فى العامية يكون استفهاما أو إخبارا، والكلمة الانجليزية **Subject** تكون اسما ومعناها (موضوع) حين تكون النبرة على المقطع الأول، وتكون فعلا، ومعناها (يخضع) حين تكون النبرة على المقطع الثانى.

(جـ) مالت اللغات البدائية إلى الغناء.

(د) كثرت الكلمات الطويلة، فى اللغات البدائية، وهى تختفى من كثير من اللغات المتحضرة.

٢- ظواهر نحوية :

توصل جسبرسن، من دراساته، إلى أن اللغات البدائية، ليست لها قواعد مطردة تسير وفقها، فى نحوها وصرفها، تبعا لأن العقل الإنسانى لم يكتمل له وعيه، فى تلك الحقبة، من التاريخ، ثم بمرور الزمن بدأ يدرك، ويزداد إدراكه، فتخلصت لغته، من العناصر الشاذة، واتجهت نحو قواعد، مطردة دقيقة.

٣- ظواهر فى الكلمات :

لاحظ جسبرسن، أن كلمات اللغات البدائية، تعبر عن المحسوسات، كثيرا لتأخر المتكلمين بها، فكريا، واجتماعيا، إذ إن التعبير عن المعنويات والأمور الكلية، يحتاج إلى عقلية، راجحة، ورقى إنسانى.

والواقع أن لغات الشعوب البدائية، لا يمكن عدها بدائية، لأنها قد مرت عليها سنوات طويلة، وكما يقول الأستاذ فندريس: (لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد، من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم، في غالب الأحيان، فهم يتكلمون أحيانا لغات، على درجة من التعقيد، لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيدا ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة، تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات، تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها) [1].

وبذلك لا يمكن المقارنة، بينها، وبين لغة الإنسان الأول، على وجه اليقين.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية:

يرى جسبرسن أن يدرس الباحث اللغات الإنسانية في عصورها الحديثة، والعصور السابقة، حتى يصل إلى تاريخها، السحيق موازنا بين خصائصها في تاريخها الطويل، ليستنبط منها قوانين لغوية، لعلها تلقي الضوء على اللغة الإنسانية الأولى، وخصائصها المميزة لها، حتى يمكن التعرف عليها، فلغة كالعربية، أدرسها في العصر الحديث، ثم في العصور السابقة، التركي – العباسي – الأموي – الإسلامي – الجاهلي، مبينا خصائصها في كل عصر، وصلتها بأخواتها الساميات، وهكذا دراسة الإنجليزية، وغيرها.

والواقع أن كل ذلك، لن يصل بالباحث إلى وصف اللغة الأولى على وجه القطع، – كما سبق – إذ إن تلك اللغات، مهما تبالغ في تحديد خصائصها، فإنها قد تطورت ومرت بعصور متفاوتة، أثرت عليها، بما يقطع الشبه الذي يمكن تصوره، بينها، وبين اللغة الأولى، وكل ما يمكن قبوله، هو قرابتها منها... وهيهات.

تعقيب:

وبعد...

فقد تعرضت المذاهب المتعددة السابقة لنقود كثيرة أثبتت فسادها وعدم استقامتها على المنهج العلمي، وبعدها عن الواقع اللغوي، المطابق لحياة الإنسان

(١) اللغة ٢٩، ٣٠.

الأول، اللهم إلا الرأى القائل بان الانسان حاكى الأصوات المسموعة فإنه حظى بتأييد كثير من علماء اللغة، لتدرجه مع سنة النشوء، والارتقاء واتفاقه مع حال الطفل، والأمم البدائية، ومسايرته بذلك، للوجهة العلمية، والاجتماعية.

وحتى هذا الرأى الأخير، تعرض لنقود، أجاب عنها أصحابه، ولكنهم - على الرغم من ذلك - لم يقطعوا بأنه هو الرأى الذى لا رأى بعده، ويعترفون بأنه «لم يقم دليل يقيني على صحته» [1].

ويبدو ذلك من مناقشة الأستاذ فندريس للأدلة المؤيدة له.

أولا - حال الطفل:

المنهج العلمي السليم، يمنع من المقارنة، بين تدرج الطفل اللغوى، ومنشأ اللغة الإنسانية، (لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة، ولا يعطوننا أية فكرة، عما كان عليه الكلام، عند أصل نشوئه، . . . الطفل لا يؤدى إلا ما قيل أمامه، . . . ويقوم بعمل المحاكاة لا الخلق، عمل يخلو من الارتجال خلوا تاما) [2].

ثانيا - حال الأمم البدائية:

(أ) لا تمثل اللغات البدائية، حال اللغة الإنسانية الأولى، إذ إن تلك اللغات لا تعد بدائية بمعنى الكلمة، فقد مرت بها عصور متوالية تغيرت فيها، وانتقلت إلى حالات أخرى، متعددة بعدت بها عن أصلها، الأول الذى وجدت عليه، ومن ذا الذى يعرف تلك المراحل، والتطورات، وآثارها (فهناك لغات، تنتسب إلى تواريخ، منها القديم، ومنها الأقدم، ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة، فى صور قديمة، ترجع إلى أكثر من عشرين قرنا، ولكن أقدم اللغات المعروفة (اللغات الأمهات كما تسمى أحيانا)، لا شيء فيها من البدائية، ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة، فإنها لا تفيدنا علما إلا بالتغيرات التى طرأت على الكلام ولا تدلنا على شيء من كيفية نشوئها، كذلك لا يمكن استخلاص شيء فى هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين، رغم الإسراف فى تسميتهم بهذا الاسم. . إلى آخر هذا النص الذى سقناه آنفا.

---

(١) علم اللغة د. وافى ٩٦.

(٢) اللغة ٣٠ : ٣١.

(ب) أما وجود بعض الشعوب البدائية، التى لا تزال – فى العصر الحاضر – تتفاهم بلغة الإشارات، مما جعل أصحاب تلك النظرية، يستدلون بذلك على أن الإنسان الأول، استخدم الإشارات فى تفاهمه أولا، أو مع اللغة الصوتية، كمساعد آلى، لها، فهذا – أيضا – ليس أمرا مؤكدا «فلعل اللغة البصرية»[1] توازى اللغة السمعية، فى قدم العهد، فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن إحداها متقدمة على الأخرى. . . وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم، مشتقة من اللغة السمعية. . . وقانون الإشارات البحرية. . . ولغة الإشارات التى يستعملها الصم، والبكم، هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية[2].

فهذه الاحتمالات، تجعل القول، بنشأة اللغة، عن طريق محاكاة الأصوات أمرا ظنيا، من حيث صحته، واستقامته.

ولكن – مع ذلك – عده علماء اللغة، والباحثون فى نشأتها على جانب كبير من الصحة، (فالباحث، فى هذا الموضوع، يجد بين يديه من المعلومات، اللغوية، والاجتماعية والنفسية، ومن المقارنة بين اللغات الحديثة والقديمة، وأحوال الأمم البدائية، وغيرها، ما يستطيع الاستفادة منه، لبحث نشوء اللغات)[3].

أى الأجناس أسبق الأسماء أو الأفعال أو الحروف ؟

مرت بنا مذاهب الباحثين فى نشأة اللغة وبالتأمل فيها نرى أن بعضها يدعى حدوث لغة الإنسان الأول دفعة واحدة كاملة لا نقص فيها، وبعضها يدعى أنها تدرجت من البساطة إلى التركيب وأنها بدأت ساذجة ناقصة ثم كملت فيما بعد شأنها فى ذلك شأن لغة الأطفال والأمم البدائية، فأصحاب التوقيف والاصطلاح يدعون كمال اللغة منذ نشأتها حسب تصورهم وأصحاب المذاهب الأخرى يؤخذ من كلامهم تدرج اللغة ونموها شيئا فشيئا حسب التقدم الإنسانى.

وهذه المقدمة ضرورية لفهم اعتقاد أصحاب تلك الآراء فى حدوث الأسماء والأفعال والحروف وأيها سبق الآخر، فأرباب التوقيف ادعوا – كما سبق بيانه –

(١) الإشارات. (٢) اللغة ٣٢، ٣٣. (٣) فقه اللغة للمبارك ١٠١.

أن الله تعالى علم آدم جميع اللغات بما فيها من أسماء وأفعال وحروف، وأرباب الاصطلاح ادعوا أن بنى البشر وضعوا جميع اللغات بما فيها - كذلك - الأسماء والأفعال والحروف، وعلى هذا يمكن فهم رأيهم فى سبق أحد هذه الأجناس الثلاثة فواضح من ذلك أنهم يقولون بوقوع جميع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة بحيث لم يتقدم أحدها على الآخر ويوضح لنا ذلك ما نقله ابن جنى عن أستاذه أبى على وهو أحد القائلين بالاصطلاح والتواضع فى نشأة لغة الإنسان، وملخص ما نقله «أن اللغة وقعت طبقة واحدة كالرقم تضعه على المرقوم والميسم يباشر به صفحة الموسوم لا يحكم لشيء منه بتقدم فى الزمان» (١)

ويقول ابن جنى فى تفصيل هذا الرأى وتأييده: اعلم أن أبا على - رحمه الله - كان يذهب إلى أن هذه اللغة - أعنى ما سبق منها ثم لحق به ما بعده - إنما وقع كل صدر منها فى زمان واحد وإن كان تقدم شيء منها على صاحبه فليس بواجب أن يكون المتقدم على الفعل الاسم ولا أن يكون المتقدم على الحرف الفعل وإن كانت رتبة الاسم فى النفس من حصة القوة والضعف أن يكون قبل الفعل والفعل قبل الحرف وإنما يعنى القوم بقولهم إن الاسم أسبق من الفعل أنه أقوى فى النفس وأسبق فى الاعتقاد من الفعل لا فى الزمان فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل فى الوضع قبل الاسم وكذلك الحرف، ثم يدلل على أنها وقعت دفعة واحدة ولم يتقدم أحدها على الآخر بما يأتى:

١- أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم فعلموا أنهم محتاجون إلى العبارات عن المعانى وأنها لابد لها من الأسماء والأفعال والحروف فلا عليهم بأيها بدأوا أبالاسم أم بالفعل أم بالحرف لأنهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جمع إذ المعانى لا تستغنى عن واحد منهن (٢).

٢- وجود أسماء مشتقة من الأفعال نحو قائم من قام ومنطلق من انطلق ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله نحو ضرب فهو ضارب وقام فهو قائم وقاوم فهو مقاوم فإذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق

---

(١) الخصائص ٢/٤٠.　　(٢) المصدر السابق ٢/٣٠.

الاسم للفعل فى الزمان وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه (١).

٣- اشتقاق الاسم من الاسم «فإن المصدر مشتق من الجوهر كالنبات من النبت وكالاستحجار من الحجر وكلاهما اسم (٢).

٤- اعتلال المضارع لاعتلال الماضى وهذا يجعل الماضى أسبق من المضارع مع أن أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضى (٣).

٥- اشتقاق كثير من الأفعال والأسماء من الحروف فالأول نحو قولهم سألتك حاجة فلوليت لى أى قلت لى لولا وسألتك حاجة فلا ليت لى أى قلت لى لا والثانى نحو قولهم اللالاة واللولاة فاشتقوا المصدر من الحرف وإن كان الحرف متأخرا فى الرتبة عن الأصلين قبله الاسم والفعل وكذلك قالوا: سوفت الرجل أى قلت له سوف وهذا فعل - كما ترى -، مأخوذ من الحرف ومن أبيات الكتاب:

لو ساوفتنا بسوف من تحيتها ... سوف العيوف لراح الركب قد قنع(٤)

كذلك - عند ابن جنى - جميع تصرف (نعم) إنما هو من قولنا فى الجواب نعم، من ذلك النِّعمة والنَّعمة والنعيم والتنعيم ونعمت به بالا، وتنعم القوم والنعمى والنعماء وأنعمت به له وكذلك البقية وذلك أن نعم أشرف الجوابين وأسرهما للنفس وأجلهما للحمد. . . كما قالوا بجلته أى قلت له بجل أى: حسبك حيث انتهيت فلا غاية من بعدك ثم اشتقوا منه الشيخ البجال والرجل البجيل فنعم وبجل - كما ترى - حرفان وقد اشتق منهما أحرف كثيرة وكان الأمر كذلك دون أن يكون ذلك الحرفان مشتقين من النعمة والنعيم والبجال والبجيل. لأن الحروف يشتق منها ولا تشتق هى أبدا وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأول التى لا تكون مشتقة من شىء لأنه ليس قبلها ما تكون فرعا له ومشتقة منه. . . وقد كثر اشتقاق الأفعال

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٤.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٤.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٥.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٧.

من الأصوات الجارية مجرى الحروف نحو هاهيت وحاحيت وعاعيت وجاجأت وحأحات وسأسات وشأشأت وهذا كثير فى الزجر [١].

فلهذه الأدلة كان وقوع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة دون الجزم بتقدم أحدها على الآخر لأنه يحتاج إليها جميعها فى التعبير عن المعانى ووجود تلك الاشتقاقات السابقة بالتناوب بحيث يشتق هذا من ذلك تارة وذاك من هذا تارة أخرى ويؤخذ كل من الأصلين الكبيرين الاسم والفعل أحيانا من الحرف كل ذلك جعل أصحاب هذا الرأى لا يستطيعون الحكم بالتقدم أو التأخر لأى منهما وقد قال ابن جنى: «إن هذا مذهب أبى على وبه كان يأخذ ويفتى»[٢].

ويبدو أن ابن جنى موافق لأستاذه فقد عرض لرأيه وأتى بالأدلة الكثيرة لتأييده وأكد فى نهايتها صحة هذا الرأى بقوله: فقد علمت بما قدمناه وهضبنا فيه قوة تداخل الأصول الثلاثة الاسم والفعل والحرف وتمازجها وتقدم بعضها على بعض تارة وتأخرها عنه أخرى فلهذا ذهب أبو على رحمه الله إلى أن هذه اللغة وقعت طبقة واحدة [٣]، ثم إنه يحكى قولى أبى الحسن فى المبنى من الألفاظ فقال: وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غير لكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه وعلمت أنه لابد من كثرة استعمالها إياه فابتدأوا بتغييره، وقد كان أيضا أجاز أن يكون قد كانت قديما معربة فلما كثرت غيرت فيما بعد، ثم فضل القول الأول، لأنه أدل على حكمة العرب وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها[٤]، وهذا يعنى ميله إلى أن العرب وضعت ما وضعت من ألفاظ وقواعد فى آن واحد وقد نفى تقدم أى من الأنواع الثلاثة فى الزمان وتأخر شىء منها بقوله: فإن قلت: هلا ذهبت إلى أن الأسماء أسبق رتبة من الأفعال فى الزمان كما أنها أسبق رتبة منها فى الاعتقاد واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه إذ كان الواجب أن يبدأوا بالأسماء لأنها عبارات عن الأشياء ثم يأتوا بعدها بالأفعال التى بها تدخل الأسماء فى المعانى والأحوال ثم جاءوا فيما بعد بالحروف لأنك تراها لواحق بالجمل بعد تركبها واستقلالها بأنفسها نحو إن زيدا أخوك وليت عمرا عندك وبحسبك أن تكون كذا؟ قيل يمنع من هذا أشياء [٥]ويسوق الأدلة السابقة.

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٥-٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٠.
(٣) المصدر السابق ٢ / ٤٠.
(٤) المصدر السابق ٢ / ٣١، ٣٢.
(٥) المصدر السابق ٢ / ٣٢، ٣٤.

ويبدو أنه كان يفهم حقيقة التقدم فى الزمان - كما تنطق به عبارته السابقة - عير أن ما يراه من ظواهر اللغة يصرفه عنه فلا يسعه إلا أن يسلم برأى أستاذه وهما مع ذلك نحويان متأثران بنظرات الأقدمين إلى ألفاظ اللغة فيرى البصريون والكوفيون أن الأسماء قبل الأفعال والحروف تابعة للأسماء لأن الفاعل سابق لفعله والأسماء سابقة للإعراب والحروف عوامل فى الأسماء والأفعال مؤثرة فيها المعانى وتقدم العامل على المعمول لا يوجب أن تكون الحروف سابقة للأسماء والأفعال نفسها فى الوجود، لأن معنى ذلك أن عملها الإعرابى وهو الرفع والنصب والخفض والجزم يأتى بعدها لا أنها تتقدم فى وجودها الأسماء والأفعال(١)، وقال ابن الانبارى فى تعليل ذلك:

فإن قيل فلم قدم الاسم على الفعل والفعل على الحرف؟ قيل إنما قدم الاسم على الفعل نحو زيد قائم وأخر الفعل عن الاسم لأنه فرع عليه لا يستغنى عنه فلما كان الاسم هو الأصل ويستغنى عن الفعل والفعل فرع عليه ومفتقر إليه كان الاسم مقدما عليه وإنما قدم الفعل على الحرف لأن الفعل يفيد مع الاسم نحو قام زيد وأخر الحرف عن الفعل لأنه لا يفيد مع اسم واحد لأنك لو قلت بزيد أو لزيد من غير أن تعلق الحرف بشيء لم يكن مفيدا فلما كان الفعل يفيد مع اسم واحد والحرف لا يفيد مع اسم كان الفعل مقدما عليه (٢).

وهذا الرأى فى جوهره وهو تقدم الأسماء على الأفعال والأفعال على الحروف يتفق والرأى الحديث إلا أنه بنى على اعتبار نحوى بحت ولم ينظر إلى الناحية الاجتماعية التطورية بل إن ابن جنى - حكاية عن أستاذه - فسر تقدم الأسماء بتقدمها فى النفس لا فى الزمان كما رأينا، وهذا يعد تصويرا لرأى التوقيفيين والاصطلاحيين على السواء، وهذا الرأى فى وقوع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة مبنى على أن لغة الإنسان الأول كانت كاملة كما تصوره أصحاب التوقيف والاصطلاح وقد طبق ذلك أبو على علَى اللغة العربية كما هو واضح والحقيقة أن لغة الإنسان الاول لم تكن بهذا الكمال الذى تصوره والعربية التى بنى عليها أبو على مبدأه لا يصدق عليها ذلك إلا بعد أن ارتقت ووصلت إلى أوج مجدها، ويتضح ذلك من أدلته التى ساقها ابن جنى وهى تتلخص فى الاشتقاقات المتعددة التى أكد بها احتمال تقدم أى الأنواع الثلاثة فمرحلة

---

(١) الإيضاح للزجاجى ٨٣، ٨٤ بتصرف. (٢) أسرار العربية ط ليدن ص٩.

الاشتقاق على الصورة التى استدل بها ليست بدرجة من السذاجة والبساطة التى كانت عليها لغة الإنسان الأول فيما يظن بل إنها تعد مرحلة راقية وصلت إليها اللغة العربية بعد تطورات متطاولة كما سيتبين ذلك من مناقشة الرأى الثانى.

أما أرباب المذاهب الأخرى ولا سيما القائلين بأن اللغة نشأت عن محاكاة الأصوات مستدلين على ذلك بأحوال الأطفال والأمم البدائية فإنهم يقولون ههنا بتدرج حدوث الألفاظ المذكورة بأنواعها الثلاثة تبعا لسنة النشوء والارتقاء فالطفل تبدأ لغته ساذجة ناقصة ثم تتدرج كالآتى:

١- **مرحلة المادة**: وهى التى يقصر فيها فهمه فلا يعرف إلا المحسوسات ومن هنا كان أول ما يظهر فى لغته أسماء الذوات.

٢- **مرحلة العمل**: وهى التى ينمو فيها تفكيره فتبدأ كلمات المعانى فى الظهور على لسانه وهى الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما.

٣- **مرحلة العلاقات**: وتلك تبدو مع ارتقاء تفكيره واكتماله فتظهر الحروف والروابط الأخرى وكانت تلك متأخرة الظهور فى لغته «لأنها أدق أنواع الكلمات»(١).

ولغات الأمم البدائية تكون ساذجة مبهمة فى أول أمرها ثم تتدرج تبعا لرقيها وتقدمها على الوجه التالى:

١- **دور التقليد**: وفيه تظهر الألفاظ الحسية التى تحاكى الأصوات الطبيعية التى تحيط بهم وتكون تلك الألفاظ قليلة بسيطة البناء لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف ولذلك يعبرون بالكلمة الواحدة الحسية عن المعانى التى لم توجد لها ألفاظ معنوية بعد «فإذا اضطروا للتعبير عن قولنا (صلب) قالوا (حجر) وعن (طويل) قالوا (ساق) وعن (مستدير) قالوا (قمر)»(٢).

٢- **مرحلة تولد الألفاظ البسيطة الدالة على المعانى**: وتحدث تالية

(١) علم اللغة د. وافى ١٤٠ بتصرف.
(٢) الفلسفة اللغوية ١٢٧، ١٢٨.

للمرحلة السابقة تبعا لتقدم أفكارهم وحياتهم الاجتماعية «فتتحول حكاية الصوت من الدلالة على ما يحاكيه مباشرة إلى ما يقرب منه أو يماثله بالتدريج حتى تتولد فيها الأدوات والحروف ولا مميز فيها بين الاسم والفعل والحرف وإنما يدل على ذلك بالقرينة فتستعمل اللفظة الواحدة تارة اسما وطورا فعلا وأخرى نعتا أو أداة» [1].

٣- مرحلة التمييز بين الاسم والفعل وسائر الأجناس والمشتقات [2]:

وتحدث تلك المرحلة تبعا لازدياد النمو الفكرى لتلك الجماعة الإنسانية «فيتولد فيها المميز بين الاسم والفعل» وكذلك تظهر مميزات الجنس والعدد والاشتقاق «مع خلوها من حروف الجر والعطف وسائر الأدوات»[3].

٤- مرحلة ظهور الحروف: وهذا عند رقى تلك الجماعة إلى درجة تسمح لهم بأن ينوعوا ألفاظ لغتهم «بالنحت على كرور الأيام فتتحول الأسماء أو الأفعال الدالة على معنى فى نفسها إلى الحروف أو الدالة على معنى فى غيرها على طرق وأساليب لا يمكن حصرها»[4].

ومن ذلك التحديد للمراحل التى تمر بها لغة الأطفال والأمم البدائية التى تتدرج فى الحضارة اتجه أصحاب الآراء السالفة إلى القول بأن لغة الإنسان الأول «نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحي أصواتها ومدلولاتها ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء» [5]، وأشهر نظرية للبحث فى سبق الاسم أو الصفة أو الفعل هى نظرية العلامة ريبو Ribot تقول: الصفة هى أول ما ظهر ثم تلتها أسماء

---

(١) الفلسفة اللغوية ١٢٨، ١٢٩، وفقه اللغة للاسكندرى ٨٨.

(٢) هذا مخالفة للأستاذ جورجى زيدان حيث يدعى أن ظهور الأجناس والعدد وصيغ الاشتقاق متأخرة عن مرحلة ظهور الحروف ولكن الذى يبدو أن إدراك الأمور المعنوية مرحلة واحدة تظهر فيها الأفعال والمشتقات التى تقابل الصفات عند الأطفال فهى تظهر مع الافعال. انظر الفلسفة اللغوية ١٢٩ – ١٣١.

(٣) الفلسفة اللغوية ١٢٩.

(٤) المصدر السابق ١٣٠ ويقول الأستاذ الاسكندرى: الاقرب إلى التحقيق أن الحروف من المرتجل الموضوع لمعنى جزئى والمحرف عن أصل مفرد أو مركب) فقه اللغة ٨٣.

(٥) علم اللغة ١١٠ والمسلك اللغوى ٩٨.

المعانى وأسماء الذوات ثم ظهرت الأفعال ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف [١].

ولكننا لو قارنا مقارنة صحيحة بين هذا القول وبين لغة الأطفال والأمم البدائية لوجدنا أن المحسوس هو أول ما يظهر - كما سبق بيانه - على لسان الأطفال والبدائيين مما يؤكد ظهور أسماء الذوات فى أول مرحلة ثم يليها ظهور أسماء المعانى والأفعال والصفات ثم تظهر الحروف فى آخر المراحل [٢] وهذا ما يؤيده بعض المحدثين يقول «إن المرحلة اللغوية فى عهد آدم لم تتجاوز المرحلة العلمية التى يقول بعض اللغويين المحدثين إنها المرحلة الأولى فى النشأة اللغوية فاسم الشىء بدأ علما ثم عممت دلالته وأصبح اسم جنس ثم عن هذا الاسم جاء الحدث أو الفعل أما الحروف فمما لا شك فيه أنها كانت فى أصل وجودها كلمات مستقلة الدلالات ثم انتقص من أطرافها وأصبحت مع الزمن على الصور المألوفة لنا»[٣] وبناء على ذلك فظهور الأفعال نفسها كان متدرجا أيضا خلافا لما ذهب إليه أنصار التوقيف والاصطلاح من وقوعها دفعة واحدة[٤] ونحن حين نفكر تفكيرا منطقيا فى تلك الفكرة الزمنية ندرك أن الماضى يلتقى بالمستقبل عند ذلك الزمن الذى نسميه الحاضر كما ندرك أن الزمن الحاضر لا يعدو أن يكون نقطة اتصال ليس من السهل تحديد مداها[٥] ومع اتصالها الدقيق فالمقبول هو تدرج حدوثها عند الإنسان وتدرجها - عند المحدثين - يوافق ما ذهب إليه أبو بكر بن السراج من القدماء [٦] وهو أن أولها ظهورا هو الحاضر ثم الماضى ثم

---

(١) علم اللغة ١١٣.

(٢) هناك آراء أخرى لا صحة لها. انظر علم اللغة ١١٢ / ١١٣، وفقه اللغة للاسكندرى ١٦، ١٧.

(٣) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٢.

(٤) يدل لذلك قول ابن جنى بعد عرضه لرأى أبى على : وهذا يضيق الطريق على أبى إسحاق وأبى بكر فى اختلافهما فى رتبة الحاضر والمستقبل. الخصائص ٢ / ٣١.

(٥) من أسرار اللغة ط٣ ص١٥٢.

(٦) انظر: الخصائص ٢ / ٣١، ٣ / ٣٣١ ويرى الزجاج وتلميذه الزجاجى أن أسبق الأفعال المستقبل ثم الحال ثم الماضى لأن الشىء لم يكن ثم كان ثم يصير فى الحال ثم يصير ماضيا ويرى بعض النحاة أن الماضى أول الأفعال وهى آراء بعيدة عن واقع اللغة. الإيضاح ٨٥ والأشباه والنظائر ١ / ٥٠ بتصرف والارتشاف الورقة ٣١٤ وشرح السيرافى للكتاب ١ / ١٣.

المستقبل وهذا حسب ما تقدم من ملاحظة حال الأطفال «فعرف أولا الزمن الحاضر وما يتضمنه من أحداث لأنها محل اهتمامه وعنايته فلما نما إدراكه وقويت ذاكراته بدأ يذكر أحداثا انتهت ومضى عليها بعض الوقت بعد أن تركت فى ذهنه أثرا قويا جعله يذكرها حينا بعد حين ولا سيما حين تتكرر نفس التجارب الماضية» ثم لا يلبث أن يتطلع إلى أحداث المستقبل فتظهر عنده الأفعال المستقبلة.

وقد مر الإنسان فى تلك المراحل نفسها واحتاج للتعبير عن تجاربه إلى كلمات مستقلة تدل على الحاضر ثم الماضى ثم المستقبل وهكذا حتى وصلت إلى الحال الدقيقة التى نلمسها فى اللغات المتفرعة عن اللغة الأولى للإنسان [١] وهذا التصور – وإن كان مبنيا على الظن والحدس فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوى أو المؤرخ أن يحكم فى أصل نشأة اللغات حكما فاصلا[٢] – تصور واقعى وهو أقرب إلى الصحة والقبول ولا يتنافى مع ما أثبتناه من احتمال وجود لغة صوتية تفاهم بها آدم مع الملائكة إذ يتوقع – كما سبق – أن تكون ألفاظ تلك اللغة محدودة ومتمشية مع بدء تاريخ الإنسان ثم إن ارتقاءها واكتمالها حدث مع تقدم الإنسان ومحاكاة الأشياء مما سبب ظهور تلك الأنواع على نحو تطورى متتابع هو هذا النحو المرسوم.

* * *

(١) من أسرار اللغة ط٣ ص١٥٠، ١٥١ بتصرف.
(٢) دراسات فى العربية وتاريخها ص٨.

الباب الثانى : الفصائل اللغوية واللغات السامية

- الفصائل اللغوية .
- الموطن الأصلى للساميين والعرب .
- هجرات الساميين ولغاتهم .

تمهيـــد :

كان حديثنا عن اللغة الإنسانية الأولى، طريقا مؤديا، إلى الحديث عن اللغات البشرية، باعتبارها ناشئة عنها، لأن هذه اللغة الأولى، وإن كانت مفقودة لا نعرف أصولها – على وجه التحديد – فإنها – ولاشك – تترك آثارها في لغات العالم، التي تفرعت عنها.

والمعروف، أن الإنسان الأول – كانت له لغة واحدة، ثم تشعبت نتيجة كثرة التناسل، وتوزع الجنس البشرى، في بقاع الأرض، بحثا عن القوت، والمأوى أو عن وسيلة، من وسائل الحياة، التي دفعته إليها، أحواله وتطلعاته.

وقد تفرق أبناء نوح، سام وحام و يافث – على ماهو معروف – في نواحى الأرض المختلفة، وأقام نسل كل منهم، في منطقة معينة، صارت مقرا لهم فيما بعد.

وقد أدى هذا التفرق، وتلك الإقامة إلى مواجهة أمور خاصة، أثرت في لغة هؤلاء الأبناء، ونسلهم، وطبعتها بطابع خاص، جعل لها مميزات انفردت بها كل منها، وأطلق على كل اتجاه استقل به أصحابه، لغة معينة.

وهذا الانقسام مظهر واقعى، أدت إليه مغادرة المقر الأصلى، الذى كان فيه هؤلاء جميعا، واختلاف عوامل اجتماعية كثيرة، عليهم تسببت في استقلال لهجاتهم، وبروز خصائصها.

وهذا يؤيده (علم اللغة) الذى يضع قوانين لتطور اللغات وتشعبها.

وبمرور الزمن كثر التشعب، وزاد الانقسام، بزيادة الجنس البشرى، وكثرة المناطق، التي يقيمون بها حتى نشأت لهجات عديدة، أدى طول بعدها عن بعض، إلى صيرورتها، لغات مستقلة.

وقد بحث العلماء، هذه اللغات التي تعيش في مناطق الأرض المختلفة، بين شعوب، و أجناس متعددة، وقسموها إلى فصائل، وأطلقوا عليها تسميات متعددة.

فالآن توجد على ظهر الأرض، لغات متعددة، تبعا لتعدد الأجناس البشرية

وانتشارها، فى مناطق مختلفة، وتحت ظروف مختلفة، وهى كثيرة، وقد قسمها العلماء إلى مجموعات، حسب تفاوت نظراتهم:

١- التقسيم إلى ثلاث فصائل: يافثية وحامية وسامية:

اعتمد أصحاب هذا التقسيم على ما ورد فى سفر التكوين من أن الطوفان أغرق جميع سكان الأرض، وبقى نوح، وأولاده الثلاثة، يافث، وحام، وسام.

٢- التقسيم - على أشهر الآراء - إلى ثلاث فصائل:

هندية أوربية أو آرية أو يافثية، وطورانية[١]، وسامية حامية:

اعتمد أصحاب هذا التقسيم علي نظر بعضهم، إلى القرابة بين اللغات، فى بنيتها، وتراكيبها، وعلى نظر بعضهم الآخر إلى الروابط الاجتماعية، والسياسية والثقافية، والبيئية، التى تكون بين اللغات، وكان لهؤلاء وأولئك تقسيمات لغوية، بناء على ما ذهبوا إليه من أسس، وأشهر تلك التقسيمات ما ذهب إليه (ماكس مولر) العالم الألمانى، وهو هذا التقسيم الثانى.

٣- التقسيم الى ثلاث فصائل: متصرفة، ولاصقة، وعازلة:

وهو تقسيم شليجل Schlegel وجمهرة من علماء اللغة.

اعتمد أصحاب هذا التقسيم، على تصرف اللغات وعدم تصرفها[٢].

وسنسير على التقسيم الأول، باعتباره مبنيا على انقسام الأصل الواحد، وتشعبه ووجود وجوه الشبه فى المجموعة اللغوية الواحدة.

أما التقسيم الثانى، فقد أدخل الطورانية، وهى أمشاج من لغات شتى، منتشرة فى شرق أوروبا، وشمالى آسيا، لا تجمعها قرابة، أو رابطة، لكن ماكس مولر هو الذى أطلق عليها هذا اللقب.

---

(١) أطلق ماكس مولر ويونسن اسم اللغات، الطورانية على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التى لا تدخل تحت الفصيلتين السابقتين: الهندية الأوروبية والسامية الحامية وهى: كالتركية والتركمانية والمنغولية والمنشورية والفينية.. إلخ فقه اللغة د. وافى ص١٨٨.

(٢) انظر ص ١٦٧ من هذا الكتاب.

هذا فضلا عن أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الآسيوية والأوروبية[1].

والسامية والحامية، وإن كانت بينهما صلات، وروابط قربى، قديمة يقتضى البحث اللغوى الدقيق، الفصل بينهما، على أن كلا منهما تمثل فصيلة خاصة.

وأما التقسيم الثالث، فمن شأنه أن يتناول - بالبحث - لغات غير متشابهة الأصل، وعلم اللغة الحديث يقسم اللغات على أساس القرابة، وأوجه التشابه:

* * *

أولا - الفصيلة اليافثية أو الهندية الأوروبية

هى تلك المجموعة التى ترجع إلى المتكلمين بها من نسل يافث بن نوح، وقد اختلف فى موطنهم الأول، فقيل: إنه كان بالمناطق الروسية، بأوروبا الشرقية وقيل: إنه كان بمناطق بحر البلطيق[2].

ويتكلم بها الآن كثير من شعوب أوروبا وأمريكا، وأستراليا، وجنوب أفريقيا.

وتشمل هذه الفصيلة عديدا من اللغات، تتلخص فى ثمانى طوائف:

١- اللغات الهندية والفارسية:

وتسمى (اللغات الآرية) وتنتشر فى بلاد الهند وإيران.

٢- اللغات الأرمينية:

٣- اللغات اليونانية:

القديمة والحديثة (التى نشأت فى القرن السابع الميلادى) وما تتكلم به اليونان فى عصرنا الحاضر.

---

(١) علم اللغة د. وافى ١٨٨، ١٨٩.
(٢) بين السويد وفنلندا والاتحاد السوفيتى.

٤- اللغات الألبانية :

٥- اللغات الرومانية :

ومن فروعها (اللاتينية) التى انقسمت إلى عدة لغات، هى : البرتغالية، والأسبانية، والفرنسية، والإيطالية، ولغة رومانيا .

٦- اللغات الجرمانية :

الغربية، والشمالية، فمن فروع القسم الغربى، الإنجليزية، والألمانية والهولندية، ومن فروع القسم الشمالى : السويدية، والنرويجية، والدنمركية .

٧- اللغات الكلتية :

ولها بقايا فى إقليم أيرلندا والبريتون الواقع فى غربى فرنسا .

٨- اللغات السلافية :

بفرعيها : البلطيقى، والصقلبى . فمن الأول : البروسية القديمة . والليتوانية، ومن الثانى : الروسية والتشيكية .

ثانيا - الفصيلة الحامية

هى تلك اللغات التى ترجع إلى سلالة حام بن نوح . وقد انتشرت فى شمالى أفريقيا وشرقيها، وهذه الفصيلة تشمل لغات كثيرة منها :

١ - اللغة البربرية :

ويتكلم بها السكان الأصليون فى شمالى أفريقيا كليبيا وتونس والجزائر والمغرب والصحراء والجزر المتاخمة لها وغيرها من دول الشمال الأفريقى .

ومنها اللغات القبيلية والشاوية (اللغات القديمة لسكان الجزائر) والتوارج (لغات قبائل صحراء المغرب) واللغات الجوتشية (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا بالمحيط الأطلسى) .

٢- اللغة المصرية القديمة :

وهى تلك اللغة قبل اتصالها باللغة السامية .

٣- اللغة الكوشيتية :

ويتكلم بها السكان الأصليون فى شرق أفريقيا، فثلث الحبشة - تقريبا - يتكلم بها[١] (ماعدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية) وتشمل الصومالية ولغات الجالا والبدجا ودنقلة إلخ.

ثالثا - الفصيلة السامية

هى التى ترجع إلى سلالة سام بن نوح. وهذه التسمية ترجع إلى ما أخذ من سفر التكوين، وقد أطلقها على تلك المجموعة من اللغات العالمان الألمانيان (شلوتزر) و(ايكهورن) فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وعلى الرغم من عدم دقتها فإنها ذاعت، وعرفت بها هذه المجموعة. لسهولتها، وانتشارها.

وهذه المجموعة تقع فى منطقة تمتد فى بعض آسيا وبعض أفريقيا وبعض لغاتها قد انقرض، وبعضها الآخر لا يزال حيا، وهى تشمل اللغات : البابلية والآشورية. والفينيقية. والآرامية. والعبرية. والعربية، والحبشية وكل ما تفرع عنها[٢].

---

(١) لضعف الصلات بين لغات هذه الفصيلة، قسمها بعض الباحثين إلى مجموعات مستقلة هى : البربرية - ا المصرية- الكوشيتية .. إلخ.

(٢) توجد تسع عشرة فصيلة لغوية أخرى قامت بدراستها جمعية علم اللغة بباريس فى كتاب (لغات العالم). ومن تلك الفصائل :

١- **اللغات اليابانية.** ٢- **اللغات الطورانية :** ومنها المنغولية والتركية.

٣- **اللغات البنطوية :** المنتشرة فى منطقة كبيرة من جنوب أفريقية كالصومال والكاميرون.

٤- **اللغات الملايوية** - البولينزية : ومنها : الأندونيسية - والميلانيزية.

٥- **اللغات الكورية.** ٦- **اللغات الصينية - التبتية.**

٧- **اللغات الدرافية :** وكانت لبعض سكان جنوب الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون.

٨- **اللغات الاسترالية الآسيوية :** وتنتشر فى الجزء الآسيوى الجنوبى المنحدر إلى استراليا.

٩- **اللغات السودانية والغانية : وهى كثيرة أوصلها بعض العلماء الى ٤٣٥ لغة.**

١٠، ١١- اللغات القوقازية : ماعدا بعضها السامي والهندى الأوروبى والأورالية الألتائية. وتشمل الفصيلة القوقازية الشمالية مثل السامورية وفصيلة اللغات القوقازية الوسطى وتشمل الجورجية واللازية إلخ.

١٢- لغات سكان استراليا **١٣- اللغات الأمريكية.**

١٤- لغات السودان. **١٥- لغات البوشيمان والهرتنتوت والنيجريين.**

انظر : علم اللغة د. وافى ١٧٩ - ٢٠٨.

الموطن الأصلى للساميين والعرب

كلنا يعلم أن الإنسان وجد على ظهر هذه الأرض ولكن أمر وجوده فى بقعة واحدة أو أكثر محل خلاف بين العلماء والباحثين، ومهما تكن طبيعة هذا الخلاف ومداه فلابد أن يكون بنو البشر قد عرفوا مقرا واحدا لهم منذ فجر التاريخ، وهذا المقر قد اختلفوا فيه أيضا، ومعظم المؤرخين على أن البقعة التى نزل بها الناجون من الطوفان نوح وتابعوه كانت المنطقة المجاورة لمنابع سيحون وجيحون أو بعض جهات أرمينية، ويقرر بعض المفسرين أن الجودى الذى رست عليه سفينة نوح هو جبل (أرارات) فى هضبة أرمينية فهذا المكان أو ذاك ربما كان الموطن الأصلى للبشرية جمعاء قبل انفصالها وانقسامها، وفى تلك المنطقة كان يعيش الآريون والساميون والحاميون وهم نسل أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث الذين تنسب اليهم الأجناس البشرية .

وهناك كثر التناسل وضاقت الأرض بهم فبدأ بعضهم الهجرات المتعددة بحثا عن القوت والاستقرار .

« وكانت الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين وأرض الرافدين الموطن التاريخى للشعوب السامية وقد أقامت فيه إقامة ثابتة متصلة ولكن ليس معنى هذا أنها لم تنتشر وراء حدود تلك البلاد فى غزوات تتفاوت فى مداها وطول زمنها أو للإقامة فى مناطق أخرى إقامة دائمة كالهجرة إلى الحبشة على الساحل الأفريقى المواجه لليمن وتأسيس الدولة الفينيقية فى أرض كنعان[1] وإنشاء المستعمرات فى بعض جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى سواحله الشمالية والجنوبية » .

وقد استعمل العلماء الأوروبيون قرب نهاية القرن الثامن عشر لفظ « الساميين » اسما مشتركا لتلك المجموعة من الشعوب التى ينتمى اليها الآراميون والأشوريون والعبريون والتى تتضح قراباتها من لغاتها دون لبس أو إبهام وبعد

---

(١) يقول ابن سيدة فى كتابه المخصص : وكنعان بن سام بن نوح وإليه ينسب الكنعانيون وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية . انظر المخصص ٣ / ١٦٧ .

هذا أسند هذا الاسم إلى بقية الفصيلة السامية بعد أن كشف علم الآثار عن شعوب أخرى لها صفات مماثلة[1] «وهم البابليون والفينيقيون والعرب والأحباش»[2].

ويدور نقاش وجدل حول الموطن الأصلى للساميين الذى نزل فيه أبناء سام ابن نوح بعد نزوحهم من الموطن الأصلى للبشرية كلها.

فذهب فريق إلى أن الموطن الأصلى للساميين كان بلاد أرمينية[3] بالقرب من حدود كردستان وهو الموطن الأصلى للشعبين السامى والآرى معا ثم انحدروا منه إلى المناطق الأخرى بأرض الرافدين وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية.

ومن هذا الفريق أرنست رينان وفريتز هومل وبيترز[4] وفن كريمير وأجنازيو جويدى ودرايفر وغيرهم ولهم فى ذلك أدلة وملاحظات لم تثبت صحتها ولم يؤيدها البحث العلمى الموضوعى.

فأرنست رينان الفرنسى عرض لهذا الرأى فى كتابة «التاريخ العام للغات السامية» الذى ألفه فى منتصف القرن الثامن عشر وفيه تحامل على الساميين وآراء دلت البحوث والكشوف الحديثة على خطئها[5].

واعتمد فى رأيه على بعض روايات التوراة التى تقول: إن أقدم أرض عمرها بنو نوح عليه السلام هى أرض بابل وما نقل عن أحبار اليهود من روايات فى هذا الشأن[6].

ويوافقه فى الرأى المستشرق الألمانى فن كريمير واعتمد فى ذلك على ملاحظاته الخاصة ببعض الأسماء التى استعملها الساميون فكتب بحثا سنة

---

(١) الحضارات السامية القدمية: سبتينو موسكاتى ص٤٢، ٤٣.

(٢) انظر: فقه اللغة: د. وافى ص٣ والساميون ولغاتهم: د. حسن ظاظا ص٥ وما بعدها.

(٣) قصد بعض القائلين بذلك من أرمينية شرقى آسيا الصغرى والإقليم الذى يقع بين طوروس والفرات ومن هؤلاء بيترز.

(٤) الساميون ولغاتهم: د. حسن ظاظا ص١٠. (٥) فقه اللغة: د. وافى ص٤، ٥.

(٦) انظر: حامد عبد القادر فى محاضراته عن فقه اللغات السامية عام ١٩٦٤ وبحث: الهجرات البشرية الكبرى، ١- الهجرات السامية للدكتور محمد السيد غلاب بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السادس ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ص٤٩٥ وانظر: سفر التكوين من التوراة.

١٨٧٥م عن أسماء الحيوانات والنباتات التى أخذها الساميون عن غيرهم واستنتج من بحثه أن الساميين[١] لم يكن عندهم اسم مشترك للنخلة أو البلح أوالنعام فلابد أنهم عرفوا هذه الأشياء وهم متفرقون فى أوطان مختلفة، ولاحظ أنهم كانوا يستعملون اسما مشتركا للجمل يحتمل أنهم عرفوه فى موطنهم الأول وهذا ينطبق على بعض مناطق أرمينية المشار إليها.

وقد سبقوا الآريين فى خروجهم من هذه المنطقة، وربما حدث هذا تحت ضغطهم وأنهم - بعد هذا - انحدروا من هضبة إيران إلى مشارف العراق الشرقية حيث كونوا أقدم مركز من مراكز الثقافة السامية.

ووافقه على ذلك المستشرق الإيطالى جويدى الذى ألف كتابا سنة ١٨٧٩م درس فيه أسماء المعادن والنباتات والحيوانات والأسماء الدالة على التقلبات الجوية والتغيرات الجيولوجية فى اللغات السامية واهتدى من ذلك إلى أن أسماء هذه الأشياء التى اتحدت أو تشابهت لا تتحقق إلا فى إقليم التركستان السابق.

ومن القائلين بهذا الرأى أيضا فلوك Vlock فى مقاله عن الساميين فى دائرة المعارف التاريخية الألمانية، وهومل قال بذلك أيضا سنة ١٨٧٩م غير أنه عدل عن رأيه فيما بعد ثم رجع مرة أخرى إلى رأيه الأول سنة ١٩٣٦م كما أخذ درايفر Driver بهذه النتيجة أيضا[٢].

وقد تصدى العلامة المستشرق الألمانى الكبير نولدكه[٣] للرد على رينان بأن روايات التوراة مشكوك فى صحتها لأنها لا تستند إلى أسس تاريخية يقينية، وما نقل عن أحبار اليهود مجرد روايات لا يصدقها العقل إذ هى لا تعدو أن تكون رأيا خرافيا لا يمكن أن يكون تعبيرا حقيقيا عما جرى فى القديم من الأزمان لأن الذاكرة - وبخاصة ذاكرة القبائل البدائية - لا يمكن أن تعى هذه الحوادث الماضية بحيث لا يتطرق إليها نقص أو نسيان.

كما رد على من درسوا مجموعات الأسماء السابقة بأن هذا مجرد

---

(١) قبل أن تنفصل اللهجات السامية إلى لغات مختلفة.

(٢) د. محمد غلاب فى مقاله السابق ص٩٤٦، وانظر: محاضرات فقه اللغات السامية للأستاذ حامد عبدالقادر.

(٣) فى كتابه Die Semitischon Spmitiques

ملاحظات عابرة، ولا يمكن أن تأخذ طابع الاستقراء، ومن الممكن أن تكون هنالك كلمات متحدة لم يصلا إليها، وأن كثيراً من ألفاظ هذه اللغات قد انقرض، وحتى الحى منها قد فقد كثيرا من الألفاظ القديمة التى ورثتها عن اللغة السامية الأصلية.

على أنه من الممكن العثور على كلمات مشتركة بين هذه اللغات السامية ولا توجد مدلولاتها فى بلاد التركستان أو منطقة الرافدين.

بل إن كلمات كثيرة مثل: جبل - ولد - رجل - شيخ - رحل - خيمة - ليست متحدة فى جميع اللغات السامية مع أنه لابد أن توجد فى البيئة التى عاش فيها الساميون[١].

وربما كانت هذه الألفاظ المتحدة أو المتشابهة مستعارة من لغات أخرى غير سامية كلغات القوقاز وفارس والأناضول[٢].

ولذا لا يصح أن يقوم الحكم على دراسة بعض الألفاظ كما فعل فن كريمير وجويدى.

ويقول أحد الباحثين: إن هذا الافتراض قد أصبح الآن مهجورا لا يقبل عليه أحد[٣].

وعلى هذا فتصور إقامة الأقوام السامية إقامة ثابتة أول الأمر - فى العراق وما حولها مع الهنديين الأوروبيين - قبل أن ينحدروا إلى الجزيرة - تصور أثبتت الحقائق أنه لم يكن وإن صح أنهم كانوا يعيشون معا عندما كان مقر بنى البشر جميعا واحدا فإنهم بعد أن افترق أبناء نوح الثلاثة سام وحام ويافث بحثا عن القوت والاستقرار ونتيجة العوامل الجغرافية والاجتماعية اتخذ الساميون مقرا آخر لهم لم يكن العراق كما يرى هذا الفريق الذى نقض رأيه بالحجة والبرهان وإنما اتخذت الجماعة السامية مقرا آخر عاشت فيه قرونا متطاولة قبل أن تبدأ هجراتها المعروفة فى التاريخ الي العراق وقبل أن تلتقى بسكانه الأصليين والسومريين الوافدين عليهم والكاسيين.

---

(١) محاضرات الأستاذ حامد عبدالقادر فى فقه اللغات السامية.

(٢) الساميون ولغاتهم ص١٢ وانظر: بحث د. محمد غلاب السابق ص٤٩٧.

(٣) الساميون ولغاتهم ص٩.

ومعظم المؤرخين والباحثين على أن الجزيرة العربية كانت المهد الأول للساميين[١] ويؤكد ذلك بأن الجزيرة العربية كانت فى عصور سحيقة خصبة تجرى فيها الأنهار وتجود الزراعة ويكثر الرعى وكانت صالحة للصيد والقنص ويمكنها أن تفى بحاجات الآلاف المؤلفة من البشر[٢].

ومن أوائل القائلين بذلك من المستشرقين إيرهارد شرادر وفنكلر وتيله وفنسان والأثرى الفرنسى جاك دى مورجان.

وفى مقدمة المؤرخين الذين أيدوا هذا الرأى البرنس كيتانى دوتيانو Cae teni de teano الإيطالى الذى كان يرى أن هذا القسم - جزيرة العرب - كان فى العصور السابقة للتاريخ كثيف السكان خصب الأرض موفور الخيرات تخترقه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل[٣]، وأنه على إثر بعض الظواهر البحرية وانحسار جبال الثلج الكبيرة إلى الشمال فقد خصبه وجفت أنهاره فنزح معظم سكانها الى جهات أخرى.

وقد اعتمد فى نظريته هذه على أدلة مستمدة من البحوث الجيولوجية التى أجريت بالمنطقة.

وقد أفادت أبحاث المستشرق الألمانى فريتز هومل أن ميل السطح فى شبه الجزيرة وتعرضه للرياح الموسمية ربما كان قد تغير بانخساف فى طبقات الأرض فندر الماء فى شبه الجزيرة وجفت أنهارها ولعل سبق اليمن إلى عمارة السدود

---

(١) اختلف العلماء فى المكان الذى كان الموطن الأول للساميين من شبه الجزيرة فذهب فريق إلى أن ذلك وسطها - ولا سيما نجد - وذهب آخرون إلى العروض - ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها - ورجح فريق ثالث أن يكون ذلك فى الجنوب - وفى اليمن بصفة خاصة - انظر: بحث الدكتور محمد بيومى مهران بعنوان (دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد السادس ص٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) الأستاذ حامد عبدالقادر فى محاضراته (فقه اللغات السامية).

(٣) فى التوراة (سفر التكوين) ٢/١٣ ما يفيد أن نهرين - غير دجلة والفرات - كانا يرويان أرض الجويلة - حيث الذهب - والحبشة ويسمى الأول فيشون والثانى جيحون وظاهر أن النهر الأول ربما كان يوصل إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة العرب مما يلى عدن شرقا والثانى كان ينبع من جبال اليمن ويأخذ مجراه مستديرا حولها فيلتقى بنهر فيشون ونهر الدجلة ونهر الفرات فى شط العرب. الساميون ولغاتهم ص١٤.

وخزانات المياه التى من أشهرها سد مأرب يرجع إلى محاولة التغلب على هذا القحط بل لعل المأثورات المتداولة بين عرب الجاهلية عن وجود ما يسمى بالعرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبار هو صدى لتلك الكوارث الجغرافية التى دفعت الساميين الأصليين من سكان بلاد العرب إلى البحث عن القوت فى أماكن أخرى[١].

ومن الملاحظ وجود كثير من الوديان الجافة فى صحراء الجزيرة مما يؤكد أنها بقايا الأنهار التى طمسها التاريخ والحوادث الجيولوجية.

وقد التفت العلماء منذ أكثر من نصف قرن إلى ظاهرة تغير المناخ تغيرا كبيرا من الدفء إلى البرد أو المطر الى الجفاف ودلت الأبحاث الجيولوجية – فعلا – على هذا التغير الكبير الذى حدث فى آخر العصور الجيولوجية – عصر البلايستوسين أو الزمن الرابع[٢] وأصبح هذا التغير أمرا مفروغا منه تدل عليه التكوينات الجيولوجية كما تدل عليه الحفريات النباتية والحيوانية.

ويؤكد هذه التغيرات الجيولوجية فى الأزمان السحيقة ما جرى من انفصال جنوب غربى بلاد العرب عن أفريقيا فى العصور الحجرية والجليدية فقد أثبتت مس كيتن تومسون **Miss Caton Thompson** فى أبحاثها التى نشرت أن انفصال جنوب غربى بلاد العرب عن افريقيا الشرقية حدث فى حقبة البليستوسين **pleistocene**[٣] أى قبل مليون عام على الأقل[٤].

وقد قررت أكبر هيئة علمية فى العالم العربى للتربية والثقافة والعلوم أن شبه الجزيرة العربية مع ما قيل من اعتدال طقسها فى عهود غابرة قد تعرضت إلى الجفاف على فترات متوالية فضاقت فيها موارد الغذاء مما دفع أهلها الى الهجرة إلى البلاد المحيطة ووديان الأنهار الكبيرة[٥].

---

(١) الساميون ولغاتهم ص١٤.

(٢) عصور الإنسان الحجرية وعصور الجليد بأوروبا.

(٣) من بحث الدكتور محمد غلاب فى مجلة كلية اللغربية العربية السابق ص٤٨٨.

(٤) انظر: دراسات فى العالم العربى. الجزء الخاص بتاريخ الشرق القديم للدكتور أحمد فخرى، الباب الثالث ص١٥٦.

(٥) لجنة وضع استراتيجية لتطوير البيئة فى البلاد العربية – استراتيجية تطوير التربية العربية، نوفمبر سنة ١٩٧٦ ص٥١.

واليمن - كما يعترف المحققون من المؤرخين القدامى - كانت خصبة تنمو فى سهولها الأشجار والنخيل وأنواع كثيرة من الأعشاب والنباتات ومن ثم أطلق عليها مؤرخو اليونان اسم (بلاد العرب السعيدة)Arabia Felix وسماها العرب - منذ القدم - بلاد اليمن ولعله محرف عن (اليمن) بضم الياء وسكون الميم[1].

واسم عدن ليس بغريب عن نفس الأصل السامى القديم الذى أخذت منه كلمة (عدن) صفة للجنة[2].

وقد نشر بهذا الصدد الأستاذ توينبى Toynbee بعدد ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥، من جريدة منشستر جارديان مقالا ضمنه رأيا قريبا من هذا الرأى[3].

وهذا الفرض كان فى عصور موغلة فى القدم ثم أعقبه ما أصاب الجزيرة من الجفاف والقحل الذى أدى إلى حدوث الهجرات السامية المتتابعة من الجزيرة إلى خارجها والتى يرى المحققون من المؤرخين أنها بدأت حوالى القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد.

ويبرهن فريق من المحققين منذ أواخر القرن التاسع عشر على صدق هذه النظرية ببراهين تكاد تكون قاطعة ونذكر أهمها فيما يلى :

الأول : ما يؤكده التاريخ من أن الهجرات السامية خرجت من الجزيرة العربية[4] وكانت على سبيل الغارات والهجرة فمصادرنا التاريخية تسجل هذه الهجرات وهى هجرات لم يكن بد منها إزاء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء، فهذه الأحوال تؤدى إلى ميل مستمر من قبائل الرعى البدوية إلى الاستقرار فى المناطق الخصبة حول الصحراء والأخذ بأسباب الحياة الزراعية[5].

وهذه حقيقة ثابتة بشكل كاف فالتاريخ يدلنا على أن الصحراء العربية

---

(١) انظر: تاريخ الشرق القديم: د. أحمد فخرى ص٤٨٨، الحضارات السامية القديمة ص٣٥، ٤٠، وخلاصة تاريخ العرب لسيديو ص١٥ ومحاضرات الأستاذ حامد عبدالقادر فى فقه اللغات السامية.

(٢) الساميون ولغاتهم ص١٥.

(٣) فقه اللغة د. وافى ص٩.

(٤) موسكاتى : ص٥١.

(٥) المصدر السابق ص٤٩.

كانت نقطة الانطلاق للهجرات السامية، و الحركات الوحيدة التى سلكت الاتجاه المضاد كانت حركات دفاعية قليلة محدودة النطاق[1]، وجميع الحركات التى انطلقت من الصحراء كانت لشعوب لغاتها سامية، ولا يصح أن نعترض بأنه وقعت أيضا حركات من مكان إلى آخر فى المناطق المستقرة، فمن الجلى أن الساميين بعد أن نفذوا من الصحراء إلى المناطق المستقرة واصلوا المشاركة فى الحركات التاريخية التى وقعت فى تلك المناطق وأن هذه الحركات اللاحقة لا علاقة لها بمسألة أصل الساميين[2].

الثانى : من الثابت – أيضا – أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء تجعل سكانها الرعاة البدو ينزعون ولا مناص إلى التدفق على المناطق الزراعية المحيطة بالصحراء ولا نزال نرى هذا النزوع إلى أيامنا هذه، فلا نزال نرى فى أيامنا هذه عملية التحاق القبائل شبه البدوية بالقبائل المستقرة[3].

ولا ريب أن ذلك يحدث حين تنكمش مساحات الكلأ وتنفق حيوانات الرعى ولا تعود الصحارى بقادرة على إطعام أهلها فيفيض سكانها على الأقاليم الزراعية المجاورة[4].

الثالث : النقوش التى عثرعليها مكتوبة باللغة السومرية أى بلغة سكان بابل

---

(١) كتلك الحروب التى لجأ إليها الأشوريون والبابليون منذ القرن التاسع قبل الميلاد بهدف بسط نفوذهما على عرب شمال الجزيرة، ولعل السبب الرئيسى الذى دفع الأشوريين والبابليين إلى الاهتمام بشمال الجزيرة العربية هو الرغبة فى حماية الطرق التجارية التى كانت تسير فيها القوافل القادمة من الجنوب وقد كانت هذه القوافل معرضة دائما لخطر السطو عليها من قبل القبائل الرعوية أثناء رحلتها الطويلة، فكانت تلك الحملات على طريق التأديب تتم بين الحين والآخر لضمان وصول المنتجات سالمة. انظر: بحث (قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش) للدكتور خالد طه الدسوقى بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السادس ص٢٦١، ٢٦٢، ٢٨٠ وقد استمرت هذه الحروب قرابة ثلاثة قرون ما بين القرن التاسع والسادس قبل الميلاد وأضعفت بلاد العرب الشمالية إلى حد جعل الطريق مفتوحا لاستيلاء الملك الفارسى قمبيز عليها دون مقاومة وهو فى طريقه إلى مصر عام ٥٢٥ق.م.، انظر: بحث الدكتور بيومى مهران بالمجلة المذكورة ص٣٣٩، ٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) موسكاتى ص٥٣.

(٣) المصدر السابق ص٥٥.

(٤) د. غلاب ص٤٩٢.

الأصليين تفيد أن بلادهم كانت دائما فى خطر من إغارة قبائل سامية كانوا يغيرون عليها من الجهات الغربية والغربية الجنوبية .

الرابع : دلائل التاريخ تشير إلى أن بابل وأشور وكنعان ومصر والحبشة كانت كلها هدفا لغارات من أقوام قدموا إليها من الجزيرة العربية .

والساميون أنفسهم - يقولون إنهم هاجروا من بلاد العرب ، قالوا ذلك على لسان سرجون الأول وقال ذلك المصريون حين روى قدماؤهم أنهم جاءوا من الشرق ومن الجنوب الشرقى وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا فى البلاد وأخضعوها لسلطانهم وما من شك فى أن صلة مصر بالشعوب السامية فى عصر ما قبل التاريخ تركت آثارها فى اللغة المصرية القديمة سواء فى مفرداتها أو فى أجروميتها[1] .

ويفيد ذلك أيضا تتبع المؤرخين للنصوص الأولى التى استعملت فيها كلمة (عرب) واختلاف دلالتها بين التخصيص على مواقع فى الأرض أو على قبائل بعينها أو على خصائص البداوة فيها وبين التعميم على شبه الجزيرة وما يتجاوزها وعلى قوم بجميع قبائلهم وقد استعملها هيروتس كبير مؤرخى اليونان فى القرن السادس ق . م . لتشمل شبه الجزيرة العربية كلها وأدخل فيها جزءا من الأراضى المصرية مما يقع فى شرقى وادى النيل[2] .

ولم يرد حدث تاريخى واحد يبين أن سكان ما حول الجزيرة من المتحضرين كالبابليين مثلا نزحوا إليها وقتا ما .

ولم نسمع بمثل تاريخى واحد يبين لنا أن سكان السهول والمدن المتحضرين ينزحون إلى البادية أو يهاجرون إلى الصحارى ليصيروا رعاة إبل وغنم إلا إذا اضطروا إلى ذلك اضطرارا[3] .

الخامس : والجزيرة العربية هى الموطن الوحيد الذى لم يؤثر فيه أى نفوذ أجنبى يخرجها عن طبيعتها أو صبغتها كما يقول المؤرخ الإنجليزى سايس

---

(١) بحث دكتور مهران ص٢٩٩ .

(٢) انظر : استراتيجية تطوير التربية العربية ص٥١ .

(٣) الأستاذ حامد عبدالقادر فى محاضراته (فقه اللغات السامية) .

(Sayse)وهو أحد المدافعين عن هذا الرأى[١] فقد قال إن كل الروايات والآثار السامية تشير إلى بلاد العرب موطنا أصليا للسامية فهو الجزء الوحيد الذى ظل ساميا تماما لا تشوب ساميته شائبة[٢] وكان أهلها منذ أقدم العصور مدبرين لأمورها متأهبين للإغارة على مجاورها ولذا نجت من تسلط كيروش (Cyrus) ملك الفرس[٣] واسكندر Alexandreابن فيلبس ملك اليونان[٤] وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة[٥].

السادس: عقلية الساميين التى تمتاز بجنوحها إلى المعانى المحسوسة المشاهدة - كما يتبين ذلك من لغاتها - تفيد بأن الصحراء لابد أن تكون مهدهم الأصلى[٦] فتشبيهاتهم ومادة أخيلتهم مستمدة من البيئة المحسوسة المشاهدة.

استمع إلى امرىء القيس الذى يقول فى وصف فرسه:

مكـر مفـر مقبـل مدبـر معـا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويمكننا أن ننتفع بالأدب العربى - الذى يمدنا بأوصاف وافرة لحياة البدو - وبالأدب العبرى مثل سفر التكوين فى التوراة حيث نشهد الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار[٧] وأشار سايس إلى ذلك أيضا حين قال إن المزاج السامى والعقلية السامية التى تمتاز بشدة الإيمان وعمقه والصلابة وتحلق فى أجواء الخيال لا يمكن أن يكسبها سوى وطن صحراوى لا يعرف أوساط الأمور ويترك قاطنه تحت رحمة قوة عليا مهيمنة ويفسح له أفق الخيال[٨].

وارتضى هذا الرأى أيضا فريق من الباحثين على رأسهم العالمان الألمانيان شريدر واشبرنجر A. Sprenger فقد نشر الأول مقالا سنة ١٨٧٣ فى مجلة ألمانية عن العلاقة الدينية والجغرافية والتاريخية واللغوية أكد فيه هذا الرأى ودافع الثانى عن هذا الرأى سنة ١٨٦١ ثم نشر كتابا عن جغرافية بلاد العرب القديمة سنة

---

(١) فى كتابه الذى ألفه عن اللغة الآشورية وظهر عام ١٨٦٢.
(٢) د. غلاب ص٤٩٧.
(٣) ولى ملكا على فارس سنة ٥٤٦ق.م. مهران ص٤١٣ ومابعدها.
(٤) ٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م. وقد فشل ذلك بموته فى ١٣ يونية سنة ٣٢٣.
(٥) خلاصة تاريخ العرب ص٦، ٧.
(٦) فقه اللغة: د. وافى ص٩، ١٠.
(٧) موسكاتى ص٥٥.
(٨) د. غلاب ص ٣٩٧.

١٧٨٦ أكد فيه هذا الرأى أيضا وألقى العالم الهولندى ديجوخيه Degoeje خطابا مهما سنة ١٨٣٢ أوضح فيه رأيه فى هذا الموضوع وأنه من أنصار القول بأن موطن الساميين الأصلى هو الجزيرة العربية وارتضى هذا الرأى أيضا Wright وهو برت جريمة (١٩٠٤) ومايزر (١٩١٢) ولوك (١٩٢٣)[١].

وقد ظهر – منذ حين – كتاب فى فقه اللغة عنوانه «مقدمة فى فقه اللغة العربية»، عرض كاتبه فيه لقضية (العرب ولغتهم) وبدا أنه يقلب الحقائق التاريخية واللغوية فى إطار معالجته لهذا الموضوع وقد رأيت من واجب البحث العلمى الموضوعى أن أناقش ما كتب بالحجة والدليل مبينا جوانب التجنى والذهاب إلى غير الصواب.

فجعل العرب – بصفة خاصة – والساميين – بصفة عامة – منذ فجر التاريخ كانوا يقطنون مكانا آخر غير الجزيرة العربية، وأن الجزيرة العربية لم تكن مهدهم الأول بل قدموا إليها من مكان آخر، وحاول – فى بيان هذا المكان الآخر – أن يجعله مكانا مشتركا نزل فيه الساميون والآريون جميعا وأنه لايوجد جنس يسمى بالساميين إلا فى إطار الشجرة العامة الهندية الأوروبية.

ولما كانت الحقائق التاريخية والبيئية والوثائقية تعرف جماعة إنسانية تسمى الساميين – منذ فجر التاريخ – وتعرف لهم تنقلات وهجرات تمت – أصلا – من داخل الجزيرة العربية إلى ما حولها فإن الكاتب يأبى إلا أن يمسخ طبيعة هذه الجماعة ويجعلها تذوب فى إطار الجنس الهندوأوربى بحيث لا يعرف لها شكل معين أو خصائص تميزها من سواها من الهنود والأوربيين.

ومن منطلقه الخاص يحاول أن يفسر نشأة العرب الأولين فيصر على أنهم قدموا إلى الجزيرة العربية من خارجها لا العكس محاولا بذلك أن يجعل اللغة العربية من فصيلة اللغات الهندية الأوروبية.

يقول : ولن نستطيع أن نفسر ظاهرة تكون اللغة العربية من عناصر مشتركة الجذور مع اللغات الهندية الأوروبية إلا اذا افترضنا أن التكون السكانى لشبه الجزيرة لم يكن فيضانا سكانيا من داخل شبه الجزيرة إلى خارجها أو حوافيها المحيطة بها ولكن كان فيضانا سكانيا من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها.

---

(١) المصدر السابق ص٤٩٨.

ويشرح اعتقاده السابق فيقول :

«إن المخزن البشرى العظيم الذى خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد كان المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود، وهو يعتنق رأى كنتنو القائل بأن ثلاثة أجناس تعايشت وتحاربت واندمجت فى العراق القديم وهم :

(أ) السكان الأصليون والسومريون والكاسيون وهؤلاء اصطلح على تسميتهم بالآسيين.

(ب) الهندوأوربيون وهؤلاء هم الميتانى أو الحريون أو الإيرانيون ولغة هذين الفريقين هندية أوروبية.

(جـ) الساميون : وهؤلاء هم الأكاديون من بابليين وآشوريين وعموريين وآرميين ولغتهم سامية[1].

ويقول : ليس من الصالح أن نتوه فى بحث التكوين الأنثروبولوجى لسكان شبه جزيرة العرب أو الهلال الخصيب[2] والتراكمات السلالية فيهما ففى تعقيدات التكوين اللغوى ما فيه الكفاية إنما يكفى أن نقرر بضع قضايا منها أنه من الثابت أن القبائل الآسية[3] المنحدرة إلى الهلال الخصيب من القوقاز وما حول بحر قزوين والبحر الأسود ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران أيا كان منبعها وأيا كان تكوينها الأنثروبولوجى كانت تتكلم لغة ميدية سيكيذية وهى إحدى فروع المجموعة الهندية الأوروبية ربما تكون موجات منها قد نزلت فى شبه الجزيرة كما نزلت موجات منها فى الهلال الخصيب، وفى هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن تكون الشعوب والقبائل الملقبة بالسامية سواء فى الهلال الخصيب أو فى شبه الجزيرة هى فى حقيقتها موجات تعاقبت فى عصور متعاقبة ومن مواقع متباينة من هذه المجموعة الآسية.

والعرب – إذا – موجة متأخرة جدا من الموجات التى نزلت على شبه الجزيرة

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٣٢، ٣٣.

(٢) يقصد به تلك الحاشية الخضراء الممتدة من الخليج العربى شرقا إلى سيناء غربا. انظر: الساميون ولغاتهم ص٢.

(٣) يقصد بهم سكان العراق الأصليين والسومريين والكاسيين.

من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين والبحر الأسود نحو سنة ألف قبل الميلاد أو قبيل ذلك.

وكما يرى المتأمل فكل كلامه مبنى على مجرد الافتراض ويكفى أن نلمح فى عبارته (ربما) و(ليس هناك ما يمنع) وغير ذلك من أساليب الارتجال.

بل إن الكاتب يذهب مذاهب غير معقولة وهو يعرض فكرته فيدعى أن انحدار هؤلاء الأقوام من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها حدث من أقوام بادية آثروا حياة البداوة على حياة الاستقرار فى وديان الأنهار أو حيل بينها وبين الاستقرار(١).

ويقول: لعلها لم تستقر فى مكان ما فى بلاد ما بين النهرين أوالشام الكبير لأنها وجدت فى هذه وتلك أقواما منظمة أقوى منها بأسا وأعلى حضارة فنفذت إلى الفراغ الكبير فى شبه الجزيرة من طريق بادية الشام حاملة معها لغتها القوقازية المتفرعة من المجموعة الهندية الأوروبية أو لعلها آثرت حياة البداوة والرعى والتجارة التى ألفتها فى مهدها الجبلى الأول على حياة الاستفلاح و الاستقرار ففضلت الحرية فى شبه الجزيرة على القيد فى وديان الأنهار مكتفية بروابط العصبية أو (القومية) كأساس للتماسك الاجتماعى عن الارتباط بالوطن سجن المتحضرين على رأى ابن خلدون(٢).

وهو يعتمد فى هذا على ما يناقض الواقع الملموس الذى أشار إليه معظم الباحثين والمؤرخين وذكرته من قبل فهو يصطدم بما تمليه طبيعة الحياة، فمن الواضح أن القول بأن المتحضرين يتركون حياة الحضارة والاستقرار إيثارا لحرية البداوة قول لا يوافق الواقع فلم نسمع - على الاطلاق - عن أقوام تركوا حياة الحضارة ليعيشوا عيشة البداوة والرعى وإنما حقائق التاريخ تؤكد عكس ذلك - كما عرضنا من قبل - وكما نراه تحت أعيننا فى العصر الحديث من تحضر البدويين وبنائهم العمارات الشاهقة فى المدن الناشئة فى الأقطار العربية التى انتقلت فى هذا العصر من البداوة إلى الحضارة.

ويكفى أن نعلم أن اشبرنجر الألمانى يقول: من المستحيل تحول الزراع إلى

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٣١. (٢) المصدر السابق ص٤٠.

بدو وأنه أهون عليه أن يرى أسد البحر يعيش فوق مرتفعات الألب والماعز فى البحر على أن يتصور سكان الحضر يتحولون إلى بدو[١].

ويوافق دى جوخيه اشبرنجر فى أن سكان السهول لا يسكنون الجبال أو يتحولون إلى رعاة متنقلين وقال: إن العكس هو الذى يحدث دائما فالرعاة يتحولون إلى زراع[٢].

والواقع أن العرب كانوا يرحلون ويتنقلون إما للتجارة وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم عن رحلتى الشتاء والصيف[٣] وإما تحت وطأة الفقر والعوز فرادى أو جماعات بشكل سلمى أو غزاة فاتحين[٤].

وهذا الكاتب يجد نفسه فى حرج مما يقول لمخالفته الواقع فيفترض فرضا آخر لصحة مدعاه فيجعل من الممكن – فى زعمه – أن تفسر الهجرات العظيمة بالانفجارات السكانية سواء بين سكان المراعى أو فى أحواض الأنهار دون حاجة إلى انتظار الجفاف من الأنهار والأمطار لتفسير انتقال الحشود البشرية من مكان إلى مكان عبر السهول والقنوات والأنهار والبحار من قارة إلى قارة ويفترض أن هذه الهجرات الجماعية لم تكن تتم إلا بين أقوام تملك من مقومات القوة الحيوية ما يؤهلها للخروج لغزو الأقوام الأخرى وفى مقدمة هذه المقومات درجة عالية من درجات التنظيم والتماسك الاجتماعى[٥].

والواقع أن الكاتب يتناقض مع نفسه فمرة يرى أن هذه الهجرات تمت من قبائل بادية آثرت حياة البداوة وأخرى يرى أن المهاجرين الذين ينزلون مكانا لابد أن يكونوا أقوى من غيرهم تنظيما وسلطانا اجتماعيا.

ثم إنه ينكر أمر جفاف الجزيرة فى العصور السحيقة والذى أيده كثير من علماء الجيولوجيا والآثار ويعرض لرأى البرنس كيتانى وينقده معتمدا على ما ذكره موسكاتى من أن الصحراء العربية لم يطرأ عليها فيما يبدو أى تغيير منذ فجر التاريخ[٦] وأنها لم تتغير إلا قليلا منذ أقدم الأزمان التاريخية إلى يومنا هذا[٧].

---

(١) د. غلاب ص٤٩٧. (٢) المصدر السابق ص٤٩٨.

(٣) المقصود قول الله تعالى فى سورة قريش ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾.

(٤) د. غلاب ص١٠٥. (٥) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٢٥، ٢٦.

(٦) موسكاتى: ص٥٣. (٧) المصدر السابق ص٥٤.

ونقد – في هذا الصدد – ما ذكره الدكتور جواد علي[١] من التغيرات الجغرافية والمناخية في جنوبي الجزيرة العربية وأن اليمن كانت جنة خضراء انبثق منها الإنسان الأول ثم أصابها الجفاف[٢].

ووصف هذا الرأي وأمثاله بأنه تشنجات بشرية تحتاج في تفسيرها إلى تشنجات جيولوجية أو إيكولوجية (بيئية).

ولا ندري مبعث هذه الأفكار التي يرسلها هذا الكاتب على عواهنها دون ترو أو إدراك للحقائق المسلم بها تاريخيا ووثائقيا فما قاله في هذا المجال زيف بلا مراء.

فأمر جفاف الجزيرة – في العصور السابقة – قد أكدته الأبحاث الجيولوجية والآثار التي لا تزال حتى الآن كما أشرنا من قبل، فضلا عن أنه يناقض نفسه فيعترف – في مقام آخر – بأن الجفاف ربما كان أحد العوامل التي تدعو إلى الهجرة فحينما تحدث عن هجرة أقوام من المنطقة المحيطة ببحر قزوين يحاول تفسير هذه الهجرة على أنها ربما تكون نتيجة الجفاف أو بسبب ضغط أقوام أخرى أخرجت الناس بالغزو من ديارهم[٣] فكيف يعترف هنا ويمنع هناك؟

ثم إن خصب جنوبي الجزيرة أمر ثابت لا يمكن إنكاره ولا يمكن أن يعد تشنجا بل العكس هو الصحيح، فالمؤرخون يعترفون بأن دولة سبأ اتخذت مأرب عاصمة لها في نهاية عصر المكاربة[٤] حيث كان يبنى سد عظيم للتحكم في وادي أذنه[٥] وتحويل مياهه للري وقد أشاع فيها ذلك السد الخصب والنماء ثم لما كفروا بأنعم الله أرسل الله عليهم سيل العرم فهدم السد وأغرق الزرع والثمار وخرب الكثير من مواردهم الزراعية.

وبهذا حدثنا القرآن الكريم قائلا:

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ط بيروت ١٩٦٨.

(٢) مقدمة ص٥٢. (٣) المصدر السابق ص٣١.

(٤) لقب حكام دولة سبأ العربية القديمة ومعناه (الكاهن الأكبر).

(٥) يقع شمالي مأرب وقد بني السد عند مضيق الوادي بين جبل بلق القبلي وجبل بلق الأوسط وكان يروي مأرب أيضا سد أصغر في وادي خانق أو وادي الفلج. تعليق د. يعقوب بكر مترجم الحضارات السامية القديمة لموسكاتي. هوامش الفصل الثامن ص٣٥٣.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ[1] عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[سبأ: الآيات ١٥ – ١٧].

وهذا الخصب الذى كان بأرض اليمن ثابت كما نرى بالنصوص القرآنية الوثيقة إلى جانب ما أثبته المحققون من المؤرخين.

والقرآن الكريم يبين أنهم – بعد الخراب الذى أصابهم – مزقوا كل ممزق وتفرقوا أيدى سبأ باحثين عن مأوى لهم قال عز حكمه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ: ١٩].

فبعضهم ذهب إلى الشام وآخرون إلى عمان وقبائل ثالثة إلى تهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فى التفرق فتقول. تفرقوا أيدى سبأ وأيادى سبأ أى مذاهب سبأ وطرقها [3].

ثم إن الكاتب يعكس ما اتفقت عليه الروايات التاريخية وما استقر لدى الباحثين من هجرات الشعوب السامية من البابليين والأشوريين والكنعانيين فيدعى أن هجرات البابليين والأشوريين تمت من أقاليم أخرى غير الجزيرة العربية فالبابليون – فى رأيه – تسللوا من شمال سوريا وأرض كنعان إلى العراق تسللا سلميا من ٢١٠٠ و٢٠٠٠ق.م.، وهم من يسمون العموريين [4].

---

(١) لم يرد الحق تبارك وتعالى جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة أن بلادهم كانت ذات بساتين وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها. القرطبى ط. الشعب ص٥٣٦٦.

(٢) الخمط: كل ما تغير إلى ما لا يشتهى، وخمط اللبن إذا حمض. الأثل: نوع من الشجر غليظ كالطرفاء الواحدة أثلة. السدر: نوعان برى لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل وهو الذى يسمى الضال والثانى: سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب. قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم فأهلك أشجارهم المثمرة وانبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر وأشجار البوادى لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية فى مقابلة الأولى أطلق عليها لفظ الجنة – على سبيل المشاكلة – كقوله تعالى: وجزاء سيئة سيئة مثلها: القرطبى ص٥٣٧٠ بتصرف.

(٣) القرطبى ص٧٣٧٣. (٤) مقدمة ص٣٢.

مع أن الآثارالتى خلفها الساميون في بابل وأشور تبين أن فريقا من هؤلاء الساميين هاجروا من الجهات الشمالية الشرقية من بلاد العرب إلى الجهات الخصبة من بلاد العراق، وقبل هذا التاريخ بكثير وربما فى القرن السادس والثلاثين ق.م ولكن الدولة لم تكتمل صورتها وتبلغ أوج عظمتها إلا فى عهد الملك سرجون الأول حوالى سنة ٢٧٥٠ق.م. [١].

وجميع الموجات السامية، وغيرها - فى رأيه - تدفقت من القوفاز إلى منطقة الشرق القديم منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد على أقل تقدير وعرفت بدايتها التاريخية بحضارة سومر لا فرق فى ذلك بين سومريين وحر يين (ميتانى) وكلدانيين وحيثيين من جهة وبابليين وأشوريين وعموريين وآرميين وكنعانيين، وفينيقيين، ومؤابيين، وسريانيين وعبرانيين وعرب من جهة أخرى [٢].

مع أن الوثائق والنقوش تقرر أن هجرات سامية خرجت من الجزيرة فى قرون سحيقة ق.م. وكانت تتم كل ألف سنة تقريبا.

فقد نزح بعض الساميين إلى جنوب العراق وغزوا بلاد السومريين، وأسسوا مملكة بابل حوالى القرن السادس والثلاثين ق.م.

ونزح بعضهم إلى الشمال فتكونت الشعوب الكنعانية [٣] حوالي القرن السادس والعشرين ق.م.

ونزح بعضهم فى هجرة ثالثة إلى العراق وأسسوا بها الدولة الكلدانية الخامسة التى كان من ملوكها حمورابى فى القرن السادس عشر ق.م. [٤].

---

(١) موسكاتي ص٦١ وما بعدها. والملك سرجون الأول الآكادي كتب عن أصله فى نقش مشهور ما يفهم منه صراحه أنه وعشيرته نزحوا إلى العراق من شرقى جزيرة العرب. انظر: تاريخ الشرق القديم للدكتور أحمد فخرى ص١٥٨، وقصة الجنس البشرى للدكتور هندريك فان لون ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى كتاب الشعب (٣) الطبعة الثانية ص٤٢ والساميون ولغاتهم ص١٠.

(٢) مقدمة ص٣٩

(٣) لمعرفة الشعوب الكنعانية انظر ص١٠٢ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٤) انظر مواطنهم الأصلية فى بحث : د. غلاب ص٥٠١ وما بعدها وكذلك د. وافى ص٨.

ووصلت هجرات من جنوبى بلاد العرب إلى مصر حوالى الألف الرابع ق.م.[١].

وهاجرت عشائر سامية أيضا إلى بلاد الحبشة قبل الميلاد بعدة قرون - وبلغت هذه الهجرات أشدها بين عامى ٣٠٠٠، ١٥٠٠ ق.م. فى عهد دولتى معين وسبأ وكانت هجراتهم من قرية تسمى فى النقوش السبئية (حبشا أو حبشت)، ولذلك أطلق على هؤلاء المهاجرين اسم الأحباش وعلى المكان الذى هاجروا إليه اسم الحبشة ويسميها اليونان (أثيوبيا)[٢].

وينفى اعتقاده - كذلك - ما أثبته الأستاذ سليمان حزين أستاذ الآثار والتاريخ المصرى القديم من أن بلاد العرب هى الأقدم وأن الثقافة قد انتقلت منها فى العصور الحجرية القديمة إلى شرق أفريقيا وأن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه فى أفريقيا من ناحية، كما يشبه أيضا مع وجود اختلافات غير قليلة ما عثر عليه الباحثون من رجال عصر ما قبل التاريخ فى سوريا والعراق[٣].

ويقرر الدكتور أحمد فخرى أن المهاجرين الساميين وصلوا إلى العراق حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.

وقد كانوا على درجة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم فهؤلاء الساميون الذين وصلوا إلى العراق قبل خمسة آلاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوما بدائيين بل كانوا ذوى ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية[٤].

وهذا يتفق مع ما ذكره المؤرخون والباحثون من أن الجزيرة العربية كانت خصبة فى التاريخ القديم وكان سكانها قوما ذوى حياة منظمة، وحضارة قبل أن يعتريها الجفاف ويصيرهم إلى حياة البداوة والرعى بآلاف السنين.

ويقرر الدكتور هندريك فان لون أن السومريين - وهم جنس أبيض اللون -

---

(١) تاريخ الشرق القديم د. أحمد فخرى ص١٥٨.

(٢) د. وافى ص٨٣ وما بعدها والأستاذ حامد عبدالقادر فى (فقه اللغات السامية) وبحث الدكتور مهران ص٣١٧ وما بعدها.

(٣) تاريخ الشرق القديم للدكتور أحمد فخرى ص١٥٧. (٤) المصدر السابق ص١٥٨.

وفدوا فى بادىء الأمر من الشمال (منطقة نشأة الإنسان الأول) ثم نزلوا الوادى الخصيب فى القرن الأربعين ق.م.

وسرعان ما تغلب عليهم الأكاديون (البابليون والأشوريون) وهم من القبائل الكثيرة الوافدة من صحراء العرب كانت تتكلم لسانا مشتركا عرفت باسم الساميين [١].

ويقرر كذلك أن الوادى الخصيب هو البوتقة التى انصهر فيها كثير من الأجناس السامية [٢].

والهكسوس - فى رأى الكاتب - لم يأتوا إلى مصر من الحجاز ومن شبه الجزيرة العربية وإنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر.

أما المنبع البشرى الذى تدفقوا منه على الشرق القديم ثم عبروا إلى مصر - على مراحل أو دفعة واحدة - فهو - كما يقول - بحسب تقدير كثير من علماء الآثار والتاريخ القديم نفس المستودع البشرى المعروف فى عصر الهجرات العظيمة حول بحر قزوين وربما كان هذا المستودع ذاته مجرد محطة وسطى استقروا فيها زمنا منذ هجرتهم من وسط آسيا شأن كافة القبائل التى تسمى آرية وطورانية وسامية [٣].

وبعد طردهم من مصر استقروا فى الحجاز، وأسسوا لهم مملكة جعلوا عاصمتها مكة [٤]: وهم - فى رأيه - تلك القبائل التى سميت بالعماليق.

ويرجع إليهم مدينة ثمود التى ازدهرت فى القرن الثانى ق.م. شمال الحجاز وكان لها بعض الشأن نحو ثمانية قرون قبل الإسلام ثم أهلكها الله، فاسم ملك الهكسوس (خمودى) يرتبط بمقارنة عناصره الفونطيقية باسم (ثمود) فهى مدينة أنشأها الهكسوس بعد خروجهم من مصر [٥].

(ومدائن صالح) بشمال الحجاز أنشأها الهكسوس كذلك يقول: ومن حقنا أن نستنتج مبدئيا أن مدائن صالح كانت إحدى المحلات أو المدن التى

---

(١) من كتاب (قصة الجنس البشرى) ص٢١.
(٢) المصدر السابق ص٢٢.
(٣) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٢٢.
(٤) المصدر السابق ص٣٥.
(٥) المصدر السابق ص١٨.

أنشأها الهكسوس بعد خروجهم من مصر وذلك بمقارنتها الفونطيقية بـ (متوشالح) و(شالح) الذى يشتبه فى أنه صيغة Sholek[1] وهو يجعل الكاسيين فرعا من الهكسوس.

ويؤكد بناء على ذلك أن العرب قدموا إلى الجزيرة من خارجها ونزلوا على السكان الأصليين فيها من الهكسوس ومن كان معهم فى القرن الخامس عشر ق.م. يقول « ولاشك أن العرب حين نزلوا شبه الجزيرة إنما نزلوا على سكان أصليين كانوا فيها كان منهم العماليق الذين نعرف من قصة الخروج فى التوراة أنهم كانوا مستقرين من الحجاز إلى جنوب فلسطين من قبل خروج بنى اسرائيل، وهؤلاء استطعنا تحديدهم بجحافل الهكسوس المطرودين من مصر فى القرن الخامس عشر ق.م.[2].

ويمضى فى ذلك فيدعى أن المرحلة الهكسوسية أو مرحلة الملوك الرعاة تمثل فترتهم الجاهلية الأولى التى يحدثنا عنها التاريخ العربى والأساطير العربية [3].

وبنى على هذا أن سكان جزيرة العرب خليط من الهكسوس والسكان الأصليين والآسيين ومتخلفات من الجيوش المصرية التى كان الفراعنة فى مصر يرسلونهم لتعقب الأماليك فى الحجاز [4].

ويبدو أن الكاتب تجاهل حقائق تاريخية ولغوية كثيرة أدت إلى هذه التصورات التى ادعاها.

فالحقائق التاريخية تؤكد أن قبائل انحدرت من أواسط آسيا ونزلت فى مناطق سوريا وفلسطين وبعد أن استقروا فيها بعض الوقت واندمجوا بأهلها اتخذ هذا الخليط من الناس طريقه غربا إلى مصر باسم الهكسوس سنة ١٧٣٠ق.م. كما يذكر الدكتور أحمد فخرى [5].

ويفهم من هذا الخليط أنه كان يضم عناصر سامية، فالثابت أن الكنعانيين نزلوا هذه المناطق حوالى القرن السادس والعشرين ق.م. واستقروا بها قبل القبائل التى انحدرت إليها من وسط آسيا بأزمان متطاولة ثم تكون منهم الخليط الذى غزا مصر باسم الهكسوس.

---

(١) المصدر السابق ص١٩.
(٢) المصدر السابق ص٤٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ص٤١.
(٥) تاريخ الشرق القديم ص٩٠، ٩١.

وبناء على هذا القول يكون الهكسوس ساميين وغير ساميين.

وفضلا عن ذلك فهناك كثير من الباحثين يؤكدون أن الهكسوس كانوا ساميين خلصاء فالأستاذ جيمس هنرى برستد [١] ينقل عن المؤرخ المصرى مانيتو أنه فى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة بعد ضعف مصر سنة ١٦٧٥ق.م. غزا مصر قوم ساميون من آسيا [٢] وقصد مانيتو بالهكسوس الفينيقيين ويستنتج من روايات مانيتو عن أخبار سوريا وفلسطين أن امبراطورية الهكسوس سامية الأصل[٣].

ويبدو بعد كل ذلك أن إصرار الكاتب على جعل الهكسوس من القبائل الهندية الأوروبية ينبو عنه التحقيق التاريخى، ويجانب الحقيقة الموضوعية التي تجعلهم - على أقل تقدير - خليطا من الساميين وغيرهم.

أما تصور الكاتب بأنهم - بعد طردهم من مصر - نزلوا الحجاز وأسسوا فيها المدن فهذا قول يخالف الحقائق التاريخية الواردة فى شأن الهكسوس أيضا.

فيقرر المؤرخون: أن الهكسوس بعد طردهم من مصر مكثوا فى فلسطين ست سنوات ثم تقهقروا شمالا إلى سوريا بعد هزيمتهم فى الموقعة المشهورة فى مدينة شاروهين إحدى المدن جنوبى فلسطين [٤] بعد حصار دام ثلاث سنوات[٥].

---

(١) كان أستاذا لعلم الآثار المصرية وتاريخ الشرق بجامعة شيكاجو ومديرا لدار التحف الشرقية بمدينة هاسكل والعضو المراسل للمجمع العلمي ببرلين.

(٢) من كتاب: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى. تأليف جيمس هنرى برستد ترجمة الدكتور حسين كمال. ط الأولى ١٣٤٧هـ - ١٩٣٩م ص١٢٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٢.

(٤) من الآثار التى بقيت للهكسوس فى مصر رواية عن قصة لأحد القواد المصريين الذين طردوا الهكسوس تدل على أنهم اقتفوا أثرهم فى مطاردتهم جنوبى فلسطين حتى بلاد فينيقيا أو سلسريا، انظر تاريخ مصر من أقدم العصور ص١٣٩، ١٤٠.

(٥) تاريخ مصر من أقدم العصور ص١٤٢ ود. أحمد فخرى فى بحثه السابق ص٩٢ وتاريخ الحضارة المصرية. العصر الفرعونى، ألفة نخبة من العلماء، المجلد الأول من بحث بعنوان (لمحة فى تاريخ مصر السياسى والحضارى) للدكتور محمد جمال الدين مختار ص١٠٢، وبحث بعنوان (النظم الاجتماعية) للدكتور عبدالمنعم أبو بكر ص١٢٢.

وعلى هذا فإن حياتهم لم تمتد إلى داخل شبه الجزيرة فى الحجاز بل كانت فى سوريا وفلسطين ولبنان وقد كانت نواة امبراطوريتهم هناك عند نهر الأورونط (العاصى) [١].

والتأثر والتأثير اللغوى والاجتماعى بينهم وبين المصريين حدث خلال فترة وجودهم بينهم فيقال : إن الهكسوس نشروا لغتهم السامية بين المصريين [٢] كما تأثروا هم أيضا بلغة المصريين وتقربوا إلى معبوداتهم كنفاق سياسى [٣].

وهذا التحقيق التاريخى ينفى أن يكون للهكسوس وجود فى منطقة الحجاز، فادعاء الكاتب أن مرحلتهم الهكسوسية هى فترة الجاهلية الأولى للعرب ادعاء غير صحيح [٤] كما أن هذا التحقيق ينفى – أيضا – أن يكونوا هم الأماليك الذين عرفوا باسم العماليق حيث لم ينزل الهكسوس مناطق الحجاز ولم يؤسسوا به أية مدينة، وقد اعتمد الكاتب فى ذلك على بعض الروايات التى لا يوثق بها [٥].

وعلى العكس من ذلك فإن الهجرات كانت تتم من جنوب الجزيرة إلى شمالها نتيجة التجارة وهدم سد مأرب، ومن المهاجرين عرب الغساسنة – فى حوران بسوريا – والمناذرة (بنو لخم) : فى الحيرة بالعراق [٦] وقد أكدت ذلك النقوش الكثيرة [٧].

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ص١٤٢ .   (٢) المصدر السابق ١٣٩ .

(٣) من بحث الدكتور محمد جمال الدين فى تاريخ الحضارة المصرية ص١٠٣ .

(٤) قيل : إن هكسوس معناها : (ملوك الرعاة) لأن الجزء الأول « هيك » معناه بالقلم البربائى (ملك) و(سوس) لفظ فى اللغة الدارجة معناه « الراعى » بيد أن روايات أخرى تفسرها بأنها (حكام الأراضى) وهذا يؤكد بطلان القول بأن مرحلتهم تمثل الجاهلية الأولى للعرب .

(٥) خلاصة تاريخ العرب ص٢١ والعمالقة بنو عمليق بن ولاذ بن سام المضروب بهم المثل فى الطول والجثمان .

(٦) د . أحمد فخرى ص١٧٩ ، ١٨٠ وكان ذلك فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، انظر : موسكاتى ص٢٠٤ وبحث الدكتور خالد طه الدسوقى فى مجلة كلية اللغة العربية : العدد السادس ص٢٥٥ .

(٧) وصل عدد النقوش اليمنية الآن أكثر من خمسة آلاف نقش فيها معلومات كثيرة عن ممالك الجزيرة العربية فى الجنوب كما وصلت إلى أيدى العلماء عشرات الآلاف من المخربشات القصيرة على واجهات الصخور فى شمال بلاد العرب بين ثمودية ولحيانية وغيرها جعلتنا نعرف الكثير عن عرب الشمال . انظر د . أحمد فخرى ص١٥٩ .

وهناك هجرات تمت من بلاد الحجاز إلى الشمال نزحت فيها قبائل الإسماعيليين (نسل إسماعيل عليه السلام) ومنهم بنو قيدار وبنو ثابت، أما بنو قيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى يثرب ومنها إلى مدائن صالح حيث تركوا بعض نقوش وفق العلماء حديثا إلى كشفها وحل رموزها، ومن مدائن صالح تابعوا هجرتهم شمالا إلى خليج العقبة، ومنه إلى وادى موسى حيث ألقوا عصا الترحال، وأما بنو ثابت (المعروفون بالنبط أو النبطيين) فقد نزحوا مع بنى قيدار من الحجاز إلى الشمال واستقروا فى منطقة خليج العقبة وتركوا آثارا كبيرة وفيهم ظهر الخط المعروف بالخط النبطى الذى اشتق منه الخط العربى [1].

وقد اختلف علماء الساميات فى تحديد تواريخ هؤلاء الثموديين، واللحيانيين وغيرهم ممن كانوا يستوطنون الشمال مثل الصفويين (أهم مراكزهم فى حوران جنوبى سوريا) ورأى بعضهم أنهم عاشوا وازدهرت ثقافتهم قبل ظهور المسيحية بقرون، كما رأى البعض الآخر أنهم لم يظهروا إلا فى القرن الأول المسيحى، ورأى فريق ثالث أنهم لم تكن لهم ثقافة إلا قبل الإسلام بقليل، ولم يتفقوا إلا فى أمر واحد وهو أنهم كانوا وثنيين وعاشوا قبل ظهور الإسلام وأن لغتهم تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية الشمالية [2].

ويذكر القرآن الكريم أن ثمود كانت بعد عاد ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[سورة الأعراف: ٧٤] ومما يذكر المؤرخون أن عادا بادت بعد وجود سيدنا إبراهيم وبناء البيت بمكة وإبراهيم ولد – على ما تذكر بعض الروايات – عام ١٨٥٤ق.م. وتوفى عام ١٧١٧ق.م. ويمكن القول بأن قوم ثمود ظهروا وعاشوا وبادوا فى الفترة ما بين عام ١٨٢٤ إلى ما قبل عام ١٢١٦ق.م.، ومنهم اللحيانيون الذين انفصلوا عن الأمة الثمودية حوالى منتصف القرن الخامس ق.م.، وكان الثموديون يسكنون أول الأمر فى الأحقاف بين اليمن وعمان ثم اتخذوا الحجر [3] موطنا لهم، واتجه بعضهم إلى اليمن مرة أخرى ووجدت لهم

---

(١) فقه اللغة د. وافى ص٨. (٢) د. أحمد فخرى ص١٦١.
(٣) شمال غرب الجزيرة.

أمة استمرت حتى بعد الميلاد، وكان لهم وجود فى أماكن كثيرة من الجزيرة وربما بقيت أمتهم إلى ما بعد الإسلام وقد دلت على ذلك الآثار والنقوش (١).

ويدل على قدم ثمود فى الوجود وأنها تمتد إلى أعماق سحيقة في التاريخ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[ابراهيم: ٨، ٩].

وإن قوم عاد وثمود قبائل عربية قديمة أثبتت النقوش التى عثر عليها أن لغتها قريبة الشبه من لغة العرب الباقية (٢).

والجوانب الفونطيقية التى اعتمد عليها الكاتب للربط بين ثمود و(خمودى) أحد ملوك الهكسوس لا تتفق مع قوانين علم اللغة الحديث من الصلة الصوتية بين الأصوات والحروف إذ يجب أن يتم التبادل على أساس من التقارب الصوتى فى المخارج والصفات (٣).

والصلة بين (خمودى) و(ثمود) بعيدة فالخاء لا تتفق مع الثاء مخرجا بل هما متباعدتان تماما مما لا يمكن معه تصور التبادل بينهما.

هذا مع ما يلحظ من الفروق الدقيقة بين الأصوات فى اللغات السامية مما يثبته علم التشكيل الصوتى فالصوت الواحد، أو ما يسمى فى عرف الأوروبين بالفونيم فى موقعه من الكلمات يختلف عن صاحبه اختلافا بينا من حيث المعنى المراد، ولو كان القرب الشبهى واضحا بينهما، وتأمل معى هذه الكلمات المشتركة فى حرفين والمختلفة فى حرف واحد: (نام: عام. صام) – (بلى – بنى – برى): فالمعانى مختلفة باختلاف الوحدة الصوتية أولا أو وسطا كما ترى، ومع أنها متقاربة فى المجموعة الأخيرة من الأصوات.

---

(١) انظر: بحث (قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش للدكتور خالد طه الدسوقى) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ٢٥١ –٢٩٦.

(٢) فقه اللغة د. وافى ص٩٤ – ١٠٣.

(٣) انظر: بحثا لنا عن (تفسير بعض مشكلات العربية الفصحى) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص١٢١.

والعلاقة بين (ثمود) و(خمود) بعيدة من حيث المعنى فى اللغة العربية[1].

وقد اعترف الكاتب نفسه بأن العلاقة الفونطيقية لا تؤدى دائما إلى نتائج متحققة معينة[2].

أما أن العرب جاءوا إلى الجزيرة من خارجها فهذا ما أثبتنا خلافه من قبل.

وأما القول بأن الموجة العربية تعد حديثة نسبيا فهو أمر يخالف الواقع وهو أن العرب لم يغادروا الجزيرة، وهم الطائفة السامية التى بقيت ممثلة للشعب السامى الأول، بل إن الأستاذ فيليب حتى يرى أن هذه الهجرات التى أطلق عليها الأوربيون اسم السامية ليست فى الواقع إلا هجرات عربية قديمة خرجت من شبه جزيرة العرب تحمل شعوبا وثقافات متجانسة كلها عربية بعضها عربى قديم وبعضها عربى أحدث وهكذا، وهذا يتفق مع تقسيم العرب إلى عرب بائدة وعرب باقية، وليست اللغات البابلية أو الأشورية أو الكنعانية أو الآرامية أو العبرية إلا أشكالا متطورة من اللغة العربية القديمة وليست العربية الحديثة إلا الشكل المتطور الحديث لهذه اللغة العربية الأقدم. واستمرت فى التطور حينا بعد آخر حتى استوت فى العربية الحديثة لغة القرآن الكريم[3].

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن اللغة العربية تعد أقدم اللغات السامية وأنها كانت – ولا زالت – تمثل اللغة الأصلية للساميين.

ويذكر بعض الباحثين أن الهجرات العربية ظلت تتدفق على مصر منذ

---

(١) فالثمد الماء القليل الذى ليس له مدد وثمد الماء: قل وله معان أخرى تدور حول ذلك حقيقة أو مجازا – وخمدت النار: سكن لهبها ولم يطفأ ولها معان أخرى تتعلق بذلك أيضا. انظر – على سبيل المثال: المعجم الوسيط ١ / ١٠٠، ٢٥٤.

(٢) مقدمة ص١٩ وتنسب ثمود إلى ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح. انظر: جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ١ / ٣٢٤ وفى تاج العروس ٢ / ٣١٢ واللسان ٣ / ١٠٥ ثمود – كصبور – بن عابر بن سام قبيلة من العرب الأول ويقال: إنهم من بقية عاد وقيل غير ذلك، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير ١ / ١٣٠ ومابعدها.

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ترجمة حتى وآخرين بيروت ١٩٥٢ وانظر : د. غلاب ص٤٩٥.

عصور ما قبل التاريخ وطوال العصور التاريخية حتى الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى بدرجة كبيرة أو صغيرة طبقا للظروف السياسية والاقتصادية.

وبلاد العرب كانت تقذف بالموجة تلو الأخرى إلى وادى النيل عبر البحر الأحمر وعن طريق سيناء والتى كانت منذ القدم قنطرة مفتوحة للهجرات، ومن هذه الهجرات:

١- هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر فى مطلع المسيحية.

٢- هجرة قبائل من طيء - فرع كهلانى آخر من المجموعة الجنوبية - كان من أهمها قبيلتا لخم وجذام اللتان استقرتا فى محافظة الشرقية.

٣- قبيلة (بلى) التى استقرت - فيما بين قنا والقصير وكان عليها الاعتماد فى نقل التجارة الهندية.

٤- النقوش تثبت لنا وجود تجار تدمريين مستقرين فى مدينة قفط فى صعيد مصر منذ القرن الثانى الميلادى.

٥- هجرة بطون من خزاعة - وهم فرع من الأزد - خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام بسبب قحط أصاب بلادهم، هذا فضلا عن الجماعات التى استقرت فى شرق الدلتا قبل الإسلام(١).

وقد حاول الكاتب أن يعتمد على أفكاره التى نقضناها ليثبت أن اللغات السامية من فروع اللغات الهندية الأوروبية وأن اللغة العربية تتحد فى أصولها مع الهندية الأوروبية إذ هى فرع من الساميات.

فقد حاول أن يجعل سكان العراق الأصليين - وهم من الجنس السومرى - ينتمون إلى الجنس الهندوأوربى يقول: وقد دلت الأبحاث التاريخية والأثرية على أن حضارة سومر فى جنوب العراق وهى أقدم حضارة معروفة فى بلاد ما بين النهرين كانت حضارة هندية أوروبية، فبتحليل نقوشها وجد العلماء أن اللغة السومرية لغة ميدية سيكيذية وهذا يشير إلى موجات هجرة بشرية خرجت فى أوائل الألف الثالثة ق.م. من مراعى ميديا فى شمال إيران المتاخمة لبحر قزوين

(١) انظر: د. بيومى مهران ص٣٣٤.

ومن مراعى سكيذيا فى القوقاز ومن مراعى سيميريا حول البحر الأسود واستقرت هذه الموجات فى بلاد ما بين النهرين، وأعطتها لغتها الهندية الأوروبية وربما أعطتها اسم (سومر) أو (ثومر) من اسم سيميريا القديم وانتشر هذا العنصر حتي شمل آسيا الصغرى وشمال أشور وشرقها وبين عامة السكان من القوقاز حتى علام شرق الخليج الفارسى[١].

مع أنه يناقض نفسه فينقل ما ذكر كونتنو عن جهل أصل هؤلاء الأقوام فهو يصنفهم أنثروبولوجيا بأنهم لا هندوأربيون ولا ساميون[٢] ويقطع الدكتور وافى بجهل أصولهم[٣] ويذكر الدكتور هندريك فان لون أن السومريين اندمجوا اندماجا تاما فى الأجناس الأخرى التى نفذت فيما بعد إلى الوادى الخصيب، وسرعان ما تغلب عليهم الأكاديون ثم خضع الأكاديون بعد ذلك بألف عام لحكم العموريين الساميين[٤] وأنت رأيت أن المؤرخ هندريك وغيره لا يقولون بانتشار هذا الجنس فى غير الوادى الخصيب ويفهم من كلامهم أن الجنس الذى انتشر هم البابليون والأشوريون والكنعانيون الذين كانت المنطقة تموج بهم وحلت لغتهم محل لغة السومريين الأصليين وإن تأثرت بها.

والكاتب يرى أن الموجات التى نزلت من القوقاز إلى العراق كانت تتكلم بفروع الهندية الأوروبية فيقول: «إن الثابت أن القبائل الآسية المنحدرة إلى الهلال الخصيب[٥] من القوقاز وما حول بحر قزوين والبحر الأسود ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران أيا كان منبعها وأيا كان تكوينها الأنثروبولوجى كانت تتكلم لغة ميدية سكيذية وهى إحدى فروع المجموعة الهندية الأوروبية ربما تكون مجموعات منها قد نزلت شبة الجزيرة كما نزلت موجات منها فى الهلال الخصيب[٦].

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٣١ -٣٣.   (٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) فقه اللغة ص٢١ يقول الشعب السومرى شعب مجهول الأصل ومن المقطوع به أنه غير سامي ولا آرى.

(٤) قصة الجنس البشرى ص٢١.

(٥) يقصد الكاسيين من ١٥٣٠ ق.م - ١٢٠٠ ق.م ثم موجة الميتانى وهم الحريون ١٨٠٠ ق.م - ١٣٠٠ ق.م. ثم الفرس ٥٣٠ ق.م - ٣٣٠ ق.م ثم اليونان فى عهد الاسكندر ثم الفرس فى عهد الساسانيين ثم الساميين البابليين والأشوريين.

(٦) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص٣٣.

ويحبذ أن يكون الساميون - على أى حال - قد تكلموا باللغات الهندية الأوروبية على افتراض المستحيل فى رأيه و هو أن الساميين نبعوا من شبه الجزيرة يقول: فإن كانت الأنثروبولوجيا البشرية تصر على وجود جنس مستقل بذاته فى الهلال الخصيب وفى شبه الجزيرة نبع من شبه الجزيرة أو وفد عليها من الخارج من مصدر غير هندى أوروبى فلا مناص من افتراض أن هؤلاء الساميين قبلوا اللغات الهندية الأوروبية سواء من الأساس السومرى أو من القبائل القوقازية والهندية الأوروبية المتعاقبة التى انحدرت عليهم من الكاسيين والميتانى والفرس[1].

وهذا تعصب لا يستند إلى دليل أى دليل فهو لا يرضى إلا أن يتكلم الساميون الهندية الأوروبية رضوا أو كرهوا ثبت فى رأية أو لم يثبت وصح ظنه أو لم يصح.

وليس هذا فى الحقيقة طريق البحث العلمى المنصف الذى يريد إبراز الأمور بجدية وموضوعية فالمسألة ليست إثباتا أو نفيا بقدر ما تعتمد على مصادر البحث والتوثيق وليس معه من ذلك شيء.

ولا ينسى الكاتب أن يشير إلى آثار اليونانية والرومانية والإيرانية فى اللغة العربية، فاليونان منذ عهد الاسكندر الأكبر - والرومان - منذ أولوس جلوس - وبيزنطة عبر قرون قد تركوا فى عرب شبه الجزيرة آثارا حضارية ولغوية هندية أوروبية سواء مباشرة أو عن طريق التواصل الحضارى مع أهل الشام عبر ٩٠٠ سنة من ٣٣٠ ق.م. وهو بدء فتوحات الاسكندر إلى ٦٢٢ م وهو تاريخ الهجرة النبوية[2].

غير أنه يقول إن تأثيرات الفرس واليونان والرومان وبيزنطة فى اللغة العربية مهما كانت قوية وعميقة فهى تأثيرات حضارية وليست تأثيرات حيوية بيولوجية[3].

ومع هذا التحامل والتعصب فإننا سنناقشه بهدوء وموضوعية آملين أن يجد فيما نقول ما يوضح الحقيقة للباحث والقارىء على سواء.

---

(١) المصدر السابق ص٣٣، ٣٤.
(٢) مقدمة ص ٤١ وانظر: ص٤٢.
(٣) المصدر السابق ص٤٢.

فنحن لا ننكر تأثر اللغات السامية ببعض اللغات التى عاصرتها سواء من المجموعة الهندية الأوروبية أو الحامية.

فالتشابه قائم بين اللغات السامية وبعض اللغات الحامية كالبربرية والكوشية، مع أن مسافة الخلف بينهما كبيرة وربما لم يتعد التشابه بعض المفردات والقواعد وربما كان ذلك ناشئا عن تأثر بعضها ببعض وكان بين العبرية والبربرية بعض صلات القربى والتلاقى على سبيل التأثر والتأثير[١] ومع ذلك لا يمكن القطع برأى فيه.

وإذا كان حدث تأثر وتأثير بين المصرية وبعض اللغات السامية فإن رسائل (تل العمارنة) تفيد أن المؤثر هو اللغات السامية لا العكس.

يقول الدكتور وافى عن البابلية والأشورية (ولم يقتصر استخدام هذه اللغات على مملكتى بابل وأشور بل امتد نفوذها فى العصور الذهبية لهاتين المملكتين إلى كثير من الممالك المجاورة لها فقد عثر فى تل العمارنة - عاصمة مصر فى عهد اخناتون - على رسائل مدونة باللغة الأكادية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. (١٤١١ - ١٣٥٨ق.م.).

وتشتمل هذه الرسائل على مخابرات دارت بين ملوك مصر فى ذلك العهد (أمنوفيس الثالث وأمنوفيس الرابع وأخناتون أو بعض الأمراء الشرقيين وبخاصة الأمراء الكنعانيون وبعض هذه الرسائل متبادلة بين ملوك مصر وأمراء بابل وأشور وأكثر هذه الرسائل مبعوث منه إلى مصر وأقلها مبعوث به من مصر)[٢].

واللغة المصرية القديمة - وإن كانت حامية تصنيفا - فإن جمهرة من العلماء يرجعونها إلى عائلة اللغات السامية ومنهم:

---

(١) فقه اللغة د. وافى ص١٩ ، ٢٠.

(٢) انظر: د. وافى ص ٢٣، ٢٤ وعدد هذه الوثائق أربعمائة وثيقة يوجد من أصولها المنقوشة بالخط المسمارى على لوحات من الصلصال ١٩٤ وثيقة فى متحف برلين و٨٢ فى المتحف البريطانى و٥٠ فى متحف القاهرة، وبقية الوثائق مبعثرة فى متاحف خاصة وعامة فى حواضر مختلفة، ومن بينها وثيقتان فى نيويورك. وانظر: د. أحمد فخرى ص١٢٠ وما بعدها.

F. : Hommela frmam A Fmter - A. Kwmal T. W. Thaker. T. Benfey. A. Selne, F. Petrie, H. Brugsch, 7, Pemorgan,

ويستدلون على ذلك بأن اللغة المصرية القديمة قد اشتركت مع الساميات في خصائص عدة كان من أوضحها وجود حرف العين بين حروفها، وشيوع المصدر الثلاثي بين أفعالها وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها وكتابة الحروف الساكنة وشبه اللينة في كلماتها دون حروف الحركة واستخدام حرف الميم ضمن أدوات النفي فيها وفي بقية اللغات السامية وإضافة تاء التأنيث في نهاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة وتشابه ضمير جمع المتكلم المطلق فيها مع مثله في اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى استخدام ما تستخدمه اللغة العربية الحالية من الإضافة المباشرة وغير المباشرة، وإلحاق الصفة بالموصوف واستخدام تمييز البعض من الكل، واستخدام الجملة الفعلية إلى جانب الجملة الاسمية، وتأكيد الجملة الاسمية أحيانا ببدئها بحرف (إن) وإضافة تاء المخاطب للمذكر والمؤنث المفردين في إحدى صيغ الفعل الماضي، وإضافة ميم المكان وميم الأداة إلى بعض أسمائها وأفعالها لتأليف أسماء مركبة تجرى مجرى الأسماء العادية على غرار المتبع في اللغة العربية.

فإذا أضفنا إلى ذلك أنها كانت تشتمل على نسبة مهمة من المفردات والكلمات السامية وقد أثبت البعض اشتراك أكثر من عشرات الكلمات بين المصرية القديمة والعربية مثل الكلمات حسب – خب – ختم – خر – شد – تم – تمم – نحر – نعي – بألفاظها العربية العادية كما عبروا عن الماء بلفظ (مو) وهو نفس اللفظ الذي استعمله الأكاديون واليمنيون القدامى ومن أقوالهم (هرية منية) أي يوم المنية كل ذلك وغيره يدل على الصلة بين المصرية والسامية.

ويشهد المورخون بأن التأثير الغالب للسامية لا للمصرية [1] تبعا للتأثير الحضاري الذي نقله الساميون إلى مصر، فكثير من صور الآلهة التي عبدت في مصر لها شبه بما كان موجودا في جزيرة العرب، كاسم الإله (حور) إذ هو غريب

---

(١) اقرأ في هذا الصدد بحث الدكتور مهران في مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص٣٢١ وما بعدها وانظر على الخصوص صفحات : ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٤.

على اللغة العربية ولكنه موجود فى اللغات السامية، وبعبارة أدق فى اللغة العربية حيث تطلق العرب اسم (حر) على الصقر المعروف باسم Faucon Pelerin : وما زالت كلمة (حر) مستعملة إلى الآن فى كثير من بلاد العرب وشمال أفريقيا لهذا الطير [١].

وكذلك عثر على قطعة برونزية من الآثار السبئية محفوظة فى متحف فينا نشرها جرومان تمثل الإله (بس) جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه وهذا الإله نسبه المصريون القدامى إلى بونت وإلى أرض الإله التى هى أصلا اسم لبلاد العرب الجنوبية [٢]. وقد ذكر الدكتور مهران أدلة كثيرة على أن الساميين وبخاصة العرب كان لهم تأثير كبير على الجانب الأفريقى عن طريق الهجرات اليمنية إلى شرق أفريقية وأن نقوشا وآثارا كثيرة تفيد ذلك[٣].

والآرامية امتد نفوذها إلى مصر (فكان للآرامية نفسها فى مصر منزلة لا تقل عن منزلتها فى البلاد الأخرى [٤] بل امتد نفوذها فى مصر إلى ما بعد العهد الفارسى بزمن طويل كما تدل على ذلك الوثائق التى عثر عليها بجزيرة فيلة (أنس الوجود)[٥] وتشمل رسائل وعقودا مدونة بالآرامية على البردى والخزف ويرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس ق . م .)[٦].

وكان ولا شك تأثير وتأثر بين البابلية والآشورية (الأكدية) ولغة السومريين سكان العراق الأصليين عند هجرتهم إليها والتاريخ يفيد تغلب الأكدية على لغة السكان الأصليين.

ولا ريب أن احتكاكا آخر حدث بين فروع الآرامية – وهى السريانية – وبين البونية، وكذلك بين الفينيقية واللاتينية، واللهجة البونية – لهجة قرطاجنة – كان لها احتكاك باللاتينية على سبيل التأثر والتأثير.

ونحن نعترف بأن اللغة العربية الجنوبية والشمالية التقت بأخواتها وتأثرت بها مع ما فيها من مظاهر التأثر باللغات الأخرى.

---

(١) المصدر السابق ص٣٠٠. (٢) المصدر السابق ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق ص٣٩١ ومابعدها.

(٤) كآسيا الصغرى وفى جميع بلاد العراق وسوريا وفلسطين.

(٥) فقه اللغة د. وافى ص٥٤. (٦) المصدر السابق ص٢٢.

فاللهجات العربية الجنوبية تأثرت بالآرامية [1].

والآرامية التقت مع العربية عند الفتح العربى وصرعتها العربية وهناك بعض النقوش التى كتبت بالعربية البائدة والسريانية واليونانية.

وهذا كله خلع بعض الآثار على الأدب العربى [2] لكنه لم يزد على ما كتب علماؤنا الأفاضل السابقون من بعض جوانب التأثير أما أن تعد اللغات السامية بعامة والعربية - بخاصة - فرعا من اللغات الهندية الأوربية فهذا ما لا يمكن القول به والدعوى العريضة بأن اللغة العربية تتطابق فى أصولها مع الهندية الأوربية لا يسندها دليل علمى فالثابت أن أوجه الخلاف بين العربية والساميات بصورة عامة وبين اللغات الهندية الأوربية كثيرة وشاسعة تبعا لما أثبته المحدثون من علماء اللغة وعلى رأسهم فريق من مستشرقى الألمان لما بين الفصيلتين من فروق جوهرية فى المادة اللغوية والقواعد والأساليب.

ونحن لا نستبعد أن تكون الفصيلتان انحدرتا من بقعة واحدة قبل انفصال الشعوب، فلما حدث ذلك بعدت كل منهما عن الأصل بتوالى العصور واختلاف البيئات، حتى صارت كل منهما فصيلة مستقلة قائمة بذاتها.

وقد ذهب القائلون بالتشابه إلى أن بعض الكلمات تتشابه فى الفصيلتين السامية والهندية الأوربية من حيث المبنى والمعنى ولكن البحث العلمى أثبت أن هذه الألفاظ تنحصر فى مجموعتين:

١- ألفاظ حكائية ولعلها منحدرة من اللغة الإنسانية الأولى ومن ذلك (لق) يقال فى العربية لقه أى ضرب عينه براحة يده ويقرب من هذا الفعل (لكه)[3] وفى الإنجليزية والإغريقية واللاتينية والألمانية والفرنسية كلمة تشبه (لق) فى لفظها ومعناها.

٢- الألفاظ المستعارة ففى العبرية نجد بعض أسماء تدل على أشياء موطنها الأصلى بابل أو آشور أو مصر أو إيران أو الهند.

---

(١) المصدر السابق ص٤، ٥، ٦، ٩، وانظر: فى علاقة العرب باليونان والرومان د. مهران ص٤١٣ - ٤٢٤ والحروب التى دارت والعلاقات التجارية وغيرها، ودخول المسيحية إلى الحبشة وبلاد العرب ص٤٢٣.

(٢) فقه اللغة د. وافى ص ٢٧ ومابعدها. (٣) المعجم الوسيط ٢ / ٨٣٥، ٨٣٧.

مثال ذلك الكلمة Karpas تفيد فى العبرية معنى الكرباس أى القطن وهى بالفارسية « كرباس » وفى السنسكريتية « كرباسا » وبالإغريقية كرباسس.

هذا. وهناك كلمات تكاد تتحد لفظا ومعنى فى معظم اللغات مثل كلمة المسك Musk والكافور والعنبر وهى أسماء لأشياء من منتجات الهند ونقلت مع مدلولاتها إلى البلاد الأخرى.

وإذا نظرنا إلى اللغات الهندية الأوربية كالإغريقية - مثلا - نجد فيها كلمات استعارتها من الساميات لأنها أسماء لأشياء موطنها الأصلى آسيا.

ومن ذلك كلمة Boos أى البوص - وهو القصب المعروف الذى كانت تصنع منه الأقلام وهو بالإغريقية « بسوس ».

و Livounah وهو اللبان الذى يمضغ وهو بالإغريقية « لبانوس ».

ومن المحتمل أن يكون الفينيقيون هم الذين نقلوا هذه الألفاظ من جهة إلى أخرى من آسيا إلى أوربا والعكس.

ولا ريب أن الاشتراك فى هذه الألفاظ ونحوها - وهى بالطبع محدودة - لا يدل على الصلة النسبية بين الفصيلتين السامية والهندية الأوربية أو اتحادهما وانما الذى يدل على ذلك الاشتراك فى أمور جوهرية كطرائق الاشتقاق والتصريف وأساليب التعبير وما إليها وفى عدد كبير من المواد اللغوية التى لا ترجع فى نشأتها إلى المحاكاة أو الاستعارة.

ولا يمكن القول كذلك بالعلاقة بين السامية والحامية لوجود فروق جوهرية فى القواعد وأساليب التعبير، ولعل اختلاط الهكسوس الساميين بالحاميين فى مصر أدى إلى نقل بعض الكلمات وكذلك عن طريق التجارة والمجاورة الجغرافية وذلك لا يكفى للقول باتحاد الفصيلتين أو تشابههما من جميع الوجوه [1].

وهذا يدعونا إلى أن نبين بعض وجوه الخلاف الجوهرية التى تجعل كلا من الفصيلتين السامية والهندية الأوربية قائمة برأسها فللساميات خصائصها التى تختلف فيها عن نظيرتها الهندية الأوربية وهى كثيرة نذكر منها:

---

(١) انظر فى هذا : فقه اللغات السامية للأستاذ حامد عبدالقادر فى حديثه عن الفصائل اللغوية.

١- تتميز اللغات السامية - فى الجانب الصوتى - بغنى ملحوظ فى طائفة الحروف الصامتة ففيها حروف كثيرة مخرجها من الحنجرة والحلقوم واللهاة، وفيها ما نسميه بالحروف المطبقة التى يصحب نطقها قبض للحنجرة فهذه الحروف التى تتميز بها اللغات السامية والتى لا نكاد نجد لها نظيرا فى اللغات الأوروبية يمكن أن تدرج كلها تحت صفة عامة هى أن اللغات السامية أكثر من غيرها رجوعا إلى الوراء بما يمكن أن نسميه مركز الجاذبية Centre of Gravity فى نظام النطق [١].

ومن المعروف أن حروف الحلق ولا سيما الحاء والعين نجدها بنطقها السليم فى العربية والعبرية والآرامية والحبشية ولكنها تضيع فى الأكدية وتحل محلها الهمزة وذلك بتأثير من السومرية التى لم تكن تعرف حروف الحلق.

وحروف التفخيم أو الإطباق هى الطاء والصاد والقاف والظاء والضاد والخاء والغين قد أجمع الباحثون فى مقارنة اللغات على أن القاف والطاء والصاد شائعة فى كل اللغات السامية، أما الظاء فالظاهر أنها من مستحدثات العربية الفصحى فى بعض ما كان فى الأصل ضادا والضاد بلا شك من خصائص العربية الفصحى ولذا شاعت تسمية العربية بلغة الضاد.

وقد استنتج الباحثون عن اللغة السامية الأم - وفى مقدمتهم بروكلمان ورايت وبورشتاين وغيرهم أن العربية فى هذا ناطقة بما كان فى نطق السامية الأم من هذه الأصوات وأن اختفاء بعضها من بعض اللغات السامية الأخوات طارئ عليها [٢].

٢- تتكون المواد اللغوية فى الساميات غالبا من أصول ثلاثية الأحرف تسمى (الجذور) ومن الأصل الثلاثى تشتق الكلمات وتتولد عن طريق الحركات التى تنوع المعنى مثل «ك ت ب» فهى الجذر الثلاثى ومنه تتولد كلمات كثيرة للمعانى المرادة فإذا حركت جميعها بفتحات فهى فعل ماض مبنى للمعلوم وبضمة فكسرة فهى فعل مبنى للمجهول وهكذا.

ويمكن أن يكون التوالد والاشتقاق بإضافة مقاطع حروف فى الصدر أو الوسط أو الآخر وهو ما يسمى بحروف الزيادة ففى الصدر كما فى مكتب

---

(١) موسكاتى: ص٤٤. (٢) الساميون ولغاتهم ص١٧ - ١٩ بتصرف.

واستكتب وفي الوسط مثل: كاتب وكتاب وفي الآخر مثل: كتبة أو هذه مجتمعة بعضها أو كلها كما في مكاتب وكتابة ومكتوبات ونحو ذلك [1].

والمعاجم الخاصة باللغات السامية لا ترتب على حسب الكلمات المفردة كمعاجم اللغات الأوربية ولكن على حسب الجذور فالكلمة «مكتب» لا ترد تحت الميم ولكن تحت الجذر «ك ت ب» [2].

٣- وتصاغ الأفعال في الساميات بتغيير الجذر تغييرات ثابتة تعبر عن معان مشتقة من المعنى الأساسي كشدة الفعل أو تكراره أو بنائه للمجهول أو المطاوعة والمشاركة في الفعل ويعبر بأبسط صيغ الفعل وهي الماضي لا بالمصدر فيقال «كتب» مثلا فإذا ترجمناه إلى الإنجليزية دللنا عليه بالمصدر فيقال To Write وإن كانت هذه الصيغة تعني في الواقع He has Written [3].

٤- وللغات السامية نظام في تصريف الفعل يختلف اختلافا بينا عما في اللغات الهندية الأوربية ففي الساميات للفعل زمنان، زمن انتهى وزمن لم ينته[4] فالصيغة الأولى تدل على تمام وقوع الحدث وانقضائه وانقطاعه وهي التي تسمى بصيغة الفعل الماضي والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه وهي التي تسمى المضارع [5].

وهذا الزمن يستنتج من السياق فإذا كان الحدث تاما أو تم أو سيتم أو اعتبره المتكلم تاما أي إذا كان حقيقة تم وقوعها استعملنا الماضي ونظيره في اللغة الإنجليزية قد يكون الـ Pluperfect أو الـ Past أو ال Perfect الذي يشير إلى حدث

I had Written, I have already Written, I Wrote yesterday

وقد يكون نظيره الـ Perfect أو الـ Present الذي يشير إلى حدث في المستقبل:

I will Come When I have Written

---

(١) موسكاتي: ص٤٤، ٤٥ ود. حسن ظاظا ص ٢٠، ٢١ بتصرف.

(٢) موسكاتي: ص٤٥.

(٣) المصدر السابق: ص٤٦.

(٤) يستثنى من ذلك اللغات الأكدية فللفعل فيها ثلاثة أزمنة. فقه اللغة د. وافي ص١٧.

(٥) الساميون ولغاتهم ص ٢١.

This letter, He Will find out When I Write to him.

وقد يكون نظيره : الـFutur Perfect

I am- was- Will be writing

ويمكن أن ندرك ذلك من تأملنا فى هذه التعبيرات فى العربية : وصلنى خطابك – إذا وصلتك هذه الرسالة فافعل كذا وكذا – ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل: ١] .

وإذا اعتبر حدثا لم يتم أو حدثا اعتباريا أو حدثا يراد فعله استعمل المضارع ونظيره فى اللغة الإنجليزية قد يكون فعلا دالا على حدث مستمر:

I am- was- will be writing

أو عبارة دالة على حدث اعتيادى:

I used to write, I write- wrote- will write every week.

أو عبارة دالة على عمل يراد أو كان يراد فعله :

I Shall write, I was going to write (١)

ويمكن أن ندرك ذلك من تأملنا فى هذه التعبيرات العربية :

لم يحضر فلان – وقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[البقرة: ١٤٢] .

وقول الشاعر:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى

جرداء معروقة اللحيين سرحوب

وقول الآخر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس (٢)

---

(١) موسكاتى : ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) الساميون ولغاتهم د. حسن ظاظا : ص٢١ ، ٢٢ وانظر له : اللسان والإنسان ص١٦٤ .

٥- الجملة فى الساميات نوعان اسمية وفعلية ففى الاسمية يوضع المسند إليه فى الصدر وتكون بقية الجملة مسندا يخبرنا بشىء عن ذلك المسند إليه وهذا هو ما يعبر عنه بالمبتدأ والخبر ولا توجد رابطة بينهما من فعل مساعد أو غيره كما هى الحال فى مجموعة اللغات الهندية الأوربية وفعل الكينونة To be يفهم عادة من السياق فيقال زيد عاقل نظير Zaid is Wise وتجد مثل ذلك فى بعض اللغات الأوربية . أما الجملة الفعلية فيوضع فى صدرها الفعل ثم يتبعه الفاعل، وهى الصورة العادية للتعبير عن حدث أو مرحلة فى حكاية، مثل قال زيد لأبيه بتقديم « قال » على « زيد » بخلاف الوضع فىZaid said to his father بتقديم الفاعل على الفعل فى الإنجليزية [1] وتقديم الفاعل على الفعل فى العربية لا يكون إلا لغرض بلاغى ففرق كبير فى العربية بين أن نقول حضر محمد ومحمد حضر[2].

٦- تتبع الساميات طريقة سهلة فى تكوين الجمل وربط بعضها ببعض بروابط محدودة المعنى كالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب وثم التى تفيد الترتيب مع التراخى والواو التى تستعمل للربط مطلقا دون قيد.

فاللغات السامية تفضل وضع الجمل بعضها إزاء بعض على أن تستنتج من السياق العلاقة التى تربط إحداها بالأخرى سواء كانت علاقة شرطية أو غائية أو سببية أو ما أشبه ذلك وهى بذلك تستغنى عن بعض أدوات الوصل التى تتصدر الجمل الفرعية ومن ذلك الجملة الحالية فى مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠] أى مع أنه فضلكم وذلك يحتاج إلى كثير من وجوه الربط فى اللغات الهندية الأوربية [3].

٧- للسامين طريقتهم الخاصة فى بناء الكلمات فالعربية والحبشية من اللغات السامية تستخدمان ما يسمى جمع التكسير إلى جانب الجمع السالم، وهذا الجمع يتم عن طريق التغيير الداخلى ويكون هذا عادة بتغيير الحركات مثل جمع كتاب على كتب وهذه ظاهرة فريدة فى بابها، ومن الأمثلة الطريفة أن

---

(١) موسكاتى: ٤٧ ود. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ٢٣ بتصرف.

(٢) انظر كتابنا: علم اللغة بين القديم والحديث ص٢٢٦.

(٣) موسكاتى: ٤٧.

الكلمة الإنجليزية Inch «بوصة» اقتبسها بعض العرب فى صيغتها المفردة فقالوا: انش ثم جمعوها على «أنش» - بضم الهمزة والنون - وهو جمع طبيعى واضح تماما فى نظر العرب فى حين أننا لا نجد ذلك إلا فى كلمات قليلة فى الإنجليزية مثلا ففى الإنجليزية صيغ فعلية مثل: Sing- sang- sung

واسمية مثل Song وفيها تصاغ الجموع على نحو مماثل كالجمع Men للمفرد Man إلا أن ذلك قليل فيها (١).

٨- تنقسم الأسماء والصفات فى الساميات من حيث النوع إلى مذكر ومؤنث فقط ولا ثالث لهما وللمؤنث - فى كثير من الحالات علامات تلحق آخره.

أما الفصيلة الهندية الأوربية ففيها ثلاث طوائف لكل منها سلوكه اللغوى الخاص مذكر ومؤنث ونوع ثالث يسمى بالمحايد (٢).

٩- الإعراب سامى الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية وفى بعضه اللغة الحبشية ونجد آثارا منه فى غيرها كما يقول برجستراسر، ففى الأكدية - كالعربية - تستخدم علامات الإعراب، فالمفرد يرفع بالضمة وينصب بالفتحة ويجر بالكسرة، والمثنى تقع فى آخره ألف ونون - فى حالة الرفع - وفى حالتى النصب والجر ينتهى فى البابلية بياء ونون وفى الآشورية بحركة إمالة متطورة عن الياء المفتوح ما قبلها والنون.

وجمع المذكر السالم يقع فى آخره واو مد (ضمة طويلة) رفعا أما فى حالتى النصب والجر فتستعمله البابلية بياء مد (كسرة طويلة) وتستعملة الأشورية بحركة إمالة طويلة كالسابقة.

---

(١) المصدر السابق ص٤٥.

(٢) وهذا - كما يقول الأستاذ العقاد - وضع عقلى مخطىء لأن التقسيم الصحيح فى الجنس المتميز أنه مذكر ومؤنث وليس هناك جنس ثالث يسمى بالمحايد بل هناك أشياء لا جنس لها أصلا يستعار لها الجنس على سبيل المجاز فتلحق بالمذكر أو المونث على حسب المناسبة عند وضعها وليس هناك جنس ثالث ولو على الشذوذ كما يعرض للذكر المشكل أو للأنثى المشكل فإنها فى حقيقة التقسيم ذكر غير متميز أو أنثى غير متميزة ولا ثالث للجنسين يسمى بالجنس المحايد بينهما: انظر مجلة الأزهر: عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ وانظر كتابنا: أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى ص٨٩، ٩٠.

وجمع المؤنث السالم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة كالعربية .

وفى الحبشية ينصب المفعول به ونظائره بالفتحة ويحرك المضاف بالفتحة كذلك وهى حالة غريبة لا توجد فى غيرها من اللغات السامية .

وتظهر بقايا الإعراب كذلك فى الأوجاريتية [١] وفى النبطية والعبرية، أما فى العربية فيكاد يجمع العلماء على أن الإعراب ظاهرة لغوية اتسمت بها من قديم الزمان ومنذ نشأتها[٢] .

والمعروف أن العربية أقرب الساميات إلى السامية الأم لأنها عاشت فى أمية العرب محفوظة عن التغيير والتبديل[٣] .

وهذا يؤكد للباحث المنصف أن الساميات فصيلة لها استقلالها وشخصيتها وجوهرها البعيد عن مجموعة اللغات الهندية الأوربية ولا يمكن أن تعدا فصيلة واحدة .

ومن هذا المنطلق فإن العربية لا يمكن أن تعد فرعا من اللغات الهندية الأوربية .

* * *

---

(١) من الفرع الكنعانى وهى لغة مدينة أوجاريت شمال اللاذقية وتعرف الآن برأس شمرة وكانت تقوم فيها مظاهر العمران البشرى فى القرن التاسع عشر ق.م وانتهت حياتها فى القرن الثالث عشر ق.م.

(٢) انظر كتابنا : علم اللغة بين القديم والحديث ص٢٢٦ ومابعدها .

(٣) الساميون ولغاتهم ص٢٥ .

هجرات الساميين ولغاتهم

(الأكاديون) البابليون والآشوريون

موجتان ساميتان خرجتا من الجزيرة العربية مهاجرتين إلى العراق فالموجة الأولى طائفة سامية نزلت جنوبى العراق (وسط دجلة والفرات إلى الخليج العربى).

وهذه الموجة خرجت فى الألف الرابع قبل الميلاد (حوالى ٣٦٠٠ ق.م) ويقال: إنها أولى الهجرات أو أقدمها وقد أقام هؤلاء الساميون مملكتهم فى هذه المنطقة بعد أن تغلبوا على دولة السومريين التى كانت ذات حضارة ومجد [١].

« وكانت جماعات الساميين قبل ظهورها على المسرح السياسى بزمن تقيم فى أرض الرافدين حول أطراف المدن السومرية وتعيش على الرعى وفق تقاليدها القديمة، وكان أول عمل كبير أثبتت به وجودها هو ذلك النصر الذى قضت به على مملكة لوجلز جيزى وأقامت مكانها دولة أكد السامية وكان مؤسس دولة أكد هو سرجون Sargon الذى تقول عنه الأساطير إنه كان بستانيا من قبل [٢].

وكانت تتداول عدة أسماء لأماكن من هذه البلاد هى (سومر) - باسم سكان البلاد الأصليين وهم الجنس السومرى، و (بابليوينا) و (أكاد) التى سماها الساميون الجدد (كلدة).

ولذلك سمى الساميون الذين نزلوا هذه المنطقة باسم البابليين أو الأكاديين وسميت مملكتهم باسم المملكة البابلية أو الأكادية.

وحوالى الألف الثانى قبل الميلاد نزلت طائفة أخرى من الساميين بشمالى العراق (الطرف الأعلى لنهر دجلة)، وسيطروا على الشعوب الأصلية من سكان هذه المنطقة وهم جنس ليس بسامى ولا آرى، وأقاموا مملكتهم « عند ملتقى القرن التاسع عشر بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد »[٣] وجعلوا عاصمتها (أشور).

---

(١) بدأوا بشق القنوات، واستغلال التربة بعقل وتدبير وأقاموا المعابد والتماثيل. الحضارات السامية القديمة لموسكاتى ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق ص٦٧.　　(٣) الحضارات السامية القديمة ص٦٩.

وقد خضعت دولتهم – في أول الأمر – للبابليين، ثم استقلت فيما بعد، واتخذ أحد ملوكها (سنحاريب) (نينوى) عاصمة له وترك (آشور)، وبعد أن ضعف البابليون تمكن الأشوريون من القضاء على دولته حوالى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد.

وقد اتسعت فتوحات الأشوريين حتى شملت سوريا وفلسطين، ثم لما ضعفوا – بعد انغماسهم فى اللهو والمتع – قامت الحروب بينهم وبين أحد ملوك بابل الذى تحالف مع الفرس وغيرهم فسقطت عاصمتهم فى يده حوالى سنة ٦٠٦م

وفى غضون مائة سنة تقريبا قامت دولة بابلية كان من ملوكها (بختنصر) غير أنها ما لبثت أن سقطت على يد الفرس حوالى سنة ٥٣٩م.

* * *

اللغة الأكادية

(اللهجات البابلية والآشورية)

وقد وصلتنا لهجاتهم البابلية والأشورية [1] عن طريق النقوش التى اكتشف بعضها فى مملكة بابل مدونة على بعض التماثيل، وبعضها فى صورة مكاتبات ورسائل منقوشة على الخزف، ووصلتنا كذلك لهجات الأشوريين على آثار مكتشفة فى مناطق أشور، وكذلك مكاتبات ورسائل بين ملوك هاتين الدولتين وبعض ملوك مصر فى عهد الفراعنة (أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع واخناتون) وذلك فى رسائل (تل العمارنة) - بصعيد مصر - مما يؤكد انتشار هذه اللهجات فى أقطار أخرى مجاورة لمناطق هاتين الدولتين.

ويبدو من خلال هذه النقوش أن اللهجات الأكادية (البابلية والأشورية) كانت متقاربة فيما بينها - من الناحية اللغوية - لانحدارها من أصل واحد، ولاشتراك أهلها فى البيئة اللغوية التى يعيشون عليها، وتقاربهم فى الثقافة والحضارة، ولم تظهر فى تلك النقوش التى وصلتنا فروق تذكر، ولعل ذلك لأن هذه النقوش كتبت باللغة الأدبية الراقية مما جعلها لا تحمل سمات لغة المحادثة التى تتمثل فيها الفروق اللغوية بين لهجات هذه الشعوب، ولم يصلنا من لغة المحادثة عندهم إلا القليل وليس به دلائل تؤكد قربها أو بعدها من أختها التى تجاورها.

ويبدو أن هذه اللهجات (الأكادية) تأثرت بلغات السكان الأصليين من السومريين وغيرهم - وهم ليسوا من الأصل السامى - كما ظهر ذلك فى كتابة هذه اللهجات بالخط المسمارى أو الرسم ذى الزوايا، وترك هذا آثارا فى تشوه أصواتها وتأثيرا فى بعض ألفاظها ومعانيها مما جعلها تختلف بعض الاختلاف عن بقية اللهجات السامية الأخرى وعرفت وجوه خلاف بينها فى بعض الأفعال والأسماء.

---

(١) تطلق جمهرة الباحثين على لهجات هاتين الطائفتين اسم «اللهجات البابلية الآشورية» أو «اللهجات الأكادية». وأحيانا يكتفى بعض الباحثين بإطلاق التسمية المقصورة على فريق دون الآخر فيسمون لهجاتهم كلها: اللهجات البابلية.. - حين كانت الدولة البابلية مزدهرة (فى المدة من ٣٦٠٠ ق.م. - ٢٠٠٠ق.م) ويسمونها «اللهجات الآشورية» حين كانت الدولة الآشورية مزدهرة (فى المدة من سنة ٢٠٠٠ ق.م - ٥٠٠ ق.م).

الخط المسمارى

نظام الخط المسمارى كان شديد التعقيدفعلاماته مستنبطة من صور الأشياء – واستعمل المصريون مثله – وهو يسمى تصويريا Pictographic فهو يدل على الشىء برسم صورة له أو لجزء مميز من أجزائه فلكتابة « سمكة » – مثلا – ترسم صورة لها، ولكتابة ثور ترسم صورة لرأسه وقرنيه ولكتابه قمح ترسم سنبلة، وكان يدل على الأفعال بضروب من الأساليب البارعة فصورة القدم تعنى « الذهاب » وصورة فم الرجل مع إضافة العلامة الدالة على الخبز أو الماء تعنى « الأكل » أو « الشرب » وهكذا ولأنه كان لا يمكن الرسم بدقة اكتفى بمجموعات من الخطوط على نمط خاص تمثل الفكرة ولذلك سميت رموزا Ideograms

وكانت العلامات ترتب فى الأصل فى خطوط رأسية فى الطرف الأيمن العلوى للوح الصلصال الأملس ثم بدىء فى الركن الأيسر من اللوح ورتبت فى خطوط أفقية تقرأ من اليسار إلى اليمين والأكديةمن اللغات السامية القليلة التى تكتب على هذا النحو فإن الاتجاه المضاد الذى يسير من اليمين إلى اليسار هو المفضل لدى الساميين.

ولأن الكتابة المسمارية كانت لا تستطيع التعبيرعن الأفكار المجردة حاولت استعمال علامات للتعبير عن الوحدة الصوتية المتعلقة بالصور وهى كتابة صوتية Phonetic مقطعية فالكلمة الدالة على اللبن هى ga استعمل لكتابتها المقطع ga دون نظر إلى معناه وبضم بعضها إلى بعض تكونت الكلمات وصيغ الأفعال فمثلا لكتابة الكلمة gaz ومعناها (كسر » كانت تكتب العلامة ga (الدالة على اللبن) ثم العلامة az (الدالة على الدب) فتتكون بذلك ga-az وعلى ذلك تطور نظام الكتابة فيها وهو يفسر إما على أساس رمزى وإما على أساس صوتى حسب السياق وصارت العلامات تقرأ بأكثر من قيمة صوتية فالعلامة المشتقة من قدم الإنسان تقرأ gin « سار » أو gub « وقف » أو tum (حمل) إلى غير ذلك من القراءات المحتملة للرمز وكانت توضع علامات تحديدية تدل على طوائف المعانى أو مكملات صوتية تعطى جزءا من المقابل الصوتى للمعنى المقصود، ويستدل لذلك بسياق الكلام – بدون هاتين الوسيلتين السابقتين.

ولذلك فإن هذا الخط كان - ولا يزال - مصدر حيرة لقراءة النصوص البابلية والآشورية. ولكن حاول الباحثون الاهتداء إلى فهمها فهما كافيا بمعرفة اللغات السامية الأخرى لما بين الأكدية وأخواتها من علاقات [١].

الكنعانيون

يطلق كنعان والكنعانيون على المنطقة السورية الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها[٢].

والكنعانيون طائفة سامية خرجت من الجزيرة العربية واستوطنت الساحل الشمالى الشرقى للبحر المتوسط فى سورية وفلسطين.

ويقال: إنهم خرجوا من الجزيرة قبل القرن السابع والعشرين أو الخامس والعشرين قبل الميلاد على خلاف بين المؤرخين، وقد امتد نفوذهم إلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وأسسوا لهم مملكة زاهرة فى أرض كنعان قبل أن ينزح الآرميون إليها بأكثر من ألف سنة[٣].

ثم إنهم كانوا بحارة مهرة فصنعوا السفن، وجابوا البحر المتوسط، وغيره من البحار، فاستوطنوا بعض جزر البحر الأبيض، وأنشأوا لهم مملكة فى شمال أفريقية عاصمتها قرطاجنة المشهورة، وقد امتد نفوذهم على سواحل البحر المتوسط إلى أن وصلوا إلى جنوبى إيطاليا، وشواطىء الأندلس، وظلوا يناوئون الرومان فى حروب طويلة دامت من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، ولكن سقطت دولتهم على يد الرومان سنة ١٤٦ قبل الميلاد، ثم إنه بسقوط الدولة الأشورية سنة ٦٠٦ قبل الميلاد خضعت كنعان للفرس.

* * *

---

(١) انظر: الحضارات السامية القديمة ص٦٣ - ٦٥ بتصرف يسير.

(٢) ويطلق كذلك على أى عنصر سورى فلسطينى لا ينتمى إلى الآرامية ويدخل بعض الباحثين الآراميين فيه. انظر: الحضارات السامية القديمة ص١١٤ وعنوان (الكنعانيين) عنوان تقليدى يتناول وصف تاريخ الشعوب السامية فى سورية وفلسطين.

(٣) فقه اللغة د. وافى ص٣٠.

اللغة الكنعانية ولهجاتها

ولهذه الطائفة لغتها الكنعانية التى انقسمت - فيما بعد - ويحاول الباحثون الاستدلال على طبيعتها الأولى من خلال النقوش التى عثر عليها وقد ظهرت فى عدة صور:

١- اللهجة الأجريتية:

هذه نسبة إلى مدينة (أجريت) وهو اسم مدينة قديمة (هى رأس الشمرة على الساحل السورى) بشمال الشام فقد اكتشف الباحثون سنة ١٩٢٩ م أن (تلا) يبعد نحو نصف ميل عن الشاطىء ويقوم بين فرعى نهر (يسمى الفد) يلتقيان بعد ذلك ويصبان فى البحر يغطى بقايا مدينة قديمة، والاسم العربى الحديث لهذا التل هو رأس الشمرة، ولكن لم يلبث علماء الآثار أن وجدوا أن الخرائب التى يغطيها هى خرائب أو جاريت **ugarit** وهى مدينة قديمة تذكرها وثائق مصر وأرض الرافدين، والحيثيين، واستمرت الحفائر عاما بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسى شيفر **Schaeffer**.

وقد توقف العمل عام ١٩٣٩م لاندلاع الحرب العالمية ثم استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠م ولكن الحفائر لم تتناول إلا جزءا صغيرا نسبيا من المدينة القديمة.

والنقوش التى اكتشفت فى رأس الشمرة كثيرة ومكتوبة بلغات عدة: الأكدية والمصرية والحيثية والحورية، ولغة أخرى مجهولة.

وقد اكتشفت فى رأس الشمرة عدة مئات من الألواح والكسر أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى والمجموعة الأساسية فى نصوص أوجاريت هى مجموعة الملاحم وشعر الأساطير، وهناك وثائق أو جاريتية أخرى من نمط إدارى أو دبلوماسى وفى عام ١٩٥٣م اكتشفت وثائق ملوك أو جاريت.

ولابد أن هذه الوثائق كلها كتبت قبل تخريب المدينة وهى ترجع إلى

ما بين سنة ١٥٠٠ و١٤٠٠ق.م (حوالى ١٣٥٠ ق.م) تقريبا والنقوش الأجريتية تلى الأكادية زمنيا[١].

وندرك من الكتابات التى وصلتنا أن بعضها مكتوب بالخط المسمارى وبعضها يوضح الكتابة الأوجاريتية المعتمدة على التدوين الصوتى للحروف فهى تستخدم رموزا لا تجاوز الثلاثين، فالأوجاريتيون اخترعوا الأبجدية، واستخدموا النظام الأبحدى (ا ب جـ د، هـ و ز، ح ط ى، ك ل م ن، س ع ف ص، ق ر ش ت) ومنه استفادت الأمم فى أبجدياتها بطريق مباشر أو غير مباشر[٢].

٢- اللهجة المؤابية:

نسبة إلى بلاد مؤاب التى تقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت.

وتمثلها مجموعة هوامش مدونة على رسائل أكادية أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حكام مصر ترجع نصوصها إلى عهد أمنحتب الثالث (١٤١٣ - ١٣٧٧ق.م) وأمنحتب الرابع (اخناتون) (١٣٧٧ - ١٣٥٨ق.م)[٣].

كذلك نقش ميشع ملك مؤاب ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع ق.م، وقد سجل فيه حروبه وانتصاراته على العبريين، ويقع فى (٣٤) سطرا وهو مدون بكتابة سامية محضة.

وهو يتفق فى معظم الخصائص مع بقية اللهجات الكنعانية وجعله بعض الباحثين ممثلا للهجة مستقلة عن الفينيقية.

٣- اللهجة الفينيقية:

هى إحدى لغات المجموعة الكنعانية وهى لغة الساحل السورى والفلسطينى واللبنانى وتمثلها بعض النقوش التى اكتشفت فى (صور وصيدا وجبيل) وفى بعض المستعمرات التى انتشرت فى جزر البحر المتوسط - كقبرص وغيرها - ويرجع تاريخ بعضها إلى القرن التاسع والعاشر ق.م وبعضها إلى القرن الخامس ق.م.

---

(١) اكتشفت النقوش الأكادية حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م.

(٢) الحضارات السامية القديمة ص١١٦ وما بعدها.

(٣) أسس علم اللغة العربية ص١٦٨.

وتمثلها كذلك وثائق مارى الخاصة بالنصف الأول من الألف الثانى ق.م ورسائل تل العمارنة فى مصر ففيها بضع جمل تمثل لهجة منطقة جبيل فى القرن الرابع عشر ق.م.

«وهناك نقوش فينيقية وجدت فى المنطقة الساحلية لآسيا الصغرى وعلى الساحل الأوروبى للبحر المتوسط ولا سيما فى جنوب أسبانيا» [١].

وهى ترمز إلى الأصوات الساكنة التى تدل على أصول الكلمات فيها أما أصوات اللين فلم تعرف إلا من دلالة الرسم اليونانى الذى كتبت به بعض الأعلام والألفاظ الفينيقية لكنها دلالة غير دقيقة.

وقد ظلت الفينيقية قوية زمنا، وتأثرت بالآرامية قبل الميلاد بزمن ليس بالقليل، ثم طغت عليها الآرامية وحلت محلها حوالى أواخر القرن الرابع ق.م.

كما قضت فى الوقت نفسه على الأكادية.

٤- اللهجة البونية:

«كان أبرز خصائص النشاط التجارى للفينقيين تأسيسهم سلسلة من المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط فمنذ سنة ١٠٠٠ق.م ظهرت قواعد فينيقية فى جزر بحر إيجة وكيلكيا Cilicia ومالطة وصقلية وسردينيا وشمال أفريقية وأسبانيا وكانت قرطاجنة أهم هذه المستعمرات، وقد أسست صور قرب نهاية القرن التاسع ق.م [٢].

وتسمى اللهجة التى انتشرت فى هذه المناطق «اللهجة البونية» - فى مقابلة اللهجة البارزة من الفينيقية فى آسيا الصغرى (سوريا وفلسطين).

وعرفت هذه اللهجة اليونية عن طريق النقوش التى اكتشفت فى قرطاجنة وهى مدونة فى القرن الرابع ق.م أى أنها حديثة نسبيا مقارنة برسيلتها فى سوريا وفلسطين التى اكتشفت قبل ذلك بقرون عديدة (القرن العاشر إلى الخامس ق.م).

وهذه النقوش التى تحمل سمات اللهجة البونية معظمها مختصر وغامض الدلالة ومدون برسم يختلف من بعض الوجوه عن الرسم الفينيقى السابق.

---

(١) أسس علم اللغة ص١٦٥.   (٢) الحضارات السامية القديمة ص١٢٥.

واللهجة البونية – فى قرطاجنة – عاشت زمنا طويلا – مع أنها بعيدة عن أخواتها الساميات – وتقع فى إطار لهجات الشمال الأفريقى التى تصطرع معها – اللهجات البربرية (لهجة السكان الأصليين لشمال أفريقية) واللغة اللاتينية (المصاحبة لأهلها ذوى الانتشار التجارى الاستعمارى هناك) ولبعد ما بينها وبين اللغات التى تصارعها والتى تنتمى إلى فصائل لغوية متباعدة عنها عاشت زمنا طويلا .

ولذلك بقيت البونية – بعد سقوط مملكة قرطاجنة على يد الرومان سنة ١٤٦ ق.م وظلت شائعة الاستعمال إلى القرن الخامس الميلادى وهناك دلائل على استمرارها فى الاستعمال حتى الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ولكنها مع هذا الصراع اللغوى لم تسلم من التأثر بما حولها من اللغات إذ تدل الآثار البونية التى عثر عليها بعد سقوط قرطاجنة علي تغير فى أصواتها ومفرداتها ودلالتها ولذلك يطلق الباحثون عليها فى تلك الحقبة – بعد سقوط قرطاجنة – اسم اللهجة البونية الحديثة .

وقد وجد خلط فى كتابة الكلمات التى تكتب بالحاء والتى تكتب بالهاء والتى تكتب بالهمزة والتى تكتب بالعين، وهذا يؤكد الخلط وعدم التمييز – فى النطق – بين هذه الأصوات تأثرا باللغة اللاتينية ودخلت ألفاظ لاتينية كثيرة فيها[١] .

واليونان تعلموا الكتابة من الفينيقيين فأخذوا منهم الكتابة الصوتية وترتيب الحروف ولكنهم غيروا فى أصوات الحلق واستعملوها دالة على الحركات، وحولوا الكتابة عن اليمين إلى اليسار .

الخط الفينيقى

يعد الفينيقيون – إلى جانب الأوجاريتيين – أصحاب الخط الذى يعد أصل الخطوط السامية والعالمية وهو الخط الفينيقى .

فالخط الفينيقى يقوم على أساس تمثيل الحروف الهجائية بالرمز إلى

---

(١) أسس علم اللغة ص ١٦٦ .

الأصوات الساكنة لا إلى المقطع الصوتى الذى يتألف من أكثر من صوت ولا إلى المعانى - كما كان ذلك فى الخط المسمارى الأكادى أو الرسم الهيروغليفى المصرى - والاكتفاء فى الرسم بالأصوات الساكنة اعتمادا على فهم أصوات اللين وطرائق النطق من السياق ثم استخدمت (الألف والواو والياء) للدلالة على الحركات، وبعد ذلك جاء الضبط بالشكل (الفتحة - الضمة - الكسرة).

ويختلف الباحثون فى تاريخ نشأة هذا الخط فاعتقد بعضهم أنه لم يظهر قبل القرن التاسع ق.م بناء على نقوش تل العمارنة التى ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م وهى مكتوبة بالخط المسمارى الأكادى مع أن بعضها صادر من مناطق كنعانية.

كذلك نقش ميشع ملك مؤاب الذى يرجع إلى القرن التاسع ق.م.

لكن فى بداية القرن العشرين تم اكتشاف نقوش فى شبه جزيرة سيناء مكتوبة بخط هجائى محض وهى مدونة فى المرحلة الواقعة من القرن العشرين إلى أواخر القرن الخامس عشر ق.م، كذلك اكتشفت لوحة منقوشة بخط هجائى سامى يرجع إلى القرن الثالث عشر ق.م مما يجعل العلماء يعتقدون أن الخط السامى الفينيقى ظهر قبل القرن التاسع ق.م بقرون عديدة[١].

ومن الخط الفينيقى نشأ الخط العبرى فى صورتيه القديمة والحديثة، وقد استخدمه العبريون بعد رجوعهم من نفى بابل إلى الآن ويسمى الخط المربع.

ومنه كذلك أخذ الخط الحبشى والتدمرى[٢] والخط السريانى وعن السريانى تفرعت الخطوط المنغولية والمنشورية وعنه أيضا أخذ الخط النبطى[٣]، ومنه ومن السريانى تفرع الخط العربى.

وكذلك الخط الآرامى ومنه تفرعت الخطوط الهندية فى شمال الهند،

---

(١) انظر فقه اللغة: د. وافى، والحضارات السامية القديمة ص١٢٠، ١٢١.

(٢) تدمر مملكة كانت فى واحة بصحراء سوريا فى الناحية الشرقية الشمالية من مدينة دمشق وبلغت أوج مجدها من سنة ١٣٠ إلى ٢٧٣ بعد الميلاد.

(٣) مملكة الأنباط كانت فى شبه جزيرة سيناء والخط النبطى هو أحد أنواع الرسم الآرامى، ومنه اشتق الرسم العبرى.

ثم انتشرت فى كل بلاد الهند، وماليزيا وما جاورها، وكذلك الخط السبئى أو ما يسمونه الخط اليمنى أو خط المسند وعنه تفرعت الخطوط الحبشية السامية.

وكذلك الرسم الإغريقى الذى أخذت منه الحروف اللاتينية ومن الأغريقى واللاتينى اشتقت الخطوط المختلفة فى أوروبا واستمرت حتى الآن.

العبريون[1]

كانت منطقة سوريا وفلسطين - وهى ملتقى هام بين ثلاث قارات - مطمعا للمهاجرين والغزاة المستعمرين من الدول المحيطة الكبرى فى مصر، وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط لما فيها من خصب ونماء ومجال للمنافسات التجارية.

فكان فى سوريا وفلسطين دول صغيرة محلية يخضع بعضها لمصر وبعضها الآخر مثل حلب وقطنة وقرقميش تخضع لنفوذ البابليين والآشوريين الذين كانت حروبهم وفتوحاتهم مستمرة - بخلاف مصر التى كانت تكتفى بالجانب الاقتصادى كفرض الجزية ونحوها.

وكان هناك الحيثيون الذين انتشروا فى الأناضول ووطدوا أقدامهم أيضا فى شمال سوريا.

ثم وقعت منازعات بين الحيثيين والمصريين - أضعفت شأنهم - مما جعل هذه الدويلات المحلية الصغيرة تحاول الاستقلال وسرعان ما جاءت جماعات أخرى تحاول الاستيلاء على هذه المناطق منهم (الميديانيون والأدوميون والمؤابيون، والعمونيون) والعبريون وكان الآراميون هناك فى الشمال.

---

(١) يقال: إن العبريين ينتمون إلى أصل آرامى لأنهم كما تذكر التوراة من ذرية إبراهيم وقد وصف أحيانا بأنه الآرامى المتجول «فسفر التكوين يذكر ظهور الجماعة العبرية الأولى فى جنوب أرض الرافدين وكيف هاجر إبراهيم من أور ur وصعد فى نهر الفرات حتى حران ومن هناك نزل إلى فلسطين» (الحضارات السامية القديمة ص١٣٩) وينسبهم بعض المؤرخين إلى أصل حيثى أيضا، وكانت هذه الجماعة العبرية تحاول الامتزاج مع الكنعانيين تدريجيا وتم ذلك فى غضون بضعة قرون (المصدر السابق ص١٤٠) وقيل غير ذلك.

وكان ضعف الدول الكبرى - كمصر والحيثيين وغيرهم - مؤديا إلى قيام العبريين بتوطيد ملكهم والاستيلاء على الدول المحلية الصغرى فى فلسطين وإخضاعها لسلطانهم بالغزو وبالهجرة، وقد تغلغلت هذه الجماعات العبرية فى صورة سلسلة من الحملات وجهت إلى وسط المنطقة وشمالها وجنوبها، وتنسب هذه الأحداث إلى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ق.م. بناء على ما ورد فى نقش على نصب أقامه الفرعون مرنبتاح Mer - ne - ptah (١).

ويبدأ تاريخ النفوذ العبرى بشاءول (حوالى ١٠٢٠ ق.م.) وتلاه داود وسليمان (٩٦١ - ٩٢٢ق.م.)، وبموت سليمان انتهى نفوذ العبريين السياسى.

وقرب نهاية القرن العاشر ق.م. بدأت الدول الكبرى تضع أيديها على سوريا وفلسطين مرة أخرى، وأدى التوسع الأشورى إلى ضم الدول السورية واحدة بعد الأخرى واستولوا على بعض المناطق الخاضعة للنفوذ العبرى فى عهد بلوغ الامبراطورية الأشورية ذروتها عام (٧٣٢ق.م.).

وفى القرن السادس واصل البابليون هذه الخطة فى فلسطين وضمت باقى مناطق العبريين إلى امبراطورية بختنصر - إذ وقعت بين شقى الرحى مصر وقوة بابل الصاعدة وفى عام ٥٨٦ ق.م. خرب بختنصر بيت المقدس ونفى كثيرا من العبريين إلى بابل، وكان هذا بداية عصر النفى.

وفى عام ٥٣٨ ق.م. فتح الفرس بابل - وزال سلطان البابليين إلى الأبد - وسمح ملك الفرس (كورش) للعبريين بالعودة من المنفى وبناء المعبد من جديد، ومع ذلك أصبحت منطقة فلسطين خاضعة لامبراطورية الفرس، وتلا ذلك انتقالها إلى حكم الدول الأجنبية الغازية فى العصرين الهلينستى والرومانى بعيدا عن نطاق التاريخ السامى المحض(٢).

اللغة العبرية

اختلف فى أصل اللغة العبرية هل هى سامية أو لغة أخرى تأثرت

---

(١) الحضارات السامية القديمة ص١٤٠ - ١٤٤.
(٢) الحضارات السامية القديمة ص١٢٤، ١٢٥، ١٧٤.

بالفينيقية، أو أن لغتهم الأصلية اندثرت وحل محلها اللسان الكنعاني، فهى تتفق معها فى معظم مظاهر الصوت وأصول المفردات والقواعد؟

وقد يكون ذلك من باب التأثر بالكنعانية - إذا كانت لغتهم حيثية أو غيرها من لغة السكان الأصليين فى مناطق أخرى كانت تعيش فيها، وقد تغلبت الكنعانية عليها نتيجة حتمية للصراع اللغوى وأدى ذلك إلى تشوه الكنعانية على لسانهم فأصاب التغيير الأصوات والمفردات والقواعد[1].

وقد مرت العبرية بأطوار:

الطور الأول: عصر قيام الدولة (حوالى القرن الثالث عشر ق.م.) إلى (أواخر القرن الرابع ق.م.).

وكانت العبرية فيها لغة حية فى التخاطب يتكلم بها العبريون ويكتبون وهى العبرية القديمة.

ولهذا الطور مرحلتان:

المرحلة الأولى: منذ نشأتها إلى نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م. ويسمى «العصر الذهبى للغة العبرية».

فبالنسبة للغة الخطاب اتسع نفوذها وسلطانها وكانت فصيحة خالية من الشوائب.

وبالنسبة للكتابة (ابتداء من النصف الأخير من القرن التاسع ق.م. حتى أوائل القرن السادس ق.م.) دون بها معظم أسفار العهد القديم وهى أسفار التكوين والخروج والتثنية ويوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد وقسم كبير من الأنبياء.

وفى تلك المرحلة بقيت العبرية على طبيعتها الصحراوية فهى طبيعة ساذجة بعيدة عن الفلسفة والتعمق خشنة الألفاظ تمتاز بالحكمة وكثرة الأمثال.

المرحلة الثانية: تبدأ من نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م. إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وتسمى المرحلة الفضية للغة العبرية.

---

(١) انظر: فقه اللغة: د. وافى ص٤١ - ٤٣.

فبالنسبة للغة التخاطب :

حاول المنفيون إلى بابل – على يد بختنصر – والباقون منهم دون نفى – فى فلسطين – التمسك بالعبرية لكن شأنها أخذ يضمحل شيئا فشيئا وبدأ النفوذ الآرامى بغزوها فلم يمكنهم المحافظة عليها فى لغة التخاطب، لأن تيار الآرامية كان أقوى فتغلبت على العبرية حتى امحت من التخاطب نهائيا .

وبالنسبة للتدوين ظلت العبرية مستخدمة فكتبت بها بعض أسفار العهد القديم (يونس – زكريا – قسم من دانيال) وكذلك دونت بها بعض الآثار الأدبية .

الطور الثانى : يبدأ منذ أواخر القرن الرابع ق.م. إلى الآن وله مرحلتان – أيضا – :

المرحلة الأولى : منذ أواخر القرن الرابع ق.م. إلى أول العصور الوسطى، وتسمى العبرية – حينئذ – العبرية الربانية أو التلمودية .

وفى هذه المدة لم تكن العبرية لغة محادثة، وإنما بقيت لغة كتابة وتدوين فحسب .

والعبرية – فى هذه المرحلة – متأثرة كثيرا باللهجة الآرامية وفيها آثار من لغات الحيثيين الهندية الأوروبية وفيها كلمات كثيرة من اليونانية واللاتينية والفارسية .

وقد كتبت بها مؤلفات – على يد أحبار اليهود – بلغت ستين ومائة كتاب فى الدين والقانون والتاريخ وظهرت بين أواخر القرن الأول الميلادى ومنتصف القرن الثالث الميلادى .

ووضعت هذه الكتب فى مؤلف يسمى (المشنا) – ومعناه الكتاب الثانى بعد الكتاب الأول – وهو العهد القديم – ومنه يفيد اليهود فى حياتهم الدينية، ثم شرح هذا الكتاب (المشنا) باللغة الآرامية أحبار اليهود الذين يعرفون العبرية ويتكلمون الآرامية ويطلق على هذا الشرح اسم (الجمارا) – يعنى النص المكمل أوالإكمال – ووضعت تلك الشروح والتعليقات على (المشنا) فتألف منها

(التلمود) وهذه الشروح كتبت بلهجات آرامية متنوعة – لأن الآرامية لم تكن لهجة واحدة بل تعددت فيها اللهجات – ولذلك فالتلمود نوعان :

التلمود البابلى : عبارة عن (المشنا) مع الشروح عليها بالآرامية البابلية أو الآرامية الشرقية (اللهجة الجنوبية) .

والتلمود الفلسطينى، أو تلمود بيت المقدس : وهو نص (المشنا) مع الشرح بالآرامية الفلسطينية أو الآرامية الغربية .

وظهر ما يسمى (الترجوم) وهو ذكر الآية من العهد القديم وإتباعها بترجمتها بالآرامية ومن ذلك ترجوم أنفلوس – لأسفار التوراة وحدها – وترجوم يوناثان – لبقية أسفار العهد القديم – .

ويرجع تاريخ هذه الشروح والتراجم إلى القرن الثانى بعد الميلاد وبعضها يرجع إلى القرون الرابع والخامس والسادس بعد الميلاد .

وفى (المشنا) كثير من المفردات الآرامية وفيها عدد قليل من المفردات اليونانية واللاتينية والفارسية ومع ذلك تحتفظ بقيمة لغتها العبرية .

المرحلة الثانية : منذ بداية العصور الوسطى إلى الآن وفيها تسمى (العبرية الحديثة) .

وفى هذه المرحلة تأثرت كثيرا باللغة العربية لتأثر الكاتبين بها بالثقافة العربية فى الشرق وفى الأندلس كذلك وظهر هذا فى بعض كتب النحو العبرى التى ألفت فى الأندلس على يد مروان بن جناح القرطبى، وفى المعاجم التى جمعت بين العبرية والعربية، وفى التأليف الأدبى بالعبرية، فقد تأثر الشعر العبرى بالشعر العربى وللحريرى مقامات باللغة العبرية على نمط المقامات التى ترجمها واهتم فيها بإبراز وجوه البيان والبديع .

وقد حاول اليهود الأوربيون من الألمان والإنجليز والفرنسيين وغيرهم إعادة النطق العبرى – من جديد – فى التخاطب والإذاعة والخطابة إلى غير ذلك ونقلوا إليها بعض صور النطق الأوروبى فخففوا النطق ببعض أصوات الحلق وأصوات الإطباق، فالصاد – مثلا – أصبحت قريبة من الصوت Z فى الألمانية وبدا تأثرها كثيرا بلغة البيدش – وهى لهجة ألمانية كان يتكلم بها يهود وسط أوروبا وشرقها

ودخل كثير من الألفاظ والتراكيب الأجنبية إلى العبرية[١] ومع ذلك عادوا إلى أصل العبرية القديمة عند اليهود الشرقيين.

والواقع أن نطق اللغة العبرية – فى عهد التخاطب بها – لم نستطع أن نعلم عنه شيئا، لأن الآثار التى وصلتنا تفتقد جانب النطق، فإن ما وصلنا إنما وصلنا مكتوبا فى العهد القديم والمشنا والمؤلفات العبرية وبعض النقوش على اللوحات الصخرية والنقود ولا يعرف عن كيفية نطقها شيء.

وبعض الكلمات التى جاءت مكتوبة فى العهد القديم بالرسم اليونانى تختلف فى طرائق نطقها عما كان ينطقه أحبار اليهود فى تلاوتهم للأوراد.

وتلاوة اليهود لبعض الأوراد والتوراة جاء فى عصر متأخر جدا (فى القرن السابع الميلادى) – بعد أن انتهت العبرية من التخاطب بها بأكثر من عشرة قرون.

ولا شك أن تناقل النطق خلال هذه المدة الطويلة لا يسمح بالمحافظة على النطق على الوجه الصحيح بل لابد أنه اعتراه كثير من التغيير والتحريف والتبديل[٢].

الكتابة العبرية

وقد اتبعت الكتابة العبرية طريقة الحروف الفينيقية باثنين وعشرين حرفا ترمز إلى الأصوات الساكنة وتكتب من اليمين إلى الشمال بحروف منفصلة ما عدا الألف واللام فتكتبان متصلتين، وهذا هو الخط العبرى القديم.

ثم تأثرت الكتابة العبرية بالرسم الآرامى متابعة لتأثر اللغة العبرية بالآرامية وسمى هذا بالرسم العبرى الحديث أو العبرى المربع، وكتبت به مسائل الدين فحسب، وفى غير ذلك يستخدم الرسم العبرى القديم.

وفى القرن السادس الميلادى استخدمت حروف (الألف والهاء والواو والياء) للرمز إلى أصوات المد الطويلة ثم استخدمت علامات للحركات القصيرة منها

---

(١) انظر: فقه اللغة: د. وافى ص٤٥ – ٥٠، وأسس علم اللغة العربية ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) فقه اللغة: د. وافى ص٤٣ – ٤٥.

الطريقة العراقية أو البابلية والطريقة الفلسطينية وفيها توضع علامات الحركات القصيرة فوق الحروف وقد انقرضت منذ القرن التاسع الميلادى ومنها الطريقة الطبرية التى تضع علامات الحركات القصيرة تحت الحروف وهى أشهر الطرق ولها أسلوبان فى نطق الكلمات المكتوبة أحدهما لليهود الغربيين أو الأسلوب الألمانى، والثانى لليهود الشرقيين أو الأسلوب البرتغالى.

وأحيانا يستخدم الرسم العربى أو اليونانى فى تدوين العبرية[١].

الآراميون

موجة سامية كانت لها جذور أولية ضاربة فى القدم، وتدل بعض الآثار على أن بعض الآراميين اتجه إلى بعض المناطق فى الجزء الأعلى من أرض الرافدين أو أعلى دجلة (بالعراق) فى عصر متقدم – القرن الثالث والعشرين أو السابع عشر ق.م، ويدل على ذلك بعض النقوش واللوحات[٢]

وبدأ الزحف الآرامى على المسرح بوضوح فى حوالى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م. وأقاموا لهم عدة دويلات محلية تغلبوا فيها على الشعوب الأصلية من سكان هذه المناطق.

وكان انشغال الأشوريين بحروب الحيثيين – فى آسيا الصغرى – وضعفهم مما هيأ لهم الاستيلاء على سوريا.

«وقد بلغ الآراميون أقصى أهميتهم السياسية فى القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م. لاضمحلال الامبراطورية الأشورية خلال تلك المدة، ففى الشرق غزت القبائل الآرامية الجزء الشمالى والأوسط والجنوبى من أرض الرافدين، واستولوا على عرش بابل فى أوائل القرن الحادى عشر ق.م. وأنشأوا عدة ممالك أو دويلات.

وفى الجهة الأخرى للتوسع الآرامى – فى الغرب – نشأت لهم عدة دويلات

---

(١) فقه اللغة: د. وافى ص٥٠ ، ٥١.

(٢) منها نقش الملك الأكدى نرام – سين No - ram - sin وكذلك لوحة مكتشفة فى درهم (مدينة سومرية) ونصوص مارى. انظر: الحضارات السامية القديمة ص١٧٦.

أو ممالك صغيرة فى سوريا شمالها وجنوبها منها ممالك أرفد وحلب وصوبا ودمشق وغيرها حوالى سنة ١١١٠ ق.م.

لكن قوة الآراميين التى برزت واضحة فى هذه الحقبة لم تنشىء توحدا سياسيا فيما بينها أو تنظم دولها أو فتوحاتها، فظلت على هيئة ممالك محلية صغيرة يعتريها الضعف والانقسام، إلى جانب من اختلطوا بهم من أجناس متباينة من السكان الأصليين والآشوريين والبابليين.

وقد بدأ الأشوريون ينهضون منذ نهاية القرن العاشر، وأول ما بدأوا إجلاء الغزاة الآراميين عن أرض الرافدين (العراق) فقضوا على ممالك الآراميين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ق.م. وكان عام ٨٥٦ ق.م. نهاية آخر معقل لقوة الآراميين فى أرض الرافدين.

ثم وجهوا اهتمامهم - بعد ذلك - إلى القضاء على الآراميين فى سوريا، فهب بعض ملوك الأشوريين (شلمنصر) وأنزل هزيمة منكرة بحلف من الدول الآرامية عام ٨٤١ق.م. وبدأت ممالك الآراميين - هناك - تسقط تباعا فى يد الآشوريين ففى عام ٧٤٠ ق.م. - ٧٣٣ ق.م. سقطت ممالك آرامية مثل أرفد شمال دمشق، ودخلت فى نطاق النفوذ الآشورى بعد أن لقيت نهاية ماحقة.

ثم عاد البابليون لمنازعة الآشوريين، وتغلبوا عليهم، وظهرت الدولة البابلية المتأخرة - فى العراق - فأبقت على شيىء من حياة الآراميين السياسية بعض الوقت، ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد عاد الآشوريون إلى هزيمة البابليين ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك.

وأخذ شمال سوريا مركز قوة الآراميين يقع على التوالى تحت حكم الامبراطوريات الكبرى التى تعاقبت على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط، ولكن استمر الآراميون فى الوجود شعبا، كما بقيت لغتهم بما لها من أهمية فريدة أمكنها أن تكتسبها على مر القرون[1].

اللغة الآرامية ولهجاتها

على هذا التوسع فى المناطق التى عاش فيها الآراميون شرقا وغربا لحظنا

---

(١) الحضارات السامية القديمة ص١٧٦ - ١٧٩.

اختلاط اللغة الآرامية باللغات المجاورة لها فى الشرق - (العراق) - والغرب (سوريا وفلسطين).

وقد استطاعت الآرامية أن تؤثر تأثيرا شديدا فى اللهجات الأكادية شمالا وجنوبا وأن تقضى عليها منذ منتصف القرن الرابع ق.م. كما اختلطت باللغات الكنعانية - الفينيقية والعبرية وغيرهما - فى سوريا - فاستطاعت أن تنتصر على العبرية فى أواخر القرن الرابع ق.م، وعلى الفينيقية فى القرن الأول ق.م. وبذلك انفردت الآرامية بالساحة اللغوية فى كل هذه المناطق الشاسعة فى العراق، وتغلغلت فى بعض أجزاء من آسيا الصغرى - وسوريا وفلسطين وما جاورها، بل امتد نفوذها إلى تدمر[1] والنبط [2] وشبه جزيرة سيناء ومصر وبعض المناطق الخاصة باللغة العربية فى شمال الحجاز فى واحات تيماء والحجر (مدائن صالح) والعلا، واتسع نطاق المساحة التى يتكلم أهلها بها لا سيما بين سنتى ٣٠٠ ق.م. و٦٥٠ بعد الميلاد.

ونتيجة اتساع الرقعة التى انتشرت فيها الآرامية واختلاف بيئاتها انقسمت إلى لهجات، ويجعل العلماء هذه اللهجات قسمين[3]:

١- مجموعة اللهجات الآرامية الشرقية.

٢- مجموعة اللهجات الآرامية الغربية.

فالمجموعة الأولى: الآرامية الشرقية: تشمل ما انتشر منها ببلاد الرافدين - (العراق شماليه وجنوبيه) وتشمل:

(أ) اللهجة الجنوبية: (التى تتمثل فيما يعرف بالتلمود البابلى).

---

(١) انظر شيئا عنها ص ١٠٧ من هذا الكتاب.

(٢) مملكة الأنباط كانت فى شبه جزيرة سيناء وقد اختلطت فيها العناصر الآرامية بالعربية، وبعد استقرارهم كثرت العناصر العربية إلى أن تغلبت على العناصر الآرامية، ومحتها محوا تماما، وبقيت لغة الحضارة هى اللغة الآرامية التى كانت فى تلك العصور لغة العمران عند جميع أمم الشرق، ثم سقطت على يد الرومان سنة ١٠٦ ق.م وسموا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، وقد كانوا قوما ذوى حضارة زراعية وغيرها. انظر: ص ١٠٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: فى الآثار التى وصلتنا من هذه اللهجات فقه اللغة: د. وافى ص ٥٨ - ٦٥.

(ب) **اللهجة المندائية** : وهى لبعض الصابئة من قبائل تقطن جنوب العراق أيضا.

(جـ) **اللهجة الحرانية** : (نسبة إلى حران فى شمال العراق)[1].

(د) **اللهجة السريانية** : (هى لهجة مدينة أدسا أوالرها - كما هى عند العرب -)[2].

وهي اللهجة ذات النتاج الأدبى والفلسفى والعلمى ولها اتصال باليونانية.

وقد انقسمت السريانية قسمين:

١- **اللهجة اليعقوبية** : (نسبة إلى مذهب يعقوب بارادوس).

٢- **اللهجة النسطورية** : (نسبة إلى مذهب نستوريوش).

ويعقوب ونستوريوش صاحبا مذهبين مختلفين فى طبيعة المسيح وانقسم السريان علي أساس هذين المذهبين إلى يعقوبيين ونساطرة.

ولكل من اللهجتين السريانيتين أصواتها ومفرداتها وقواعدها التى تختلف بعض الاختلاف عن أختها، وتستعمل كل منهما - عند الفريقين - فى قراءة العهدين القديم والجديد.

وللسريانية أثر بارز فى الآداب والعلوم العربية، ولاسيما فى العصر العباسى.

والمجموعة الثانية : الآرامية الغربية، وتشمل ما انتشر منها بسوريا وفلسطين وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بها وقد مرت بثلاثة أطوار:

(أ) الآرامية الغربية القديمة (حوالى القرن الثامن ق.م) ومنها وصلت إلينا بعض النقوش.

(ب) الآرامية التى دون بها بعض أجزاء من العهد القديم (أجزاء من سفرى عزرا ودانيال وآية من سفر أرمياء).

(جـ) الآرامية الفلسطينية (المستعملة فى ترجمة العهد القديم عن العبرية، والجمارا وتلمود بيت المقدس)، وكذلك فى ترجمة العهدين القديم والجديد عن

---

(١) كانت مركزا مهما للثقافة والفلسفة اليونانية وبها ترجمت بعض الكتب الفلسفية من الآرامية واليونانية إلى اللغة العربية.

(٢) مركز ثقافى مهم فى القديم.

اليونانية (من القرن الثانى إلى القرن الرابع الميلادى) بعد أن تحرر هؤلاء من النفوذ السريانى، فانفصلوا عن اليعاقبة والنساطرة.

وقد انتهت الآرامية وانقرضت من لغة التخاطب فى العراق بعد الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى وإن بقيت السريانية لغة كتابة وأدب ودين إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى.

كذلك انقرضت الآرامية فى معظم مناطق سوريا ولبنان وفلسطين بعد الفتح العربى وإن بقى الصراع الطويل بينها وبين العربية فى بعض المناطق حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادى، وانحرفت من جراء ذلك الآرامية والعربية على لسان أهلها[1].

الأحباش

خرجت موجة سامية من جنوب الجزيرة العربية، فعبرت البحر الأحمر عن طريق باب المندب إلى ما أطلق عليه بعض الرحالة اليونان اسم (أثيوبيا)[2] وسميت الحبشة - فيما بعد - باسم قبائل سامية مهاجرة أو قرية فى اليمن تسمى (حبشت)[3] بدأوا الهجرة منها كما يدل على ذلك أحد النقوش السبئية.

وأهم القبائل المهاجرة قديما (حبشت) و(الأجعازى) أو (الجعز)[4] وسيمت باسمهم اللغة التى استعملوها (الجعزية).

وقد اتسع النفوذ العربى فى أثيوبيا قبل القرن السادس ق.م. وربما سبق ذلك هجرات سامية قديمة استقرت هناك قبل أن يهاجر إليها العرب الجنوبيون، فقدموا إلى هذا الشعب السامى وأثروا فيهم.

وتدل بعض النقوش على وجود دولة محلية فى الحبشة[5] حوالى القرن الخامس ق.م. وترشد الحفائر والنقوش المكتشفة إلى قيام مملكة قديمة - عاصمتها

---

(١) فقه اللغة: د. وافى ص٥٢ - ٦٧ بتصرف.

(٢) وجاءت هذه الكلمة فى الكتاب المقدس فأحبها الأحباش عند دخولهم إلى المسيحية وسموا بها دولتهم.

(٣) الحضارات السامية القديمة ص٢١٤. (٤) أسس علم اللغة العربية ص١٩٣.

(٥) من ذلك نقش عربى ينسب إلى القرن الخامس ق.م أو بعده بقليل، وهناك معلومات أخرى عن هذه الدولة فى كتاب «رحلة فى المحيط الهندى» لمؤلف مجهول.

أكسوم – وتتحدث عن ملوكها وفتوحاتهم التى امتدت شمالا فى مصر، وجنوبا فى أثيوبيا وشرقا إلى اليمن، وقد احتل الأكسوميون اليمن أول مرة فى مطلع القرن الرابع ق.م. (٣٧٥ق.م) لبضع عشرات من السنين، ثم طردهم الحميريون منها سنة (٤٠٠) ق.م. وتولى الحكم فيها أسرة حميرية.

وخلال هذه المرحلة الزمنية التى اتسعت فيها الفتوحات الأثيوبية دخلت المسيحية الحبشة أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى، وكان اضطهاد الملك الحميرى – اليهودى – ذى نواس لنصارى اليمن – وقصته مشهورة ورد ذكرها فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود – كان هذا الاضطهاد دافعا للأثيوبيين إلى منازعة (اليمن) وأدى ذلك إلى احتلالهم لها احتلالا ثانيا، فخضعت لحكم أكسوم عام ٥٢٥م، ومنها سار أبرهة بحملته المشهورة إلى مكة ولقى مصيره المحتوم بتدبير المولى سبحانه، وقد تركت هذه الحملة أثرا كبيرا فى نفوس العرب وتذكر بعام الفيل.

وانتهى الصراع الشديد بين الفرس والروم – فى هذا الأوان – باحتلال الفرس لليمن سنة ٥٧٢م.

وبعد الإسلام لم يجد النفوذ الأثيوبى أو الهجرة الأثيوبية طريقا إلى الجزيرة العربية(١).

وكانت حياة الحبشة راكدة من القرن السابع إلى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم ظهرت مرحلة جديدة بسقوط مملكة (أكسوم) وقيام مملكة (لاكسا)، ثم سقطت الأخيرة سنة ١٢٧٠م، وأتى بعدها الحكم الأمهرى (٢) الذى استمر حتى عام ١٨٨٥م.

اللغات الحبشية

من أهمها:

(أ) لغة الجعز: لقد دخلت بعض القبائل السامية الحبشية أثيوبيا وأقامت فيها وحكمتها وحاولت فرض لغتها الجعزية ومع سيطرة القبائل الحبشية فى أثيوبيا كان هناك لغات أخرى أفريقية أثرت فى لغتها وتأثرت بها.

---

(١) فقه اللغة: د. وافى ص ٨٧ والحضارات السامية القديمة ص٢١٣ – ٢١٦.

(٢) على يد أسرة أمهرية من منطقة (كوا) فى الجنوب الغربى من بلاد الحبشة.

ويرى بعض الباحثين أن اللغات السامية فى الحبشة ترجع إلى أصل واحد هو لغة الجعز، وقد سميت بذلك نسبة إلى قبيلة الأجعازى أو الجعز، ويطلق عليها اسم (اللغة الحبشية القديمة) أو (اللغة الحبشية) .

وبالنسبة للتخاطب بها فقد استخدمت فى التخاطب وظلت حتى قضى على مملكة أكسوم، وقامت مملكة (كوا) الأمهرية فتنازعت الجعزية والأمهرية إلى أن حلت الأمهرية محل الجعزية على لسان أهلها فى معظم البقاع .

وبالنسبة لاستعمالها فى الكتابة والتدوين نرى أنه قد مرت مدة طويلة قبل تدوين الحبشة كتابا أو نصا بلغة الجعز فالنقوش التى وصلتنا جاءت فى القرن الرابع الميلادى وما تلاه حتى القرن السابع[1] ومعنى هذا أن عشرة قرون قد مرت – بعد دخول الأحباش أثيوبيا – قبل كتابة شىء بلغتهم، وقد وصلتنا كتابات ضئيلة تنحو المنحى الدينى والكنسى فترجم إلى الجعزية – من السريانية واليونانية – الكتاب المقدس، كما ترجمت عدة نصوص دينية وكذلك مجموعة أقاصيص دينية تتعلق ببعض الحيوانات والنباتات، ثم خبت الكتابة وركد التدوين أربعة قرون ولم تنتعش الكتابة إلا فى القرن الثالث عشر إلى السابع عشر الميلادى فى الثقافة الدينية والتدوين التاريخى، ثم انتعشت الكتابة بالجعزية حينما ظهرت الأسرة السليمانية عام ١٩٧٠م فنشطت حركة التأليف والترجمة بها فى الجوانب الدينية، وترجمت كتب عربية مصرية دينية – أيضا – ودون بها شىء من تاريخ الأحباش .

لكن الأمهرية لم تترك للجعزية المجال فسيحا بل نازعتها فى ميدان الكتابة – أيضا – منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى حتى لم تعد الجعزية معروفة لدى كثير من العلماء ورجال الدين أنفسهم .

وقد تفرعت من الجعزية القديمة :

٢ – اللهجة التيجرينية : وهى منتشرة فى منطقة تيجرينيا التى تقع وسطها مدينة أكسوم، وهى اللغة الرسمية فى دستور أريتريا منذ عام ١٩٥٢م – قبل استيلاء دولة أثيوبيا على السلطة فى أريتريا وقد استقلت أريتريا بعد ذلك – ومنهم مسلمون ومسيحيون وهى لغة مشافهة ولم تستعمل فى الكتابة إلا قليلا .

---

(١) منها نقش الملك عزانا ٣٥٠ق.م ونقشان منسوبان إلى الملك آل عميدا ونقشان منسوبان إلى الملك نازانا بن الملك آل عميدا يرجعان إلى القرن الخامس الميلادى .

وتتنازع السلطان - مع الأمهرية - التى لم تستطع القضاء عليها وقد عنى العلماء بدراستها منذ القرن التاسع عشر.

٣- اللهجة التيجرية: هى لهجة المناطق الواقعة فى الشمال من منطقة اللهجة السابقة، وهى مستعملة - أيضا - فى إقليم كسلا فى السودان وعند بعض العشائر الحامية.

وهى تقرب من الجعزية القديمة، وتقاوم الأمهرية - لاسيما بعد دخول الإسلام -.

ويتكلم بها عناصر حامية كانت لغتها الكوشية، وتغلب اللسان السامى عليها، وبينها وبين الكوشية تأثر وتأثير.

(ب) اللغة الأمهرية:

هى فى الأصل لهجة القبائل الأمهرية نسبة إلى منطقة أمهر.

وقد اتسع انتشارها بعد تولى أسرة أمهرية من منطقة (كوا) الحكم سنة ١٢٧٠م. فحلت محل الجعزية فى التخاطب وازدهرت فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وهى اللغة الرسمية فى الحبشة الآن.

وامتد نفوذها إلى الكتابة وما وصلنا عنها من مدونات يرجع إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادى فى شكل قصائد حربية وأناشيد ملكية أمهرية، وترجم إليها العهد الجديد بعد أن أصبح فهم الجعزية مستعصيا.

وصار لها نفوذ كبير فى الدواوين والمكاتبات الرسمية فى جميع أقاليم الحبشة، ودخلت التأليف فى العلوم والأدب والدين، وصارت لغة الصحافة والكتب المدرسية.

ولاتزال محتفظة بوحدتها اللغوية دون تفرع إلى لهجات ولدخولها مناطق حامية اصطدمت باللغة الكوشية و استطاعت - وبخاصة فى المناطق الجنوبية - أن تؤثر فيها وتقاسمها الاستعمال فى المحادثة على أنها لغة ثانية فى المناطق التى لاتزال محتفظة بلغتها الكوشية، ولكثرة احتكاكها وسعة انتشارها اعتراها كثير من التغير عن الجعزية وعن غيرها من اللغات السامية فضاعت منها بعض الأصوات السامية، فليس فيها من أصوات الحلق إلا الهمزة والهاء، ودخلتها أصوات حامية، وانقرضت منها معظم قواعد الجمع والتأنيث، أما مفرداتها

فنصفها السامى تطور كثيرا فى جوانبه الصوتية، والنصف الآخر حامى إلى جانب ألفاظ أوروبية كثيرة[1].

وعن الأمهرية تفرعت اللهجات التالية:

١- اللهجات الجوراجية: تسمى باسم منطقة (جوراجيا) فى جنوب منطقة (كوا) الأمهرية.

٢- لهجة هرر: هى متفرعة عن الأمهرية كذلك.

وقد بعدت هذه اللهجات عن أصلها لاحتكاكها باللغات الحامية ولاعتناق أهلها الاسلام.

الخط الحبشى

وقد استخدم الساميون الأول - فى أثيوبيا - الخط السبئى لنزوحهم من اليمن، ثم كونوا الرسم الحبشى أو الجعزى، وظهر هذا الخط - على الراجح - فى القرن الثالث الميلادى، وظل يستخدم بجوار الخط السبئى[2] وكان الرسم الحبشى القديم يكتب من اليمين إلى الشمال - كالخط السبئى - ثم انحرف بعد ذلك فأصبح يكتب من الشمال إلى اليمين وظل على هذا حتى الآن.

وقد كتبت لغة الجعز بخط مقطعى يتكون من ١٨٢ رمزا مكونا من الصوامت والصوائت، فكل صامت مع الحركة التالية له يكون رمزا مستقلا، وفيه ستة وعشرون حرفا من الصوامت يرتبط كل منها بإحدى حركات سبع (فتحة قصيرة - فتحة طويلة - فتحة ممالة قصيرة - فتحة ممالة طويلة - ضمة طويلة مثل O الأجنبى وأخرى طويلة مثل u الألمانية - كسرة طويلة).

فشكل الحرف الساكن يتغير تبعا لصوت المد الذى يلحقه وهو خط معقد.

واللغة السامية التى تكتب بخط سهل هى اللغة الهررية، ويكتبها أهلها المسلمون بالخط العربى[3].

---

(١) أسس علم اللغة العربية ص١٩٢ - ١٩٦ وفقه اللغة د. وافى ص٨٣ - ٩١.

(٢) جاء نقش الملك عزانا ونقشا الملك آل عميدا بصورتين إحداهما بالرسم السبئى والآخر بالرسم الحبشى القديم.

(٣) فقه اللغة: د. وافى ص ٨٤، ٨٥، وأسس علم اللغة العربية ص١٩٧.

الباب الثالث : العربية : جذورها التاريخية وخصائصها اللغويـــة

الفصل الأول: العرب وطبيعة اللغة العربية

الفصل الثاني: العربيـة المثاليـة وأطوارها

الفصل الأول
العرب وطبيعة اللغة العربية

نشأتهم وتفرعهم:

هم تلك الجماعة التى بقيت فى شبه الجزيرة وعاشت فيها أزمانا متطاولة، وهم من سلالة سام بن نوح، وقد امتد اسم العرب فى العصر الحاضر ليشمل كل من اعتنق الإسلام من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى لاشتراك سكان هذه المنطقة فى العقيدة، والثقافة والعادات والتقاليد، والأهداف المشتركة فضلا عن التشابه الجسمى والعقلى.

والمعروف أن قبائل العرب منها القديم ومنها الحديث. ففى القديم بادت قبائل عربية، وممالك تنسب إليها كقوم عاد وثمود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم، وكانت عاد تسكن منطقة الأحقاف جنوبى الجزيرة، وثمود كانت تسكن بالحجر شمالى الجزيرة بين الحجاز والشام، ويذكر القرآن الكريم أنهم أهلكوا حين كفروا بأنعم الله وصدوا عن سبيله.

وهناك غيرهم من القبائل التى بادت كالعمالقة الذين ذكرتهم التوراة، وكانوا مبعثرين فى جهات شتى من الجزيرة، وطسم وجديس، هاتان القبيلتان اللتان لم يستتب الأمن بينهما حتى أفنت كل منهما الأخرى، وكان ذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى كما يذكر المؤرخون.

وكانت هذه القبائل البائدة تتكلم العربية التى بقيت ممثلة للأمم السامية التى هاجر أبناؤها وهجروا موطنها الأصلى، ولم يصلنا عن هذه اللغة القديمة سوى بعض النقوش.

وقد بقيت من تلك القبائل بقايا عاشت فى الجزيرة، وقد أخذت الحياة تدب فى أوصالها جنوبى الجزيرة ثم شماليها، ففى الجنوب ظهرت جماعات عربية أطلق عليها أسم القحطانيين أو اليمنيين أو كما يسمونهم العرب العاربة، وفى الشمال ظهرت جماعات عربية من بعض القبائل الجنوبية التى هاجرت إلى الشمال كجرهم ومن نسل إسماعيل – عليه السلام – وهم المسمون بالعدنانيين أو العرب المستعربة.

ونتحدث عن العرب الجنوبيين أو اليمنيين، وعن العرب الشماليين ولهجاتهم.

أولا: عرب الجنوب (العرب العاربة أو اليمنية):

لاشك أن جنوبى الجزيرة العربية (اليمن) كان خصبا فى سالف العصر والأوان، تنمو فى سهوله الأشجار والنباتات، ولذلك سماها مؤرخو اليونان (بلاد العرب السعيدة)، فقامت فيها الحضارات والحياة لدول متعاقبة.

وقد شملت اليمن قديما الدول المعينية والقتبانية، والحضرمية والسبئية والحميرية، وكلها كانت ذات نشاط تجارى واسع.

المملكة المعينية: من الممالك القديمة فى شمال اليمن - فى منطقة الجوف الخصبة بين نجران وحضرموت.

ولم يكن يعرف - على وجه التحديد - تقدمها على مملكة سبأ أو معاصرتها لها، لكن الحفائر الحديثة وتطبيق العملية الراديو كربونية Radiocarbon Process تشير إلى تعاصرهما، وقيل: إنها كانت موجودة بين سنة ١٣٠٠ق.م، ٦٣٠ق.م، ويذكر بعضهم تاريخ قيامها حوالى سنة ٤٠٠ق. م.

وكانت لهم تجارة بين الهند وبلاد العرب، وقوافلهم التجارية تتجه من سواحل المحيط الهندى إلى فلسطين، وأقاموا لهم مستعمرات هامة تسكنها جاليات منهم على طول الطريق الساحلى المحاذى للبحر الأحمر فى اتجاه فلسطين والبحر المتوسط.

وقرب نهاية القرن الأول ق. م ذابت فى مملكة سبأ التى كانت تمد نفوذها[1].

قتبان: تنسب إلى قبائل قتبان التى أنشأت مملكة فى مناطق سكناهم فى وادى بيحان وحريب وهى المناطق الساحلية الواقعة شمال عدن.

ويختلف المؤرخون فى تاريخ قيامها، ويذكر أنها وجدت سنة ١٠٠٠ق. م وانتهت حياتها ما بين سنتى ٢٤٠، ٢٠٠ ق. م. .

---

(١) الحضارات السامية القديمة ص١٩٢ وفقه اللغة: د. وافى ص٧١، ٧٢.

ويرجح موسكاتى أن حياتها بين سنة ٤٠٠ ق. م و ٥٠ ق. م، وأنها ذابت أيضا فى مملكة سبأ نتيجة الحروب والمنازعات المستمرة.

حضرموت: أنشأتها القبائل التى كانت تعيش فى المنطقة الجنوبية المسماة بهذا الاسم، وكانت لها حضارة هامة.

وقد عمرت مدة أطول من المملكة القتبانية.

ويختلف المؤرخون فى تاريخ ظهورها، فيجعلها بعضهم معاصرة للقتبانيين، وبعضهم للمعينيين، وقيل: إنها ظهرت فى النصف الثانى من القرن الخامس ق. م، وانتهت فى القرن الثانى الميلادى، وقيل غير ذلك، وكانت نهايتها على يد السبئيين أيضا.

سبأ: هى الدولة الكبرى التى وسعت من سلطانها حتى نسبت إليها اللهجات اليمنية فعرفت باسم (اللهجات السبئية) لبروز قوتها وتغلبها على غيرها من الممالك المعاصرة أو السابقة لها كالمعينية والحميرية.

وتشير بعض النقوش المسمارية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن ق. م إلى أن زعماء سبأ وملوكها - من السبئيين الذين كانوا يستوطنون شمال الجزيرة العربية - قدموا الجزية والهدايا لملوك أشور، وهذا يدل على ازدهار الدولة السبئية قبل هذا الزمن المتقدم.

ويقال إنها كانت موجودة فى زمن سليمان بن داود الذى كانت له دولة معروفة ويقال: إنه توفى سنة ٩٧٥ ق. م، وهذا يثبت وجودها خلال القرن العاشر.

وكان حكام سبأ - فى عصر متقدم - يلبسون ثوب الحكومة الدينية فيتخذون لقب (المكرب) - ومعناه الكاهن الأكبر - وقرب نهاية عصر المكاربة استقرت عاصمة الدولة فى (مأرب) حيث كان يبنى سد عظيم للتحكم فى وادى أذنه وتحويل مياهه للرى.

وحوالى القرن الخامس ق. م تحولت سبأ إلى دولة يحكمها عدد صغير من الأسر العسكرية، والأسر المالكة للأرض، وفى ظلال هؤلاء الملوك أخذ السبئيون يوسعون نفوذهم شيئا فشيئا.

وتعرضت هذه الدولة لمناوأة الأحباش الذين احتلوا اليمن وكانت مناوأتهم لها وهجومهم عليها خلال القرن الرابع ثم استعادت حريتها بعد ذلك.

ولما دخلت اليهودية والمسيحية اليمن تنازع السلطان عليها بيزنطة والفرس والأثيوبيون المحتلون.

وقالوا إن دولة سبأ استمرت حتى سنة ١١٥ ق. م حينما انهار سد مأرب بسيل العرم بعد أن كفروا بأنعم الله كما ذكر القرآن الكريم.

وبعد انهيار سد مأرب هاجرت قبائل منها إلى الشمال.

حمير: نشأت أيام الدولة السبئية، ويقال: إنها تفرعت عنها، وكانت عاصمتها (ظفار) وكان بينها وبين سبأ منازعات، ويحتمل أنها بدأت حوالى سنة ١١٥ ق. م وانتهت سنة ٣٧٥م، وعلى هذا تكون قد عاشت نحو ٤٩٠ عاما، وكانت نهايتها على يد الأحباش الذين سيطروا على اليمن فى هذا التاريخ.

وقد تمكن العدنانيون (عرب الشمال) بعد أن قوى سلطانهم من التغلب على إخوانهم اليمنيين حوالى القرن السادس الميلادى.

اللهجات اليمنية

ولا ريب أن الخلاف والشجار بين تلك الدول العربية المتوالية كان يتبعه صراع لغوى بين لهجاتها، وكانت لهجة سبأ هى صاحبة الغلب فى هذا المضمار حيث صرعت كثيرا من اللهجات المناوئة لها، وحلت محلها اللهم إلا الحميرية التى استطاعت منازعتها زمنا طويلا.

ويلاحظ أن عربية الشمال قد تغلبت على عربية الجنوب بعد تلاقى القبيلين وتقاربهم فى شتى أحوالهم الاجتماعية والدينية والأدبية قبل الإسلام بقرن ونصف أو قرنين تقريبا.

وقد وصلتنا لهجات تلك الدول عن طريق النقوش التى عثر عليها فى بلاد اليمن وفى الواحات شمال الحجاز (فى منطقة العلا) وفى المناطق الشمالية لبلاد كنعان، وفى صعيد مصر - مما تركه تجار اليمن - وفى الحبشة، وهذه النقوش

كتبت على الصخور والأعمدة والقبور والتماثيل والنقود وجدران الهياكل والمذابح.

وقد اكتشفت فى القرن التاسع عشر الميلادى وهى تعود إلى أكثر من عشرة قرون فمنها ما دون فى القرن الثامن ق. م والخامس ق. م وأحدثها دون فى القرن السادس الميلادى، وهى تدل على أن اللغة اليمنية نشأت فى عصور متقدمة.

وهذه النقوش مكتوبة بخط المسند[1] - وهو خط أبجدى يشتمل على تسعة وعشرين حرفا صامتا والنقوش مدونة بالصوامت دون الحركات، وقد أمكن فك رموز الخط المسند الذى كتبت به وعن طريق الفهم للنقوش ومحتواها أمكن الوقوف على أهم خصائصها اللغوية، ومع ذلك فما تزال عبارات كثيرة فى هذه النقوش لم يتضح معناها أو المراد منها بعد.

وأكثر النقوش يمثل اللهجة السبئية ولذلك فهى أوضح من غيرها ولها سمات بارزة كاستخدام الهاء مكان الهمزة فى التعدية فتستعمل وزن (هفعل) مكان (أفعل) فى العربية الشمالية مثل هراق الماء مكان (أراق) وفى المعينية والحضرمية والقتبانية يستعمل وزن (سفعل) مقابل (هفعل) السبئية.

وتسمى هذه اللهجات - جميعها - لدى الباحثين - اليمينة القديمة أو العربية الجنوبية القديمة أو القحطانية أو الحميرية أو السبئية ويعد أصحابها من العرب البائدة.

وقد تبين من خلال دراسة النقوش أن العربية اليمنية تتفق فى سمات كثيرة مع اللهجات الحبشية، وتوجد أوجه خلاف كبيرة بينها وبين العربية الشمالية، ويمكن إدراك ذلك من عرض بعض النقوش مثل النقش السبئى الآتى الذى نقتبس منه بعض السطور.

السطر الخامس:

. . ن بمقم مراهيمو عشتر شرقاة واسمسهو والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس.

---

(١) سمى بالمسند لأن أكثر حروفه تستند إلى ما يشبه الأعمدة وهو خط هندسى الشكل ويعرف بالخط اليمنى عند العرب ويكتب - فى الغالب - مستعرضا من اليمين إلى الشمال وأحيانا يكتب بالطريقة الثعبانية.

معناه بالعربية الشمالية:

بمجد سيدتهم عشتروت المشرقة وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش).

السطر السادس:

حن يورخن ذقيصن دبخرف ذلششت وتسعى وثلث ما تم بن خرف مبحض بن أبحض.

معناه بالعربية الشمالية:

فى شهر ذى قيصن من سنة ثلاثمائة وست وتسعين بعد سنة مبحوض بن أبحض [1].

لكننا لا نوافق الدكتور وافى الذى مال إلى رأى القائلين باختلاف هذه اللهجات الجنوبية اليمنية عن اللغة الشمالية ولهجاتها اختلافا تاما فقد قال: «إن القول بأن اللغة اليمنية واللغة العربية يمثلان لهجتين للغة واحدة غير صحيح فيما يتعلق باللغات اليمنية القديمة التى هى موضوع هذا الفصل، فقد تبين مما سبق أنها ليست من العربية فى شىء وإن كانت تؤلف معها شعبة لغوية واحدة» [2].

ثانيا - عرب الشمال (المستعربة) أو (العدنانية) [3]:

لا شك أن الساميين الذين كانوا يعيشون فى مناطق الجزيرة العربية بقيت منهم قبائل استقرت - منذ القديم - فى وسط الجزيرة وشرقها وغربها وشمالها (نجد والحجاز وتهامة) ومع تتابع الهجرات السامية التى دعت إليها عوامل كثيرة جعلتهم يخرجون من الجزيرة إلى ما حولها بقيت هذه الطوائف السامية فى موطنهم الأصلى، وقد انتقلت عناصر إليهم من جنوبى الجزيرة وأصهر إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام - إليهم وتناسلوا وكثروا وكونوا عرب الشمال على مر التاريخ الطويل، فهؤلاء يمثلون الساميين الأوائل، وقد حملوا سماتهم

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص٢٤٨-٢٥٠ وانظر: فقه اللغة. د. وافى والتعليق ص ٦٩، ٧٠

(٢) فقه اللغة ص٨١، ٨٢ وانظر ص١٥٧ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٣) انظر: شيئا من تاريخهم وموطنهم ص ٧٤، ٧٥ من هذا الكتاب.

وخصائصهم، وبقى لسانهم يحمل لغة الشمال التى أطلق عليها - فيما بعد - (اللغة العربية) .

وكانت تأخذ مظهرين تبعا لاختلاف المناطق فبعضهم كان يقطن شمال الحجاز بالقرب من الحدود الآرامية فى سوريا وفلسطين وما جاورهما وقد هلكوا وقضى على حضارتهم وانقرضت لغتهم من التخاطب .

وفريق آخر استقر داخل الحجاز ونجد وما حولهما، وامتد وجودهم جيلا بعد جيل وبقيت لهجاتهم .

ونجم عن ذلك انقسام عرب الشمال فريقين :

العرب البائدة والعرب الباقية :

(أ) العرب البائدة ولهجاتهم:

هم تلك القبائل الذين بادوا وطمست آثارهم قبل الإسلام مثل قبائل لحيان وثمود والصفويين، وكانوا يسكنون بعد استقرارهم شمال الحجاز بالقرب من الحدود الآرامية، ولا سيما فى واحات تيماء والحجر (مدائن صالح) ومنطقة العلا[1] .

وقد وصلتنا لهجاتهم عن طريق بعض النقوش المكتشفة فى المناطق السابقة فى مساحة ممتدة من دمشق إلى منطقة العلا لاسيما فى واحتى الحجر وتيماء .

وقد خضعت العربية عند هؤلاء للتأثر باللهجات الآرامية فى الأصوات والمفردات والدلالة، وفقدت بعض خصائصها لبعدها عن مناطق العربية فى (نجد والحجاز) .

ومع ذلك تبدو فى النقوش وجوه من الصلات جد كبيرة بينها وبين نصوص العربية الباقية فى الأصوات والمفردات والقواعد والتراكيب فهى تشتمل على معظم الأصوات - لاسيما الدقيق منها - كالذال والثاء والغين والضاد وتتجلى الظاهرة الكبرى فى الاتفاق بينهما فى أصول الكلمات، ويبدو - فى

---

(١) اقرأ شيئا من تاريخهم وموطنهم ص ٧٥، ٧٦، ٨١ من هذا الكتاب .

عربية النقوش - الإعراب بالحركات بصورة واضحة، وكذلك تشتركان فى القواعد كعلامات الثثنية والإضافة واسم التفضيل إلخ.

والواقع أن النقوش التى وصلتنا قسمان:

١ - قسم شديد التأثر بالآرامية، وهو الذى دون بخط مشتق من المسند.

وهو ثلاث مجموعات: النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية.

فاللحيانية: منسوبة إلى قبائل لحيان [١]، ويختلف الباحثون فى تاريخ كتابتها واستنتجوا أنها دونت فيما بين القرن الأول ق. م والسادس بعد الميلاد أو ما بين سنة ٤٠٠ ق. م إلى ٢٠٠ ق. م.

وتتضمن هذه النقوش أسماء بعض ملوك لحيان وألقابهم وكتبت بخط مشتق من المسند يختلف بعض الاختلاف فى المظهر والنظام عن الخطين الثمودى والصفوى وهو يكتب مستعرضا كالمسند تماما.

والثمودية: منسوبة إلى قبائل ثمود، وقيل إن تدوينها وقع فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد وعددها يزيد عن سبعمائة وألف نقش، وكتبت بالخط الثمودى وهو مشتق من المسند يتجه من أعلى إلى أسفل وليس ثابتا على حال واحدة.

والصفوية: منسوبة إلى منطقة الصفا إذ عثر عليها فى حرة بين تلال الصفا وجبل الدروز وتاريخها يرجع إلى ثلاثة قرون الأول والثانى والثالث بعد الميلاد ويربو عدد هذه النقوش على ألفين، وهى مكتوبة بخط يعتريه تغير واختلاف فأحيانا يكتب ويقرأ من اليمين إلى الشمال وأحيانا بالعكس وهو قريب من الخط الثمودى إلى حد أن بعض العلماء يسمى ما يستعمل فى الثمودية والصفوية (الخط الثمودى والصفوى) وأحيانا يفرقون بينهما فيقولون: الخط الثمودى - الخط الصفوى.

وقد حاول المستشرق الألمانى أنوليتمان Enno Litmann - فى بحوث له -

---

(١) يجعل بعضهم اللحيانيين شعبا مستقلا، وبعضهم يجعلهم من القبائل الثمودية أو قبائل أخرى اختلطت بثمود وصارت معها شعباً واحدا.

حل رموز هذه النقوش فجمع نحو ألفا وأربعمائة نقش ودرسها وكشف حروفها(١).

ونسوق – هنا – بعض هذه النقوش التى تمثل هذا النوع :

أولا : نقش عن قبر صنعه كعب بن حارث يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٨م ونصه :

ذ ن ل ق ض ب ن ت م ن ت

وبإضافة أصوات المد إلى الصوامت يصبح : ذين لقيض بنت عبد مناة .

ومعناه بالعربية الباقية : هذا القبر لقيض بنت عبد مناة .

ثانيا : نقش يبين اسم من قام بنحت صورة وعل كانت بجوار الكتابة .

ل ت م ى غ ث ب ن ج ش م هـ و ع ل

وبإضافة أصوات المد ووصل الصوامت يصبح :

لتيم يغوث بن جشم هوعل .

ومعناه بالعربية الباقية : الوعل لتيم يغوث بن جشم .

والهاء فى (هوعل) علامة التعريف فى العربية البائدة .

٢ – القسم الثانى : قسم أدنى إلى العربية الباقية، وهو الذى قل فيه التأثر بالآرامية، وظهرت فيه سمات العربية الباقية فى الأصوات والألفاظ والقواعد مع أن محل النقوش المكتشفة واحد تقريبا ودون هذا النوع من النقوش بالخط النبطى المتصل الحروف .

ونعرض من هذا النوع ثلاثة نقوش : نقش النمارة Nenmar ونقش زبد Zabad ونقش حوران .

أولا : نقش النمارة : نسب إلى منطقة النمارة، وهى قصر صغير للروم بالقرب من دمشق جنوب منطقة الصفا دون سنة ٢٢٨ ب . م .

ويشير إلى قبر امرىء القيس بن عمرو أحد ملوك الحيرة وهو مدون بخط نبطى يرتبط بعضه ببعض ويشبه الخط الكوفى .

---

(١) انظر : Zur Ent Zifferung der Safn Inschriften

وانظر : فقه اللغة : د . وافى ٩٤ – ٩٧ ودراسات فى فقه اللغة د . الصالح ٤٥ – ٤٧ .

وأول سطور هذا النقش ما يلى:

تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج.

ومعناه بالعربية الباقية:

(نفس): قبر.

(ذو): بمعنى الذى.

(أسر): بمعنى حاز أو استولى أو لبس.

(التج): التاج.

فهو يريد هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى حاز التاج وكلمة (بر) هى الصورة الآرامية لكلمة (ابن) المعروفة فى اللغات السامية الأخرى.

ثانيا: نقش زبد: نسب إلى الأطلال المسماة بهذا الاسم وتقع فى الجنوب الشرقى من حلب، ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ ب. م وهو مكتوب بثلاث لغات هى: العربية البائدة والسريانية واليونانية ونصه:

١- (بس) م الإله سرجو برأمت منفو وهنىء بر مر القيس.

٢- وسرجو بر سعدو وسترو و (شر) بتميمى.

معنى السطر الأول: (بس) أصلها (بسم) والميم مكسورة من النقش، فهو يقول: باسم الإله، وباقى النقش أسماء أعلام والواو - فى هذه الأعلام - تدل على التنوين كما يرى ذلك ليتمان إذ يقول:

« حرف الواو فى أسماء الأعلام (مثل سرجو، سعدو، سترو الخ) وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع [1].

ثالثا: نقش حوران: كشف بحوران اللجا جنوب دمشق فى الجزء الشمالى من جبل الدروز.

وهو منقوش على حجر فوق باب كنيسة يبين مؤسسها وتاريخ إنشائها.

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٩٠ - ٢٧٨.

نص النقش :

(١) أنا شرحبيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول .

(٢) سنت ٤٧٣ بعد مفسد .

(٣) خيبر. (٤) بعم.

معنى النقش :

(١) المرطول : الكنيسة. (٢) مفسد : انهيار.

فيقول : أنا شرحبيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة سنة ٤٧٣ بعد انهيار خيبر بعام (بغارة أحد أمراء بنى غسان على هذا البلد) .

(ب) العرب الباقية :

هم سكان المناطق الحجازية الغربية والمناطق الشرقية ووسط الجزيرة والذين امتدت حياتهم إلى الآن واتسعت المناطق التى يعيشون فيها لتشمل الوطن العربى من المحيط إلى الخليج .

وقد ظهرت فى المناطق العربية الأصلية (نجد والحجاز وتهامة) لغة مثالية مصطفاة موحدة نزل بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وجاء بها الشعر الجاهلى والإسلامى وما تلاه .

وكانت توجد لدى أصحابها مستويات فى التخاطب تختلف حسب طبيعة المكان الذى يقطنونه، وظلت مستخدمة فى التخاطب على ألسنة العرب الذين لم يشملهم الفناء ولا تزال مستعملة فينا حتى اليوم فى التخاطب والأدب والتأليف، ولذلك يطلق عليها مصطلح « العربية الباقية »، وهى تنقسم شعبتين :

الأولى : حجازية غربية : وهى لهجات البيئات الحضرية فى مكة والمدينة وما إليها، وتتمثل فى القرشية .

والثانية : نجدية شرقية : وهى لهجات البيئات البدوية فى وسط الجزيرة وشرقيها وتتمثل فى التميمية .

هاتان البيئتان كانت لهما آثارهما البارزة فى الظواهر اللغوية الخاصة بكل منهما إلى جانب المستوى اللغوى العام الرفيع فالحجازيون – مثلا – يفتحون

حرف المضارعة فى مثل (تعلم) والتميميون يكسرونه، والحجازى يقول فى صياغة اسم المفعول من الفعل الثلاثى الأجوف اليائى: (مدين) على حين يقول التميمى (مديون) فالأول يعل والثانى يصحح، والحجازى يقول (جمعة) بضم الميم والتميمى يسكنها إلى غير ذلك من الفروق الكبرى بين اللهجتين حسب طبيعة المنطقتين ومع أن لهجة المنطقة الغربية (القرشية) أعلى وأغزر وأغنى مادة وتعبيرا فإن للقبائل الأخرى قياسها المقبول والراجح فى الاتجاه اللغوى.

وهناك معالم أخرى لبيئات أقل شأنا كتلك اللهجات الرديئة أو المذمومة مثل كشكشة ربيعة وعجعجة قضاعة وعنعنة تميم إلى غير ذلك. وكل هذا يدخل تحت «العربية الباقية» التى ينبغى دراستها ومعرفة أسس تناولها من ناحية الأصوات والمفردات والقواعد على مستويات لهجاتها المتعددة.

وقد درس العلماء (العربية) وأدخلوا فى دراستهم لها عناصر متنوعة من بيئات شتى جمعت بين الحاضرة والبادية، وحاول العلماء صهر الخصائص اللغوية للمناطق المختلفة وإدخالها تحت اللغة العربية إن طوعا وإن كرها، ولذلك وضعت القواعد على أساس إدخال اللهجات فى القاعدة العامة أو استثنائها طالما كانت الشواهد عربية أصيلة واردة عن الفصحاء ولو عن شاعر واحد، ولم يفرقوا بين دراسة اللغة العامة واللغة الخاصة، لكن الواقع أن فروقا متباينة كانت بين المناطق والمتحدثين باللهجات وكان الواحد منهم إذا أراد أن يرتفع فى عبارته لجأ إلى صفوة القول فى اللغة العامة وإذا رجع إلى قومه عاد إلى لهجته الخاصة.

ولا شك أن بيئتين من بيئات العربية كانت لهما آثارهما فلهجة للبيئات الحضرية فى مكة والمدينة وما حولهما، وهناك لهجة البيئات المنعزلة، وقد ظلت الفروق اللغوية الخاصة ظاهرة، ويمكن معرفة بعض اللهجات الكبرى ذات الطابع البيئى الخاص الذى يختلف فى جوهره عن الطابع البيئى العام عند تميم وهذيل وطيىء مثلا فهذه القبائل لها شعراؤها الذين تبرز فى أشعارهم سمات هذه اللهجات وخصائصها فمن شعراء تميم أوس بن حجر وسلامة بن جندل ، وعلقمة بن عبدة، إلخ ومن شعراء هذيل: أبو ذؤيب الهذلى، وعامر بن حليس، ومن الطائيين: حاتم الطائى، وأبو زيد الطائى، وإياس بن قبيصة وأضرابهم[1].

---

(١) انظر: دراسات فى فقه اللغة ص٥٨.

ولابد من ملاحظة دراسة هذه الخصائص التى تبدو فى مناطق عديدة للعربية الباقية وأن يتتبعها الباحث من منابعها وقد يجد بعض الوجوه الخاصة بإحدى اللهجات على جانب كبير من الدقة والقوة تفوق نظائرها فيها، «فلهجة قريش لم تكن فى جميع الحالات أقوى قياسا من لهجة تميم»، وهذا كطريقة بنى تميم فى إهمال (ما) وطريقة الحجازيين فى إعمالها، فقد ذكر ابن جنى أن التميمية أقوى قياسا من الحجازية وهكذا يستطيع الباحث أن يكشف عن ظواهر لهجات العربية الباقية وكيفية الإفادة منها.

وسنتحدث فيما يلى تفصيلا عن «اللغة العربية» فى صورتها المثالية ونبين ملامح تدرجها ومصادرها وتنقيتها وتقنينها بما يحافظ على أدائها المتميز ويوضح حقيقتها وطبيعتها الفائقة.

* * *

الفصل الثانى
العربية المثالية وأطوارها

تمهيـــد :

ذكرنا فى حديثنا الماضى موجزا عن لغات البشر وتعدد فصائلها ومظاهرها والشعوب الناطقة بها وتقسيمات العلماء لها . وتناولنا بينها الحديث عن الساميين ولغاتهم، ومنهم العرب، الذين خصصناهم بمزيد من البحث الواسع، لأننا بصدد بيان طبيعة اللغة العربية، وخصائصها وسماتها العامة والخاصة .

وسنعطى – هنا – لمحة عامة عن اللغة العربية منذ نشأتها على لسان القبائل العربية القديمة وتفرعها إلى لهجات فى شمال الجزيرة وجنوبها، وكيف اختلف بعضها عن بعض، ثم نفصل الحديث عن نشأتها ومصادرها الأولى ثم نتتبعها فى مراحلها التاريخية التى زاد انقسامها فيها حتى ائتلفت فى لغة عامة أصبحت الملاذ لكل عربى يعبر عن حاجات نفسه وخلجاتها وأصبحت الأداة الفعالة التى يستعملها العرب فى كل مكان من أرضهم ثم انطلقت تدخل البلاد التى فتحوها .

وسنتتبع – فى هذا العرض التاريخى – ما صادفته من عوامل مختلفة تركت آثارها عليها اتساعا وقوة أو ضيقا وضعفا حسب العصور التاريخية التى مرت بها وتقلباتها عليها .

ومن هنا نستطيع أن نقف على مدى الأصالة فى لغتنا العربية والتغيرات التى طرأت عليها، واهتمام أهلها بها قديما وحديثا وحال الناطقين بها اليوم .

وذلك يؤكد صلة الأجيال العربية بعضهم ببعض وصلتهم بلغتهم التى نزل بها كتاب الله المبين، ويؤكد أثر الزمن وعوامل البيئات العربية التى اختلفت عليها فى كل مكان من الأرض العربية، والأحداث التى مرت بها، وأثرها فيها .

وسوف نتناول ثلاثة أمور :

الأول : أصل العربية وأول من تكلم بها .

الثانى : نشأتها ومصادرها الأولى .

الثالث : أطوارها .

١- أصل العربية وأول من تكلم بها

هناك ثلاثة آراء :

١- قيل نشأت العربية على لسان يعرب بن قحطان، فهو أول من تكلم بها ثم انتقلت منه إلى العرب الباقية لأن العرب البائدة، كعاد وثمود، وطسم وجديس كانت قد بادت ولم يبق لها أثر قبل الإسلام ثم انتقلت العربية من الجنوب إلى الشمال لاسيما بعد هجرة أخيه جرهم إلى العدنانيين من ذرية إسماعيل - عليه السلام - وكان إسماعيل قد أصهر إلى العرب المقيمين بهذه الجهة وأرسل إليهم بعد أن أنزله أبوه الخليل هناك مع أمه هاجر.

ولذلك يقولون عن يعرب إنه سمى بهذا الاسم لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية، وقيل: أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان وتذكر بعض الأخبار أنه نودي من قبل السماء فكان أول من تكلم بالعربية المبينة وفسرت الآية الكريمة (بلسان عربى مبين) على أن المراد باللسان: لسان جرهم [١].

٢- وقيل: أول من تكلم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، بعد أن نسى لسان أبيه إبراهيم العبرى، وينسبون إلى الرسول ﷺ أنه تلا قوله تعالى: ﴿ **قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾ ثم قال: ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاما، كما ينسبون إليه ﷺ أنه قال: أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنة[٢].

ويدعى باحث حديث[٣] أن العربية كانت لسان إبراهيم عليه السلام واستنبط ذلك من حديث رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، أبان عن أمر الخليل بمكة وأفاض فيه[٤].

ومعنى ذلك أن العربية متأصلة فى إبراهيم وولده إسماعيل، فهما من أول المتكلمين بها مما يعد دعما لهذا الرأى.

---

(١) المزهر ١/٣١، ٣٢. (٢) المصدر السابق ١/٢٧، ٣٢، ٣٤.

(٣) هو الأستاذ: على الخطيب.

(٤) مجلة اللسان العربى ج١ المجلد الثامن ص٤٧ - ٤٩.

٣- العربية كانت لسان العرب الذين بادوا قبل الإسلام وانطمس تاريخهم كعاد وثمود وغيرهم ممن أشرنا إليهم فيما سبق، وقد ظلت على لسان بقاياهم لأن هذه القبائل لم تهلك عن آخرها بل بقى منها قليل تناسلوا وكثروا وأنشأوا العرب الباقية فى جنوبى الجزيرة.

ثم كانوا النواة للعرب الباقية العدنانية الذين يعد إسماعيل عليه السلام أبا لهم.

ونحن نلاحظ أن الرأى الأول غير سديد، فيعرب سليل قحطان الذى وفد من العراق إلى اليمن أيام كانت ذات خير وفير فحكمها، ثم خلفه فى ذلك ابنه يعرب، وليس - كما تذكر الروايات المتضاربة التى ينقلها السيوطى فى المزهر من أن عرب اليمن وحمير من قحطان، أو أن قحطان من سلالة إسماعيل، وإذا كان قحطان وافدا فليس من المعقول أن يترك ابنه لغته الأصلية وينطق بالعربية المبينة طفرة، بل المقبول أن يكون قد تحول عن لغة أبيه إلى العربية بعد أن تعلمها من أهلها، ويمكن أن يكون قد أجاد العربية، ولكن ليس هو أول ناطق بها.

كما نلحظ أن إسماعيل ليس عربى الأصل كأبيه فليس من المقبول تاريخيا أو علميا أن يكون أول متحدث يجيد العربية قبل أهلها الأصليين، ولكن يمكن أن يكون لسانه قد فتق بمجاورته للفرع اليمنى جرهم الذى نزح إلى شمال الجزيرة ومخالطة من لقيهم من عرب الشمال، أما أن العربية كانت لسان أبيه إبراهيم فهذا لا يكفى لإثباته مجرد استنتاج كهذا الذى أجراه الباحث الذى أشرنا إليه آنفا.

مع ملاحظة أن اللغات السامية لم تكن قد انفصل بعضها عن بعض فى هذا الأوان انفصالا كاملا، فمن المتوقع أن إبراهيم خاطب نساء إسماعيل بلغة تحوى كثيرا من ألفاظ السامية الأم وتراكيبها المشتركة من العبرية أو الآرامية وأختها العربية كما يتحدث أبناء الأمة العربية فى أقطارها المتعددة الآن متخذين من اللغة الفصحى زادهم الأساسى على الرغم من تعدد لهجاتهم.

ويتجه الرأى إلى أن العرب البائدة هم المنبع الأصيل للغة العربية، وقد بقيت على لسان من أفلت من الإبادة التى حقت عليهم لأنهم أربابها الأصليون، وقد بقيت منهم بقية تكاثرت على النحو المشار إليه، وقد ثبت من النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك التشابه القوى بين لغة هذه النقوش والعربية الباقية.

٢- نشأة العربية ومصادرها الأولى

يهمنا أن نلقى بعض الضوء على اللغة العربية أول ما عرفها الإنسان العربى وكيف تدرجت منذ طفولتها حتى بلغت درجة كبيرة من الرقى والكمال.

والواقع أن تاريخ اللغات يحيطه الغموض لتغلغله فى أزمان سحيقة ولذلك لا نكاد - على وجه التحديد - نعرف عصر الطفولة للغة ما على نحو واضح ودقيق.

واللغة العربية هى أقدم تلك اللغات الكثيرة التى بسطت نفوذها على رقعة متسعة من الأرض، ودرجت عليها فهى - كغيرها من اللغات - لا نكاد نعرف شيئا مفصلا عن حياتها الأولى.

والتاريخ يذكر أن أصحاب تلك اللغة ينحدرون من ولد سام بن نوح عليه السلام وهم عاد وثمود وجرهم الأولى ووبار وغيرها ثم انتقلت من بقاياها بعد أن انقرضت إلى بنى قحطان، فنشأت منها الحميرية لغة أهل اليمن، ثم انتقلت من الجنوب إلى الشمال فتعلمها أولاد إسماعيل عليه السلام بالحجاز [١].

وقد نشأت العربية - على ما يبدو - ضعيفة محدودة فى ألفاظها وتصرفاتها لأن مظاهر الحياة - آنذاك - كانت محدودة، وفى غضون قرون عديدة تشعبت حاجات أهلها، وكثرت متطلباتهم تبعا لنموهم المطرد، وتنقلاتهم فى موطنها (شبه الجزيرة العربية) من مكان إلى آخر، وهذا يدعو إلى ابتكار لغوى جديد يعبر عما يريدون من رغبات، فكثرت الألفاظ والتصرفات اللغوية وظهرت لهجات عربية فى أماكن متفرقة، وبهذا تكون اللغة قد دخلت مرحلة أخرى هى مرحلة الصبا.

ولم يكن هذا التجديد والابتكار مجرد تقنين مطلق، بل كان يسير حسب الاتجاه العربى العام شأن أى مجموعة إنسانية تحكم تصرفاتها ولغاتها ظواهر لغوية متشابهة، وهذا ما يشير إليه ابن جنى فى خصائصه حين يقول: «وكيف تصرفت الحال، وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لابد أن يكون وقع فى أول الأمر

---

(١) دراسات فى العربية وتاريخها للإمام محمد الخضر حسين ص١٢٠، ١٢١.

بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه فزيد فيها شيئا فشيئا إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليفه، وإعرابه المبين عن معانيه، لا يخالف الثاني الأول، ولا الثالث الثاني كذلك متصلا متتابعا وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول: إنه يحكي كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متبع»[١].

ولا شك أن التقاء القبائل العربية بعضها ببعض في الأسواق وغيرها كان عاملا مهما في ذيوع الألفاظ والتراكيب، والاستعمالات اللغوية بينها.

ويقول بعض الباحثين المحدثين: إن اللغة حينذاك «لم تكن لها ضوابط ينطق الناس على منوالها بل كان كل فرد وكل قبيلة تنطق بما تشاء شأن اللغات في مرحلتي طفولتها وصباها، وإن شئت قلت: في مرحلتي جاهليتها الأولى والوسطى، وهما مرحلتان تستنفدان آلاف السنين»[٢].

ولكنني لا أتصور أنها كانت في تلك الحقبة من التاريخ على أقصى درجات الفوضى الشاملة، بحيث تبتكر كل قبيلة ما تشاء دون السير في الاتجاه المرسوم للقبائل العربية بوجه عام.

وقد أدى التقاء القبائل العربية وشيوع الأساليب إلى تهيئة الجو للاستقرار، والنضج اللغوي - بعد أن وصل القوم إلى درجة من الحضارة - فصارت اللغة أكثر استعدادا لظهور الضوابط والمقاييس، وبروزها كلغة كتابة وشعر، وتلك هي المرحلة التي يسميها الباحثون Proto Arabic[٣].

ثم ارتقت اللغة قبل ظهور الإسلام، وفي صدره إلى درجة كبيرة من الكمال فوجدت «لغة مثالية مصطفاة موحدة جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم»[٤] وبذلك «دخلت في أهم دور يحق علينا أن نسميه عصر شبابها، فنمت عروقها، وأثرت غصونها بألوان مختلفة من الأساليب»[٥].

وليس من السهل تحديد معالم هذه المراحل التي مرت بها العربية والزمان الذي قضته بطوله وامتداده ويلاحظ أن اللغة في أثنائها لم تخرج عن موطنها

---

(١) الخصائص ٢ /٢٨، ٢٩.
(٢) اللغة والنحو للأستاذ عباس حسن ص١٦.
(٣) المدخل إلى النحو العربي ص٣٣.
(٤) دراسات في فقه اللغة ص٥٠.
(٥) دراسات في العربية وتاريخها ص١٢٢.

الأصلى، فلما انطلق بها الإسلام إلى الأقطار المجاورة، واختلط العرب بغيرهم من الأجانب دخلت العربية مع غيرها من اللغات فى صراع، فبدأت اللكنة تدب إلى الألسنة، وعرف اللحن طريقه فى بعض الأوساط العربية.

وقد ظهر فى العصر الإسلامى كثير من الأخطاء حتى فى عصر الرسول ﷺ فقد «رووا أن النبى ﷺ سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال: أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل» ورووا أيضا أن أحد ولاة عمر رضى الله تعالى عنه كتب إليه كتابا لحن فيه فكتب إليه عمر أن قنع كاتبك سوطا، وروى أن مقرئا أقرأ أعرابيا قوله تعالى **﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾** بجر رسوله فقال الأعرابى برئت من رسول الله، وكان على رضى الله عنه حاضرا فأنكر ذلك ورسم لأبى الأسود من عمل النحو ما رسمه[1].

ولما كثر اللحن وخيف من تمادى ذلك فيستغلق كتاب الله (القرآن الكريم) على الأفهام «انتجع البادية من يهمه أمر اللغة لجمعها والحفاظ عليها، وكان ضمن هذه الطليعة الخليل بن أحمد وخلف الأحمر ويونس بن حبيب الضبى والأصمعى وأبو زيد الأنصارى ليأخذوا اللغة من منابعها الصافية ويتناولوها من الرجال الموثوق بفطرهم»[2] وقد سلك تسجيل هذا الجمع طرائق مختلفة حتى وصلت إلى لون من التأليف هو المعروف باسم المعجم[3].

وقد اهتم العلماء العرب بدراسة تلك الألفاظ المأخوذة عن العرب الخلص دراسة مستفيضة خرجوا منها بنتائج برزت فى شكل قواعد ونظم وهم بذلك لم يخترعوا شيئا من تلك القواعد، بل استنبطوا من الكلام العربى الأصيل خصائص الظواهر اللغوية المطردة.

العرب الذين تؤخذ عنهم اللغة:

ويسوقنا هذا إلى الحديث عن العرب الذين أخذ عنهم رواة اللغة، وتبعهم العلماء فى وضع القوانين العربية.

لقد تحرى العلماء الذين جمعوا اللغة، والذين وضعوا قواعدها من بعدهم

(١) الخصائص ٢/٨. (٢) المعاجم اللغوية د. ابراهيم نجا ص٧،٨.

(٣) انظر: كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث) ص٥.

اعتماد القبائل الفصيحة التى لم تختلط بالأعاجم، وهذه القبائل تتمثل فى تميم وقيس وأسد وطيء [١] وكانوا يسكنون شرقى الجزيرة وأواسطها، وهى قبائل بدوية يطلق على لهجاتها أحيانا (لغة نجد).

كما تتمثل فى القبائل التى كانت تسكن فى غربى الجزيرة (المدينة وما حولها ومكة وما يجاورها) ويطلق على لهجاتها (لغة الحجاز) وهى قبائل حضرية فهاتان المجموعتان الشرقية والغربية هما مصدر اللغة عند الرواة وواضعى القواعد العربية[٢].

والمتأمل للمجموعة الغربية يرى أن اللهجة القرشية التي اعتبر أهلها عربا خلصا كانت تضم بعض الظواهر الأعجمية لاتصال أهلها بفارس والروم وغيرهم، لأنها قبائل أخذت بمبادىء الحضارة، وأجرت علاقات وطيدة مع جيرانها، والمتعاملين معها.

ومن هنا حمل عبد المجيد عابدين على العلماء العرب فى عدم أخذهم عن القبائل المتطرفة[٣] للسبب السابق وقال: إن الأساس الذى سارو عليه فى قواعد اللغة يهدم أو يتنافى مع هذا السبب، ذلك أن لغة قريش على ما عرفت به من الفصاحة كانت شديدة التأثر بالمؤثرات الأجنبية [٤]. فإذا كان المقصود بفصاحة قريش تجلى روح البداوة فى لغتهم فذلك مالا نتفق فيه معهم لأن لغة قريش لم تكن لغة بداوة»[٥].

---

(١) المزهر ١ / ٢١١. (٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٤٤، ٤٥.

(٣) ذكر السيوطى فى المزهر ١ / ٢١٢ إنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولها فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ولا من تغلب والنمر فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

(٤) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٤٦. (٥) المصدر السابق ص٤٧.

ويوافقه الدكتور صبحى الصالح فلا «ينكر حضرية قريش ولا تأثرها بفارس والروم أمتى الحضارة فى تلك الحقبة من التاريخ»(١).

ويفسر الأستاذان عابدين والصالح سبب الأخذ بلغة قريش بما أراه متفقا من قريب أو بعيد مع رأى القدماء فى الهدف العام، وذلك أن الأستاذ عابدين يقول: «السبب هو أنها كانت لغة القرآن ولا شك أنها كانت أرقى لغة فى داخل الجزيرة العربية» والأستاذ الصالح يقول: «ولهجة قريش – فوق الذى أحيطت به من مظاهر التقديس – انفردت حقا بمزايا حفظت لها شخصيتها، وأتاحت لها من أسباب التكامل ما لم يتح لغيرها، فبعدها الذى وصفه ابن خلدون عن بلاد العجم من جميع جهاتها كان حاجزا طبيعيا دون كثرة اتصالها بالأجانب فلم يدخلها من لكنة الأعاجم ما داخل القبائل المتطرفة التى كانت على اتصال وثيق بمن حولها من غيرها من العرب»(٢).

وعلى هذا فلا يقبل قول الأستاذ عابدين: «إن تعليل القدامى بأنهم لم يأخذوا عن القبائل المتطرفة لاتصال أصحابها بالأجانب مجرد استنتاج من المتأخرين، لتبرير (٣) موقف اللغويين السابقين وليس باستنتاج موفق كما رأينا».

بل هو بذلك يناقض نفسه لأنه اعترف بأن «لهجة قريش أرقى لهجة فى الجزيرة» واعترف ابن خلدون والصالح ببعد منطقة الحجاز عن بلاد العجم الأمر الذى حفظ لها كيانها اللغوى وخصائصه المميزة.

فتعليل القدماء بأن اللغويين اقتصروا على القبائل الفصيحة التى لم تختلط بغيرها منعا لوقوع الفساد، فى مواد اللغة تعليل دقيق وليس مجرد استنتاج كما ادعى الأستاذ عابدين.

بل ورد إلينا ما يؤكد أن اللغويين العرب تشددوا فى التحرى عن الفصيح حتى لقد منعوا استعمال كلمات فصيحة لأنهم لم يطلعوا على مصادقها من كلام العرب، ومن ذلك ما يروى أن الأصمعى خطأ من قال: شتان ما بينهما وذكر أن الصحيح: شتان ما هما، قال أبو حاتم: أنشدت الأصمعى قول ربيعة الرقى:

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ص١١١. (٢) المصدر السابق ص١١٣.

(٣) كذا بالأصل وهو خطأ شائع والصواب لتسويغ ونحوه.

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

فقال الأصمعي: ليس بفصيح، وقال الأزهرى فى التهذيب والجوهرى فى الصحاح فى مادة (شتت) ليس قولها ربيعة بحجة، إنما هو مولد، والحجة قول الأعشى :

شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر

ولكن هذا المنع للاستعمال الأول غير صحيح لورود نظائره فى فصيح الكلام، ولكن غيرتهم على اللغة، وإخلاصهم لها جعلهم يتشددون فى قبول الوارد، ولكنهم لو اطلعوا على المسموع لأجازوه، كقول البعيث :

وشتان ما بينى وبين رعاتها

إذا صرصر العصفور فى الرطب الثعد [1]

ولذلك يقول الدكتور الصالح : ليس لهذه الحيطة فى أخذ اللغة إلا تفسير واحد هو الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية، ما لم يطبع بطابع الفصحى، تبعا لأساليب تعريبها، لأن مثل هذا التسرب غير الإرادى، وغير المقصود يفسد على الباحثين فهم أصالة اللغة وشخصيتها، فقد يستنبط منه خطأ أن من خصائصها أوجها لا تلزمها، أو صيغا لم تجىء على أبنيتها، لأنها لم تنبثق عنها، وإنما انتقلت إليها عن طريق العدوى اللغوية بسبب القرب والجوار، وما أكثر صورها، وأشد أخطارها »[2].

ولذلك « امتنع رواة اللغة عن الأخذ عن القبائل التى أثر عنها الاختلاط لأن قوة اللغة تتجلى فى العزلة التامة وعدم الاختلاط بغير العرب »[3].

وهذا قد أوضحه ابن جنى في كتابه الخصائص إذ يقول : « علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدن من الاختلاط والفساد والخطل، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شىء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ».

---

(١) لسان العرب ٢/١٥٣، ١٥٤ والمعاجم اللغوية د. نجا ص٨.

(٢) دراسات فى فقه اللغة ص١١٥ (٣) اللهجات العربية د. نجا ص ٤٥.

وقد تنبه علماء اللغة إلى هذا الملحظ فلم يأخذوا عمن يكون مظنة الاختلاط واختلال الألسنة، ولو كان من البداة، فبعد أن شاع اللحن واتسع الاختلاط لم يأخذ العلماء منهم شيئا يتهمون فيه، بل أمسكوا عن الأخذ من البدويين حينما تسرب إليهم ما يخشى منه من اللكنة الأعجمية، وقد صاغ هذه الحقيقة أبو الفتح عثمان بن جنى فى قوله «وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدرمن اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما يرد عنها»[1].

وقد ضرب ابن جنى مثلا واقعيا لهذه الحقيقة من عصره الذى اتسم بتلك السمة، وفشا خطل الألسنة بين البدو فيه، وندعه يروى القصة بنفسه، وكيف أنه لم ينخدع بفصاحة مصطنعة يقول: «وقدكان طرأ علينا أحد من يدعى الفصاحة البدوية، ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له، وميزناه تمييزا حسن فى النفوس موقعه، إلى أن أنشدنى يوما شعرا لنفسه يقول فى بعض قوافيه: أشئؤها، وأداؤها[2] (بوزن أشعها وأدعهها) فجمع بين الهمزتين كما ترى، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه، نعم وأبدل إلى الهمز حرفا لاحظ فى الهمز له بضد ما يجب، لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبا ساذجا عن غير صنعة ما لاحظ له من الهمز ثم يحقق الهمزتين جميعا، إن هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع»[3].

وابن جنى فى ذلك دقيق كل الدقة، وإن كان بعض المحدثين قد أورد نقدا له فى كل من الفقرتين السابقتين:

فالفقرة الأولى الخاصة بشيوع اللحن فى أهل الحضر، وجواز حدوثه عند البدو، واحتمال بقاء مدينة على فصاحتها قد عد الدكتور الصالح ما تشير إليه عبارتها من إمكان بقاء مدينة على فصاحتها من قبيل الفرض والخيال، يقول:

---

(١) الخصائص ٢ / ٥.

(٢) الأول مضارع شأى القوم: سبقهم، وصوابه: أشآها، والثانى مضارع دأوت للصيد: ختلته، وكأنه حذف الجار وصوابه: أدآها.

(٣) الخصائص ٢ / ٥، ٦.

«على أن فرض ابن جنى هذا كتب عليه أن يظل فرضا لا يزيد عن ذلك شيئا، فما علمنا بأهل مدينة باقين على فصاحتهم، بل رأينا أهل المدن أكثر تعرضا للحن، وفساد اللغة من البدو، ورأينا من البدو الفصحاء أنفسهم من ينتقل لسانه إلى لغة فاسدة فينكر العلماء عليه لغته، ولا يأخذون بها، ومن ذلك ما يحكى من أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبى خيرة لما سأله فقال، كيف تقول: استأصل الله عرقاتهم ففتح أبو خيرة التاء، فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جلدك»[1].

وأعتقد أنه لا وجه للدكتور الصالح فى هذا النقد، فقد ذكر الفيروزابادى فى القاموس (مادة عكد) أن باليمن قرب زبيد جبلا يسمى عكادا أهله باقون على اللغة الفصيحة، ويقول السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس: إنهم لا يزالون على ذلك إلى زمنه وأنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفا على لسانهم والسيد مرتضى كانت وفاته سنة ١٢٠٥هـ ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى ترجمة (عكدتان): «وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحتهم وهم أهل قرار لا يظعنون عنه، ولا يخرجون منه» وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمد النجار محقق الخصائص[2].

وقد اعترض على الفقرة بأسرها الأستاذ عباس حسن فى كتابه (اللغة والنحو) «فتجويز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيع فى أهل الوبر شيوعه فى أهل الحضر مشكلة خطيرة تتفرع منها مشكلات جمة، فى مقدمتها غموض القياس الذى نرجع إليه فى الحكم على فرد بأنه فصيح، وعلى أهل مدينة أنهم أصحاء الكلام» «ثم ماذا يقصد ابن جنى بعبارته؟ أيعنى السابقين من جاهليين وغير جاهليين فى حضرهم ووبرهم أم يعنى أهل المدر والحضر فى عصره فقط؟ إن ذلك يعنى الشك فى أرباب اللغة فلا نعرف من نأخذ عنه ومن ندع وإن كان الأخذ بكلام ابن جنى معناه أن نفحص عن حال كل متكلم، ولو كان فى عصر ابن

(١) دراسات فى فقه اللغة ص١١٥ وحكاية أبى خيرة بالخصائص ٢ / ١٣.
(٢) التعليق ٢ / ٥.

جنى بل بعده لنتبين منه سلامة القول أو عدم سلامته ثم نحكم عليه بمقتضى ما ينكشف عنه القول، فهذا أيضا يسلمنا إلى المشكلات السابقة فلا ندرى من نرجع إليه ومن هو صاحب القول السليم من الأولين العرب، أهم أهل الجاهلية وحدهم أم هم وفريق آخر بعدهم؟ ومن الحكم الذى يصلح لهذا؟ أسئلة عسيرة الجواب اضطرب فى شأنها كبار الباحثين»(١).

وهذه الثورة العنيفة لا داعى إليها، لأن ابن جنى براء من تلك التهم الموجهة إليه فعبارته لا تعنى أكثر من بيان من تؤخذ عنهم اللغة، وهم العرب الخلص الذين لم يختلطوا بغيرهم، ولم يتسرب الفساد إلى ألسنتهم، وعلى هذا فلا يؤخذ من الحضر أو البدو الذين لا يتصفون بذلك، وحديث ابن جنى خاص بعصره لا يتعداه إلى غيره، فلا يدخل فيه الجاهليون أو الإسلاميون أو الأمويون، وهذا واضح من قوله «وعلى ذلك العمل فى وقتنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا وإن نحن آنسنا منه فصاحة فى كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغض منه»(٢).

وبهذا يبطل ما ادعاه الأستاذ عباس من وجود مشكلات خطيرة، ومن تردده فى فهم المقصود من عبارة ابن جنى أهم الجاهليون أم غيرهم؟ فلا مشكلات ولا تردد، وعبارة ابن جنى تنبه – فقط – الباحث اللغوى أن يتحرى من يأخذ عنه، ويمعن النظر فى فصاحته، وبيانه، وبخاصة بعد فساد السلائق الذى حدثت بوادره فى عهده، ولذا ضرب لنا المثل بالعربى الذى وضحت له رداءة لغته، وهو لا يعنى بأى حال من الأحوال تطبيق ذلك على من سبقوه من العرب، فلا معنى لأسئلة الأستاذ عباس: أيخطىء الجاهليون أم لا يخطئون؟... إلخ وليست المسألة تستدعى إجابة صعبة تتطلب كبار الباحثين، وتستوقف تفكيرهم على حد دعواه السابقة.

ولعل الأستاذ عباسا أسرف – فى نقده – حين ادعى أن «ابن جنى أخطأ فى كل الذى ذهب إليه من قصة ذلك الأعرابى فى الفقرة الثانية» وقد فرض الأستاذ عباس أن ذلك الأعرابى إما أن يكون فصيحا مستقيم اللسان كنظرائه من العرب

---

(١) اللغة والنحو ص١٢٤، ١٢٦ بتصرف. (٢) الخصائص ٢/ ٥.

فيجب أن يؤخذ عنه، ويكون قوله (أشئؤها وأداؤها) صحيحا مقبولا وإما أن يكون متهما فى فصاحته وأصالته العربية فلا يؤخذ بكلامه كغيره ممن لا يحتج بعربيتهم، فكيف يعجب ابن جنى بعربى ويصفه بفصاحة اللسان، ثم يرتد متهما إياه جارحا له؟ [1] إن هذا فى نظر الأستاذ تناقض وخطأ، والباحث المنصف لا يرى فى ذلك تناقضا ولا خطأ، فابن جنى يدعونا إلى تحرى الدقة فيمن نأخذ عنه بحيث لا تغرنا فصاحة مصنوعة يشوبها فساد الجبلة فيجب ألا نأخذ الأمور على ظاهرها بل نتعمق ونتفحص ولا نتعجل فى الأخذ، فإن ذلك ربما أدى إلى خطأ لغوى جسيم، وقد حرص الرواة والعلماء على ذلك فلم يكونوا – كما قال الدكتور الصالح – «ليخدعوا بمثل هذا البدوى أو يظلوا عاكفين على كلامه يتلقونه بالقبول، فما أسرع ما كان يفجؤهم منه ما ينال من فصاحته، ويغض من بيانه، ويقدح فيه، فإذا هم يرفضون لغته، ويمتنعون من التلقى عنه»[2].

فابن جنى لم يناقض نفسه، بل تبين له فساد لسان هذا العربي بعد تحر وتدقيق لأنه لا يمكن للوهلة الأولى معرفة حقيقة الحال، فلم يكن هذا الشخص فصيحا ثم اتهمه ابن جنى، بل إنه غير فصيح من أول الأمر إلا أنه خفى أولا ثم استبان أخيرا، فلا خطأ ولا تناقض وتلك هى الحنكة والدراية اللغوية التى يجب أن تتوافر لعالم اللغة ولله در ابن جنى عالما لغويا فذا.

مقاييس الفصاحة:

وبناء على هذا المبدأ – وهو الأخذ عن القبائل الفصيحة وترك غيرها – اختلف العلماء الأقدمون فى المقاييس التى يعرف بها الفصيح من غيره «فمن قائل إن نزول العربى الأمصار محقق الخطر على اللغة ولو قلت المدة، وقل الاتصال فيها بالأعاجم، ومن مخالف لذلك مشترط طول الإقامة وكثرة الاتصال من غير بيان للطول والكثرة ومن ثالث يقول: إن ذلك مشروط بإهمال الفصحى فى ذلك المصر، وبالتهاون فيها تهاونا تظهر أماراته بانتشار اللحن، وذيوع الخطأ هناك، ومن رابع يرى أن الخطر المتوقع لم يتحقق إلا بعد قرن للهجرة، ومن مخالف

---

(١) اللغة والنحو ص١٢٥.
(٢) دراسات فى فقه اللغة ص١١٦.

يحدد لذلك قرنين أو ثلاثة»[1] وأبو عمرو بن العلاء لا يعد الشعر إلا للمتقدمين. وكان الأصمعى لا يحتج بشيء من شعر الكميت والطرماح ويعدهما مولدين»[2]وهكذا كان الأقدمون يتمسكون بالقديم، وتبعهم النحاة، فكانوا يأخذون عن الجاهليين والمخضرمين باتفاق، واختلفوا فى الأخذ عن المتقدمين من شعراء صدر الإسلام كجرير والفرزدق، أما الطبقة الرابعة وهم المولدون (الذين يلون عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا) فالصحيح - عندهم - أنه لا يستشهد بكلامها إطلاقا[3] وابن قتيبة يرى أن الشعر والعلم والبلاغة لا تقتصر على قوم دون آخرين، ولا على زمن دون غيره وكل قديم حديث فى عصره[4] وعلى هذا فيؤخذ عن الجاهليين والإسلاميين والمولدين إلى عصرنا هذا.

ويدعى الأستاذ عباس حسن أن «لابن جنى رأيا يقارب هذا فى ظاهره ويخالفه فى حقيقته، فهو يرى أن الأخذ وعدمه ليس رهنا بالبدو أو الحضر وإنما هو رهن بصحة اللسان وسلامته، فحيثما وجد فقد صح الأخذ، وإلا فلا يصح، يتساوى فى هذا أعراب البادية، وسكان المدن، وظاهر هذا الرأى هو الاتفاق مع ابن قتيبة، أما حقيقة فالخلف بينهما واسع، فقد جوز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيع فى أهل الوبر شيوعه فى أهل الحضر»[5].

ويبدو لنا أن رأى ابن جنى لا يتفق مع رأى ابن قتيبة فى الاحتجاج بأقوال المولدين على اللغة والقواعد، والفرق الذى ذكره الأستاذ عباس ليس فرقا فى الحقيقة، بل هو محل اتفاق من الطرفين، إذ كلاهما يشترط الفصاحة، وهى لا تتفق مع وقوع الخطأ سواء كان المتحدث بدويا أو حضريا، لكن الفرق الجوهرى الذى لا يجعل رأى ابن جنى متفقا مع ابن قتيبة هو أن ابن قتيبة يشترط للأخذ عن الشخص أن يكون فصيحا فقط سواء كان فى عصور قوة اللغة أم لا وسواء كان عربيا أم غيره، وبهذا التحديد يجوز الاحتجاج بكلام المولدين الفصحاء، «وطبقتهم تشمل ما بعد عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا ومنهم بشار وأبو نواس والمتنبى وغيرهم»[6].

(١) اللغة والنحو ص١١٨، ١١٩. (٢) المزهر ط الأولى ٢/ ٣٠٤، ٣٥٤.
(٣) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٩٢، ٩٣.
(٤) الشعر والشعراء ط دار المعارف ١٩٦٦ ص٦٢.
(٥) اللغة والنحو ص١٢٢ - ١٢٤. (٦) المدخل ص ٩٢.

وأما ابن جنى فمع اشتراطه الفصاحة بالنسبة للمأخوذ عنه يبدو أنه يشترط كذلك السليقة العربية، والسليقة يفسرها علماؤنا الأقدمون على أنها فطرة ترتبط بالجنس، وليست مجرد اكتساب للغة كما فسرها بعض الباحثين المحدثين، وابن جنى يسلك فى عداد هؤلاء القائلين بأن السليقة طبع، ويفهم ذلك من مواضع كثيرة من خصائصه « فمن العرب من يستعصم فيقيم على لغته ألبتة . . كما فى قصة أبى زيادالكلابى مع أبى عبد الله ابن الأعرابى فقد سأل أبو زياد أبا عبد الله عن قول النابغة الذبيانى :

على ظهر مبناة

فقال أبو عبد الله عن المبناة هى (النطع) - بفتح النون - فقال أبو زياد لا أعرفه، فقال : (النطع) - بكسر النون - فقال أبو زياد : نعم، أفلا ترى كيف أنكر غير لغته على قرب بينهما »[1] وقصة أخرى من التشدد فى تمسك الأعرابى بلغته، روى عن أبى حاتم قال : قرأ على أعرابى بالحرم « طيبى لهم وحسن مآب » فقلت طوبى، فقال : طيبى، قلت : طوبى، قال : طيبى : فلما طال على قلت : طوطو، فقال : طى طى، أفلا ترى إلى استعصام هذا الأعرابى بلغته وتركه متابعة أبى حاتم[2] .

ومن قصص ابن جنى مع محمد بن العساف الشجرى - وهو أعرابى من عقيل يعجب به ابن جنى كثيرا ويتحاور معه - ما يشير إلى ذلك مثل قوله : « وسألته - يعنى الشجرى - يوما فقلت له : كيف تجمع دكانا؟ فقال : دكاكين، قلت فسرحانا؟ قال : سراحين، قلت : فقرطانا؟ قال : قراطين، قلت فعثمان؟ قال عثمانون، فقلت له : هلا قلت أيضا عثامين؟ قال : أيش عثامين . . ! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبدا »[3] .

ولكن الدكتور تمام حسان ينسب إلى ابن جنى القول بأن السليقة اكتساب بناء على فهمه عبارة « وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصحة لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل فى يومنا هذا لأنا لانكاد نرى بدويا

(١) الخصائص ١ / ٣٨٣ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٣٨٤ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٢٤٢ .

فصيحا[١] ويعقب على ذلك الدكتور تمام بقوله «فالفصاحة عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل، أى أن السليقة اكتساب، وتعود، ولو أنها كانت فى نظره طبعا أو سجية، أو نحيزة، - كما كانوا يقولون - لما جعل ابن جنى فى أبواب خصائصه (باب فى العربى الفصيح ينتقل لسانه)[٢].

والواقع أن ابن جنى من القائلين بالطبع لا بالاكتساب بدليل ما سبق من أقواله، ولأنه وإن كان يجوز انتقال لسان العربى الفصيح فإنه أشار إلى صعوبة هذا الانتقال، وأنه لا يتحقق إلا بعد تكرار وتكرار للغة الأخرى، وتواردها عليه كثيرا «فإذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ووجدت فى كلامه [٣] وقد قال: «إن الأعرابى الفصيح إذا عدل به عن لغته الفصيحة إلى أخرى سقيمة عافها ولم يبهأ بها»[٤] وتحدث عن الطباع العربية، وإرهاف حس العرب وذوقهم الأصيل فى فهم المعنى، وعمل ما يقتضيه، وروى قول عمارة الكلبى وقد عيب عليه بيت من شعره فامتعض لذلك:

ماذا لقينا من المستعربين ومن	قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكرا يكون بها	بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا: لحنت وهذا ليس منتصبا	وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق	وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم	وبين قوم على إعرابهم طبعوا
ما كل قولى مشروحا لكم فخذوا	ماتعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضى أرض لا تشب بها	نار المجوس ولا تبنى بها البيع[٥]

---

(١) المصدر السابق ٢/٥.

(٢) المصدر السابق ٢/١٢ واللغة بين المعيارية والوصفية ص٧٦.

(٣) الخصائص ١/٣٨٣ وهذا تبعا لعوامل الاجتماع التى تتأتى فى لقاء اللغات واللهجات، وتؤدى إلى انقسام اللغة إلى لهجات، وابن جنى كان مشغوفا بمشافهة الأعراب الخلص، ولم يأخذ عن غيرهم اللهم إلا فى المعانى كما سيأتى.

(٤) الخصائص ٢/٢٦ ويقال: بهأ بالشىء: أنس به وأحب قربه.

(٥) المصدر السابق ١/٢٣٧ - ٢٥١.

وبهذا ثبت أن ابن جنى – مع غيره من القدماء – يشترطون للأخذ عن الشخص أن يكون عربيا بفطرته، وهذا يعنى أنه عربى الجنس وفى حقبة معينة اتصف أهلها بالفصاحة وقوة اللغة، فلا حجة فى المولدين كما ذكرنا آنفا.

هذا فى مجال رواية اللغة، ووضع قواعدها.

أما فى المعانى الأدبية فإن ابن جنى – كابن قتيبة – لا يمنع من الاستشهاد عليها بكلام المولدين، ويمكن فهم تفريقه بين الحالين مما ذكره من استشهاد على بعض المعانى بشعر للمتنبى فقد فرق بين ألفاظ اللغة ومعانيها، فلا يقبل قول مولد فى الألفاظ لأن هذا الموضع معتبر فيها، أما فى المعانى فيقبل لأن المولدين يتناهبونها كالأقدمين [١] ثم إنه يعترف بأن شعر المولدين مظنة الخطأ فى اللغة، فبعد أن وثق أبا نواس بأنه كانت له معرفة بعلم العرب وخدم العلماء وأخذ عنهم اللغة، وقرأ عليهم دواوين العرب روى قول بعض أهل العلم فيه: لولا ما كان يخلط شعره من الخلاعة لاحتج بشعره فى كتاب الله تبارك وتعالى، وفى حديث الرسول ﷺ [٢] فهذا يدل على اقتناعه الكامل بأنه لا يحتج بقول مولد فى اللغة وقواعدها، أما فى المعانى فلا بأس بالاعتراف بها والنظر إليها [٣].

وقد نقد المحدثون هذا الاتجاه وعدوه معوقا لتقدم اللغة، ومرونتها يقول الدكتور إبراهيم أنيس: إن «قدماء العرب قصروا السليقة على العرب الخلص وادعوا أن أى أجنبى تعلم العربية لا يمكنه مهما ثابر وجد أن يتقن اللغة كما يتقنها أهلها... ولذا لم يروا فى شعر أبى تمام، والمتنبى ما يؤهلهما لتلك السليقة اللغوية التى قصروها على قوم معينين، وقصروها على زمن معين، وبيئة معينة، فنشأ فى مخيلاتهم ما يمكن أن يعبر عنه بدكتاتورية الزمان والمكان» [٤].

وأكثر المحدثين لا يربطون بين اللغة والجنس «فاللغة ملك من يتعلمها لا أثر للوراثة أو الجنس فيها، فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين وينشأ بعيدا

---

(١) الخصائص ٦/٢٤ والمحتسب ١/٢٣١. (٢) شرح أرجوزة أبى نواس ص٨، ٩.

(٣) أخذ ابن سنان الخفاجي برأى ابن جنى، فالمولدون يجيدون المعانى ولكن لا يستشهد بشعرهم لسكناهم المدن ولذلك لم يؤخذ بشعر الكميت والطرماح لأنهما كانا حضريين. انظر: سر الفصاحة ص ٣٢٧ – ٣٣٥.

(٤) من أسرار اللغة ص٢٠، ٢١ وانظر: التطور اللغوى التاريخى ص٣٩.

عنهما فى بيئة إنجليزية أو فرنسية يتكلم هاتين اللغتين بالسليقة، والطفل الفارسى الذى ينشأ فى جزيرة العرب بعيدا عن أهله يتكلم العربية بالسليقة »[١]

ولهذا جوزوا الأخذ بأقوال المولدين بحيث « تستنبط القواعد ممن يحافظون على اللغة من علماء وشعراء ما دام الشخص يلتزم بالمستوى الصوابى للمرحلة »[٢] « وإن شاعرا كالمتنبى أو المعرى أو حتى الشعراء المحدثين المعاصرين لجدير بأن تستفاد منهم شواهد اللغة كما استفيد من آداب القدماء سواء بسواء، فلهؤلاء أفكار وتعبيرات تفيدنا فى تطور اللغة، وتكمل بعض مواطن النقص فى قواعدها »[٣].

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن قتيبة، وما سار عليه الزمخشرى، فقد استشهد بشعر أبى تمام فى أوائل سورة البقرة، وقال: « وأبو تمام وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه »[٤].

ولكن يبدو أن توسيع نطاق من يؤخذ عنهم على هذه الصورة يخل بالطابع الأصيل للغة، وربما يؤدى إلى ذهاب خصائصها، وتلاشيها فلا يعقل أن شاعرا أو كاتبا اختلط بالأعاجم وزاد اختلاطه فى عصور التاريخ المتأخرة – لا يعقل أنه لم يتسرب إلى لسانه آثار أعجمية، مهما يقل عن فصاحة هذا الشاعر أو المتكلم العربى فلا شك أن طباع من اختلط بهم، وطرائقهم فى التعبير وألفاظهم ستدخل إلى لغته وتعبيره، ويقول الإمام محمد الخضر: وكيف يحتج بأقوال المولدين وقد وقعوا فى أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، فهذا أبو تمام يقول:

لعذلته فى دمنتين تقادما ... ممحوتين لزينب وسعاد

والصواب: تقادمتا.

وهذا المتنبى يقول:

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة ... ففى الناس بوقات لها وطبول

---

(١) اللغة ص ٢٩٨.

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص٧٨.

(٣) المدخل ص٩٤.

(٤) الكشاف للزمخشرى ج١ ص٢٢١.

والصواب : فى جمع بوق : أبواق[١].

وهم مع ذلك قد يستعملون تراكيب ليست من خصائص العربية فى شىء. يقول شوقى يخاطب سلاح الطيران :

ياسلاح العصر بشرنا به   كل عصر بكمى وسلاح
إن عزا لم يظلل فى غد   بجناحيك ذليل مستباح

فالفعل (يظلل) منفى بلم وزمنه مع هذا مستقبل بدليل (فى غد)[٢].

ومع تسليمنا بأن الطفل يكتسب اللغة التى يعيش فى أحضانها فإننا نرى أن ذلك يأتى حينما ينشأ الطفل وحده (دون أبويه أو أحد آخر من أهله) فى بيئة أجنبية عنه فإنه - حينئذ - يكتسب لغة المجتمع الذى يعيش فيه حتى تصير سليقة له، ونشأة الطفل بعيدا عن أهله على هذه الصورة قليل وبخاصة فى الأزمان الماضية، ومن هنا يمكن أن نفهم إحجام علماء اللغة عن الأخذ عن غير العرب حتى من نشأ منهم فى البيئة العربية، لأنه - ولا ريب - متأثر بلغة أهله القدامى، ولذا كانت طريقة علماء اللغة العرب سديدة تتحرى الدقة حتى تبقى للعربية سماتها، ومعالمها، وكان لذلك قرار مجمع اللغة العربية حكيما حينما حدد «أن العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثانى، وأهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع»[٣] وذلك لأن اللغة ظلت سليمة إلى هذا التاريخ، وما ظهر خلال تلك الفترة ضئيل يمكن الإغضاء عنه، وهذا خير لتقدم اللغة »[٤].

الاستشهاد بالقرآن والحديث :

والذى تجدر الإشارة إليه عدم اهتمام اللغويين والنحاة بالاستشهاد على الظواهر اللغوية وقوانينها بالقرآن، والسنة النبوية الشريفة اهتماما واسعا فالباحث يرى أنهم يأتون بالشواهد من مأثور الكلام شعرا ونثرا وربما اعتمدوا فى تقعيد قواعدهم على شاهد واحد - كما هو معروف عند الكوفيين - وربما لم يعرف

---

(١) القياس فى اللغة العربية ص٣٦.
(٢) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ص٢٧.
(٣) مجلة المجمع ١/ ٢٠٢، ٢٩٤، ٣٠٣.
(٤) اللغة والنحو ص٢٤.

قائله، وقد يكون مصنوعا، فقد أجاز الكوفيون دخول اللام على خبر (لكن) واستشهدوا بهذا الشطر الذى لا تعرف له تتمة :

*** ولكننى من حبها لعميد[1] ***

وورد صريحا أن سيبويه سأل اللاحقى : هل تعدى العرب (فعلا) – بفتح الفاء وكسر العين –؟ قال : فوضعت له هذا البيت :

حذر أمورا لا تضير وآمن ... ما ليس منجيه من الأقدار[2]

ومع هذا لم يهتموا بالاستشهاد بالقرآن الكريم، وفى القليل النادر يعرجون على نصوص منه، فيستشهدون بآية بدلا من هذا البيت المجهول، أو هذه العبارات السقيمة، أوتلك التراكيب المصنوعة، ولو أنهم استشهدوا بالقرآن لرجعوا إلى النص الصحيح الأقدم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[3].

كذلك جرى جمهور النحاة على عدم الاحتجاج بالحديث الشريف فى تقرير الأحكام العربية، لروايته بالمعنى، وكان الأولى بهم أن يعدوه حجة فى اللغة، وبخاصة بعد أن دون « وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول حين كان أولئك الرواة الذين يتصرفون فى ألفاظ الحديث – على تقدير تصرفهم – ممن يوثق بهم، ويحتج فى أحكام الألفاظ بعباراتهم »[4].

وقد أدى عدم اهتمام اللغويين، والنحاة بهذين المصدرين فى الاحتجاج إلى وجود مشكلات لغوية كثيرة، وتأويلات معقدة ربما كان من السهل التخلص منها بالرجوع إلى هذين الأثرين اللذين يمثلان اللغة فى صورتها المثالية[5].

---

(١) شرح شواهد الأشمونى للعينى ١ / ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٩٨ والكتاب بتحقيق الأستاذ هارون ١ / ١١٣.

(٣) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٩٦، ٩٧ لم تتعد شواهد سيبويه – مثلا – فى كتابه من القرآن الكريم خمسمائة آية إلا بقليل على حين أن شواهده من الشعر تنيف على مائة وألف أما الشواهد من الأمثلة المصنوعة مثل ضرب زيد عمرا، واضرب بكرا فلا يحصى عددها . انظر : فهرس كتاب سيبويه للشيخ محمد عضيمة.

(٤) القياس فى اللغة العربية ٣٢، ٣٣ بتصرف.

(٥) انظر : بحثنا فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد الثانى عشر بعنوان (القراءات وصلتها باللهجات العربية).

٣- أطوار اللغة العربية :

الملاحظ أن عربية الشمال تغلبت – فى النهاية – على عربية الجنوب بعد تغلب أهلها، وصارت لغة الجزيرة كلها جنوبيها وشماليها واحدة قبل الإسلام بقليل.

والملاحظ كذلك وجود فروق لغوية بين عربية الجنوب القديمة كالحميرية وعربية الشمال العدنانية وظهر ذلك من مراجعة بعض النقوش، وبعض كتب اللغة والأدب.

وبناء على هذا أنكر بعض العلماء وجود الصلة بين اللغتين كأبى عمرو بن العلاء الذى قال: ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا وكابن جنى الذى يقول «لسنا نشك فى بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار».

ويقول ابن خلدون «وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصريف كلماته، تشهد لذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القيل فى اللسان الحميرى أنه من القول وكثير من أشباه هذا، وليس ذلك بصحيح، ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها[١]».

وليس معنى هذا الاختلاف فى بعض الأصوات والكلمات والقواعد أنهما متغايرتان تماما، بل إنهما من أصل واحد إلا أن القبائل التى هاجرت إلى الشمال سلكت مسلكا مناسبا للبيئة التى عاشت فيها على حين اختلفت أحوال الحياة فى جنوبى الجزيرة وهذا الخلاف الطبيعى والاجتماعى لابد أن يترك أثره على

---

(١) مقدمة ابن خلدون – ط مصطفى محمد ص٥٥٧ ومن ذلك – مثلا – أداة التعريف والتنكير فالتنوين علامة التنكير فى عربية الشمال على حين أن علامة التنكير فى الحميرية هى الميم فيقال ملكم – بدلا من ملك، وأداة التعريف فى عربية الشمال هى (ال) على حين أنها فى الحمرية أم – وفى الحديث (ليس من امبر امصيام فى امسفر) وكلمة ثب معناها اقفز عند الشماليين، وعند حمير اجلس وقصة عبد الله بن دارم مشهورة، ومن النقوش (ب وهق جنا وصوايت ومحفدت وهجر همو) معناه بالشمالية: وأعلوا السور مرة أخرى.

اللغة، فتتغير وتتطور فهما لغة واحدة إلا أن عوامل الحياة والتطور – هى التى جعلتهما مختلفتين.

وبعد ما لاحظنا من اتحاد لغتى الشمال والجنوب قبل الإسلام يمكننا أن نقول: إن عرب الشمال كانت لهم هم الآخرين لهجات متعددة كالتميمية والحجازية إلا أن لقاء القرشيين بإخوانهم العرب فى الأسواق والحج والمعاملات الأخرى، إلى جانب كونهم سدنة بيت الله وحكام العرب المقدمين كل ذلك جعل للهجتهم تفوقا ليس لأخواتها، وكان القرشيون يهذبون لهجتهم فيتركون مستبشع الألفاظ والتراكيب، ويضمون لها أعذبها مما يلائم طبيعة الحياة، ومتجدداتها فتجمعت لها عناصر السيادة[1]، ويصر بعض الباحثين على أن تلك اللهجة التى تغلبت فأصبحت لغة العرب جميعا هى لغة عامة مشتقة من كل اللهجات، وليست القرشية على الخصوص، والخطب سهل.

فمرادنا اجتماع اللسان العربى على طريقة واحدة فصحى أيدت بنزول القرآن الكريم الذى قوى من شأنها، ودعم من سلطانها.

ولا ريب أن الإسلام كان له أثر فى تلك اللغة الموحدة، فقد أتى بحضارة ومثل جديدة لم تكن عند العرب من قبل على تلك الصورة التى أتى بها، فهذب من نفوسهم وكذلك من لغاتهم.

ومن آثار الإسلام:

١– موت بعض الألفاظ والتراكيب التى لم يعد لها موضع فى حياة العرب المسلمين كالمرباع[2] والنشيطة[3] والفضول[4] وأنعم صباحا، وأنعم مساء، وقولهم للملك: أبيت اللعن.

٢– استعمال ألفاظ فى معان جديدة على سبيل التوسع أو التضييق كألفاظ المؤمن والمنافق والصلاة والزكاة والحج.

٣– وجود بعض الألفاظ والتراكيب اللغوية: كالمخضرم ومات حتف أنفه وقول الرسول ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»[5].

---

(١) المزهر ١ / ٢١٠، ٢٢١. (٢) ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية.

(٣) ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم.

(٤) بقايا من الغنيمة لا تمكن قسمتها. (٥) المزهر ١ / ٢٩٤ – ٣٠٣.

فلما جاء عهد الخلفاء الراشدين تمتعت العربية بالتفوق على لغات كثيرة بدخول الإسلام إلى أقطار جديدة كالعراق والشام ومصر، فصرعت لغاتها الفارسية والرومية والقبطية، وحلت محلها، ولما اتسعت الدولة الإسلامية احتاجت الحضارة إلى ألفاظ وتراكيب جديدة فاستحدثت ألفاظ للإمارة كأمير المؤمنين والخليفة والوالى، ووجدت الدواوين ووضعت لها الأسماء، كما استحدثت أسماء لبعض الآلات الحربية.

فلما جاء العصر العباسي، وزاد اتصال العرب بحضارات الأمم الأخرى كالفرس والهنود، ودخلت علوم اليونان من فلسفة وطب ورياضيات وفلك وغيرها نقلت إلى العربية ألفاظ ومصطلحات علمية فى تلك المجالات المختلفة بل نقلت إلى العربية طرائق من التعبير لم تعرفها من قبل كالتعبير اليونانى باستعمال (لا) النافية ممزوجة ب (ال) فى مثل (اللاوعى) (اللافهم)[1].

ولا ننسى أن نشير هنا إلى أن اللغةالعربية – وإن كانت وجدت مكانا فسيحا ترتع فيه – فإنها أصيبت بفساد لحقها فى هذا السباق، فقد دب اللحن على الألسنة ووجدت بوادر منه فى عصر الرسول ﷺ ثم زاد اللحن بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم ودخل الناس فى دين الله أفواجا من كل جنس ولون، وربما ظل اللحن غير فاش طيلة عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية لغيرة بعض الخلفاء كعمر، وتعصب الأمويين للعرب والعربية، فلما كان العصر العباسى فتح العباسيون للأعاجم الأبواب على مصاريعها فدخلوا فى كل شئون الدولة وتولوا المناصب القيادية فيها، وقد تسبب هذا الاختلاط الواسع فى فساد ألسنة العرب، ونشأة أجيال يكثر اللحن فى منطقها إلى الحد الذى دعا العلماء الغيورين على اللغة للذهاب إلى البادية وجمع الألفاظ العربية واستخلاص القواعد اللغوية تبعا للسليقة من هذا التراث الذى جمعوه، وفى مقدمة هؤلاء العلماء الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب الضبى، والأصمعى، وأبو زيد الأنصارى، وغيرهم.

ولا ريب أن التأليف بدأ يأخذ مكانه فى اللغة، ووجدت مدارس متعددة

---

(١) شفاء الغليل ١٧٥، ١٧٦، والمزهر ١ / ٢٦٨ وما بعدها.

لدراسة القواعد والظواهر اللغوية، وأهمها المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية اللتان كان لهما ولتنافسهما الفضل الأكبر في نهضة الدراسة اللغوية العربية.

ولذا فقد ظهرت المصطلحات اللغوية الكثيرة كالفاعل، والمفعول والمبتدأ والخبر والإعلال والإبدال، وغير ذلك واصطلاحات علم العروض وبعض مصطلحات فقه اللغة(١).

وهذا كله من أجل حسر الموجات الزاحفة، لتحطيم السليقة العربية.

ونحن نلاحظ أن السليقة ظلت قوية – وان عرا المدن كثير من اللحن حتى على ألسنة الخواص – كالفراء الذى قيل إنه لحن فى حضرة الرشيد، فقال له الرشيد: أتلحن يا فراء؟ فقال الفراء: يا أمير المؤمنين إن طباع الحضر اللحن، فإذا تمسكت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت(٢).

أما البادية فقد كانت حتى آخر القرن الرابع الهجرى لا تزال فصيحة لم يشب لسانها لحن، ولذا اعتمدت المجامع اللغوية عصر الاحتجاج بأنه فى البادية حتى نهاية القرن الرابع، وفى الحضر حتى منتصف القرن الثانى الهجرى تبعا لمسار اللحن فى كل منهما.

وليس معنى هذا أن اللسان العربى فى الدولة العباسية تقوض أو انهار بل إنه كان لا يزال قويا متماسكا لأن الخلفاء عرب أصلاء ولا يمكن أن يستشرى اللحن فجأة، لأن سنة التطور تقضى بالتدرج ببطء، مع ملاحظة أن فتح الأبواب للأعاجم جعلهم يتجهون إلى العربية ليجيدوها وليصلوا إلى المناصب الرفيعة فى الدولة فنهضت الدراسات اللغوية على النحو الذى نجده فى تلك الفترة الزاهرة بالعلوم والمعارف.

ولئن تحقق ذلك فى العصر العباسى الأول (١٣٢ – ٣٢٤هـ) مع غزارة العلوم والمعارف التى اكتسبها العرب والتى ألفوا فيها إسلامية وعربية، فإن عصر

---

(١) المزهر ١/ ٢٩٥، ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) هذه الرواية يذكرها الحنبلى فى شذراته والزبيدى فى طبقاته وابن خلكان فى وفياته ويذكر بعض الباحثين المحدثين وهو الأستاذ إسماعيل العبايجى أن هذه الرواية موضوعة على الرجل أقحمها حساده ومناوئوه – مجلة العربى العدد ١٨٢ المحرم ١٣٩٤هـ فبراير ١٩٧٤م ص١٦٧، ١٦٨.

الضعف والتفكك السياسي بعد ذلك (٢٨٠ - ٤٤٧ هـ) كان أكثر نشاطا فى اللغة للتنافس العلمى بين الدويلات التى ظهرت فى هذا العصر، ولذا برزت فيه المؤلفات الطبية والفلسفية، والأدبية. واللغوية، وغيرها، وعاد ذلك على اللغة بالقوة التى جعلتها تجابه الفارسية التى بدأت تنافس العربية ولا سيما حين استخدمها السامانيون لغة رسمية لهم.

لكن ذلك العمل اللغوى العظيم لم تظهر آثاره فى الحفاظ على اللسان العربى إلا عند الخاصة من الطبقات الراقية، والأدباء، وفى لغة العلم والثقافات والرسميات.

أما العامة من الناس فقد انزلقوا إلى اللحن، وفقد كلامهم كثيرا من خصائص الفصحى دون أن يستطيع أحد صد هذا التيار الجارف من اللحن لأن عوامله كانت أقوى.

ومع احتفاظ اللغة بقواعد الإعراب والتصريف، وكثير من الألفاظ، والتراكيب نلاحظ أنها قد سلكت مسلك التجديد فى بعض الأساليب وظهر - أولا - عند الأعاجم، ثم أغرم به مثقفو المسلمين، وبخاصة الشعراء منهم، فقد كانت لابن المقفع جولات فى الترجمة بأساليب جديدة[١] وكانت لبشار بن برد أشعار تنهج منهجا لم يعرف فى العربية من قبل[٢] ثم حاذاه شعراء مسلمون كأبى العتاهية وابن الأحنف وسلم الخاسر، وقد عد يوهان فك ذلك عصرا ذهبيا للأدب العربى [٣].

فلما استولى السلاجقة على الحكم (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) أصبحت الفارسية لغة الأدب والشعر والسياسة والأمور الرسمية فى الدولة، ولكن العربية وجدت بعض الاهتمام لأن أولئك الحاكمين كانوا يشعرون بارتباطهم بالإسلام واحتياجهم إلى تعاليمه، ولا سيما فى القضاء والإدارة، فهم فى حاجة إلى من يقوم لهم بذلك، وكانوا يعتنقون المذهب السنى فأنشأوا المدارس التى اهتمت

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقى ضيف ص٢٠. (٢) المصدر السابق ٢٣، ٢٤.

(٣) انظر: العربية، ففيه تفصيلات كثيرة عن ذلك وبيان العصر الذهبى ص١١١ ط دار الكتاب العربى ١٩٥١م.

بالدراسة اللغوية، والأدبية، والدينية لتفى بمطالبهم، وقد ألف أحد مدرسيها وهو أبو منصور الجواليقى كتابه (المعرب) الذى يبين لنا ما دخل العربية فى تلك الحقبة من اللغات الأخرى، كما ألف الحريرى كتابه (درة الغواص فى أوهام الخواص) فيما جرى من اللحن على لسان الخواص مع ما كان لديهم من اتجاه إلى الفصحى، واهتمام بها.

فلما جاء العصر المملوكى (٦٥٦ - ٩٢٣هـ) بعد سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ٦٥٦هـ، واعتدائهم على العلماء، وإحراقهم الكتب، وإغراقهم معظمها فى دجلة وسقطت الأندلس - كذلك - على يد الفرنجة سنة ٨٩٧ هـ فر من استطاع أن يفر من العلماء إلى مصر التى خضعت مع سوريا لنفوذ المماليك فاهتموا بهم وأكرموهم وأقاموا الكثير من المدارس والمساجد والمساكن لهم، فازدهر العلم، وقوى الاهتمام بدراسة اللغة العربية، فظهرت الموسوعات العلمية كصبح الأعشى للقلقشندى، ولسان العرب لابن منظور، والمزهر للسيوطى.

ثم جاء العصر التركى (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ) فحاول نشر التركية فى البلاد العربية وجعلها لغة الدولة، ولم تحظ العربية باهتمامهم لكن الأزهر ظل قائما على أمرها ولذا فإن التأثير التركى جد قليل وقد بقيت منه آثار لا تزال جارية على ألسنتنا.

وفى هذين العصرين المملوكى والتركى كانت لغة المحادثة ضعيفة والعاميات فى كل مكان من الأرض العربية.

وتبعا لعوامل البيئات لاحظنا اختلافا بينا بين اللغة وهى تسير فى الشرق العربى وبين بلاد المغرب والأندلس وقد جاء ذلك واضحا فى كلام ابن خلدون الذى يقول: (أما أفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربى الذى كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب.. وكذلك المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم فى الأكرة والفلاحين والسبى الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظآرا ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى، وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والأفرنجية، وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم

أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مصر، ويخالف أيضا بعضهم بعضا كما نذكره وكأنه لغة أخرى لاستحكام ملكتها فى أجيالهم[1].

ثم قيض الله تعالى للغة العربية أن تجد العون فى العصر الحديث بعد الحملة الفرنسية التى نبهت الأذهان إلى الحضارات والعلوم الحديثة، ثم جاء عصر محمد على فأراد تكوين دولة حديثة له ولأسرته، فأرسلت البعوث إلى أوربا وأنشئت المدارس ولكن الاحتلال الإنجليزى جثم على صدر هذا الوطن سنين كانت لها آثارها السيئة، فلما قامت الثورة المصرية وتحققت حرية الأمة وكثرت المخترعات والصناعات وجدنا الاهتمام بالعربية يزداد إلى جانب العلوم الأخرى، فنهضت دراساتها وقوى شأنها، وظهرت فى الوطن العربى المجامع اللغوية لتجارى اللغة ما جد من مستحدثات.

ولكن العامية لا تزال قائمة فى بلاد الوطن العربى، ونحن نحاول تشخيص ظواهرها لعلاجها وإرجاعها إلى الأم الفصحى التى تعد السبيل إلى جمع شمل الأمة العربية، وإننا لمحققون ذلك بعون الله فى ضوء الدراسات التي يقوم بها علماء اللغة والحريصون عليها.

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٨، ٥٥٩.

الباب الرابع : مميزاتها وعوامل نموها

الفصل الأول: الاشتقاق والنحت.

الفصل الثانى: القلب والإبدال.

الفصل الثالث: القياس والارتجال.

الفصل الرابع: الحقيقة والمجاز والكناية.

الفصل الخامس: التعريب والترجمة.

تمهيـــد:

خصت العربية دون سواها من اللغات بالإفصاح، والبيان الذى لا يدانيه بيان، فقد زادت مادتها اللغوية، وكثرت كثرة قد تظن خيالا عند الحديث عنها فمعجم (لسان العرب) الذى يقع فى عشرين مجلدا يضم خلاصة لموادها التى بلغت فيه ثمانين ألف مادة، وإذا كان هذا حجم المواد فما بال الكلمات المتفرعة من كل مادة منها؟ إنها كم هائل، وقد ذكر بعضهم أن كلمات اللغة العربية تصل بالتركيب العقلى إلى أكثر من اثنى عشر ألف ألف كلمة (مليونا).

وإن عوامل نمو ثروتها كثيرة، منها: عامل الاشتقاق الذى يعد من كبريات مميزاتها، وعن طريقه - وجدت مفردات كثيرة بلغت - كما يقولون - سبعين ألف كلمة.

وفى طبيعة العربية هذا التوليد الهائل إلى جانب عوامل أخرى تزيدها ثراء كالقلب والإبدال، والقياس والحقيقة والمجاز، والنحت والتعريب وغير ذلك، مما سنشير إليه، ونفصله.

وإن هذه العوامل المختلفة لها أثرها فى زيادة ثروتها اللغوية إلى جانب حسن تراكيبها التى تسلك مسالك متعددة، ويمكن الاستفادة منها فى مصطلحات العلوم والفنون.

ومع هذا الاتساع فى الثروة اللغوية تعمد اللغة العربية إلى ضروب من الإيجاز فى العبارة إذا اقتضى المقام ذلك، فالكلمة الواحدة والعبارة الصغيرة قد تعبر عن معنى كلام كثير كما فى قوله عز حكمه (خذ العفو وأمر بالمعرف وأعرض عن الجاهلين) وقوله (ولكم فى القصاص حياة) وكذلك تعمد تلك اللغة إلى الاستغناء عما يفهم من سياق الكلام كما فى مجاز الحذف، وهو معروف فى تلك اللغة المبينة كما فى قوله تعالى: ﴿**واسأل القرية**﴾ والمراد أهلها.

ونحن - هنا - بصدد بيان بعض هذه المميزات وعوامل النمو لعلنا نلقى بعض الضوء على قوة هذه اللغة، وعوامل صلاحيتها للحضارة والعلوم، وأولى بنا أن نستخدمها فى كل ما يجد فى حياتنا من شئون تحتاج لوضع مصطلحات، وتسميات بدلا من الاستعارة من اللغات الأخرى التى لا يمكن أن تدانيها سعة وصلاحية، وإذا كان لابد من اللجوء إلى اللغات الأخرى فليكن فى حدود الضرورة الضيقة إذا لم نعثر على ما يسعفنا فى لغتنا بالنسبة لهذا المخترع أو ذاك.

الفصل الأول
الاشتقاق والنحت
أولا : الاشتقاق

طريقة التوليد فى العربية ومنزلتها بين اللغات

الذى لاشك فيه – سواء بدأت اللغة توقيفا أو اصطلاحا أو حكاية للأصوات – أن اللغات لم تنشأ دفعة واحدة، بل إن بعضها حدث أولا ثم حدث بعضها الآخر ولا يزال يحدث شيئا فشيئا.

يقول ابن جنى : « وكيف تصرفت الحال وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها فإنها لابد أن يكون قد وقع فى أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه فزيد فيها شيئا فشيئا »[١] .

ويجدر أن نقول : إن جميع المتكلمين من بنى البشر قد نجحوا فى التعبير عن أغراضهم بطريقة فعالة مفهومة[٢] .

وقد تتبع علماء اللغة المسالك اللغوية لتوليد الألفاظ فى اللغات جميعها وأوضحوها لنا فى صورها الواقعية وكان ذلك فى القرن التاسع عشر[٣] فقد قسموا اللغات إلى ثلاث فصائل تبعا لمسالك التوليد المتبعة فيها على النحو الآتى :

١– الفاصلة Isolating[٤] أو المنفصلة أو العازلة Isolanues [٥] أو لغات التجميع أو لغات التركيب الكثير Polysynthetic أو اللغات غير المتصرفة Monosyllabiques [٦] . أو غير المرتقية[٧] .

---

(١) الخصائص ٢ / ٢٨ .　　(٢) محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها ص٢٤ .

(٣) المصدر السابق ص٢١ .

(٤) من مقال للأستاذ عباس العقاد بعنوان (اللغة العربية بين لغات الحضارة العصرية) بمجلة الأزهر عدد شوال ١٣٨٠هـ – مارس ١٩٦١ ص١٠٥٨ .

(٥) علم اللغة د . وافى ص١١٧ .

(٦) المصدر السابق ص١١٦ .　　(٧) الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ص١٠ .

وهذا النوع من اللغات يتضمن أدنى اللغات بيانا وأبسطها ألفاظا وكلمات هذا النوع تلازم شكلا واحدا وتدل على معنى ثابت لا يتغير (من ناحية المورفولوجيا) ومن ناحية السنتكس توضع أجزاء الجملة بعضها بجانب بعض دون روابط، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام[1].

« فالفاصلة هي اللغة التى لا يتغير فيها شكل الكلمة (أو الجذر) إن وقع فى التركيب أما العلاقات الصرفية والنحوية بين كلمة وأخرى فى الجملة فتتوقف على موقع الكلمة فى الجملة لا على تصريفها أو حالاتها الإعرابية واللغة الصينية من هذا النوع فإن الضمير (أنا) لا يتغير شكله كما هى الحال فى لغتنا العربية تبعا للحالات الإعرابية والصرفية بل يظل على شكله الأول، إنما يتغير مركزه فى الجملة وهذا التغيير فى مركز الكلمة يدل على الحالة الإعرابية أو على الوظيفة النحوية التى تقوم بها الكلمة، وإيضاحا للمسألة نقول: إن فى لغتنا العربية يتغير الضمير (أنا) إلى (ت) فى مثل: أكلت، ويتغير إلى (نى) فى مثل (أحبنى) ويتغير إلى (ى) فى مثل كتابى، وإذا أكدناه قلنا: (إياى) أما فى الصينية فيقال: (كتاب أنا) (أحب أنا) وفى حالة التأكيد: (أنا أنا)[2].

وهذه اللغات تعتمد – كذلك – على (التنغيم) لتنويع المدلول والتمييز بين الصفات والظروف وبين الأوقات والأجناس وغيرها من معانى الجمع والتثنية والإفراد[3].

ومن أهم صفاتها أن ألفاظها أحادية المقاطع لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف واللفظة الواحدة تكون اسما أو فعلا أو نعتا بإضافة ألفاظ أخرى ذات معان مستقلة.

ومن هذه اللغات – غير الصينية – اللغات الزنجية التى يتفاهم بها قاطنو جنوبى أفريقيا والأمريكانية التى يتكلم بها هنود أمريكا والشمالية الشرقية الآسيوية والحامية[4].

ويرى بعض الباحثين أن هذه اللغات سارت على هذا المسلك لبدائية أهلها لأنها تشيع فى كثير من الأمم الأولية.

---

(١) علم اللغة د. وافى ص١١٧. (٢) محاضرات فى اللهجات د. فريحة ص٢٢.

(٣) من مقال الأستاذ العقاد فى مجلة الأزهر العدد السابق ص١٠٥٨.

(٤) الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ص١٠ ومقدمة لدرس لغة العرب ص١٢٢.

وسمى هذا النوع باللغات الفاصلة أو المنفصلة لأن الكلمة فيها تنفصل بصيغة واحدة لا تتغير حروفها وإنما يتغير المعنى بضم صيغة أخرى بترتيب متبع أو بغير ترتيب يلتزم فى جميع الأحوال وسميت عازلة لعدم وجود روابط فى جملها[١] وسميت بلغات التجميع أو التركيب الكثير لأن من فروع هذا اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله من جملة تتألف من عدة مقاطع وأجزاء وسميت غير متصرفة لعدم تغير أبنيتها ومعانيها[٢] وغير مرتقية لتضمنها أدنى اللغات بيانا وأبسطها ألفاظا وانتشارها بين الأمم البدائية.

٢- اللاصقة Agglutinative أو اللصقية أو الوصلية أو لغات النحت وتسمى أحيانا بأسم اللغات الغروية فى اصطلاح الأوروبيين[٣] ومرتقية[٤].

ومن أهم صفات هذه اللغات أنها مؤلفة من أصول جامدة لا تقبل التغيير فى بنائها مطلقا، وأن الاشتقاق يقوم فيها بإلحاق أدوات لا معنى لها وتوضع هذه الأدوات أحيانا قبل الأصل فتسمى سابقة Prefixes وأحيانا بعده فتسمى لاحقة Suffixes ومعظمها كان فى الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها، وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذى تلصق به، أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة[٥].

ويختلف أسلوب اللصق باختلاف اللغات، فبعض اللغات اللصقية تستخدم الحروف السابقة كاللغة البنتوية[٦] وبعضها يستخدم الحروف اللاحقة كالتركية فـ (منزل) فى التركية مثلا يقال له إو EW فإذا أردت أن تقول: خارج المنزل الصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فنقول: إودن Ewden وإذا أردت جمعه الصقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول: إولر

---

(١) علم اللغة د. وافى ص١١٧. (٢) المصدر السابق ص١١٥، ١١٦.

(٣) محاضرات فى اللهجات ص٢٢.

(٤) مقال الأستاذ العقاد فى مجلة الأزهر العدد السابق ص١٠٥٨.

(٥) الفلسفة اللغوية ص١١ ومقدمة لدرس لغة العرب ص١٢٢.

(٦) يطلق اسم البنتوية Bantous على سكان القسم الجنوبى بأفريقيا الاستوائية. ما عدا قبيلتى الهوتانتوت والبوشمات وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية.

Ewler— وإذا أردت أن تقول: خارج المنازل الصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول: إولردن Ewlerden وقد تجتمع الطريقتان فى لغة واحدة، فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة، وقد روى أنه توجد فى لغة الايروكويين[1] كلمة واحدة تدل على ما يأتى: «أطلب نقودا من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا منى الأقمشة» ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة فى لغة الاسكيمو.

ولذلك سميت باللصقية أو الوصلية [2] وسميت بلغات النحت لتكون الأسماء والأفعال والصفات فيها بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها، وباللغات الغروية لأن مفرداتها تلصق لصقا لتنويع معانيها كما تلصق أدوات البناء بالغراء[3].

ومن أشهر لغات هذه الفصيلة – عدا ما سبق – اللغة اليابانية وغير التركية من فروع اللغات الطورانية والمنغولية[4] وبعض لغات الأمم الأولية.

٣– المتصرفة Flexional أو التحليلية Analytiques[5] ويطلق عليها اسم المرتقية.

ويمتاز هذا القسم من ناحية المورفولوجيا بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها، ومن ناحية السنتكس بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات[6].

فاللغات المتصرفة هى التى يتغير فيها الجذر أو تتغير حركته، وقد يمتزج بعناصر أخرى أو عناصر أخرى تمتزج به فى أوله ووسطه وآخره، وفى جميع هذه التغيرات يختلف المعنى[7].

وسميت متصرفة لتغير أبنيتها بتغير المعانى، وبالتحليلية لما تتخذه حيال

---

(١) عشائر الهنود الحمر وهم السكان الأصليون لأمريكا الشمالية.
(٢) علم اللغة د. وافى الأصل والتعليق ص ١١٦. (٣) مقال العقاد السابق.
(٤) الفلسفة اللغوية ص١١ ومقدمة لدرس لغة العرب ص١٢٢.
(٥) محاضرات فى اللهجات ص٢٢ وعلم اللغة د. وافى ص١١٥.
(٦) علم اللغة د. وافى ص١١٥. (٧) محاضرات فى اللهجات ص٢٢.

الجملة من تحليل أجزائها وربط بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات، مثل: ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة، فالربط هنا بالواو ومن، وإلى بمعان خاصة وتسمى هى والتى قبلها بالمرتقية لأنها تمتاز بسعة نطاقها، ومنها لغات العالم المتمدن.

وأحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية فجذورها تتصرف على أنحاء شتى للدلالة على المعانى ومن ذلك الجذر (ك ت ب) فمنه: كتب بالبناء للمعلوم – كتب – بالبناء للمجهول – كاتب – مكتوب – استكتب .. إلخ.

واللغات المتصرفة تمتاز بقبول أصولها التصريف إلحاقا وإدراجا ومن الصفات المميزة للطائفة الآرية أنها مؤلفة من أصول قابلة للتصريف إدراجا وأن الاشتقاق فيها يقوم بإضافة أدوات معظمها ذات معنى فى نفسها وهذه الأدوات تلحق غالبا فى آخر الأصل، وأحيانا فى أوله.

مثال ذلك فى الإنجليزية **Thank** (شكر) منها **Thankful** (شاكر أو شكور) ثم **Unthankful** (غير شاكر) **Unthankfulness** (عدم شكر).

وهكذا فى سائر التصاريف وعليه تجرى سائر اللغات الآرية[1].

واللغات السامية تشارك الطائفة الآرية فى قبول الاشتقاق على طريق الإلحاق، لكنها لا تقبل الأدوات الملحقة إذا كانت ذات معنى فى نفسها، وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق فيها بواسطة تغيير الحركات فاللغات السامية يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة، وتجرى قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها[2] فهى «مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف ثابتة فى الاشتقاق أى أنه لا يؤثر على أحرفها بل هو يقوم فيها بتغيير الحركات التى يتوقف عليها نوع الدلالة مثاله فى العربية (قتل) وهو أصل يتضمن معنى القتل، فبتغيير الحركات فيه تشتق عدة أفعال أو أسماء أو نعوت تبعا لنوع التغيير، فمنه: (قتل) فعل ماض معلوم و(قتل) فعل ماض مجهول و(قتل) مصدر و(قتل) – بكسر القاف وسكون التاء – بمعنى العدو، و(المقاتل) و(قتل) – بضمتين – جمع قتول، وقد

---

(١) الفلسفة اللغوية ص١٢، ١٣.

(٢) المصدر السابق ص١٦ ومقال الأستاذ العقاد السابق.

تمد إحدى هذه الحركات فيقال : قاتل وقاتل وقتيل وقتول وقتال – بكسر القاف وفتحها – وقتلى .. إلخ[١] .

« فتبادل الحركة يلعب فى السامية دورا أوسع مما فى الهندية الأوروبية، فخاصة هذه اللغات فى تعبيرها بالسواكن عن أساس الفكرة وعن تفرعاتها الثانوية بالحركات يجعلنا فى حل من القول بأن التصريف فى هذه اللغة يقع داخل الكلمات، أما عن الحركات فكل ساكن من سواكن الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة أو بالكسرة القصيرة أو الطويلة أو بالضمة القصيرة أو الطويلة أو بالصفر، فعندنا سبع صور و كل واحدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة النحوية وذلك يسمح للغات السامية بصياغة عدد من الكلمات المشتقة دون حاجة إلى لواحق[٢] .

فاللغات السامية تسمى لذلك لغات الاشتقاق، وهو من خصائصها الملازمة لها .

وتكاد اللغة العربية من بينها تنفرد بعموم الاشتقاق واطراده مع تحريك أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة[٣] .

فنحن إذا قارنا فى خاصة الاشتقاق نفسها بين العربية وأخواتها فى الأسرة اللغوية كادت تنفرد باشتقاق مقصور عليها لا يضارعه اشتقاق العبرية أو السريانية أو الكلدانية أو الحبشية فى السعة ولا فى تقسيم القاعدة ولا فى تحكيم المتكلم فى التعبير عن أغراضة على حسب كل احتمال معقول[٤] .

وإن اللغات السامية التى تشارك هذه اللغة فى قواعد الاشتقاق لم تبلغ مبلغها فى ضبط المشتقات بالموازين التى تسرى على جميع أجزائها وتوفق أحسن التوفيق المستطاع من مبانيها ومعانيها[٥] .

وإذا ما قارنا بين الاشتقاق فى العربية واللغات الأجنبية لاحظنا أن العربية تمتاز – كما سبق إيضاحه – بأصول – تسمى بالحروف الصامتة وهى ما عدا

---

(١) الفلسفة اللغوية ص١٦ .

(٢) علم اللغة ص١١٣، ١١٤ .

(٣) مقال الأستاذ العقاد السابق .

(٤) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص١٠١ .

(٥) اللغة الشاعرة ص١٣ .

حروف المد - اثبت وأقوى وأبقى على اختلاف أحوال الكلمة وتصرفاتها وصيغها ومنها تتكون حروف الكلمة الأصلية الثابتة التى تدور معها أنى دارت، وتثبت أنى تقلبت، وهى التى تثبت أصل المعنى فى المادة اللغوية بثباتها.

ولحروف المد فيها وظيفة تنويع المعنى الواحد والمادة الواحدة[1] - بجانب الحركات التى تنوع المعنى أيضا[2] - تبعا لأوزان مختلفة مثل: ينظر - ناظر - منظور - نظير - نظائر - نظارة - مناظر - منظار - منظر - منتظر.. إلخ، فهذه الكلمات تختلف بين أسماء وأفعال وصفات وأفراد وجموع والذى فرق بينها هو الوزن الذى لونته الحركة قصيرة وطويلة، وهذه الحركات - مع ما يسمى بحروف الزيادة التى يجمعها قولهم «سألتمونيها» مما يعين على ذلك[3].

بل تسمو العربية حين تعبر باختلاف الوزن والحركة عن معان دقيقة فهناك تفرقة واضحة بين ما هو حركة فى النفس وما هو حركة فى الجوارح يدرك مثلا بين: الكبر - بكسر الكاف وفتح الباء - والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه وما إلى ذلك[4].

وإن هذه القولب الفكرية العامة فى اللغة العربية توفر على المتكلم والمتعلم كثيرا من الجهد، ذلك أن فى عالم الفكر معانى كلية كالفاعلية والمفعولية.. والمكانية والزمانية والسببية والحدث أو الفعل والآلية، ويمكن أن تزاد هذه المعانى الكلية أو القوالب الفكرية وأن ترد إليها جميع المعانى الجزئية والتفصيلية[5].

واللغة العربية بلغت غاية الحسن بتقسيمها الحروف إلى نوع صامت لتنويع أصول المعانى، وحروف للمد تنوع المعنى الواحد على حسب أحواله، وملابساته للفاعل والمفعول والصفة، وللماضى والمستقبل، واختلاف الحركة مع الاتفاق فى الحروف الأصلية يؤدى إلى اختلاف جزئى فى المعنى كالمبنى للمعلوم والمجهول واسم الفاعل واسم المفعول.. إلخ[6].

---

(١) خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد ص١٩.
(٢) فقه اللغة د. وافى ص٢٤١. (٣) فقه اللغة د. المبارك ص١٥٢ - ١٥٤ بتصرف.
(٤) فلسفة اللغة العربية. عثمان أمين ص٤٩. (٥) فقه اللغة للمبارك ص٩٨.
(٦) المصدر السابق ص١٥٣، ١٥٥.

وبذلك نرى أن للعربية «نسقا مورفولوجيا مبتكرا داخل الكلمة يستبعد كل إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات أو أواخرها وينتج ثروة من الاشتقاق من الأصل الواحد»[1].

«فالكلمةالعربية تبدو كأنها أذيبت ثم صيغت وتوزعت أجزاؤها وحشيت أطرافها وأوساطها مع الاحتفاظ دوما بمادتها الأصلية، فخرجت فى قالب معين ووزن محدود لا يختلف من مادة إلى أخرى»[2].

ولذلك كانت أبنية الألفاظ وأوزان الكلم العربى وحدات موسيقية ترجع إليها جميع ألفاظ اللغة العربية، وكان الكلام فى حال تركيبه - شعرا أو نثرا - إذا أحكم تركيبه على يد حاذق لغوى كان الكلام يمثل وحدات موسيقية وكأنه زخارف الفن العربى»[3].

وهذه الخصائص التى تتمثل فى أصول ثلاثية تشمل المعنى العام ويتنوع بالحركات قصيرة وطويلة، وببقية حروف الزيادة المعروفة فى العربية بحيث تكون إطارا عاما تجرى المعانى فى فلكه، وتوفر على المتكلم والباحث جهدا طويلا شاقا قد يقضيه عند استعمال لغة أخرى. هذه المزايا لا تتوافر لغيرها من اللغات الأجنبية المتصرفة.

فالباحث فى اللغات اللاتينية يرى أنه «ليس فى مفردات هذه اللغات عدد من الحروف الثابتة، فقد تتغير كلها أو أكثرها فى تصاريف الكلمة ومشتقاتها أو تحذف وقد تتغير أصواتها على مر السنين والأعوام، وقد يقع هذا التغيير فى بعض مفردات المادة دون بعضها الآخر فتنفك الصلة بينها، فالشين فى كلمة Cheval... (حصان) كانت كافا فى الأصل وانقلبت إلى شين فى بعض الألفاظ، وبقيت كافا فى بعض مشتقات الكلمة مثل Cavalier (فارس)[4].

ولا فرق بين حروف المد وغيرها من جهة تبدلها، وعدم استقرارها أو من جهة دلالتها ووظيفتها.

---

(١) فلسفة اللغة العربية ص ١٠.   (٢) فقه اللغة للمبارك ص١٠٠.

(٣) المصدر السابق ص١٠٤، ١٠٥.

(٤) خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد ص٢٣.

وليس فى الاشتراك فى الحروف الصامتة فى اللغات الأجنبية أى دليل على اشتراك بينها فى المعنى، مثال ذلك فى الفرنسية (سكران) oeuver (أثر أو تأليف) ouver (il)(فتح) ومثلها Livre (كتاب Levre (شفة)[1].

والخلاف فى حروف المد فى الفرنسية والإنجليزية خلاف أساسى يتغير به المعنى والأصل الاشتقاقى غالبا كالاختلاف بين الألفاظ الفرنسية الآتية، وهو منحصر فى حروف المد :

mile, mulle, peu, peau, male, moule, puis, pas, mal[2].

وهى تقوم فى تركيب الألفاظ واشتقاقها على طريقة التركيب الإلحاقى التى تقوم على زيادة أحرف مخصوصة فى أول الكلمة أو آخرها للدلالة على معنى خاص يحصل بهذه الإضافة كإضافة ent فى الفرنسية، وer فى الإنجليزية للدلالة على اسم الفاعل وإضافة in فى أول الكلمة للسلب وer للتكرار وtion فى آخرها للحدث و ment للحال فى الفرنسية أو بطرق أخرى كالنحت[3].

وقد تجرى الكلمات فى اللغات الأجنبية على وزن واحد، ولكن بغير دلالة على اتفاق فى المعنى، ولا فى تقسيم الأسماء والأفعال والحروف، ولولا هذه المشابهة العرضية بين بعض كلماتها لكان فيها من الأوزان عداد ما فيها من الكلمات فالأوزان : آن - بان - تان - ثان - جان - ذان - ران - فان - مان - توجد فى اللغة الإنجليزية اتفاقا ومنها الحروف والأفعال والأسماء وليس بين أوزانها ومعانيها ارتباط على الإطلاق[4].

وبهذا يثبت سر كبير للاشتقاق والتصرف فى اللغة العربية وكونها من أرقى اللغات بيانا وأوسعها نطاقا وأغناها ألفاظا وأدقها تعبيرا[5].

وارتباط اللغة العربية - لذلك - حيوى، وطريقتها توليدية وليست آلية جامدة[6].

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم تلك اللغات التى انتظمت

---

(١) المصدر السابق ص٢٢.

(٢) فقه اللغة للمبارك ص١٥٣ وانظر كتابه : خصائص العربية ٢٢.

(٣) فقه اللغة للمبارك ص١٠٠.

(٤) اللغة الشاعرة ص١٣.

(٥) الفلسفة اللغوية ص١٣.

(٦) فقه اللغة للمبارك ص٦١.

قواعدها الصوتية Morphologie وقواعدها الصرفية Phonologia وقواعد التركيب والعبارات.

وإن دلائل التطور العريق الذى امتازت به لغة الضاد تحقيق علمى يقرره غير أبناء اللغة، وليس بالفخر القومى الذى يعلنه أبناؤها وحدهم بغير دليل[١].

لغة العرب بين الجمود والاشتقاق:

وإذا كان قد قيل بوجه عام إن طرق الوضع اللغوى هى الارتجال والقياس[٢] والاشتقاق فإننا نرى أن أهمها هو الاشتقاق الذى يخضع للقياس، والواقع أن اللغة العربية تتميز بهذا النوع الذى يكثر فيها التوالد والنتاج وقد عرفه القدماء أصحاب السليقة. قال ابن فارس فى فقه اللغة «باب القول على لغة العرب هل لها قياس وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟» أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان وأن الجيم والنون تدلان أبدا على الستر تقول العرب للدرع جنة وأجنه الليل وهذا جنين أى هو فى بطن أمه وأن الإنس مشتق من الظهور يقولون «آنست الشيء أبصرته وعلى هذا سائر كلام العرب علم ذلك من علم وجهله من جهل[٣]، وإذا تصفحنا المعاجم اللغوية أدهشنا ما نجد من كثرة موادها وفيضان ألفاظها بل زاد من دهشتنا أن كل طائفة من الألفاظ نجد لها صلة تربط بينها مما يدل على أنها نشأت من أصل واحد فكلمة «عرف» تفيد انكشاف الشيء وظهوره ويتحقق هذا المعنى فى جميع ما تصرف من حروفها وهو عرف، تعرف، تعارف، معروف، عرفان.. إلخ، ويحقق ابن جنى هذا المبدأ فى مواد كثيرة، ومما ذكره أن تركيب «س ل م» يفيد معنى السلامة فى تصرفه نحو سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم اللديغ أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة وهكذا..[٤].

ولكن.. هل كلم العرب كله مشتق أو لا؟

---

(١) العقاد فى مقاله بمجلة الأزهر العدد السابق ص١٠٥٩.

(٢) من أسرار اللغة ٤٦.

(٣) المزهر ١/١٦٣، ١٦٤، والصاحبى ٦٧.

(٤) الخصائص ٢/١٣٤.

ينقسم علماء اللغة فى ذلك إلى طوائف :

فيرى سيبويه والخليل وأبو الخطاب وعيسى بن عمر والأصمعى وأبو زيد وابن الأعرابى والشيبانى وغيرهم أن بعض الكلم مشتق وبعضه غير مشتق وقالت طائفة من المتأخرين اللغويين كل الكلام مشتق ونسب ذلك إلى سيبويه والزجاج، وقالت طائفة من النظار الكلم كله أصل[1] .

ومن عرض هذه الآراء التى تدور دورانا منطقيا مسلسلا كأنما هى مسألة عقلية بحتة لا مجال للواقع فى إثباتها من ذلك نقف موقفا يدعم الحقيقة الواقعية ويبرهن عليها، فنحن مع أصحاب الرأى الأول نؤيده ونعضده فمما هو جدير بالقبول حقا أن بعض الكلم مشتق وبعضه غير مشتق، والقول بأن الكلام كله أصل « غير صحيح » لأنه ينكر الصلة المحسة فى اللفظ والمعنى بين الكلمات فى مثل علم ويعلم واعلم والعالم والمعلوم والعلم[2] ولو كان الكلم كله أصلا لم يكن هناك مجال للابتكار والتوليد ولكان معنى ذلك أن لغة العرب جامدة لا تتحرك على الرغم من تحرك الزمن وتطوره، وهذا منقوض إذ يجدر بنا ألا نتصور أن الأفعال أوالمصادر حين عرفت فى نشأتها عرفت معها مشتقاتها فقد تظل اللغة قرونا وليس بها إلا الفعل وحده أو المصدر وحده حتى تدعو الحاجة إلى ما يشتق منهما[3] .

ولم تنشأ كل المشتقات دفعة واحدة وإنما حسب الحاجة ولذلك وردت لنا مواد اللغة العربية ناقصة فى مشتقاتها فى بعض الأحيان فتروى المعاجم العربية أفعالا لا مصادر لها ومصادر لا أفعال لها ورأى المجمع اللغوى إزاء هذا أن يصدر قراره الحكيم وهو استكمال المادة اللغوية فى المعجم العربى الحديث وفى هذا القرار تنمية كبيرة لألفاظ اللغة[4] .

فمذهب الأصالة المطلقة لا سند له من تاريخ بل إن المشاهدة لها تدفعه بلا مراء ولسنا – أيضا – مع أصحاب الرأى القائل بأن الكلم كله مشتق « لأنه يلزم عليه أن تكون كل كلمة فرعا ولابد أن يكون بعض الفروع أصلا وكيف يكون

---

(١) المزهر ١ / ١٦٥ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٢ / ٢٠١ .

(٣) من أسرار اللغة ٤٧ .

(٤) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٣ .

الشىء الواحد أصلا وفرعا وقد جعل الفرع دالا على ما فى الأصل وزيادة لقد ذهب بعض البصريين إلى أن الوصف الدال على الحدث والموصوف كاسمى الفاعل والمفعول مشتق من الفعل الدال على الحدث والزمان المعين والفعل مشتق من المصدر الدال على الحدث، فالفعل أصل الوصف وفرع المصدر ولكن الوصف الدال على الحدث والموصوف لا يدل على الزمان المعين الذى فى الفعل فليس الفعل أصلا للوصف وليس الوصف فرعا من الفعل دالا على ما فيه وزيادة وإنما هو فرع من المصدر كالفعل[1] وإلا فما الأصول التى اشتق منها كل الكلم هل أميتت أو أهملت مثلا؟ هذا كلام لا يصدق!

ويؤيدنا فى ذلك الرأى الذى ملنا إليه ابن جنى فهو يقول «فإن قلت: فهلا كان نعم وبجل مشتقين من النعمة والنعيم والبجال والبجيل ونحو ذلك دون أن يكون كل ذلك مشتقا منهما؟ قيل: الحروف يشتق منها ولا تشتق هى أبدا وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأول التى لا تكون مشتقة من شىء لأنه ليس قبلها ما تكون فرعا له ومشتقة منه[2].

وبذلك يتأكد لنا أن لغة العرب بها أصول وفروع تولد أكثرها من طريق الاشتقاق وتبعا للحاجات الاجتماعية النامية وبفضل الاشتقاق غزرت المادة اللغوية فيها بما ستراه واضحا فيما بعد ويتضح تمام الاتضاح أن لغة العرب ليست جامدة بل هى أولى اللغات العالمية احتفاظا بالاشتقاق واهتماما به حتى ليقول الأستاذ عبد القادر المغربى فى مقدمة كتابه الاشتقاق والتعريب «الاشتقاق فى أصول كلمات اللغة العربية كالنتاج والتوليد فى الأفراد المتكلمين بها والتعريب فى الكلمات الدخيلة الطارئة على تلك اللغة كالتعرب بالنسبة للدخلاء فى الأمة العربية والملتحمين بها[3] ولقد بلغ عدد كلمات العربية بالاشتقاق والتوليد قدرا كبيرا جدا حتى لقد قالوا إنها قد احتوت على مشتقات قدرها سبعون ألف كلمة وهذا على طبيعة العرب فى السخاء اللغوى كما هى عادتهم فى سخائهم الطبيعى والمادى ولذلك ترى ما تعجب له فقد وضعوا لبعض المعانى أسماء تفوق التصور فللسيف ألف اسم وللأسد خمسمائة وللداهية أربعمائة حتى قال

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٢/٢٠١.
(٢) الخصائص ٢/٣٧.
(٣) ص٨.

الثعالبي تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي[1] ولعل في نص الثعالبي السابق ما يوحي بقدرة العرب الخارقة وطواعية لغتهم لهم.

ونعتقد - بعد وضوح الشمس لذي عينين - أن من البداهة بمكان امتياز لغة العرب بالاشتقاق اللغوي وسترى من نتائج هذا البحث قيمة الاشتقاق في العربية ومزاياه التي لا تحصى.

أصل المشتقات

تمتاز اللغة العربية باشتراك موادها في حروف ثلاثة وتتصل الألفاظ المشتركة فيها بمعنى «عام واحد» فمن خصائص اللغة العربية:

١- أن الكلمة العربية ذات أصول ثلاثة يعبر عنها في الميزان الصرفي بفاء الكلمة وعينها ولامها وتأتي على هذا الترتيب.

٢- أن الكلمات العربية تأتي على هيئات صرفية معينة تسمى الصيغ وأن الخلاف بين الكلمات من الناحية التركيبية هو في الواقع اختلاف بين هذه الصيغ.

٣- أن هذه الكلمات لها ارتباطان لفظي يتمثل في أن حروف الأصل توجد في الصيغتين المترابطتين بنفس التركيب وإن اختلف الهيكل في كلمة عنه في الأخرى ومعنوي يتمثل في أن الكلمتين بهذه المثابة تعبران عن معنى واحد تختلفان في دائرته كما تختلف الصيغتان لا كما تختلف المادتان المعجميتان[2].

وعلى أساس ذلك رتبت معاجمنا اللغوية فجمعت في مادة (ض ر ب) جميع مشتقاتها المتولدة عنها وكذلك في (ق ط ع) و (ع ل م) وغيرها، وليس ذلك شأن اللغات الأخرى بسبب ضياع أصول الألفاظ واندراس معالم أنسابها ومن هنا رتبت معاجمها ترتيبا فرديا لا جماعيا روعي فيه ظاهر اللفظ لا حقيقته وأصله فتباعدت الأقارب وتقاربت الأباعد اللهم إلا في معاجم تعرف بالمعاجم الاشتقاقية ولكن هذه المعاجم لا يستعملها إلا الخاصة من المشتغلين باللغة[3]

(١) المصدر السابق ص١١ - ١٣.   (٢) مناهج البحث في اللغة ١٧٧، ١٧٨.
(٣) فقه اللغة للمبارك ٥٥، ٥٦ بتصرف.

وعلماء اللغة – ومنهم القدماء – يلاحظون هذه الظاهرة التى تمتاز بها اللغة العربية فهم « يعرفون كلمات كثيرة مشتركة فى معنى واحد وفى حروف ثلاثة ومن هنا اختلفوا فى أسبقية هذه الكلمات ونشأ الخلاف بينهم فى أصل المشتقات[1].

وقد كان للمشتغلين بالبحوث المتصلة باللغة من نحويين وصرفيين وأصحاب متن اللغة وعلمائها قديما وحديثا آراء مختلفة فى هذا الموضوع بناء على حجج تراءت لكل فريق ونحن نورد هنا كل تلك الآراء وأدلتها ونضعها فى ميزان النقد الدقيق.

١ – رأى النحويين والصرفيين: النحويون ومن جرى على شاكلتهم من الصرفيين قد اختلفوا فيما بينهم فى أصل المشتقات أهو المصدر أم الفعل؟ وقد اعتنق المذهب الأول البصريون على حين اتجه إلى الثانى الكوفيون، وكتب النحو تذكر هذا الخلاف إلا أن أجمعها للمذهبين وأدلتهما هو كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى النحوى[2] وكتاب الإيضاح لأبى القاسم الزجاجى[3] ونؤثر أن ننقل من الأول ما قاله كل من الفريقين – مع ما نرى إضافته من غيره – حتى يتضح رأيهما عند المقارنة بما عداه من الآراء الأخرى.

قال ابن الأنبارى: « ذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه نحو ضرب ضربا وقام قياما وذهب البصريون إلى أن الفعل مشتق من المصدر وفرع عليه، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إن المصدر مشتق من الفعل لأن المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله ألا ترى أنك تقول قاوم قواما فيصح المصدر لصحة الفعل وتقول: قام قياما فيعتل لاعتلاله فلما صح لصحته واعتل لاعتلاله دل على أنه فرع عليه[4]، ومنهم من تمسك بأن قال: الدليل على أن المصدر فرع على الفعل أن الفعل يعمل فى المصدر ألا ترى أنك تقول ضربت

---

(١) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤١.

(٢) فى المسألة الثامنة والعشرين تحت عنوان (القول فى أصل الاشتقاق الفعل هو أو المصدر).

(٣) تحت عنوان (باب القول فى الفعل والمصدر أيهما مأخوذ عن صاحبه).

(٤) ذكر هذا الدليل فى كتاب الإيضاح للزجاجى ٦٠ وانظر: الأشباه والنظائر ١ / ٥٨.

ضربا فتنصب ضربا بضربت فوجب أن يكون فرعا له لأن رتبة العامل قبل رتبة المعمول فوجب أن يكون المصدر فرعا على الفعل[1]، ومنهم من تمسك بأن قال الدليل على أن المصدر فرع على الفعل أن المصدر يذكر تأكيدا للفعل ولا شك أن رتبة المؤكِّد قبل رتبة المؤكَّد فدل على أن الفعل أصل والمصدر فرع[2]، والذى يؤيد ذلك أننا نجد أفعالا ولا مصادر لها خصوصا على أصلكم وهو نعم وبئس وعسى وليس وفعل التعجب وحبذا فلو لم يكن المصدر فرعا لا أصلا لما خلا عن هذه الأفعال لاستحالة وجود الفرع من غير أصل، ومنهم من تمسك بأن قال: الدليل على أن المصدر فرع على الفعل أن المصدر لا يتصور معناه مالم يكن فعل فاعل والفاعل وضع له[3] فعل ويفعل فينبغى أن يكون الفعل الذى يعرف به المصدر أصلا للمصدر قالوا: ولا يجوز أن يقال إن المصدر إنما سمى مصدرا لصدور الفعل عنه كما قالوا للموضع الذى تصدر عنه الإبل مصدرا لصدورها عنه، لأنا نقول لا نسلم بل سمى مصدرا لأنه مصدور عن الفعل كما قالوا مركب فاره ومشرب عذب أى مركوب فاره ومشروب عذب والمراد به المفعول لا الموضع فلا تمسك لكم بتسميته مصدرا.

أما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أن المصدر أصل الفعل أن المصدر يدل على زمان مطلق والفعل يدل على زمان معين فكما أن المطلق أصل للمقيد فكذلك المصدر أصل للفعل وبيان ذلك: أنهم لما أرادوا استعمال المصدر وجدوه يشترك فى الأزمنة كلها لا اختصاص له بزمان دون زمان فلما لم يتعين لهم زمان حدوثه لعدم اختصاصه اشتقوا له من لفظه أمثلة تدل على تعيين الأزمنة ولهذا كانت الأفعال ثلاثة ماض وحاضر ومستقبل لأن الأزمنة ثلاثة ليختص كل فعل منها بزمان من الأزمنة الثلاثة فدل على أن المصدر أصل للفعل ومنهم من تمسك بأن قال: الدليل على أن المصدر هو الأصل أن الفعل بصيغته يدل على شيئين الحدث والزمان المحصل والمصدر يدل بصيغته على شىء واحد وهو الحدث وكما أن الواحد أصل الاثنين فكذلك المصدر أصل الفعل، ومنهم من تمسك بأن قال الدليل على أن المصدر هو الأصل أن الفعل بصيغته يدل على ما يدل عليه المصدر والمصدر لا يدل على ما يدل عليه الفعل ألا ترى أن

---

(١) الأشباه أيضا ١/٥٨. (٢) ذكر هذا الدليل فى الإيضاح ٦١.

(٣) يرجح الشيخ محيى الدين أن الأصل والفعل وضع له.. إلخ ونحن معه فى ذلك.

« ضرب » يدل على ما يدل عليه الضرب والضرب لا يدل على ما يدل عليه « ضرب » وإذا كان كذلك دل على أن المصدر أصل والفعل فرع لأن الفرع لابد أن يكون فيه الأصل وصار هذا كما تقول فى الآنية المصوغة من الفضة فإنها تدل على الفضة والفضة لا تدل على الآنية وكما أن الآنية المصوغة من الفضة فرع عليها ومأخوذة منها فكذلك ههنا الفعل فرع على المصدر ومأخوذ منه، ويوضح بعضهم ذلك - كما نقل السيوطى - بأن الفعل يشتمل لفظه على حروف زائدة على حروف المصدر وتدل تلك الزيادة على معان زائدة على معنى المصدر فكان مشتقا من المصدر كضارب ومضروب ونحوهما ومعلوم أن ما لا زيادة فيه أصل لما فيه الزيادة، ومنهم من تمسك بأن قال الدليل على أن المصدر هو الأصل أن المصدر له مثال واحد وما يوجد منه أنواع وصور مختلفة، ومنهم من تمسك بأن قال لو كان المصدر مشتقا من الفعل لوجب أن يدل على ما فى الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث كما دلت أسماء الفاعلين والمفعولين على الحدث وذات الفاعل والمفعول به فلما لم يكن المصدر كذلك دل على أنه ليس مشتقا من الفعل، ومنهم من تمسك بأن قال الدليل على أن المصدر ليس مشتقا من الفعل أنه لو كان مشتقا منه لكان يجب أن يجرى على سنن فى القياس ولم يختلف كما لم تختلف أسماء الفاعلين والمفعولين فلما اختلف المصدر اختلاف الأجناس كالرجل والثوب والتراب والماء والزيت وسائر الأجناس دل على أنه غير مشتق من الفعل[1]، ومنهم من تمسك بأن قال: الدليل على أن المصدر هو الأصل أن المصدر اسم والاسم يقوم بنفسه ويستغنى عن الفعل أما الفعل فلا يقوم بنفسه ويفتقر إلى الاسم وما يستغنى بنفسه ولا يفتقر إلى غيره أولى بأن يكون أصلا مما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره قالوا ومن الدليل على أن الفعل مأخوذ من المصدر أن المصدر اسم الفعل وقد اتفقنا جميعا على أن الاسم سابق للفعل فوجب أن تكون المصادر سابقة للأفعال ألا ترى أنا نفعل الضرب والخروج والأكل وما أشبه ذلك قبل فعل زيد له ثم يفعله زيد فيخبر عنه بذلك ولولا أنا نفعله ونعرفه لم نفهم الإخبار عنه والمصدر الحدث لأنه الحدث الذى أحدثه زيد ثم حدث[2] عنه والفعل حديث عنه

---

(١) انظر: فى هذه الأدلة الإيضاح ص ٥٩، ٦٠، والأشباه والنظائر ١ / ٥٦ - ٥٨.

(٢) بضم الحاء وتشديد الدال المكسورة.

والحدث سابق للحديث عنه[1] ومنهم من تمسك بأن قال الدليل على أن المصدر هو الأصل تسميته مصدرا فإن المصدر هو الموضع الذى يصدر عنه ولهذا قيل للموضع الذى تصدر عنه الإبل مصدر فلما سمى مصدرا دل على أن الفعل قد صدر عنه وهذا دليل لا بأس به فى المسألة[2].

وأجاب البصريون عن كلمات الكوفيين:

أما قولهم «إن المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله».

فالجواب عنه من ثلاثة أوجه، الوجه الأول أن المصدر الذى لا علة فيه ولا زيادة لا يأتى إلا صحيحا نحو ضربته ضربا وما أشبه ذلك وإنما يأتى معتلا ما كانت فيه الزيادة والكلام إنما وقع فى أصول المصادر لا فى فروعها، الثانى أنا نقول: إنما صح لصحته واعتل لاعتلاله طلبا للتشاكل وذلك لا يدل على الأصلية والفرعية وصار هذا كما قالوا: (يعد) والأصل فيه يوعد فحذفوا الواو لوقوعها بين ياء وكسرة وقالوا أعد ونعد وتعد والأصل فيها أوعد ونوعد وتوعد فحذفوا الواو – وإن لم تقع بين ياء وكسرة – حملا على يعد ولا يدل ذلك على أنها مشتقة من يعد وكذلك قالوا: أكرم والأصل فيه أأكرم فحذفوا إحدى الهمزتين استثقالا لاجتماعهما وقالوا «نكرم وتكرم ويكرم» والأصل فيه نؤكرم وتؤكرم ويؤكرم كما قال الشاعر:

(فإنه أهل لأن يؤكرما)

فحذفوا الهمزة – وإن لم يجتمع فيها همزتان – حملا على أكرم ليجرى الباب على سنن واحد ولا يدل ذلك على أنها مشتقة من أكرم فكذلك ههنا[3]. والثالث أنا نقول يجوز أن يكون المصدر أصلا ويحمل على الفعل الذى هو فرع كما بنينا الفعل المضارع فى فعل جماعة النسوة نحو يضربن – حملا على ضربن وهو فرع لأن الفعل المستقبل قبل الماضى وكما قال الفراء إنما بنى الفعل الماضى على الفتح فى فعل الواحد لأنه يفتح فى الاثنين ولاشك أن الواحد أصل للاثنين فإذا جاز لكم أن تحملوا الأصل على الفرع هناك جاز لنا أن نحمل الأصل على الفرع ههنا[4].

---

(١) الإيضاح ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص٥٨.

(٣) المصدر السابق ص٦٠.

(٤) انظر: وجها رابعا فى الأشباه والنظائر ١ / ٥٩.

وأما قولهم إن الفعل يعمل فى المصدر فيجب أن يكون أصلا قلنا كونه عاملا فيه لا يدل على أنه أصل له وذلك من وجهين، أحدهما أنا أجمعنا على أن الحروف والأفعال تعمل فى الأسماء ولا خلاف أن الحروف والأفعال ليست أصلا للأسماء فكذلك ههنا والثانى أن معنى قولنا « ضرب ضربا » أى أوقع ضربا كقولك ضرب زيدا فى كونهما مفعولين وإذا كان المعنى أوقع ضربا فلا شك أن الضرب معقول قبل إيقاعه مقصود إليه ولهذا يصح أن يؤمر به فيقال اضرب وما أشبه ذلك فإذا ثبت أنه معقول قبل إيقاعك معلوم قبل فعلك دل على أنه قبل الفعل[1].

وأما قولهم: إن المصدر يذكر تأكيدا للفعل ورتبة المؤكِّد قبل رتبة المؤكَّد قلنا وهذا أيضا لا يدل على الأصالة والفرعية ألا ترى أنك إذا قلت جاءنى زيد زيد ورأيت زيدا زيدا ومررت بزيد زيد فإن زيدا الثانى يكون توكيدا للأول فى هذه المواضع كلها وليس مشتقا من الأول ولا فرعا عليه فكذلك ههنا[2]. وأما قولهم: إنا نجد أفعالا ولا مصادر لها قلنا: خلو تلك الأفعال التى ذكرتموها عن استعمال المصدر لا يخرج بذلك عن كونه أصلا وأن الفعل فرع عليه لأنه قد يستعمل الفرع وإن لم يستعمل الأصل ولا يخرج الأصل بذلك عن كونه أصلا ولا الفرع عن كونه فرعا ألا تري أنهم قالوا طير عباديد أى متفرقة فاستعملوا لفظ الجمع الذى هو الفرع وإن لم يستعملوا لفظ الواحد الذى هو الأصل ولم يخرج بذلك الواحد أن يكون أصلا للجمع وكذلك أيضا قالوا طير أبابيل قال الله تعالى: (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) أى جماعات فى تفرقة وهو جمع لا واحد له فى قول الأكثرين ثم نقول: ما ذكرتموه معارض بالمصادر التى لم تستعمل أفعالها نحو « ويله وويحه وويهه وويبه وويسه وأهلاً وسهلا ومرحبا وسقيا ورعيا . . إلخ) فإن هذه كلها مصادر لم تستعمل أفعالها فإن زعمتم أن ما ذكرتموه من خلو الفعل عن المصدر يصلح أن يكون دليلا لكون الفعل أصلا فليس بأولى مما ذكرناه من خلو المصدر عن الفعل فى كون المصدر أصلا فتتحقق المعارضة فيسقط الاستدلال[3].

وأما قولهم إن المصدر لا يتصور ما لم يكن فعل فاعل والفعل وضع له فعل

---

(١) انظر: زيادة عليه الأشباه والنظائر ١ / ٥٩ .

(٢) الإيضاح ٧١ .

(٣) الإيضاح ٥٨، ٥٩ .

ويفعل قلنا: هذا باطل؛ لأن الفعل فى الحقيقة ما يدل عليه المصدر نحو: الضرب والقتل وما نسميه فعلا من فعل ويفعل إنما هو إخبار بوقوع ذلك الفعل فى زمان معين ومن المحال الإخبار بوقوع شيء قبل تسميته لأنه لو جاز أن يقال ضرب زيد قبل أن يوضع الاسم للضرب لكان بمنزلة قولك أخبرك بما لا تعرف وذلك محال والذى يدل على صحة ما ذكرناه تسميته مصدرا[١] وقولهم: إن المراد به المفعول لا الموضع كقوله مركب فاره ومشرب عذب أى مركوب فاره ومشروب عذب قلنا: هذا باطل من وجهين أحدهما أن الألفاظ إذا أمكن حملها على ظاهرها فلا يجوز العدول بها عنه والظاهر يوجب أن يكون المصدر للموضع لا للمفعول فوجب حمله عليه والثانى أن قولهم مركب فاره ومشرب عذب يجوز أن يكون المراد به موضع الركوب وموضع الشرب ونسب إليه الفراهة والعذوبة للمجاورة كما يقال جرى النهر والنهر لا يجرى وإنما يجرى الماء فيه قال الله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) فأضاف الفعل إليها وإن كان الماء هو الذى يجرى فيها لما فهمنا من المجاورة ومنه قولهم: بلد آمن ومكان آمن فأضافوا الأمن إليه مجازا لأنه يكون فيه قال الله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) وقال تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا) فأضاف الأمن إليه لأنه يكون فيه ومنه قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) فأضاف المكر إلى الليل والنهار لأنه يقع فيهما ومنه قولهم: ليل نائم فأضافوا النوم إلى الليل لكونه فيه قال الشاعر:

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ... ونمت وما ليل المطى بنائم

أى بمنوم فيه ومنه قولهم: يوم فاجر فأضافوا الفجور إليه لأنه يقع فيه قال الشاعر:

ولما رأيت الخيل تترى أثائجا ... علمت بأن اليوم أحمس فاجر[٢]

أى مفجور فيه والشواهد على هذا النحو من كتاب الله تعالى وكلام العرب أكثر من أن تحصى فدل على أن المراد بقولهم «مركب فاره ومشرب عذب موضع الركوب وموضع الشرب وأضيف إليه الفراهة والعذوبة للمجاورة على ما بينا» [٣].

---

(١) المصدر السابق ص٥٦، ٥٧.
(٢) أثائج جمع وثيج بمعنى قوى.
(٣) انظر فى جميع ما تقدم المسألة: ٢٨ من الإنصاف ١ /٢٣٥ - ٢٤٥ وانظر فى المناقشة الأخيرة: الإيضاح ٦٢، ٦٣.

وبذلك يبدو أن الأقدمين كانوا يرجحون مذهب البصريين وقد صرح أبو القاسم الزجاجي بأنه هو المذهب الصحيح[١] وكذلك صاحب التصريح[٢] والأشموني[٣] وإليه يرشد قول الناظم في باب المفعول المطلق.

وكونه أصلا لهذين انتخب

أي اختير[٤]

ولكن أستاذنا الدكتور على البطشة ضعف هذا المذهب «لأن أدلته عقلية لا تستند إلى نقل» وقال إن كثيرا من هذه الأدلة ينادي بضعفه ويهوى إلى حتفه (فمثلا):

١- استغناء المصدر عن الفعل في الإفادة لا يدل على أصالته في الاشتقاق إذ الاشتقاق ليس هو الإفادة ولا هو لازم من لوازمها.

٢- كون المصدر ليس مشتقا لأنه لم يجر على سنن واحد كاسمي الفاعل والمفعول.. إلخ معارض بالصفة المشبهة فقد جاءت على أوزان مختلفة مع أنها مشتقة باتفاق الطائفتين.

٣- كون الفرع يشتمل على الأصل وزيادة لم لا يكون الأمر بالعكس فيكون الأصل الذي وجد أولا يشتمل على الفرع وزيادة كما نشاهد ذلك في الأشياء التي تقع تحت حسنا كالأشجار فإنها تشتمل على المواد الخشبية وعلى عصارات تستحيل إلى (زيت البترول وغيره) مع أن الأشجار خرجت إلى حيز الوجود قبل الأخشاب والزيوت التي تحللت منها فيكون الفعل قد نطق به العرب أولا ثم خصوا كل مدلول من مدلولاته بلفظ خاص.

فلو أن البصريين حين ذهبوا هذا المذهب رسموا الطريق لاشتقاق الفعل من المصدر لكان ذلك أجدر بهم وأليق بمذهبهم فإن القواعد المعروفة في كتب العربية إنما وضعت لكيفية أخذ المصادر من الأفعال على مذهب الكوفيين[٥].

وقد انتقد بعض المحدثين نحاة البصرة والكوفة «بأنهم خرجوا بهذه

---

(١) الإيضاح ٥٦. (٢) شرح التصريح ١/٣٢٥.

(٣) شرح الأشموني ٢/١١٢. (٤) التصريح ١/ ٣٢٥ وشرح الأشموني ٢/١١٢.

(٥) الاشتقاق وأثره في اللغة العربية ٤١، ٤٢ ولذلك يناصر الأستاذ ولفنسون في كتابه تاريخ اللغات السامية مذهب الكوفيين لموافقته لسائر اللغات السامية فالفعل فيها هو أصل المشتقات ص١٤، ١٥.

التعليلات إلى مضايق المنطق والفلسفة وبنوا جدلهم على نظرية ظهر فسادها هى نظرية العامل(١) وليس حرص البصريين على المنطق أقل من حرص الكوفيين ويكفى أن نلحظ أن حججهم تشمل كلمات مثل الأجناس والقياس ويقوم بنفسه وزمان مطلق والزمان المطلق أو الفلسفى لا صلة له بالنحو(٢) وجميع الحجج متضاربة وإن كانت كلها تفلسف لنظرية واحدة كالبصرية أو الكوفية »(٣) وأدلة كل منهما ضعيفة لا تقاوم النظرة الفاحصة فلا الفعل كما يقول الكوفيون ولا المصدر كما يقول البصريون أصل للمشتقات.

ويقول بعضهم إن « كل هذا الجدل والنقاش لا طائل تحته »(٤)، ويصف الدكتور عبد الله درويش رأى الكوفيين بأنه « يكاد يكون قريبا من المنهج الوصفى إذ هو مبنى على الصيغة ولكنه غير دقيق لأن معرفة الماضى بدورها تحتاج إلى قاعدة خاصة(٥)، ونحن نقول إن هذا الرأى لا يسير على منهج السلوك اللغوى، ولا يؤيده الواقع كما سيتبين فيما بعد.

٢- رأى أصحاب المعاجم وبعض المحدثين:

ذكرنا أن من مزايا العربية - ومعها سائر اللغات السامية - ارتباط كلماتها بأصل ثلاثى وعليه بنى نظام المعاجم فى لغتنا، ووضع المعجم علي هذا النمط يوحى بأن علماء متن اللغة نظروا إلى أن الحروف الثلاثة التي تشترك فيها مجموعة الكلمات التى يرتبط بعضها ببعض تعد الأصل لها والتى على أساسها وجد هذا الارتباط ومتابعة لهذا الاتجاه ذهب بعض المحدثين فى أصل المشتقات إلى أنه ليس هو الفعل ولا المصدر بل إن المنشأ الحقيقى لكل مجموعة من هذه الكلمات هو ما يمكن أن يطلق عليه المادة الخام وهى المادة التى تتألف غالبا من ثلاثة حروف ساكنة لا يمكن النطق بها وليس لها دلالة وظيفية هى ما يسمى أحيانا بالأصل الثلاثى أو الجذر الثلاثى فهى مادة خام لم تتشكل(٦) « فالأصل هو شىء تجريدى غير مستعمل فى اللغة وبتغيير الحركات ووضع حرف الزيادة بنظام معين نحصل على المشتقات التى منها المصدر.. فالحروف (ك ت ب) مثلا

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٧٨.

(٢) المصدر السابق ص١٨١.

(٣) المصدر السابق ص١٨٠.

(٤) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٠.

(٥) دراسات فى علم الصرف ٣٩.

(٦) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٢.

دون نظر إلى حركاتها إذا وضعت لها حركات معينة أمكن أن تكون فعلا ماضيا مبنيا للمعلوم وإذا غيرت إحدى هذه الحركات أو زالت أمكن أن تكون ماضيا مبنيا للمجهول أو تكون مصدرا وكذلك إذا ما زيد عليها بعض حروف الزيادة المعروفة أمكن أن تصير مكتب، كاتب، انكتب، كتاب وهكذا»[١].

ويؤكد هؤلاء المحدثون أن تلك الوجهة هى «نظرة علم اللغة الحديث.. فمسألة الاشتقاق تقوم على مجرد العلاقة بين الكلمات واشتراكها فى شيء معين» «وهذا هو ما جرت عليه المعاجم العربية فمثلا كلمات اكفهر ويكفهر والاكفهرار مع أنه ليس لها مجرد فقد وضعتها المعاجم تحت مادة (كفهر) التى هى غير مستعملة فى اللغة العربية» «وبعض دارسى اللغات السامية يدرسون المادة بعينها دراسة مقارنة فى هذه اللغات جميعا ويضعون معاجمهم بهذه الطريقة».

ويدعى أصحاب هذا الرأى - كما سبق - أنه وجهة يقبلها علم اللغة الحديث فالقول بأن صيغة ما أصل لكلمة أو صيغة أخرى مما يتنافى مع المنهج اللغوى الحديث فلا يطبق هذا المنهج اصطلاحات مثل نائب الفاعل لأن فى ذلك تلميحا إلى أن الفاعل أصل للمرفوع بعد ما بنى للمجهول وليس ذلك كذلك[٢].

وإذا كنا نوافق هؤلاء فى نقد رأيى البصريين والكوفيين وعلى اعتبار الجذر الثلاثى أصلا للمشتقات - فى عرفنا الآن - تؤخذ منه بتنوع الحركات وحروف الزيادة فلا نوافقهم على أن هذا الاتجاه يمثل الأصل الذى نشأت عنه الألفاظ، فالعربى لم يكن يعرف تلك الطريقة الهندسية فى اشتقاق الكلمات بعضها من بعض بأن يضع أمامه الحروف الثلاثة ثم يفرع عليها على النحو السابق من تغيير الحركات وإضافة الحروف الزائدة لتكوين المشتقات ولم يكن الذهن العربى - منذ نشأة اللغة - ليستطيع أن يسلك هذه السبيل، وأصحاب المعاجم لم يستعملوا هذا الجذر باعتباره أصلا لتلك الألفاظ التى جمعوها بل لمجرد التنظيم والترتيب والموافق لسنة النشوء والارتقاء هو رأى اللغويين الذى نعرضه الآن.

---

(١) دراسات فى علم الصرف د. درويش ٤٠.

(٢) مناهج البحث فى اللغة ١٨١، ١٨٣.

٣- رأى اللغويين:

يرى علماء اللغة أن الأصل الأول الذى تفرعت منه المشتقات هو المحسوس لأن المحسوسات هى التى تظهر إلى الوجود أولا وقد أجمع على ذلك الباحثون[١] ويؤيد ذلك حالة اللغات الدنيا فإنها تقل فيها الدلالة المعنوية كلما انحطت إلى أن تصل إلى مايكاد يخلو منها بالكلية ولا يخفى أن هذا التحويل جار فى لغتنا الآن[٢]، وبديهى أن المحسوسات هى الأقرب إلى الوجود أولا كأسماء الأعيان المشاهدة كما أن المعانى متأخرة فى الظهور فى عالم النفس والفكر، فالأولى هى أصل الاشتقاق الجدير بالاعتبار حقا لا المصادر[٣] فليس من المعقول إذا أن التأبل الذى هو اتخاذ الإبل قد وضع قبل أن يوضع لفظ إبل نفسه أو أن السمو قد وضع قبل ظهور السماء[٤].

ويؤيدنا فى هذا الرأى الألفاظ الكثيرة التى تغص بها معاجمنا والتى هى مشتقة من أشياء محسوسة فمن أسماء الأزمنة قالوا: أخرفوا وأشتوا وأربعوا وأصافوا من الخريف والشتاء والربيع والصيف وقالوا: بكر فلان بكورا من البكرة التى هى أول النهار وحالت الدار وحال الغلام مر عليهما الحول، ومن أسماء الأمكنة بصر القوم تبصيرا أتوا البصرة وقالوا أحرم القوم دخلوا فى الحرم وقدس أتى بيت المقدس وأجبل القوم أتوا الجبل، ومن أسماء الأعداد قالوا: ثنيته أثنيه وأمآى القوم صاروا مائة «وحكى ابن جنى: معى عشرة فاحدهن لى أى اجعلهن أحد عشر وهو مأخوذ من حدو على القلب من وحد» ورواها صاحب اللسان أحدهن على صيغة التفعيل من أحد (مادة وحد)[٥]. ومن أسماء القبائل تليث فلان وليث وليث صار ليثى الهوى والعصبية ومن أسماء الأقارب أبوت وأبيت صرت أبا وتبنيته من الابن وتبعلت المرأة أطاعت بعلها، ومن أسماء الأعيان تأبط الشىء وضعه تحت إبطه، وأذنه أذنا فهو مأذون: أصاب أذنه ورأسه، ودمغه أصاب رأسه ودماغه وهكذا كل جزء من أجزاء جسم الإنسان.

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ١٥٧ والفلسفة اللغوية ١٠٩ ومجلة الأزهر عدد ذى الحجة سنة ١٣٨٢ هـ ص ١٠٢٧.
(٢) الفلسفة اللغوية ١٠٩.
(٣) الاشتقاق (أمين) ص١٤٧.
(٤) انظر: المزهر ١/١٦٨.
(٥) الخصائص ٢/٧٨، ٣/٢٦٢ وانظر فى باقى الأمثلة: الاشتقاق (أمين) ١٤٧.

وقد صرح عالمنا ابن جنى بأن «المصدر يشتق من الجوهر كالنبات من النبت وكالاستحجار من الحجر[1] فقد اشتق المصدر نفسه من الجوهر المحسوس وقد اشتقوا الفعل من المحسوس مثل قول الأعرابية أخاف أن يجوهنى (مشتق من الوجه على القلب)[2] وكذلك قولهم فى اشتقاق الفعل من قلنسوة تارة تقلنس وأخرى تقلس.. وكذلك قالوا: قرنوة[3] فلما اشتقوا الفعل منها قالوا: قرنيت السقاء. وقالوا: فى نحوه تعفرت الرجل إذا صار عفريتا وعليه جاء تمسكن وتمدرع[4] وتمنطق وتمندل[5] «ومن هذا القبيل مكين من مكن وتمكن فهى مشتقة من المكان»[6].

وقد حاول بعض المحدثين أن يخرج مثل هذا الاشتقاق تخريجا يبعده عن الاشتقاق من المحسوس فيجعله بعضهم من الاشتقاق المركب فتمسكن وتمنطق مشتقة من مسكين ومنطق وهذه مشتقة من سكن ونطق وتمكن مشتقة من المكان والمكان مشتق من كان والكون وقد توهموا أصالة الميم فى هذه الكلمات وأجروها كما لو كانت من المادة نفسها[7]، ويرى بعضهم - وهو الأستاذ العلايلي - أن العربى بعد أن اشتق المصدر الميمى ليؤدى به معنى مخصوصا وتأدية بعينها عاد فتوسع عليه توسعا ظهر غريبا جدا فنقله إلى الفعلية بزيادة التاء.. وخص التاء للتشاكل بالمصدر.. ويدل على هذا أن التاء تدخل على الوزن بدون ما تغيير فيه كما فى فعل مثل حجر تقول منه تفعل ومثاله تحجر.. ولا يبعد احتمال أن العربى خرج بالمصدر الميمى إلى الفعلية ابتداء بدون زيادة التاء فقال مفعل يمفعل مثل مرحبك الله ومسهلك، وقد ذكر ابن خالويه بعض تلك الصيغ فى كتاب ليس فى كلام العرب» وقال: ليس فى كلامهم تمفعل إنما هو تفعل إلا تمغفر إلخ..

وقد حاول ابن جنى أن يسوغ هذه الصيغ بأنهم قد أقروا النون فى تقلنس وإن كانت زائدة وأقروا أيضا الواو حتى قلبوها ياء فى تقلسيت وكذلك فى

---

(1) الخصائص ٢/٣٤.
(2) المصدر السابق ٢/٧٩.
(3) عشب ينبت فى الرمل يدبغ به الأساقى.
(4) لبس المدرعة كمكنسة - وهى ضرب من الثياب ولا يكون إلا من الصوف.
(5) مسح بالمنديل وانظر فى النص السابق: الخصائص ١/٢٢٧، ٢٢٨.
(6) فقه اللغة للمبارك ١٢٥.
(7) المصدر السابق نفس الصحيفة ونشأة الفعل الرباعى فى اللغات السامية ٢١.

قرنيت من قرنوة وهى زائدة للتكثير والصيغة لا للإلحاق ولا للمعنى وكذلك الواو فى قلنسوة للزيادة غير الإلحاق وغير المعنى، وكذلك تمسكن إلخ تحملوا ما فيه تبقية الزائد مع الأصل فى حال الاشتقاق كل ذلك توفية للمعنى وحراسة له ودلالة عليه[1]. وكان ذلك التسويغ لأنه خرج على قواعد الاشتقاق المعروف من الحروف الأصلية، وابن جنى يقول بما يوافق الطبيعة اللغوية ويجرى على أسس الاشتقاق اللغوى الذى هو واقع حى استعمله العربى فى حياته الكلامية فقد اشتقت تلك الألفاظ من المحسوسات وهى أسماء أعيان (القلنسوة - القرنوة - العفريت - المسكين - المنطقة - المدرعة - المنديل - المكان) ولذلك لم ينظر إلى الحروف الأصلية لأنه هدف إلى الاشتقاق من تلك الأسماء بغرض معين ولو حذفها لاختل المعنى المقصود، ويمكن أن نفهم ذلك واضحا من قول ابن جنى «ألا تراهم إذ قالوا تدرع وتسكن وإن كانت أقوى اللغتين عند أصحابنا فقد عرضوا أنفسهم لئلا يعرف غرضهم أمن الدرع والسكون أم من المدرعة والمسكنة؟ وكذلك بقية الباب؟»[2].

فلا داعى إلى تلك التخريجات الظنية والبعيدة عن الواقع الملموس والتى تؤدى كما يعترف أصحابها إلى ناحية غامضة من اللغة[3]، ويكفى تأييدا لاستعماله اللغوى الصحيح «أننا نجد أمثلة لهذا النوع من الاشتقاق فى جميع اللغات السامية الحية»[4] «حتى» بدا لبعض الباحثين من المحدثين أن يجعل مثل هذا الاشتقاق قياسيا وأن يجيز بناء عليه قول النجار (معجنت الخشب) أى وضع عليه المعجون[5]، وقد استخدمت العرب الاشتقاق من أسماء الأعيان فى مئات من الألفاظ كمذهب ومفضض ومجصص واستنسر البغاث[6].

بل إنهم عربوا أسماء أعجمية ثم اشتقوا منها مصادر وأفعالا ومشتقات فقدعربوا اللجام واشتقوا منه ألجم الفرس وفى الحديث (من سئل عما يعلمه

---

(١) الخصائص ١ /٢٢٧، ٢٢٨.　　(٢) المصدر السابق ١ /٢٢٨.

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب ٢٢، ٢٢٣.

(٤) نشأة الفعل الرباعى فى اللغات السامية ٢١.

(٥) مجلة المجمع اللغوى ٢٦٣ وانظر: من أسرار اللغة ط٣ ص٤٧.

(٦) فقه اللغة د. وافى ١٧٣ ويروى ابن جنى أن « من لفظ الهوته (بفتح الهاء وضمها) وهى المنخفض من الأرض ومعناها مضى هيتاء من الليل وهو فعلاء منه انظر: الخصائص ١ /٢٧٨، ٢٧٩.

فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة) .. وقالوا : دبج الغيث الأرض دبجا من باب ضرب إذا سقاها فانبت أزهارا مختلفة مشتق من الديباج المعرب[١].
ويقول ابن جنى : وحكى لنا أبو على عن ابن الأعرابى - أظنه قال - يقال : درهمت الخبازى أى صارت كالدرهم فاشتق من الدرهم وهو أعجمى وحكى أبو زيد رجل مدرهم قال : ولم يقولوا : درهم إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل فى الكف ولهذا أشباه[٢]، ومما اشتقه العرب من كلام العجم ما أنشدناه من قول الراجز:

هل تعرف الدار لأم الخزرج   منها فظلت اليوم كالمزرج

أى الذى شرب الزرجون وهى الخمر فاشتق المزرج من الزرجون[٣] وغير ذلك كثير.

وقد اشتق العرب كذلك من أسماء الأصوات كاف وبح وأه أهة وآهة[٤] «ونحومنه قولهم: حاحيت وعاعيت وهاهيت إذا قلت: حاء وعاء وهاء[٥]، ودعدعت بالغنم إذا قلت: لها داع داع وجهجهت بالإبل إذا قلت: لها جاه جاه، ومن ذلك أيضا «قولهم: بسملت وهيللت وحوقلت كل ذلك وأشباهه إنما يرجع فى اشتقاقه إلى الأصوات[٦]، ومن ذلك أنك تشتق من قولك: (بأبى أنت) فعلا اشتقاقا صوتيا فتقول : بأبأت بالصبى بأبأة وبئباء وقد أكثرت من البأباة، وعلى هذا اشتقوا منها البئب قال :

يا بأبى أنت ويافوق البئب[٧]

ويشتق كذلك من الحروف والأدوات والتعبيرات التي تدل على أصوات معينة فقد قالوا: سوفت الرجل أى قلت: له سوف وهذا فعل - كما ترى - مأخوذ من الحرف ومن أبيات الكتاب :

لو ساوفتنا بسوف من تحيتها   سوف العيون لراح الركب قد قنع

وإن كثيرا من الأفعال مشتق من الحروف نحو قولهم : سألتك حاجة فلوليت

---

(١) الاشتقاق (أمين) ١٤٧، ١٤٨ .
(٢) الخصائص ١ / ٣٥٨ .
(٣) المصدر السابق ١ /٣٥٩ .
(٤) مقاييس اللغة ١ / ٣٢، ٣٣ .
(٥) الخصائص ٢ / ١٥٦، ٣ / ٢٣٠، ٢٣١ .
(٦) المصدر السابق ٢ / ١٦٥ .
(٧) المصدر السابق ١ / ٢٧٥، ٢٧٦، ٣ / ٢٢٧ وانظر: اللسان ١ / ٢٥ .

لى أى قلت لى: لولا وسألتك حاجة فلا ليت لى أى قلت لى: لا، واشتقوا أيضا المصدر من الحرف فقالوا اللالاة واللولاة.

ويقول ابن جنى «أنا أرى أن جميع تصرف (ن ع م) إنما هو من قولنا فى الجواب نعم من ذلك النعمة والنعمة والنعيم والتنعيم ونعمت به بالا وتنعم القوم والنعمى والنعماء وأنعمت به وكذلك البقية وذلك أن نعم أشرف الجوابين وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد[1] وقالوا بجلته أى قلت له بجل أى حسبك حيث انتهيت فلا غاية من بعدك ثم اشتقوا منه الشيخ البجال والرجل البجيل فنعم وبجل كما ترى حرفان وقد اشتق منهما أحرف كثيرة[2] وقالوا: هلممت إذا قلت هلم[3] وقالوا أيضا مرحبك الله ومسهلك[4] وغير ذلك كثير مما هو مشتق من الأصوات.

وقد وضح من هذا أن المحسوسات هى الأساس الأول الذى نبعت منه المشتقات ولذا نلحظ أن المصدر - كما قال ابن جنى - قد اشتق من المحسوس بل اشتق من أصوات الحروف كاللولاة واللالاة وقد مال ابن جنى إلى أخذه مادة (نعم) (وبجل) من الحرفين اللذين يعبران عن هذين الصوتين وقد أبقى العربى على حروف الكلمة الزائدة فى أثناء الاشتقاق لأنه لم يكن فى اعتباره المصدر أو الجذر الثلاثى وإنما كان الحس رائده فى ذلك، ثم لما ارتقى العقل البشرى ومنه العربى كانت التفرعات الكثيرة من هذه الأصول المحسوسة حتى وصل إلى أرقى المعاني الفكرية التجريدية.

وبهذا ترى - من واقع اللغة ومن القول المعتمد فى نشأة اللغات - وهو حكايتها عن الأصوات - أن مصدر الاشتقاق هو المحسوس وهذا هو التحقيق البعيد عن التمحل والافتعال وكان لعالمنا ابن جنى فضل كبير فى تقرير هذا الرأى واعتماده ولا غرو فهو عبقرى اللغويين وإمامهم.

* * *

---

(١) الخصائص ٢/ ٣٤، ٣٥، ٣٧، ويرى الأستاذ عبد الله أمين أن هذه المشتقات كلها مأخوذة من النعم وهى الابل.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٨.

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٢٨.

مفهوم الاشتقاق

ثبت - بالدليل - أن العربية من أرقى اللغات المتصرفة والتى اختصت بميزة الاشتقاق الذى يعد خير وسيلة من وسائل التصرف والواقع أن العربية تتميز بهذا النوع الذى يكثر فيها التوالد والنتاج.

ونبدأ - أولا - بمفهوم الأشتقاق عند النحويين والصرفيين لنقارنه برأى اللغويين فى هذا الشأن.

الاشتقاق عند النحويين:

هو أخذ شيء من المصدر ليدل على حدث وصاحبه فيشمل بهذا أربعة أنواع: اسم الفاعل - اسم المفعول - الصفة المشبهة - اسم التفضيل أما أسماء الزمان والمكان والآلة فهى من الجوامد(١).

الاشتقاق عند الصرفيين:

هو أخذ شيء من غيره ليدل على ذات وحدث له ارتباط بتلك الذات والمقصود بالارتباط اتصال ما سواء أكان على جهة الوقوع منها أو عليها أو فيها أو بواسطتها.

والمشتق - بهذا التحديد - يشمل اسم الفاعل - اسم المفعول - الصفة المشبهة - اسم التفضيل - اسم الزمان - اسم المكان - اسم الآلة.

والجمود ضد الاشتقاق، والجامد - على هذا - هو ما لم يؤخذ من غيره على الصفة السابقة، وذلك بأن يدل على ذات فقط مثل رجل وفرس أو معنى فقط مثل علم وشجاعة، وكأن المشتق بهذا المعنى متفرع عن الجامد، فكأنك تشقه وتستخرج منه معنى الأصل(٢).

---

(١) التبيان فى تصريف الأسماء ص١٨، ١٩ بتصرف، وهذا التعريف على المعتمد من مذهب البصريين الذين يجعلون أصل الاشتقاق المصدر، والتعريفات المذكورة للاشتقاق باعتبار العمل، وباعتبار العلم يقال فيه: علم يعرف به رد الكلمات بعضها إلى بعض بسبب قياسية اللفظ والمعنى. الاشتقاق وأثره فى اللغة العربية ص١٢ وانظر: مفتاح السعادة ١ / ١٣٠.

(٢) التبيان فى تصريف الأسماء ص٦٨، ٦٩ بتصرف.

الاشتقاق عند اللغويين:

هو أخذ شيء من غيره مطلقا، سواء دل على ذات وحدث معا أو لا، فيشمل المشتق – عندهم – المشتقات التى عرفت عند النحويين والصرفيين، كما يشمل نحو استنسر من النسر، واستحجر من الحجر، ومن الأول قولهم فى المثل:

إن البغاث بأرضنا يستنسره

وبهذا يتبين أن الاشتقاق اللغوى أعم من الصرفى، والنحوى، وإن كان عند الصرفيين أعم منه عند النحويين.

ولكن اللغوى هو الذى فتح المجال لزيادة الثروة اللغوية، وهو الذى يتمتع بسمات لها أهمية بالغة.

وإذا كان النحاة والصرفيون قد ضيقوا من دائرة الاشتقاق بتحديدهم إياه، وتكبيله بالقيود فإن اللغويين قد أطلقوه من عقاله، وأفسحوا له الطريق كما يشاء.

وقد نال الاشتقاق حظا وافرا من عناية العلماء لأنه يتناول مفردات اللغة ويزود «كل واحدة منها بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت ومتى وكيف صيغت، والتقلبات التى مرت بها».

وبذلك أمكن أن تقوم دراسة الاشتقاق على أساس أنه «علم تاريخى يحدد صيغة كل كلمة فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة مع التغيرات التى أصابتها من جهة المعنى، أو من جهة الاستعمال[1].

وقد أمكن للعلماء أن يتوصلوا فى تلك الدراسة إلى ألوانه المتعددة التى تتوارد عليها اللغة، فاشتقاق الألفاظ العربية ورد على صور عرفت عند العلماء بالاشتقاق الصغير، والكبير، والأكبر، وسنعرض لكل منها بالشرح والبيان.

وباعتبار انتظام القواعد وعدمها، قسموه إلى:

١– مطرد:

وهو المبنى على قواعد منتظمة كاشتقاق الأفعال، والصفات، من المصدر وهو من الصغير.

---

(١) اللغة ص ٢٦٦.

٢- غير مطرد:

وهو الاشتقاق من أسماء الأعيان كمذهب ومفضض من الذهب والفضة، وأبحر: ركب البحر، وليس لهذا النوع قاعدة يسير وفقها، وقد بدا لمجمع اللغة العربية كثرة استخدام العرب لهذا النوع من الاشتقاق، كما ظهر له شدة الحاجة إليه في العلوم والفنون فاتخذ قرارا باستخدامه وقياسيته عند الضرورة في العلوم والفنون(١).

«وينبغي أن يعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا واتصالا شديدا لأن التصريف إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه مثال ذلك إن تأتي إلى «ضرب» فتبني منه مثل «جعفر» فتقول: «ضربب» ومثل «قمطر»: (ضرب) ومثل درهم (ضربب) ومثل (علم) (ضرب) ومثل (ظرف): ضرب أفلا ترى إلى تصريفك الكلمة على وجوه كثيرة وكذلك الاشتقاق أيضا ألا ترى أنك تجيء إلى الضرب الذي هو المصدر فتشتق منه الماضي فتقول «ضرب» ثم تشتق منه المضارع فتقول «يضرب» ثم تقول في اسم الفاعل «ضارب» وعلى هذا ما أشبه هذه الكلمة أولا ترى إلى قول رؤبة في وصفه امرأة بكثرة الصخب والخصومة: (تشتق في الباطل منها الممتذق) وهذا كقولك: تتصرف في الباطل أي تأخذ في ضروبه وأفانينه فمن ههنا تقاربا واشتبكا إلا أن التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف»(٢)، فالاشتقاق له صلة قوية بعلم الصرف فهما «مقترنان وأحدهما طريق إلى معرفة الآخر فقد تكون معرفة وزن الكلمة طريقا إلى معرفة أصل مادتها الاشتقاقية إذا كان الوزن فيها أظهر من مادة الاشتقاق مثل الاضطراب والاصطفاء فيفهم من الوزن الافتعال أنه من ضرب وصفا - بفتح الضاد والراء والصاد والفاء - وقد تكون معرفة الأصل الاشتقاقي طريقا لمعرفة الوزن والبناء وسبيلا للتفريق بين الأوزان المتشابهة مع أنها في الحقيقة مختلفة مثل المناعة والمجاعة فهما من منع وجاع ووزنهما إذا فعالة ومفعلة وهكذا»(٣).

---

(١) فقه اللغة د. نجا ٣/٤٩.

(٢) المنصف ١/٣، ٤ والفرق الجوهري بين الاشتقاق والصرف أن الأول يبحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بسبب مناسبة بين المخرج والخارج بالأصالة والفرعية وباعتبار جوهرها ويبحث في الصرف أيضا عن الأصالة والفرعية بين الكلم ولكن لا بحسب الجوهرية بل بحسب الهيئة. مفتاح السعادة ١/١٣٠.

(٣) فقه اللغة للمبارك ١٢٧

ومن هنا كانت معرفة الاشتقاق أمرا مهما لفهم اللغة وعلى أساس هذا التقارب بينه وبين التصريف يجب أن تقوم الدراسة الوطيدة المؤلفة بينهما حتى يمكن الأمن من الزلل وقد أورد ابن جنى فى خصائصه بعض سقطات العلماء التى تتعلق بعدم فهم أصل المادة التى اشتقت منها الكلمة وبناء الوزن الصرفى على غيرها، يقول: ذهب أبو العباس أحمد بن يحيى فى قولهم أسكفة الباب إلى أنها من قولهم استكف أى اجتمع وهذا أمر ظاهر الشناعة وذلك أن أسكفة أفعلة والسين فيها فاء وتركيبه من (س ك ف) وأما استكف فسينه زائدة لأنه استفعل وتركيبه من (ك ف ف) فأين هذان الأصلان حتى يجمعا ويدانى من شملهما ولو كانت أسكفة من استكف لكانت أسفعلة وهذا مثال لم يطرق فكرا ولا شاعر – فيما علمناه – قلبا، وكذلك ذهب أبو عبيدة فى قولهم لى عن هذا الأمر مندوحة أى متسع إلى أنه من قولهم انداح بطنه أى اتسع وليس هذا من غلط أهل الصناعة وذلك أن انداح انفعل وتركيبه من دوح ومندوحة مفعولة وهى من تركيب (ندح) والندح جانب الجبل وطرفه وهو إلى السعة وجمعه أنداح أفلا ترى إلى هذين الأصلين تباينا وتباعدا فكيف يجوز أن يشتق أحدهما من صاحبه على بعد بينهما وتعادى وضعهما. . . ولو كانت مندوحة من انداح بطنه – كما ذهب إليه أبو عبيدة – لكانت منفعلة وهذا أيضا فى البعد والفحش كأسفعله [1].

ويصحح ابن جنى على أساس الاشتقاق بعض الجموع فيقول وأما مسيل فذهب بعضهم فى قولهم فى جمعه أمسلة إلى أنه من باب الغلط ذلك لأنه أخذه من سال يسيل فهو عندهم على مفعل كالمسير والمحيض وهو عندنا غير غلط لأنهم قد قالوا فيه مسل وهذا يشهد بكون الميم فاء فأمسلة ومسلان: أفعلة وفعلان كأجربة وجربان ولو كانت أمسلة ومسلان من السيل لكان مثالهما أمفلة ومفلان والعين منهما محذوفة وهى ياء السيل وكذلك قال بعضهم فى معين لأنه أخذه من العين لأنه من ماء العيون فحمله على الغلط لأنهم قد قالوا قد سالت معناته وإنما هو عندنا من قولهم أمعن له بحقه إذا طاع له به وكذلك الماء إذا جرى

---

(١) الخصائص ٣ / ٢٨٣، ٢٨٤.

من العين فقد أمعن بنفسه وطاع بها ومنه الماعون لانه ما من العادة المسامحة به والانقياد إلى فعله [١].

ومعرفة القلب فى اللغة والصرف ينشأ عن معرفة الأصل الاشتقاقى وقد تفلسف ابن جنى فى إبراز عدة أوزان صرفية لكلمة (تيهورة) وهى القطعة الصعبة من الرمل فقال : يجوز أن يكون وزنها فيعولة ثم صارت عيفولة أو تعفولة أو يفعولة وذلك كله على أساس أنها مأخوذة من تهور الجرف وانهار الرمل ونحوه[٢]، ويقول : وقد دعانا إلى اعتقاد القلب والتحريف فى هذه الكلمة المعنى المتقاضيته هى وذلك أن الرمل مما ينهار ويتهور ويهور ويهير ويتهير[٣].

وعلى ذلك فالاشتقاق والصرف لهما علاقة وثيقة تكشف عن صلات الألفاظ وتصرفاتها وتحدد معالمها « ولم يأخذ العلماء فى تأسيس الصوتيات والصرف المقارنين إلا بفضل ما وصل إليه الاشتقاق من نتائج والاشتقاق والصوتيات والصرف يسند بعضها بعضا فما دامت القواعد التى يجرى عليها تتابع الأصوات والصيغ النحوية فى صورة الاشتقاق فإن هذا الاشتقاق الذى يطبقها تطبيقا صحيحا يقدم لعلم اللغة أجدى المساعدات »[٤]، « والاشتقاق والتصريف حادثان فى اللغة ويتبعان كل أمة حسب بيئاتها والأصل فى دلالة الألفاظ أن تكون بسيطة ثم تتنوع دلالة وتتكاثر لفظا بمقدار درجة ارتقاء تلك اللغة، فإذا صحت هذه المقدمة ينتج أن العربية من أرقى اللغات بيانا »[٥].

* * *

---

(١) الخصائص ٣ / ٢٧٩ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٧٩ - ٨١ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٨١ .
(٤) اللغة ٢٢٦ .
(٥) الفلسفة اللغوية ٦٥ .

الباحثون فيه

لا غرو بعد أن بينا صورة الاشتقاق وأقسامه اللغوية وصلته بالصرف أن يخوض فيه علماء العربية بشتى بحوثهم صرفية ولغوية لما له من أهمية كبيرة شغلت بالهم واستولت على ألبابهم.

ومنذ بدء البحث اللغوى والعلماء بتناولون هذا الموضوع ويؤلفون فيه وقد «أفرد الاشتقاق بالتالف جماعة من المتقدمين منهم الأصمعى وقطرب وأبو الحسن الأخفش وأبو نصر الباهلى والمفضل بن سلمة والمبرد وابن دريد والزجاج وابن السراج والرمانى والنحاس وابن خالويه»[1]، وقد كان النجاح الكبير لفكرة الاشتقاق – كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون – على يد ابن دريد بتأليفه كتاب الاشتقاق وثناه ابن فارس بتاليف المقاييس»[2]، فقد قصد ابن دريد بكتابه الاشتقاق « دراسة العلاقة بين الأسماء ومسمياتها وأصول هذه الأسماء ويمكن عده بحثا من البحوث اللغوية التى تنتمى إلى الدراسات المعروفة فى الانجليزية بـ onomastic (وموضوعها البحث فى الأعلام وأصولها كأعلام الأشخاص والقبائل والجبال والأنهار ونحوها) وهذه الدراسات تعامل فى علم اللغة على أنها مبحث من مباحث «علم تاريخ الكلمات وأصولها etymoligy كما أنها تتصل من قريب أو بعيد بدراسة المعجمات ولها علاقة كذلك بفلسفة اللغة » [3]، وكتاب ابن دريد فى الاشتقاق يتضمن ما يأتى :

١– الاشتقاق اللغوى لأسماء القبائل والرجال.

٢– بسط القول فى المادة اللغوية التى اشتقت منها هذه الأسماء.

٣– تفسير الآثار الدينية والأدبية التى تمت بصلة إلى تلك المواد.

٤– بيان أنساب قبائل العرب وبطونها وأفخادها وتشعب بعضها من بعض.

٥– إمداد الباحث بكثير من المعارف التاريخية النادرةالتى تتعلق بقبائل العرب ورجالها.

---

(١) المزهر ١٦٦١، ١٦٧. (٢) من مقدمة المحقق لكتاب معجم مقاييس اللغة ٢٤.

(٣) قضايا لغوية ص٣.

ونورد هنا بعض أمثلة من طريقة الكتاب فمثلا يقول: أم قصي: فاطمة وقد مر ذكرها بنت سهل بن حمالة من أزد شنوءة وسترى تفسيره في موضعه إن شاء الله وأم فاطمة سودة بنت عمرو بن تميم وسودة مشتق من قولهم أرض سودة إذا كانت سوداء في سفح جبل (١)، ويقول: ومنهم بنو ضبيس وضبيس فعيل من قولهم رجل ضبيس إذا كان سيء الخلق (٢).

وقد طرق عالمنا ابن جني هذا الباب في كتابه المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة فقد استخدم طبيعة الاشتقاق والمعنى الذي تدور حوله المادة في تحليل أسماء هؤلاء الشعراء كما هو عند ابن دريد في اشتقاق أسماء القبائل والرجال وقد ذكرنا أمثلة لذلك في حديثنا عن مؤلفاته في رسالتنا للدكتوراه (٣)، وفي كتاب معجم البلدان اشتقاق لأسماء البلاد على نحو ما فعل ابن دريد كما في إربد والأردن وغيرها وفي مقدمة الكتاب يقول المؤلف ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربيا ومعناه إن أحطت به علما إن كان أعجميا (٤) أما كتاب معجم مقاييس اللغة لابن فارس فيتناول حديث الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر وقد برز في ذلك وهو صاحب فكرة النحت في الرباعي والخماسي وإجرائها بطريق واسع، وسيأتي بسط الحديث عن ذلك.

أما عالمنا العبقري ابن جني وأستاذه أبو علي الفارسي فيقفان على رأس هؤلاء جميعا لابتداعهما فكرة الاشتقاق الكبير والأكبر «وصعودهما درجةفوق هذا بإذاعة قاعدة الاشتقاق الكبير التي تجعل للمادة الواحدة أصلا أو أصولا ترجع إليها» (٥)، وقد ولع ابن جني – كما قلنا سابقا – أكثر من غيره بالاشتقاق واتخاذه طريق البحث اللغوي بل لقد بنى عالمنا مؤلفاته وأهمها الخصائص وسر

---

(١) الاشتقاق لابن دريد ٤٠. (٢) المصدر السابق ٤٧٣.

(٣) المبهج ١٤، ١٧، ٣١، ٦٩ وغيرها وانظر: الرسالة ص١٧٦، ١٧٧ في حديثه عن الفند الزماني شهل بن شيبان يقول: سمي الرجل الفند – بكسر الفاء – لعظم خلقته تشبيها بفند الجبل، وهو قطعة منه، واسمه شهل فهو لقب له، وأما زمان – بكسر الزاي وتشديد الميم – فيحتمل أن يكون من باب زممت الناقة فيكون فعلان من ذلك، ويحتمل أن يكون فعالا من الزمن والأول أعلى عندنا.. إلخ.

(٤) معجم البلدان ١/١٨٦، ٢٠٠، ٢٠١. (٥) مقدمة المقاييس للمحقق ٢٤.

الصناعة على أساس الاشتقاق فالدلالة طريقها الاشتقاق وأصالة الحروف وزيادتها وترتيبها واتصالها بمعانيها وتصحيح الأوضاع اللغوية للألفاظ والتراكيب كل ذلك منهجه هو الاشتقاق، ويمكن للباحث أن يدرك اهتمامه الكبير بالاشتقاق وبخاصة ما ابتكره منه وهو ما سماه بالأكبر ويسميه غيره بالكبير على ما سنبين بعد يدرك الباحث ذلك من أول صحائف كتابه الخصائص فقد ابتدأه بحديثه عن القول والكلام وتصرفهما على طريقة التقليب الاشتقاقي والمستعمل منهما والمهمل وأثبت أن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة ومعنى (ك ل م) حيث تقلبت الدلالة على القوة والشدة ويقول منوها بذكره إن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه وستراه فتجده طريقا غريبا ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا[١].

ومعنى أنه يفتتح كتابا كالخصائص بذلك أنه ماض فى هذا الطريق لما له من أهمية لغوية أدرك سرها الكامن وراء تلك اللغة التى استولت على لبه وطغت على كل تفكيره بعبقريتها وسموها.

ولو سرنا بعض خطوات داخل الكتاب لوجدنا أنه ينحو هذا المنحى الاشتقاقى لولوعه به وابتداعه له فهو يعرف النحو بأنه « انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره » ثم يقول وهو فى الأصل مصدر شائع أى نحوت نحوا كقولك قصدت قصدا ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم كما أن الفقه فى الأصل مصدر فقهت الشىء أى عرفته ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم »[٢]، ويؤيدنا فى ذلك الأستاذ على النجدى ناصف إذ يقول « وما أحسب ابن جنى بذلك يريد أن يعرف النحو وإنما يريد أن يبين اشتقاق لفظه وسبب التسمية به. . وحديثه عن كلمة نحو حديث من يدرس الكلمة ويؤرخ تطورها وإلا فما باله يقرنها إلى كلمة الفقه ويشبهها بها فى الاشتقاق والتسمية وما للتعريفات وأمثال هذا التحليل والبحث » [٣].

---

(١) الخصائص ١ /٥، ١٣.　　(٢) المصدر السابق ١ /٣٤.

(٣) سيبويه إمام النحاة ١٣٥، ١٣٦.

وكذلك سلك فى بيان الإعراب طريق الاشتقاق فقال : هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ ثم ذكر أن لفظه « مصدر أعربت عن الشىء إذا أوضحت عنه وفلان معرب عما فى نفسه أى مبين له وموضح عنه ومنه عربت الفرس تعريبا إذا بزغته وذلك أن تنسف أسفل حافره ومعناه أنه بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره إلى مرآة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو وأصحيح هو أم سقيم؟ وغير ذلك، وأصل هذا كله قولهم العرب وذلك لما يعزى إليها من الفصاحة والإعراب والبيان[1]، ويذكر أن البناء الذى هو لزوم آخر الكلمة ضربا واحدا من السكون والحركة قد أوقع على هذا الضرب من المستعملات المزالة من مكان إلى مكان تشبيها لذلك من حيث كان مسكونا وحاجزا ومظلا بالبناء من الآجر والطين والجص. . وهذا المعنى قد لوحظ فى قولهم قد بنى فلان بأهله. . . ويستعار للمجد والشرف قال لبيد :

فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه   فسما إليه كهلها وغلامها [2]

وهذا وغيره يؤكد أن عالمنا ابن جنى لا يقصد المعانى النحوية التى حددها العلماء وإنما يقصد شرح اشتقاقاتها واستعمالاتها اللغوية ودلالاتها التى تتعلق بالمعنى واتصال الألفاظ بعضها ببعض من هذه الناحية وهذا العالم العبقرى يشير بتلك المقدمات إلى سلوكه سبيل الاشتقاق واعتماده عليه فى دراسته، وقد اكتشف عالمنا أغوار اللغة من هذه الناحية وشرح نواحى بارعة من الاشتقاق وعقد فصولا من خصائصه للإبانة عنه، وكانت لعالمنا خطوات موفقة أثبت بها سمو لغتنا وانفرد بها عن غيره من الباحثين اللغويين، وقد اعترف المحدثون بابتكارات ابن جنى فى هذا الميدان وأنواعه المختلفة الصغير والكبير والأكبر وتلاه غيره من العلماء وأفاد منه.

* * *

---

(١) الخصائص ١ /٣٥، ٣٦.　　(٢) المصدر السابق ١ /٣٧، ٣٩.

أقسام الاشتقاق

الاشتقاق الصغير

تعريفه:

هو ما اتحد فيه المشتق والمشتق منه حروفا وترتيبا كأكل من الأكل واستنسر من النسر [١].

وفي المزهر أنه «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة كضارب من ضرب وحذر من حذر» [٢].

وبذلك يشترط لصحة الاشتقاق بهذا المعنى:

١- الاشتراك في عدد من الحروف، وهي في اللغة العربية ثلاثة.

٢- أن تكون هذه الحروف مرتبة ترتيبا واحدا في هذه الألفاظ.

٣- أن يكون بين هذه الألفاظ قدر مشترك من المعنى ولو على تقدير الأصل [٣].

ويشمل هذا النوع من الاشتقاق:

(أ) المشتقات المعروفة عند الصرفيين، وهي الأفعال، وأسماء الفاعلين، والمفعولين. . . إلخ.

(ب) الاشتقاق من أسماء الأعيان كمذهب ومفضض واستنسر البغات، وقد أقره مجمع اللغة العربية للضرورة في العلوم [٤].

(جـ) المصدر الصناعي مثل جاهلية وألوهية، وقد أقره المجمع كذلك [٥].

(د) قرابة فعل من أفعال المادة الواحدة وتصاريفه لفعل آخر وتصاريفه من

---

(١) فقه اللغة د. نجا ٣/ ٣٩.
(٢) المزهر ١/ ١٦٤.
(٣) فقه اللغة للمبارك ٦١.
(٤) مجلة المجمع ١/ ٣٦، ٢٣٢ – ٢٦٨.
(٥) المصدر السابق ١/ ٣٥، ١١ – ٢١٥.

أفعال المادة نفسها وهو الاشتقاق الذى فطن له ابن جنى، وفطن له معاصره أحمد ابن فارس[١].

فابن جنى يقول: الاشتقاق عندى على ضربين كبير وصغير، فالصغير ما فى أيدى الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلا من الأصول، فتتقراه، فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه نحو: سلم ويسلم، وسالم، وسلمان وسلمى، والسلامة والسليم: اللديغ، أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة[٢] وكذلك: أسلم يسلم أسلم، واستسلم يستسلم استسلم – فى الماضى والمضارع والأمر ومسلم ومستسلم.. إلخ.

ويقول ابن فارس فى المقاييس (مادة أ ث):

هذا باب يتفرع من الاجتماع واللين، وهو أصل واحد، وقال ابن دريد: أث النبت أثا: إذا كثر، ونبت أثيث، وكل شىء موطأ: أثبت، وأثاث البيت من هذا، ويقال نساء أثائث: وثيرات اللحم[٣].

وفى مادة (بأس) يقول:

الباء والهمزة والسين أصل واحد: الشدة وما ضارعها فالبأس الشدة فى الحرب ورجل ذو بأس وبئيس أى شجاع، وقد بأس بأسا، فإن نعته بالبؤس قلت بؤس، والبؤس: الشدة فى العيش[٤].

والمادة اللغوية – بذلك – تدور حول معنى عام واحد.

وقد حاول ابن فارس أن يرجع بعض المواد إلى معنيين أو أكثر تدور حولها المادة الواحدة، ولكن يمكن رد المعنيين أو المعانى إلى معنى واحد.

فهو يرى أن العين والراء والفاء (مادة عرف) ترجع إلى أصلين صحيحين يدل أحدهما على تتابع الشىء متصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة[٥].

---

(١) مقدمة الاشتقاق لابن دريد لمحققه الأستاذ عبد السلام هارون.

(٢) الخصائص ٢/١٣٣، ١٣٤.

(٣) ١/٨.

(٤) ١/٣٢٨.

(٥) دراسات فى فقه اللغة ١٩١ – ١٩٣.

فالأصل الأول :

العرف : عرف الفرس، وسمى بذلك لتتابع الشعر عليه، ويقال : جاءت القطا عرفا عرفا أى بعضها خلف بعض، ومن الباب : العُرفة - بضم العين - وجمعها عُرف - بضم العين وفتح الراء - وهى أرض منقادة مرتفعة بين سهلتين تنبت كأنها عرف فرس .

والأصل الآخر :

المعرفة والعرفان : تقول : عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة، وهذا أمر معروف، وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه لأن من أنكر شيئا توحش منه، ونبا عنه .

ومن الباب : العرف وهى الرائحة الطيبة، وهى القياس لأن النفس تسكن اليها، يقال : ما أطيب عرفه، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ أى طيبها .

والعُرف - بضم العين - المعروف، وسمى بذلك لأن النفوس تسكن إليه قال النابغة :

أبى الله إلا عدله ووفاءه

فلا النكر معروف ولا العرف ضائع[(1)]

ويبدو - فى الواقع - أن هذا يرجع إلى أصل واحد لا إلى أصلين، فقد أدخل فى الأصل الأول (التتابع) : عرف الفرس ومجىء القطا عرفا عرفا، ورد إلى عرف الفرس العرفة .

واستشهد على الأصل الثانى بكلمات : المعرفة - العرفان - العَرف - بفتح العين - العُرف - بضمها - المعروف - عرف - عرف - بتضعيف الراء - تعريف الضالة واللقطة - الاعتراف به، مع أن الأربعة الأولى من الكلمات التى استشهد بها على الأصل الثانى يمكن رجوعها إلى الأصل الأول وهو التتابع، ومن الممكن رد الأصل الأول إلى الثانى بحيث ينشأ الثانى عن الأول، فمعنى السكون والطمأنينة ما هو إلا نتيجة لانكشاف الشىء وظهوره، فانكشاف الشىء وظهوره يمكن أن يكون هو الأصل الذى يرجع إليه الجميع [(2)] .

---

(١) المقاييس ٤ / ٢٨١ .   (٢) انظر : دراسات فى فقه اللغة ١٩١ - ١٩٣ .

وهكذا ترجع المشتقات فى العربية إلى أصل واحد يحقق لها ميزة الحفاظ على الربط بين أفراد الأسرة اللغوية دون غيرها من سائر اللغات الأخرى وإن توافر ذلك فى بعض مواد اللغات الأجنبية فإننا نلاحظ أنه إذا حدث لكلمة من كلمات الأسرة الرئيسية تحول فى معناها جذبت معها الكلمات الأخرى إلى المعنى الجديد فلما تخصصت كلمة habit ومعناها (حالة، هيئة) فى معنى اللباس أصاب الفعل habiller « الوضع فى هيئة ما » نفس التخصص وهاتان الكلمتان جذبتا إليهما مشتقاتهما ومركباتهما habilleur « من يلبس » و habillement « الإلباس » و deshabiller « انتزاع الملابس » إلخ والكلمتان pondre أو ponte تحولت كلتاهما فى وقت واحد من فكرة « الوضع » عامة إلى فكرة وضع البيض فى الكلام عن طائر أنثى فالإحساس بالأسرة اللغوية أمسك هذه الكلمات مجتمعة (١).

وبذلك نرى أن هذا المعنى العام الذى تدور حوله المادة قد يتغير باختلاف العصور من عموم إلى خصوص أو العكس أو ينتقل إلى معنى مجاور وقد يجتمع المعنى القديم والحديث فى المادة وقد يهمل القديم فيصبح أصلا تاريخيا ويبقى المعنى الجديد والإفاضة فى ذلك الموضوع من اختصاص بحث تطور معانى الألفاظ(٢)، والمادة المشتقة تدل على المعنى الأصلى وشىء آخر زائد(٣) كما هو مأخوذ من قول السيوطى بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة فالحركات قد تختلف عن الأصل فتسبب زيادة فى المعنى واختلافا وكذلك قد تضاف حروف على الأصل فتسبب هذا التنوع المعنوى « وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هى أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروف غالبا كضرب فإنه دال على مطلق الضرب فقط أما ضارب ومضروب ويضرب واضرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفا وضرب الماضى مساو حروفا وأكثر دلالة وكلها مشتركة فى ضرب وفى هيئة تركيبها(٤)، « فالأصوات الثلاثة الأصلية تصب فى قوالب معلومة وتصاغ فى أشكال محدودة لأداء أنواع المعنى الواحد . . وهذه القوالب أو الأشكال هى المعروفة فى اللغة بالأبنية أو الأوزان »(٥) وإن المادة الاشتقاقية والبناء

---

(١) اللغة ٢٥٠ .
(٢) فقه اللغة للمبارك ٥٩ .
(٣) المصدر السابق ٥٨ .
(٤) المزهر ١ / ١٦٤ .
(٥) فقه اللغة للمبارك ٥٧ .

أو الصيغة باجتماعهما فى الكلمة العربية يعطيان اللغة العربية مزية المشابهة للطبيعة فى أبرز خصائصها التى اكتشفها العلماء ذلك أن فى الطبيعة تشابها ونمطية من جهة وذاتية واختلافا من جهة أخرى فإن ما فيها من الأشياء على اختلافها تتماثل أو تتشابه إذ ترجع إلى أنواع وفصائل تتشابه أفراد كل نوع أو فصيلة فى تركيبها وشكلها ولكن هذه الأشياء المتشابهة نفسها تختلف فيكون لكل منها ذاتية متميزة وكذلك ألفاظ العربية فهى متشابهة في صيغها ومتنوعة فى أصولها الاشتقاقية بما يجعل لها نوعية خاصة تميزها وتجعل لكل كلمة من مجموع المادة الواحدة حياة خاصة تكون ذاتيتها الفردية [1].

ومن هنا كانت للاشتقاق الصغير أهمية كبيرة فى التجديد وتنويع المعنى[2].

الاشتقاق الكبير

تعريفه:

ما اتحد فيه المشتق والمشتق منه فى الحروف واختلفا فى الترتيب، وهو المعروف عند الصرفيين بالقلب المكانى مثل جال وجلا، وركب وكبر[3].

وحده السيوطى بقوله: ما يحفظ فيه المادة دون الهيئة نحو قول وقل إلخ[4].

ويوضحه ابن جنى بقوله: وأما الاشتقاق الأكبر[5] فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه رد بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد.

فمن ذلك تقليب (ج ب ر) فهى أين وقعت للقوة والشدة منها (جبرت العظم والفقير) إذا قويتهما وشددت منهما، و(الجبر) الملك لقوته وتقويته لغيره، ومنها رجل (مجرب) إذا جرسته الأمور ونجذته فقويت منته واشتدت

---

(١) المصدر السابق ١٢٨ ببعض التصرف. (٢) المصدر السابق ٦٢.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٣/٤٩. (٤) المزهر ١/١٦٤.

(٥) هو ما نسميه بالكبير.

شكيمته، ومنه (الجراب) لأنه يحفظ ما فيه وإذا حفظ الشيء وروعى اشتد وقوى، ومنها (الأبجر) و(البجرة) وهو القوى السرة، ومنه (البرج) لقوته فى نفسه وقوة ما يليه به، وكذلك (البرَج) - بفتح الراء - لنقاء بياض العين وصفاء سوادها هو قوة أمرها، وأنه ليس بلون مستضعف، ومنها (رجبت) الرجل إذا عظمته وقويت أمره ومنه (رجب) لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، وإذا كرمت النخلة على أهلها فمالت دعموها بـ (الرجبة) وهو شيء تسند إليه لتقوى به، (والراجبة) أحد فصوص الأصابع، وهى مقوية لها، ومنها (الرباجى) وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله لأنه يعظم نفسه ويقوى أمره(1).

والواقع أن المواد تعطى تقاليب مختلفة فى عددها، تبعا لعدد حروفها الأصلية وقد صرح الخليل: بأن الثنائى يعطى تقليبا واحدا، فيكون لفظين اثنين، والثلاثى يعطى ستة، والرباعى يعطى أربعة وعشرين والخماسى مائة وعشرين تقليبا، والقليل منها هو المستعمل والمهمل كثير(2).

وأكثر الأمثلة التى قلبت هذا القلب اللغوى على طريقة الاشتقاق الكبير ثلاثية الأحرف وقد وردت صور من القلب فى الثلاثى المزيد مثل أذهب فى مشيته وأهبذ وأشفى على الأمر وأشاف عليه، وفى الرباعى المجرد مثل هجهجت السبع وجهجهت: صحت به وزجرته وبكبكت الشيء طرحت بعضه على بعض وفى الرباعى المزيد اضمحل الشيء وامضحل والسحاب المكفهر والمكرهف وفى الخماسى مثل زبرجد وزبردج وإن كان الأخير نادرا(3).

وجعل المادة بتقلباتها تلتقى حول معنى واحد يقتضى بعض التصرف الذهنى واللغوى وكما يقول ابن جنى: «فهذه الطرائق التى نحن فيها حزنة المذاهب والتورد لها وعر المسالك»(4).

وقد ناقشه الدكتور الصالح فى معانى (ج ب ر) وتقلباتها واتهمه بأنه (أخرج اللغة التى يعشقها، ويؤمن بسحر ألفاظها إذ أجاءها إلى مضيق كبح فيه

---

(1) الخصائص ١٣٤٢ - ١٣٦. (2) العين ١/٦٦ والخصائص ١/١٣٨، ١٣٩.
(3) الاشتقاق (أمين) ص ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٨ والمزهر ١/٢٢٩ والخصائص ٢/٧٣.
(4) الخصائص ١/١١.

أنفاسها وحبس قواها من التفلت والانطلاق ألا وهو مضيق الاشتقاق الكبير الذى سماه هو الاشتقاق الأكبر)[١].

ومن التناقض أن يتهم الدكتور الصالح ابن جنى فى الوقت الذى يصفه فيه بأنه يترفق فى الاشتقاق الكبير ولا يبالغ[٢] ويصفه كذلك بالاعتدال[٣] ويعترف بأن له العذر فيما قال وأنه يتساءل فيحسن الجواب وأن بحث الاشتقاق الكبير يؤتى ثمره إلى اليوم[٤].

وقد أنكر الدكتور أنيس الاشتقاق الكبير فقال : « فإذا كان ابن جنى قد استطاع فى مشقة وعنت أن يسوق لنا للبرهنة على ما يزعم بعض مواد من كل مواد اللغة التى يقال إنها فى جمهرة ابن دريد تصل إلى أربعين ألفا وفى معجم لسان العرب تكاد تصل إلى ثمانين ألفا فليس يكفى مثل هذا القدر الضئيل المتكلف لإثبات ما يسمى بالاشتقاق الكبير »[٥] وقال إنه ليس له أثر فى تنمية الألفاظ[٦].

ويبدو – كما قال الأستاذ العلايلى – تحقق هذه الظاهرة فى الكلام العربى بحيث تعد طبيعة عربية لا تكلف فيها، فقد « جعل العربى القلب محور الوضع ثم اجتهد فى تنظيم قاعدة المقاليب والوضع على اعتبارها ولقد تأتى له استخلاص قاعدة موزونة جدا »[٧] « والقاعدة تقضى بوجود جامع معنوى بين المقاليب.. ومن هذا نعلم أن الواضع القديم كان يحرر التشابه بين المسميات ليضع لها أسماء من مادة تتوافق فى مفاهيمها التى هى (ملاحظة الوضع) وإن تخالفت فى الماصدقات وأن مقدار الثروة العظيمة التى حازتها العربية إنما كانت من عمل القلب فقط على حين كان عمل الإبدال وما إليه فى جانبه نزرا يسيرا »[٨] « ويعجب الباحث العلمى أشد العجب حين يقف على هذا الوضع المكتمل الملاحظة والذى لا يقع على مثله فى أية لغة عصرية على سموها العلمى واقتعادها اللغوى »[٩] ويمكن أن يستفاد من قاعدة المقاليب الستة ما يأتى :

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ٢٢٢ .
(٢) المصدر السابق ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق ٢٠٧ .
(٤) المصدر السابق ٢٣٣، ٢٣٤ .
(٥) من أسرار اللغة ٥٢ .
(٦) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٦ .
(٧) مقدمة لدرس لغة العرب ١٤٨ .
(٨) المصدر السابق ١٤٩ .
(٩) المصدر السابق ١٥٠ .

١- تصحيح المعاجم بتحقيق الوحدات بين مختلف المواد.

٢- الوقوف على الممات وعلى الدخيل.

٣- اعتماد الجامعة المعنوية بين مواد الثلاثي كاعتمادها بين مفردات كل مادة.

٤- وهي نتيجة النتائج أن نأخذ بالوضع الجديد على مقتضاها لنسد نقص اللغة ونكفي حاجتها »[١].

ويقول ابن جني: إن احتذاءه وتقيله « يكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله وإن استرفاده في بعض الحاجة إليه يعينك ويأخذ بيدك ألا ترى أن أبا على رحمه الله كان يقوى كون لام (أثفية) فيمن جعلها أفعولة واوا بقولهم جاء يثفه ويقول: « هذا من الواو لا محالة كيعده فيرجح بذلك الواو على الياء التى ساوقتها في يثفوه ويثفيه أفلا ترى كيف استعان على لام ثفا بفاء وثف وإنما ذلك لأنها مادة واحدة شكلت على صور مختلفة فكأنها لفظة واحدة، وقلت مرة للمتنبي: أراك تستعمل فى شعرك ذا وتا وذى كثيراً ففكر شيئا ثم قال: إن هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد، فقلت له: أجل لكن المادة واحدة، فأمسك البتة والشيء يذكر لنظيره فإن المعاني وإن اختلفت معنياتها آوية إلى مضجع غير مقض وآخذ بعضها برقاب بعض »[٢].

صحيح أن من اللغويين من تعسف سواء فى هذا الاشتقاق أو فى غيره إلى حد غير مقبول « كما زعم الزجاج بأن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وإن نقص حروف إحداهما عن حروف الأخرى فإن إحداهما مشتقة من الأخرى فتقول: الرحل مشتق من الرحيل والثور إنما سمى ثورا لأنه يثير الأرض والثوب إنما سمى ثوبا لأنه ثاب أى رجع لباسا بعد أن كان غزلا »[٣] ولكن ذلك لا يؤدى إلى أن نحكم على كل لون اشتقاقى بأنه متكلف أو أن « نحكم على القلب اللغوى بقلة الجدوى وأن نرى كل ما فى الاشتقاق الكبير من عبث الهواة »[٤].

فالموضوع له أهميته وابن جنى لم يدع أنه لا يتخلف فى مادة واحدة « فهذا

---

(١) المصدر السابق ٢٠٨.
(٢) الخصائص ٢/١٣٩، ١/١١.
(٣) المزهر ط صبيح ١/٢٠٦.
(٤) دراسات فى فقه اللغة ٢٣٣.

وإن لم يطرد وينقد فى كل أصل فالعذر على كل حال فيه أبين منه فى الأصل الواحد من غير تقليب لشيء من حروفه فإذا جاز أن يخرج بعض الأصل الواحد من أن تنتظمه قضية الاشتقاق له كان فيما تقلبت أصوله فاؤه وعينه ولامه أسهل والمعذرة فيه أوضح، وعلى أنك إن أنعمت النظر ولا طفته وتركت الضجر وتحاميته لم تكد تعدم قرب بعض من بعض وإذا تأملت ذاك وجدته بإذن الله[١] فلا يجب أن يستنكر ولا يستبعد[٢].

« وإننى – مع ما يبدو فى رأى ابن جنى من بعض المبالغة – أرى – على حد تعبير الدكتور المبارك – ضرورة ولوج هذا الباب واستشراف آفاق العربية البعيدة من هذا المرتفع[٣].

الاشتقاق الأكبر

تعريفه:

هو: ما اتحد فيه المشتق والمشتق منه فى بعض الحروف واختلفا فى الباقى وكان المختلف فيه متحدا مخرجا أو صفة[٤].

وقد أفاض ابن جنى فى شرحه للاشتقاق الأكبر[٥] ورتب عليه نتائج مهمة من دوران المادة حول معنى واحد، بتنوع الحروف المتبادلة، ومناسبتها لمعانيها الموضوعة لها.

فمن الأول: سد وصد – بفتح السين وضم الصاد – فالسين والصاد من مخرج واحد، هو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى، ومتفقان فى معظم الصفات، واللفظان يدلان على معنى واحد هو الحاجز، ولكنه يختلف قوة

---

(١) الخصائص ٢/١٢، ١٣.
(٢) المصدر السابق ١/١١.
(٣) فقه اللغة للمبارك ٨٨.
(٤) فقه اللغة د. نجا ٣/٤٩.
(٥) خصص ابن جنى اسم (الاشتقاق الأكبر) بالاشتقاق الكبير وجعل حديثه عن (الأكبر) تحت عنوان (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى)، و(إمساس الألفاظ أشباه المعانى) وقد تناول الموضوع أيضا ابن فارس معاصرة ولم يسمه بذلك، بل جعل بحثه خاصا ببيان دوران المواد الثلاثية حول معنى واحد أو أكثر يتنوع تبعا للحرف الثالث، ثم جاء من علماء الطبقة الثالثة الحاتمى الذى أطلق عليه اسم « الاشتقاق الأكبر » المفتاح ص٧.

وضعفا مما جعل الحرفين يختلفان، فالسد للباب يسد والصد جانب الجبل، وهذا أقوى من السد الذى قد يكون لثقب الكوز، ورأس القارورة، ونحو ذلك، فجعلوا الصاد لقوتها للأقوى، والسين لضعفها للأضعف.

وكذلك القسم والقصم فهما يفيدان معنى الفصل لكنه رفيق فى الأول، وشديد إلى حد الدق فى الثانى، ولذا اختيرت السين للأضعف والصاد للأقوى.

ومثلهما النضح والنضخ، فالحاء والخاء من مخرج واحد هو الحلق ويتفقان في معظم الصفات، والكلمتان تدلان على سيلان الماء، لكن بدرجة متفاوته، فالنضح سيلان ضعيف، والنضخ فوران الماء، ولذا اختيرت الحاء، - لرقتها - للماء الضعيف، والخاء - لغلظها - لما هو أقوى منه، وعليه قوله تعالى (فيهما عينان نضاختان) بمعنى: فوارتان بالماء لا تنقطعان.

وعلى هذا تتقارب الألفاظ لتقارب معانيها كما فى (أز) و(هز) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] بمعنى تزعجهم وتقلقهم أو تحركهم إلى المعاصى وقال عز حكمه ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] فالهمزة والهاء من مخرج واحد هو الحلق، والمعنى متقارب وهو التحريك إلا أن الحركة مختلفة فالأز تحريك ماله حركة، ويحتاج إلى جهد كالعقول فتحريكها صعب، والهز تحريك ما لا حركة له مما لا عقل له كالجمادات مثل الجذع، وساق الشجرة، ونحوها، فأتى بالهمزة مع المعنى القوى، وبالهاء مع المعنى الضعيف، وكذلك صهل وسحل فكلاهما صوت، والسين والصاد أختان، إلا أن الأول للفرس والثانى للبغل فأعطى لكل ما يناسبه من الحروف.

ومثل ذلك غدر وختل فالمعنيان متقاربان والحروف كذلك متقاربة مخرجا وصفة.

هذا عما اتحد المختلف فيه من الحروف مخرجا.

أما ما اتحد صفة فمنه امتقع لونه وانتقع بمعنى تغير فالميم والنون وإن اختلفا مخرجا فقد اتحدا صفة.

وكذلك كان حديث ابن فارس معاصره فمثلا يجعل القاف والطاء وما يثلثهما تدور حول معنى القطع فهو موجود فى (قطع) الذى يدل على صرم وإبانة شىء من شىء[١] و(قطف) الذى يدل على أخذ ثمرة من شجرة[٢] (وقطل) الذى يدل على قطع الشىء و(قطم) الذى يدل على قطع الشىء أيضا، فالحروف التى زادت على القاف والطاء خصصت معنى القطع ونوعته فظهرت بواسطتها المعانى التى ذكرها من الصرم والإبانة والأخذ وقد تناسبت تلك الحروف مع المعانى التى تدل عليها شدة وغلظة، وباب الفاء والراء وما يثلثهما يرجع إلى معنى التمييز والإفراد وهو فى (فرج)[٣] تفتح وشق وفى (فرد)[٤] يعنى التوحد وفى (فرز) يعنى عزل الشىء عن غيره وفى (فرس)[٥] يقصد منه الدق وفى (فرص)[٦] بمعنى اقتطاع شىء عن شىء وفى (فرض) بمعنى تأثير شىء فى شىء من حز أو غيره وفى (فرط)[٧] بمعنى إزالة شىء عن مكانه وتنحيته عنه وفى(فرق)[٨] بمعنى التمييز والتزييل بين شيئين.. وكل ذلك بسبب الحرف الثالث الذى نوع المعنى على النحو الذى رأيناه.

وقد سار الحاتمى على هذا النحو فى بيانه للاشتقاق الأكبر ومما ذكره من الأمثلة أن تنتقل بالحروف إلى ما يجانسها فى (قط) التى تتنوع إلى: قطب وقطف وقطع وقطل وكلها تتضمن معنى القطع ويجانس (قط)، (قص) ومنها قصم وقصل وقصف وقصر وهى تفيد معنى القطع فى جميعها ويجانس (قص – قض) ومنها قض وقاض وقضم وقضب وقضع، ويجانس (قص، كس) ومنها كس وكسر وكسع وكسم ويجانس (قص – جذ) ومنها جذ وجذب وجذف وجذم، ويجانس (جذ – جز) ومنها جز وجزأ وجزر وجزع وجزم وجميعها تشترك فى معنى القطع[٩]. «ونظن بأن قانون الاشتقاق الأكبر سرى عند الحاتمى من المشجرات اللغوية التى أفردها اللغويون بالتأليف»[١٠].

---

(١) المقاييس ٥/١٠١.
(٢) المصدر السابق ٥/١٠٣.
(٣) المصدر السابق ٤/٤٩٨.
(٤) المصدر السابق ٤/٥٠٠.
(٥) المصدر السابق ٤/٤٨٥.
(٦) المصدر نفسه ٤/٤٨٨.
(٧) المصدر السابق ٤/٤٩٠.
(٨) المصدر السابق ٤/٤٩٤.
(٩) المفتاح ص ٧ ومقدمة لدرس لغة العرب ٢٠٧.
(١٠) المصدر السابق ص٢٠٧.

والاشتقاق الأكبر يقوم على الإبدال[١] وقد أوضح المحدثون هذه الحقيقة - على ضوء ما ذكره ابن جنى ومتابعوه - فاعتبروا الصور المتبادلة قد تطور بعضها عن بعض تطورا صوتيا وقد فصلنا الحديث عن أسس الإبدال وقوانينه فى موضع خاص من كتابنا.

ومن هنا ندرك أن عالمنا ابن جنى يعتبر المبتكر للاشتقاق الأكبر لأنه قد أجراه فى مواد تتقارب فيها الحروف المغيرة ولم يأت بحروف متباعدة المخارج أما غيره كابن فارس والحاتمى فلم تتكامل تلك الفكرة عندهم فابن فارس لم يكن يؤمن بدوران المواد حول معنى واحد - على طريقة الاشتقاق الكبير - بل كان يقصر بحثه على الاشتقاق الصغير الذى يتمثل فى دوران المادة حول أصل أو أصلين أو أكثر وجمع فى كتابه كلمات تحوى حرفا ثالثا لا يتفق مع ما يقابله فى كل كلمة مخرجا أو صفة بل إذا اتفق مرة اختلف مرات كما رأينا فى باب القاف والطاء وما يثلثهما فقد جمع بين العين وهى حلقية والميم والفاء وهما شفويتان واللام وهى لسانية وكذلك الصاد والسين[٢] وكذلك الحاتمى من أمثلته كلمات تختلف فى الحرف المنوع للمعنى مخرجا وصفة كمادة قصم وقصر وقضم وقضع وكسع وكسم، ولكننا لا نجد مثل هذا الخلل عند ابن جنى فكل المواد التى يعرضها مما تقاربت حروفها المنوعة للمعانى مخرجا أو صفة بل هو حريص على ذلك كل الحرص ومن هنا كان عنوان حديثه فى نفس الموضوع (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) و(إمساس الألفاظ أشباه المعانى).

وقد استطاع عالمنا ابن جنى أن يثبت رسوخ قدمه فى ابتكار قواعد الاشتقاق الأكبر وأن يبين طرائقه فى اللغة وأن يثبت على أثرها - القيمة التعبيرية للحرف العربى كما سيأتى.

ومنه العسف والأسف والعين أخت الهمزة كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها والهمزة أقوى من العين كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين[٣].

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ٢٣٨.
(٢) المقاييس ٣/٢١٢، ٢١٣.
(٣) الخصائص ٢/١٤٦.

وهذا النحو من الصنعة موجود فى أكثر الكلام وفرش اللغة وإنما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه بل من أوضح له وكشفت عنده حقيقته طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها وهيهات ذلك مطلبا وعز فيهم مذهبا وقد قال أبو بكر من عرف ألف ومن جهل استوحش[1].

وإن هذا اللون من الاشتقاق الذى توصل إليه ابن جنى بجانب الاشتقاقين الصغير والكبير – لذو فائدة لغوية كبيرة ونتائج عظيمة تفيدنا فى إثبات حقائق علمية كبيرة الأهمية بل فتحت المجال أمام الباحثين المحدثين لاكتشاف أسرار العربية على ضوئها وتلك النتائج تتعلق بدوران المادة العربية حول معنى واحد ومدى ثنائية العربية أو ثلاثيتها منذ نشوئها ومناسبة حروفها لمعانيها وهذه مزايا لها أثرها وخطرها اللغوى، وكما يقول الأستاذ فندريس فإن «اشتقاق الألفاظ منفردة لا فائدة منه فى حد ذاته فالحالة الخاصة مهما ثبتت علميا ليست إلا ملهاة يتسلى بها إذا لم يستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى ونحن نعلم أنه يوجد من بين الاشتقاقات حالات كثيرة لا تؤدى إلى نتائج عامة.. فالعالم اللغوى لا يهتم بالاشتقاق إلا ليجمع أكبر عدد ممكن من العمليات المعنوية المتشابهة بقصد أن يستخرج منها القوانين العامة التى بمقتضاها يتطور معنى الكلمات[2].

* * *

(١) المصدر السابق ٢/١٥٢.

(٢) اللغة ٢٤٩، ٢٥٠.

بعض أسرار العربية التى تكشف عنها دراسة الاشتقاق

أدى تعمق اللغويين فى دراسة ألوان الاشتقاق، ومحاولة استقصائها والكشف عنها، وبيان سماتها فى العربية، وكيف تنفرد بهذه المزية التي لا تتوافر لغيرها من اللغات – أدى ذلك – إلى بيان أسرار عميقة تكمن وراء طبيعة الاشتقاق فى العربية، فليس الاشتقاق فيها مجرد أخذ كلمة من أخرى، أو توليد لها دون ملاحظة خاصة.

وعلماء العربية المتفلسفون – من أمثال ابن جنى – قد أزاحوا الستار عن أنواع الاشتقاق، وحددوا معالمها، وبينوا طرائقها، وحاولوا إثبات قيمتها فى إثراء اللغة العربية، وفتح مجالات كثيرة منها نستبين سماتها، وأصالتها وكيف ترتبط فيها الأصوات بالمعانى فى شكل روابط أسرية متلاقية وفى المناسبة بين اللفظ ومعناه، وترتب على ذلك البحث عن أصول الألفاظ العربية، ونشأة نظرية الثنائية اللغوية.

وبهذا عد الاشتقاق طريقا لفهم أسرار العربية، وأمكن – على هديه – إثبات حقائق لغوية مهمة هى:

١– دوران المادة حول معنى واحد.

٢– الصلات بين الألفاظ ومعانيها (مناسبة الألفاظ لمعانيها – تقارب الألفاظ لتقارب معانيها).

٣– ثنائية الألفاظ وثلاثيتها.

دوران المادة حول معنى واحد

تبين لنا من دراسة الاشتقاق أن الألفاظ فى اللغة العربية لها أصل ترجع إليه يمثل المادة الأصلية التي تدل على المعنى المصدرى، ثم يشتق من هذا الأصل ألفاظ أخرى كثيرة للدلالة على معان متعددة بزيادة بعض الحروف، أو نقصها أو تغيير الحركات، ومع ذلك فكل طائفة من الألفاظ تدور حول معنى عام يجمعها، وكأنها مجموعات أسرية تتلاقى كل منها فى إطار خاص.

فلو تتبعنا مادة معجمية، ودرسناها، وأمعنا النظر فى المعانى التى تدور عليها ألفاظها لوجدناها ترتبط بمعنى عام يضم كل هذه المعانى، ويعد أصلا لها تتفرع عنه.

وتكشف عن هذا دراسة الاشتقاق - بأنواعه المتعددة - الصغير، والكبير والأكبر.

فلو تتبعنا بعض المشتقات على الطريق الأول - الاشتقاق الصغير - نلاحظ أن الألفاظ التى تتألف مادتها الأصلية من حروف واحدة تدور حول معنى واحد.

فمثلا: مادة (سلم) تدور حول معنى السلامة فى تصرفها، ومادة (أ ث) تدور حول الاجتماع واللين فى تصرفها، وقد حاول ابن فارس أن يرجع بعض المواد إلى معنيين أو أكثر تدور حولها المادة الواحدة، وقد أمكننا أن نرجع ما ذهب إليه إلى معنى واحد، كما ذكرنا من قبل.

وأيضا على الطريق الثانى - الاشتقاق الكبير - ذكرنا لك مادة (جبر) وبينا - كما قال ابن جنى - أنها أين وقعت تفيد معنى القوة، والشدة.

ومن ذلك تقليب (س م ل) المعنى الجامع لها: الاصحاب والملاينة، ومنها: الثوب (السمل) وهو الخلق، لأنه ليس عليه من الوبر، والزئبر ما على الجديد، فاليد إذا مرت عليه للمس لم يستوقفها عنه جدة المنسج، ولا خشنة الملمس، و(السمل): الماء القليل كأنه شيء قد أخلق، وضعف ومنها: (المسل والمسيل) وذلك أن الماء يجرى من غير عائق، ومنها: (الأملس والملساء) و(اللمس) لأنه يرى بالنظر، ولا يكون هناك حائل بين اليد، وبين الملموس، فأما (لسم) فمهمل[1].

وكذلك فى الطريق الثالث - الاشتقاق الأكبر السابق ذكره - تتجمع الألفاظ حول معنى واحد.

ومن ذلك: (ج ب ل) و (ج ب ن) و(ج ب ر) فهى تدور حول معنى الالتئام، والتماسك، ومنه: (الجبل) لشدته وقوته، و(جبن) إذا استمسك وتجمع، ومنه: (جبرت العظم) ونحوه أى قويته.

ومن ذلك ندرك أن اللغة العربية تمتاز بدوران موادها، وتقلباتها حول معنى واحد عن طرائق الاشتقاق بأنواعها الثلاثة.

---

(١) الخصائص ٢ /١٣٧، ١٣٨ وذكر ابن جنى (ص١٣٨) السمت الرجل حجته: ألزمته إياها وفى اللسان ١٦ /١٥، ١٦ واللسم السكوت حياء لا عقلا.

وهذا السلوك لم يكن واضحا لدى أرباب المعاجم اللغوية وإنما كانوا يذكرون الكلمات، وتقلباتها، ومعانيها دون محاولة للربط بينها، وقد حاول علماء اللغة ومنهم ابن جنى وابن فارس – تطبيق هذا المبدأ، وإيضاحه بالتفصيل فى مواد كثيرة.

ونظرية الدوران حول معنى واحد التى عرفها القدماء قد أوحت إلى المحدثين بسلوك هذا السبيل، وتحقيق النتائج الموفقة من طرائقه، فقد أدركوا أنه (ليس فى الذهن كلمة واحدة، منعزلة، والذهن يميل دائما فى جمع الكلمات إلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها، والكلمات تتشبث دائما بعائلة لغوية بواسطة دوال المعنى[١] أو دوال النسبة[٢] التى تميزها، أو بواسطة الأصوات اللغوية التى تتركب منها، لا أكثر من ذلك، فنحن نشعر بأن الكلمات : إعطاء، عطية، عطاء معط، .. إلخ عائلة قائمة بذاتها تتميز بعنصر مشترك هو الأصل (ع ط ى)[٣] مهما تنوعت معانى المشتقات[٤].

كما أدركوا أنها من ميزات لغة العرب ولا تتمتع اللغات الأخرى بمثلها فقد سبق أن ذكرنا أن فى الفرنسية كلمات مثل Canine (ما يتعلق بالكلب كعادته أو نحو ذلك) وChien (كلب) لا يوجد ما يدل على أنهما من أصل واحد وكذلك Capitaine (رئيس جنود – رئيس فريق كرة إلخ) وChef (رئيس مصلحة – رئيس حكومة إلخ) لهما أصل معنوى واحد ولا يشتركان فى مادة واحدة مع أنهما يرجعان إلى كلمة Caput اللاتينية ومعناها (الرأس) وكلمتا أخ وأخت ترجعان إلى مادة (أخو) فى العربية على حين نجدهما مختلفتين لا رابط بينهما فى اللغات الأجنبية فهما فى الفرنسية Frere و Saeur وفى الإنجليزية Brother وSister[٥] ومثل هذه الأمثلة كثير.

---

(١) السياق ومواقع المورفيمات (الحركات أو اللواحق) التى تحدد المعنى وتسمى الفصائل النحوية.

(٢) الجذر الذى ينتظم أصل المعنى مثل (ق ت ل) وتسمى بدول الماهية (اللغة ص١٢٥).

(٣) كذا بالأصل.

(٤) اللغة ٢٣٢.

(٥) والكلمتان الأوليان لا يوجد ما يدل على أنهما من أصل واحد، إذ المعنى مختلف تماما فالأولى بمعنى (عادات) والثانية بمعنى (كلب)، والكلمتان التاليتان، لهما أصل معنوى =

ومن هنا كان للعربية ذلك الانفراد، فألفاظها وحدة متماسكة، لا مفككة فهى حيوية فى ارتباطها وتوليدها.

ولهذا الدوران فوائد، منها:

١- يوضح معانى الكلمات: أحيانا - فقال من (القول) وبناء من (ب ن ى).

٢- يمكن معرفة الأصيل من الدخيل، فكلمة (مقاليد) بمعنى: مفاتيح قد ظن أنها من مادة (قلد) وهو خطأ أمكن كشفه عن طريق الاشتقاق التاريخى فتبين أنها جمع (إقليد) وأصلها يونانى، وهو Kleida[1].

٣- يفيد فى إدراك الأحوال الاجتماعية، للأمة التى تنطق باللغة كالصفقة[2] والعقد[3] واليمين، فهى تدل على عادات عربية قديمة بل يكشف عن عقليات الأمم، ومفاهيمها كاشتقاق (الصديق) و(العدو) و(العقل) فى العربية والفرنسية[4].

٤- وأوسع هذه الفوائد، هو: فهم اللغة، والتفقه فيها، وفهم أسرارها والدخول فى عالمها الخاص، بهذا الربط المعنوى.

ومع أن لدوران المادة حول معنى واحد هذه القيمة اللغوية، والاجتماعية ومع أن لغتنا العربية تمتاز بها فليست مطردة فى كل مواد اللغة - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - لأنه يصعب فى بعض المواد، ويخفى فى بعض آخر، وهو مع ذلك - كما يقول ابن جنى - موجود فى أكثر الكلام، وفرش اللغة، وإنما بقى من يثيره، ويبحث عن مكنونه.

= واحد هو الرئاسة ولا يشتركان فى مادة واحدة فحروف كل منهما تختلف عن حروف الأخرى، والكلمات الأخيرة - فى الفرنسية والإنجليزية - متحدة المعنى لكنها مختلفة الحروف، وعلى هذا ففى اللغات الأجنبية قد تتفق الحروف ويختلف المعنى والعكس صحيح أيضا، وهذا لا يوجد فى العربية بل إذا اتفقت الحروف اتفق المعنى والعكس بالعكس، وانظر ص: ٥، ٦ من مقدمة هذا الكتاب وخصائص العربية ومنهجها الأصيل ص٢٤، ٢٥.

(١) فقه اللغة للمبارك ٦٠.

(٢) تصوير لما كان يحدث بين المتبايعين من ضرب اليد على اليد ونحوهما ولا يزال يحدث فى البيع والشراء فى الوقت الحاضر.

(٣) كان المتعاقدان على أمر يعقدان طرفى ثوبيهما. (٤) انظر: مقدمة هذا الكتاب ص٤.

ويصعب إيجاد الصلات بين المعانى أو يخفى نتيجة لأمور كثيرة منها :

١- رجوع بعض المعانى إلى عادات، وحوادث قديمة نسيت أو تركت، فجهل أمرها لعدم صلتها بحياتنا كما فى قولهم (بنى على أهله) بمعنى : زفها أو دخل بها والتناسب غير ظاهر بين معنى البناء وهذا المعنى وأصل الاستعمال أن المعرس كان يبنى على أهله خباء فحصل اللبس من حذف المفعول وتناسى المعنى الأصلى حتى إنهم عدوه بالباء .

ومن أمثلة ذلك - أيضا - ما حكاه ابن جنى من أنهم يقولون : رفع عقيرته) إذا صوت، قال ابن جنى : فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت، ومعنى (ع ق ر) لبعد عنك وتعسفت، وأصله أن رجلا قطعت إحدى رجليه، فرفعها، ووضعها على الأخرى، ثم صرخ بأعلى صوته، فقال الناس (رفع عقيرته) .

٢- دخول بعض الألفاظ فى نطاق مادة غير مادتها الأصلية نتيجة تغيير حدث فيها، فيعسر إيجاد معنى مشترك يضمها معها .

ومن ذلك مادة (ن و ص) فهى تدل على معنى عام هو التأخير، والفرار، ولكن يعكر الصفو ورود كلمة (النوصة) بمعنى : الغسلة، فلا صلة بين معناها وبين معنى المادة السابقة، وبالبحث تبين أن النون مبدلة من الميم - كما قال الأزهرى - فأصلها : (الموصة) .

ومن ذلك - أيضا - مادة (نور) فهى تفيد معنى الوضوح وإزالة الظلام لكن وجد فيه (امرأة نوار) و(نساء نور) - بسكون الواو والأصل بضمها - بمعنى : نافرة، ونافرات مما يريبهن .

وهذا المعنى لا يلتقى مع معنى مادة (نور) فلعل (نوار) للمرأة، و(نور) لجمع النساء من مادة (نفر) فأبدلت الفاء واوا، فدخلت فى مادة (نور) مع أنها ليست منها، فخفى الربط .

وعلى هذا سائر أحوال الإبدال الذى يدخل الكلمات فى غير موادها الأصلية فإذا لم يقف الباحث على المبدل والمبدل منه لم يتمكن من معرفة ما تعود إليه من معنى عام مثل : تجاه، وإسادة، ونحو ذلك .

٣- أن يكون للمادة الواحدة معنيان أو أكثر كما فى المشترك - ومنه المتضاد - فأى رابطة تربط بين معانى (الخال) التى هى: أخو الأم - الشامة فى الوجه - البعير الضخم - السحاب مثلا ومثله: المتضاد كالقشيب للجديد والقديم، فأى رابط بين هذين المعنيين المتضادين؟ إن رجوعهما إلى أصل واحد غير متيسر.

ولكن الجمع بين هذه المعانى يرجع لأسباب كثيرة، ذكرناها فى حديثنا عن دلالة اللفظ على أكثر من معنى.

٤- اختلاف اللغات، أو اللهجات فى معانى بعض الألفاظ مما يجعل الجمع بينها وبين المواد التى أخذت منها عسيرا، فالسامد - فى لغة اليمن - اللاهى وفى لغة طيء - الحزين، والوثب - عند حمير - الجلوس وعند سائر العرب القفز[١].

وإذا كانت تلك الأسباب، وغيرها تبعد فهم صلات المعانى للمواد اللغوية فليس للباحث - كما أشرنا من قبل - أن يتواكل دون بذل الجهد الجهيد للتوصل إليها عن طريق التلطف والحيلة، ولكن ليس معنى ذلك أن يغرق الباحث فى طلب التوافق، وتوحد المعنى إلى حد المشقة والتكلف حتى لا يقع فيما وقع فيه بعض اللغويين الذين تكلفوا للاشتقاق، وإرجاع الألفاظ إلى المعانى كما حكى أن الزجاج سئل عن المجرة: لم سميت مجرة؟ فقال: لأن الله جرها فى السماء جرا[٢].

الصلات بين الألفاظ ومعانيها

اتضح من دراسة الاشتقاق ما تمتاز به العربية من وجود المناسبة بين ألفاظها ومعانيها، وتقارب ألفاظها لتقارب معانيها، وهذا يدل على مشاكلتها للطبيعة.

واختلف العلماء من قديم حول دلالة اللفظ على المعنى بذاته أو بوضع الله أو الناس له وكان لمفكرى اليونان والرومان[٣]. ومفكرى العرب[٤] أيضا وقفة عند هذه المشكلة وهم فريقان:-

١ - فريق يرى «أن الصلة بين الألفاظ والدلالة لا تعدو أن تكون صلة اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس.

---

(١) انظر: فقه اللغة د. نجا ٤ / ٣٦، ٣٧. (٢) المزهر ط صبيح ٢٠.
(٣) من أسرار اللغة (ط٣) ص ١٢٦ ودلالة الألفاظ د. انيس ص ٥٨.
(٤) المزهر ط صبيح ١ / ١٠، ١١ وفقه اللغة للمبارك ١٦٢.

٢- وفريق يربط بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا ويجعلها سبباً طبيعيا للفهم والإدراك فلا تؤدى الدلالة إلا به ومن أجل هذا كانوا يطلقون على الصلة بين اللفظ ومدلوله (الصلة الطبيعية أو الذاتية) ونلحظ هذا الاتجاه من التفكير فيما يرويه أفلاطون فى محاوراته عن أستاذه سقراط الذى كان فيما يبدو يميل إلى هذا الرأى[١].

ولكن المفكرين اليونان والرومان القائلين بهذا الرأى لم يجدوا ما يسوغ وجهتهم فى اللغة اليونانية أو الرومانية بحيث لم يستطيعوا أن يثبتوا الصلة بين الألفاظ والمدلولات بأمثلة من الكلمات اللغوية عندهم لعدم ظهور ما تتحقق فيه تلك المناسبة، ومن هنا سوغوا وجهتهم بأن خفاء الربط بين الدلالة والأصوات ليس مرجعه إلى عدم صحة تلك النظرية بل « إن الكلمة حين وضعت أولا وفى نشأتها كانت أصواتها وثيقة الصلة بمدلولها ثم انحرفت عن هذا مع توالى الأيام وأصبحنا لا نكاد ندرك تلك الصلة وقد مرت آلاف السنين أو (ملايينها) قبل أن يصل الكلام الإنسانى إلى اليونان والرومان على الصورة التى عرفت فى أيامهم[٢].

ومن علمائنا العرب الأقدمين من كان يقول بالأول ومن كان يقول بالثانى[٣]، وقد أوضح عالمنا ابن جنى أن « المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله قد تنبه إليها علماء اللغة القدامى كالخليل وسيبويه »[٤] فقال - فى أول الباب الذى تحدث فيه عن المناسبة المذكورة وعنوانه (باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى) - اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته »[٥]. ويقول السيوطى : وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى[٦].

ولكن يبدو أن علماء العرب الذين قالوا بالمناسبة بين اللفظ ومدلوله لم يكونوا كلهم على وفاق مع رأى علماء اليونان والرومان السابق فى كون تلك المناسبة طبيعية ذاتية بل كان منهم من لا يرى ذلك ومن يراه، وينقل لنا العلماء

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ٥٨، ٥٩.

(٢) من أسرار اللغة ١٢٦، ١٢٧ ودلالة الألفاظ د. أنيس ٥٩.

(٣) فقه اللغة للمبارك ١٦٨ ودلالة الألفاظ د. أنيس ٦٠.

(٤) دراسات فى فقه اللغة ١٥٧. (٥) الخصائص ٢ / ١٥٢.

(٦) المزهر ط صبيح ١ / ٣١ وانظر: تاريخ آداب العرب ١ / ١٧١.

أن الذى كان يقول بأن المناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله - كاليونان والرومان - هو عباد بن سليمان الصيمرى المعتزلى وبعض العلماء الذين اتبعوه، فكان عباد يرى.. (أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع، قال: وإلا لكان تخصيص الاسم المعين بالمعنى المعين ترجيحا من غير مرجح، وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل: ما مسمى أذغاغ؟ وهو بالفارسية الحجر - فقال: أجد فيه يبسا شديدا، وأراه الحجر) [١].

أما غير عباد وطائفته من القائلين بثبوت تلك المناسبة، فلم يكونوا يرونها ذاتية موجبة كهؤلاء، فالفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عبادا يراها ذاتية موجبة بخلافهم وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح فى أفعال الله وجوبا وأهل السنة لا يقولون بذلك، مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح لكن فضلا ومنة لا وجوبا ولو شاء لم يفعله[٢].

وممن أغرم بالصلة بين الألفاظ ومعانيها ابن جنى، وقد مهدت أبحاثه فى هذا الموضع الطريق إلى اكتشاف هذا السر الرائع من أسرار العربية.

وحديثنا هنا له جانبان:

الأول: مناسبة الألفاظ لمعانيها.

الثانى: تقارب الألفاظ لتقارب معانيها.

وقد نظر ابن جنى وغيره من القائلين بالصلة بين اللفظ والمعنى إلى أن للموضوع وجهين:

الوجة الأول: كون الصوت مشابها للمعنى وهذا هو مناسبة الألفاظ للمعانى.

الوجه الثانى: كون المعنى العام للفظين أو أكثر واحدا فلذا تشابهت أصوات الكلمات لتشابه معانيها، وهذا هو (تقارب الألفاظ لتقارب معانيها).

فهذه الألفاظ متفقة فى بعض الحروف ومختلفة فى بعضها الآخر إلا أن المختلف فيه متحد مخرجا وصفة وعلى هذا فالأمثلة التى تذكر فى مناسبة الألفاظ لمعانيها يمكن أن تذكر فى تقارب الألفاظ لتقارب معانيها.

ومرجع هذا إلى الاشتقاق الأكبر الذى يجمع بين الكلمات التى تقاربت حروفها لتقارب معانيها.

---

(١) المزهر ط صبيح ١/١١، ٣١.　　(٢) المصدر السابق ١/٣١.

مناسبة الألفاظ لمعانيها

هذه المناسبة تبدو فى مظهرين:

(أ) المناسبة بين أصوات الحروف مفردة ومركبة، ومعانيها الموضوعة لها.

(ب) المناسبة بين بعض الصيغ اللغوية، ومعانيها - كذلك.

ففى المظهر الأول: يلاحظ أن للحرف قيمة تعبيرية فهو مناسب لما وضع له من حدث، سواء كان الحرف واقعا أول الكلمة أو وسطها، أو آخرها.

فمن الكلمات التى يقع فيها الحرف أولا: خضم، وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ، والقثاء، والقضم للصلب اليابس، فاختاروا الخاء - لرقتها - للرطب، والقاف - لصلابتها - لليابس حذوا لمسموع الأصوات، على محسوس الأحداث[1].

ومن الكلمات التى يقع فيها الحرف وسطا قولهم القسم والقصم، فالقصم أقوى فصلا من القسم لأن القصم يكون معه الدق.

ومن الكلمات التى يقع فيها الحرف آخرا قولهم، النضح والنضخ للماء، ونحوه والنضخ أقوى من النضح قال الله سبحانه ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فجعلوا الحاء - لرقتها - للماء الضعيف، والخاء - لغلظها - لما هو أقوى منه وقد أشرنا إلى ذلك.

وقد أثبت ابن جنى صلة الحرف بمعناه مهما يتغير موقعه من الكلمة بتقليب البناء كصوت الفاء، فقد رأى أنه يفيد الوهن والضعف إذا أتى مع (الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون) على التقديم والتأخير[2].

هذا فى الحروف المفردة.

أما أصوات الحروف المركبة فتبدو المناسبة بينها و بين معانيها فى نوعين من الكلمات:

---

(١) الخصائص ٢/١٥٧، ١٥٨.

(٢) المصدر السابق ٢/٦٦ - ٦٨ من ذلك «الدالف» للشيخ الضعيف و«التالف» للشىء الفاسد و«الطليف» للمجان و«الطنف» لما أشرف خارجا من البناء و«النطف» للعيب و«الدنف» للمريض و«والترفة» لأنها إلى اللين والضعف، و«الفتور» للضعف و«الفلتة» لضعف الرأى و«الفطر» للشق.

١- أسماء الأصوات الطبيعية: مثل غاق للغراب، والواق للصرد، ونحو ذلك من مثل قولهم: حاحيت وعاعيت إذا قلت: حاء، وعاء وقولهم: بسملت وحوقلت، كل ذلك وأشباهه مما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات(١).

٢- كلمات تشبه أصواتها الأحداث المعبر بها عنها مع ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه.

ومن ذلك: جر الشيء يجره قدموا الجيم لأنها حرف شديد، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعا، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر - وكرروها - مع ذلك - في نفسها، وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها، واضطرب صاعدا عنها، و نازلا إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة، والقلق، فكانت الراء لما فيها من التكرير ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في (جر و جررت) أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها(٢).

«ومن ذلك قولهم بحث فالباء تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض والثاء للنفث والبث للتراب وهذا أمر تراه محصلا فأي شبهة تبقى بعده أم أي شك يعرض على مثله»، «ومن ذلك قولهم شد الحبل ونحوه فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين لا سيما وهي مدغمة فهو أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذي أريد بها».

فالأمثلة المتقدمة توضح كيف يدل الحرف بصوته على معناه مفردا ومركبا وقد اعتبر ابن جني ذلك طريقا واسعا معلوما للباحث قال: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره(٣).

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.

وفى المظهر الثانى: يبدو ارتباط الصيغ اللغوية بالمعانى الموضوعة لها فيما يأتى:

١- ما جاء من مضعف الثلاثى أو الرباعى وكان حكاية للأصوات قال: «قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: صر وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر[١]، ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر[٢].

٢- ما كرر فيه العين أو اللام والأصل فى هذا التكرير إنما يكون للعين «فقد جعلوا تكرير العين فى المثال دليلا على تكرير الفعل فقالوا كسر وقطع وفتح وغلق وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قوة الفعل والعين أقوى من الفاء واللام وذلك أنها واسطة لهما ومكنوفة بهما فصارا كأنهما سياج لها ومبذولان للعوارض دونها ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها، فلما كانت الأفعال دليلة المعانى كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به وهو تكرير الفعل كما جعلوا تقطيعه فى نحو صرصر وحقحق دليلا على تقطيعه.. فهذا أيضا من مساوقة الصيغ للمعانى[٣]، وقالوا: اعشوشب واخلولق واغدودن ونحو ذلك لقوة المعنى أيضا وقد ضاعفوا اللام كما ضاعفوا العين للمبالغة نحو عتل وصمل وقمد وحزق إلا أن العين أقعد فى ذلك من اللام ألا ترى أن الفعل الذى هو موضع للمعانى لا يضعف ولا يؤكد تكريره إلا بالعين[٤].

٣- المصادر التى تتابعت حركاتها كالفعلان والفعلى قال: قال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان إنها تأتى للأضطراب والحركة نحو النقزان والغليان والغشيان فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال[٥]. ووجدت أيضا الفعلى فى المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو البشكى والجمزى والولقى قال رؤبه: (**أوبشكى وخد الظليم النز**) وقال الهذلى:

---

(١) المصدر السابق ٢/١٥٢.

(٢) المصدر السابق ٢/١٥٣.

(٣) المصدر السابق ٢/١٥٥.

(٤) المصدر السابق ٢/١٥٦.

(٥) المصدر السابق ٢/١٥٢.

كأني ورحلي إذا هجرت على جمزى جازىء بالرمال
أو اصحم حام جراميزه حزابية حيدى بالدحال

فجعلوا المثال الذى توالت حركاته للأفعال التى توالت الحركات فيها[1].

٤- وزن استفعل، يأتى فى أكثر الأمر للطلب نحو استسقى واستطعم واستوهب واستمنح واستقدم عمرا واستصرخ جعفرا فرتبت فى هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال وتفسير ذلك أن الأفعال المحدث عنها أنها وقعت عن غير طلب إنما تفجأ حروفها الأصول أو ما ضارع بالصنعة الأصول نحو طعم ووهب ونحو ذلك وكذلك ما تقدمت فيه الزيادة على سمت الأصل نحو أحسن وأكرم أما إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول فى مثلها الدالة عليها أحرفا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها والمؤدية إليها.

وذلك نحو استفعل فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ثم وردت بعدها الأصول الفاء العين واللام فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعى فيه والتأنى لوقوعه تقدمه ثم وقعت الإجابة إليه فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التى وضعت للالتماس والمسألة وذلك نحو استخرج واستخدم واستوهب واستمنح واستعلى واستدنى فهذا على سمت الصنعة التى تقدمت فى رأى الخليل وسيبويه إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليها[2].

فقد وضحت المناسبة فى تلك الحروف التى تدل على معان خاصة ويصدرون بها الأفعال لتفيد المقصود من الفعل من حال إلى حال آخر[3]، وهذه طريق المثل واحتياطاتهم فيها بالصنعة ودلالاتهم منها على الإرادة والبغية[4] «وهذه خواطر طريفة وملاحظات مفيدة[5].

---

(١) المصدر السابق ٢/١٥٣ والوخد سعة الخطو فى مشى الإبل، وبشكى وند: سريع - هجرت: سارت فى الهاجرة - جازىء: مكتفية بالمرعى الأخضر عن الماء - أصحم: حمار يضرب إلى السواد والصفرة جراميزة: نفسه - حزابية: جلد.

(٢) المصدر السابق ٢/١٥٣، ١٥٤.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٢/٦٢.

(٤) المصدر السابق ٣/١٥٧.

(٥) فقه اللغة للمبارك ١٠٦.

تقارب الألفاظ لتقارب معانيها

ومن أسرار الروعة فى اللغة العربية أن تتلاقى الكلمات المتحدة الحروف حول معنى واحد كما ذكرنا من قبل، وأن المعانى فى العربية لها ما يناسبها من الألفاظ المعبرة عنها، وأن حكمة العربى اقتضت أن يضع الصوت مشابها لمعناه.

وأحيانا يعبر العربى بطائفة من الألفاظ عن معنى واحد اختلفت درجاته فنلاحظ تقارب هذه الألفاظ فى الحروف تبعا لتقارب معانيها.

وهذا التقارب يكون فى كلمة واحدة متحققا فى حرف أو حرفين أو ثلاثة، ويكون فى أكثر من كلمة.

١ - فى كلمة واحدة:

(أ) فى حرف واحد فى أول الكلمة كما فى قولهم: أزٌّ وهزٌّ.

وقد أوضحنا من قبل أن المعنى واحد ولكنه أقوى فى الحال الأولى من الثانية، فلذا اشترك اللفظان فى حرفين، واختلفا فى حرف واحد هو الهمزة فى الأول و الهاء في الثانى، وهما مع ذلك من مخرج واحد، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين (وكأنهم خصوا المعنى الأول بالهمزة لأنها أقوى من الهاء فالأز أعظم في النفوس من الهز لأنك قد تهز مالا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك»[١].

وفى وسط الكلمة كما فى (القرمة) وهى الفقرة تحز على أنف البعير وقريب منه (قلمت أظفارى) لأن هذا انتقاص للظفر وذلك للجلد فالراء أخت اللام، والعملان متقاربان.

ومن ذلك جرف الشىء إذا أزاله عن موضعه، وجلف القلم إذا أزال عنه قشرته، وجنف بمعنى مال، ففى الثلاثة معنى الميل، فأنت إذا جلفت الشىء أو جرفته فقد أملته عما كان عليه، ولذا تقاربت الألفاظ لتقارب المعانى، فالراء واللام والنون أخوات من حيث المخارج والصفات[٢].

وفى آخر الكلمة كما فى المواد (ج ب ل) (ج ب ن) (ج ب ر)، فتقاربت حروفها لتقارب معانيها مع دلالتها على معنى واحد وقد سبق ذلك[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢/١٤٦.
(٢) المصدر السابق ٢/١٤٧ بتصرف.
(٣) انظر ص٢١٧ من هذا الكتاب.

(ب) في حرفين:

نحو قولهم: السحيل والصهيل علي ما ذكرنا من قبل.

٢- في كلمتين:

مثل صهل وزأر فكلاهما تدل على الصوت إلا أن كلا منهما لحيوان خاص فلذلك تقاربت حروفهما لتقارب معنييهما.

وابن جنى بهذا البيان القوى المفصل يعد «رائد اللغويين القدامى الذين لاحظوا هذه الظاهرة وقرروها»[١] وإن هذه الفكرة التى تجلت عند ابن جنى أوحت إلى بعض الباحثين فى العصر الحديث بنظرية (القيمة التعبيرية أو البيانية) للحرف فى الألفاظ العربية[٢]، «وللباحثين المحدثين نظرات فى اللغة يحسبونها أصيلة بكرا حتى إذا درسوا آثار القدماء وتصانيفهم تبين لهم أن الأولين لم يتركوا للآخرين كثيرا وأن علماء السلف الصالح قتلوا هذه الدراسات اللغوية بحثا كما يقولون حتى أتوا على جل ما نفترضه الآن من النظريات واحتجوا لكل افتراض بشواهد تتعلق بصوابه أو فساده[٣]، ويمكن أن نوسع من دائرة التأثير لنعرف مدى التوافق بين رأى ابن جنى وشواهده عليه وما ذهب إليه بعض الباحثين الأوروبيين فى العصر الحديث وكذلك بعض المعاصرين العرب.

فقد ظل الدارسون فى الجامعات الأوروبية ينتصرون لفكرة الصلة العقلية بين الأصوات والمدلولات حتى أواسط القرن التاسع عشر ومن هؤلاء همبلت Humbolt الذى يقول: اتخذت اللغة للتعبير عن الأشياء طريق الأصوات التى توحى إلى الآذان بنفسها أو بمقارنتها بغيرها أثرا مماثلا لذلك الذى توحيه تلك الأشياء إلى العقول»[٤]، وكذلك جسبرسن الذى يسوق أمثلة لتلك النواحى التى يلحظ فيها وثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات وهى قريبة جدا مما ذكره ابن جنى اللغوى العربى العبقرى وهى:

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ١٥٩.
(٢) فقه اللغة للمبارك ٨٢، ٨٣.
(٣) دراسات فى فقه اللغة ١٧٦، ١٧٧.
(٤) من أسرار اللغة ١٢٨ ودلالة الألفاظ د. أنيس ٦٤.

١- الأصوات التى تحاكى الطبيعة ويسميها المحدثون Onomatopoeia مثل حفيف الأشجار وزئير الأسد فى العربية.

٢- الألفاظ التى تعبر عن مصدر الصوت مثل (كوكو) تسمية لطائر عند بعض الأمم الأوروبية.

٣- يشير جسبرسن إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كالمقارنة بين صر الجندب وصرصر البازى.

٤- الألفاظ التى تعبر عن الحالة النفسية كالكلمات التى تعبر عن الغضب أو النفور أو الكره.

٥- الحركات التى ترمز فى بعض اللغات لمعان خاصة فالكسرة وما يتفرع عنها من ياء المد ترمز فى كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة ففى العربية مثلا نجد أن الياء هى علامة التصغير وأن الكسرة علامة التأنيث(١).

وقد ذكر تلك الدلائل الدكتور أنيس حين قال: ونحن حين نتخذ طريقا معتدلا.. ندرك كل الإدراك أن فى اللغة معانى تتطلب أصواتا خاصة وأن هناك من المدلولات ما تسارع اللغة للتعبير عنه بألفاظ معينة وربما كان من العسير حصر تلك المجالات اللغوية التى نلحظ فيها وثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات ولكن منها بلا شك النواحى الآتية(٢) وأشار إلى ما سبق ذكره.

فمما تقدم ندرك صلات الألفاظ بمعانيها، وهى متحققة فى مواد كثيرة من اللغة، وعلى هذا فمن يرى أن المناسبة بين اللفظ ومعناه طبيعية يقول باطراد هذه النظرية فى الربط بين اللفظ ومعناه، ويميل إلى هذا ابن جنى الذى شرح هذا السر من أسرار العربية بتفصيل كبير ويرى ابن جنى: أن المناسبة إن خفيت فلم يمكن الوصول إليها فإن ذلك لا يخل بمبدأ المناسبة بين الألفاظ ومدلولها، بل إن ذلك يرجع إلى أمور أخرى خفية أو إلى قصور من الباحث(٣).

والواقع أن ابن جنى ومن تابعه مبالغون فى هذا الرأى، فالمناسبة لا تتضح فى كل ألفاظ اللغة، بل إن الذى يظهر منها فى الألفاظ المعبرة عن المحسوسات

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ٦٥، ٦٦ ومن أسرار اللغة ١٣٠ - ١٣٣.

(٢) من أسرار اللغة ١٣٠.

(٣) الخصائص ٢ / ١٦٤، ١٦٥.

والأصوات أما ما عدا ذلك كأسماء الأجناس أو المعنويات فلا تتضح فيها المناسبة مثل حيوان، ثعلب، علم، فكر، حكم، ونحو ذلك.

فالمناسبة ليست ذاتية مطردة، كما يدعى أصحاب تلك النظرية فنحن نرى:

١- أن الألفاظ - وقت نشأتها فى اللغة الإنسانية الأولى - كانت محاكية لأصوات الإنسان والحيوان والأشياء الأخرى ومناسبة لمدلولها، ومن ذلك القهقهة، والتمطق للإنسان، ورغاء الناقة وبغامها للحيوان وخرير الماء، والأفعال التى يحدثها الإنسان مثل القطف والقطع والقطم بالنسبة للأشياء الأخرى[1] وقد بقيت من ذلك دلائل كثيرة.

٢- بعض الألفاظ فقد الصلة بين أصوات حروفه ومعانيها نتيجة لتطور بعض الأصوات بالقلب والإبدال أو لتغير مدلول الكلمات فى بعض الأحيان، وذلك يؤدى إلى فقدان العلاقة بين الصوت وما يدل عليه.

٣- بعض الألفاظ وضعت لمعان جديدة فى العصور المختلفة بعد نشأة الإنسان ولاشك أن الإنسان بعد أن ارتقى من طور البدائية أخذ يضع ألفاظا للمعانى بقطع النظر عن صلتها بأصواتها، وهنا نجد كثيرا من الألفاظ لا صلة له بمعانيه.

وهذا هو ما يدعونا إلى الاعتدال، وعدم التطرف فنؤمن مع هؤلاء بأن الصلة وثيقة بين اللفظ ومدلوله، ولكننا لا نوافقهم على اطرادها بحيث لا تتخلف.

* * *

---

(١) فقه اللغة د. وافى ط ٤ ص١٦٩، ١٧٠.

ثنائية الألفاظ وثلاثيتها

ثبت لعلماء الاشتقاق دوران المادة حول معنى واحد، ومناسبة الحروف للأحداث المعبر بها عنها، وكان لذلك أثره فى البحث عن أصول الألفاظ.

فقد لاحظ العلماء أن بعض الألفاظ الثلاثية التى تشترك فى حرفين تشترك فى معنى عام واحد، وحاولوا الكشف عن أصل هذه الألفاظ، ونشأتها هل كانت ثلاثية أو ثنائية؟

ونعرض لآراء العلماء فى ذلك:

١ - الأصل فى اللغة هو الثلاثى:

ذهب إلى هذا الرأى فريق من العلماء لأن الثلاثى أول الأبنية، وأقلها، وقد كان لتعدد البيئات، واختلاف الأزمان أثر فى اختلاف الحرف الثالث فى كلمات هذا النوع فتبدل لدى القبائل العربية - على اختلافها - تبدلا صوتيا.

ولكننا نلحظ فى بعض هذه الكلمات أن الحروف المختلفة، ليس بينها تقارب فى المخارج أو الصفات - وهو شرط الإبدال - كما فى قطع وقطف وقطل، فيستبعد حدوث الاختلاف فى الحرف الأخير عن طريق التبدل الصوتى.

ولذا فلا يمكن الأخذ بهذا الرأى كأساس لنشأة الألفاظ العربية.

٢ - الأصل فى اللغة هو الثنائى:

ذهب إلى ذلك فريق من العلماء إلا أنهم اختلفوا فى كيفية نشوء الثلاثى عن الثنائى، ونحن نوضح وجهات نظرهم فيما يأتى:

(أ) نشأة الثلاثى عن الثنائى بتنويع الحرف للمعنى:

ارتأى هذه الوجهة عدد من فقهاء اللغة قديما وحديثا، فذهبوا إلى أن الألفاظ العربية ترجع فى منشئها التاريخى إلى أصل ثنائى، وذلك الأصل قد أخذ من الأصوات الطبيعية المقارنة للفعل، أو الحدث، ثم زيد هذا الأصل فى مراحل تطوره التاريخى حرفا ثالثا لتنويع المعنى، فالقط يدل على القطع ثم يضاف

الحرف الثالث لتنويع هذا المعنى العام كالعين فى قطع لتفيد فصلا معينا، والفاء فى قطف لفصل الأشياء التى تحتاج إلى معاناة كالوردة والزهرة[١].

والحرف الذى يزاد يغلب أن يكون فى آخر الكلمة – كما سبق – وقد يكون وسطها: كوسم ووشم ووصم[٢] فالسين والشين والصاد زيدت – وسطا – لتنويع المعنى.

وقد يكون فى أولها مثل: بهر وجهر وظهر ونحو ذلك، فالمعنى العام للكلمات المذكورة، هو الظهور والوضوح، وقد أضيف إليه فى أوائلها الباء والجيم والظاء لتنويع هذا المعنى العام.

والناظر فى كتاب المقاييس لابن فارس يرى شرحا لذلك فى أمثلة كثيرة – فنجد مثلا – أن باب القاف والطاء وما يثلثهما يرجع إلى معنى القطع، فهو موجود فى (قطع) الذى يدل على صرم وإبانة شىء من شىء، وفى قطف الذى يدل على أخذ ثمرة من شجرة وفى (قطل) الذى يدل على قطع الشىء، وفى (قطم) الذى يدل على قطع الشىء – أيضا[٣] فالعين والفاء واللام والميم جاءت أحرفا زائدة على الأصل الثنائى، (قط) فخصصت معنى القطع، ونوعته بين الصرم، والإبانة، والأخذ، وردته – تبعا لأصواتها بين درجات الشدة والغلظة فى إحداث القطع[٤].

ويمكن أن نفهم من أبحاث ابن جنى الاشتقاقية دلالتها على الثنائية اللغوية:

١– أوضح ابن جنى – كما سبق أن فصلنا ذلك – دوران المادة حول معنى واحد يتنوع بتنوع الصيغ وزيادة الحروف وهذا فى الاشتقاق الصغير.

٢– كما أثبت دوران المادة – مهما يختلف تقليبها – حول معنى واحد

---

(١) فقه اللغة للمبارك ٧٤، ٧٥ وفقه اللغة د. نجا ٤ /٨٣، ٨٤ ومما يورده الأستاذ جورجى زيدان للحرف الواقع وسط الكلمة. شلق من شق وفرق من فق، وقرط من قط، وقرص من قص.. وفى أولها رفت من فت ولهب من هب ورفض من فض.. إلخ. الفلسفة اللغوية ٨٦ والاستشهاد بها قائم على أساس أن المضعف الثلاثى ثنائى.

(٢) المعنى العام: العلامة.

(٣) ٥/ ١٠١، ١٠٣.

(٤) دراسات فى فقه اللغة ١٦٦ وانظر ص: ٢١٣ من هذا الكتاب.

أيضا يتنوع كذلك بتنوع الصيغة والحروف الزائدة والتقديم والتأخير لتدل على معنى معين ينضوى تحت المعنى العام الذى تتكاتف المادة فى الدلالة عليه.

٣- قال ابن جنى فى الاشتقاق الأكبر بأن بعض المواد الدائرة حول معنى واحد يتفق فيها حرفان ويختلف حرف ينوع المعنى وبينه وبين نظيره تقارب فى المخرج أو الصفات وهذا الحرف يكون أولا مثل: أزَّ وهزَّ والعسف والأسف وسحل وزحر ويأتى وسطا كما فى تراكيب (ح م س) و(ح ب س) و(ج ر ف) و(ج ل ف) و(ج ن ف) ويكون آخرا كما فى تراكيب: (ج ب ل) و(ج ب ن) و(ج ب ر) و(ع ل ز) و(ع ل ص) وغير ذلك كثير، وقد نبه على المعنى المشترك بين الحرفين المتفقين فى تلك المواد وتنوعه تبعا للحرف الثالث الذى أتى مناسبا للمعنى الدال عليه مع قربه من أخيه مخرجا وصفة وعد ذلك كله من تقارب الألفاظ لتقارب المعانى فلكل حرف قيمة تعبيرية خاصة مناسبة للمعنى الموضوعة له.

٤- كما جعل الألفاظ مشاكلة للطبيعة المقارنة للفعل أو الحدث فى الفصل الخاص بإمساس الألفاظ أشباه المعانى، وفسر على أساس ذلك الفاظا كثيرة من الاشتقاق الأكبر، فالحرف الواحد مناسب لمعناه أولا ووسطا وآخرا والكلمة كلها كذلك فأولا - كما شرحنا - مثل خضم وقضم - صعد وسعد - سد وصد، ووسطا مثل ق ط ر - ق د ر - ق ت ر - قسم وقصم - الوسيلة والوصيلة، وآخراً مثل النضح والنضخ والقد والقط وقرت الدم وقرد وقرط يقرط والكلمة مجتمعة بحروفها كلها مثل بحث وجر وشد الحبل ونحوه.

ومعنى هذا أن الثنائى - فى الاشتقاق الأكبر - الذى يتنوع بالحرف الثالث نشأ عن الطبيعة أو الحدث المقارن لها فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن جنى ممن يميل إلى القول بنشأة اللغة الإنسانية من محاكاة الأصوات كان هذا مطابقا تماما لما يقول به أصحاب النظرية الثنائية، وإن كان هو لم يخرج بهذه النتيجة بطريقة مباشرة.

ويتفق الدكتور مراد كامل والأستاذ محمد المبارك على أن ابن جنى دلل على هذا الرأى بأمثلة خلال شرحه لنظريته الصوتية فى اللغة بوجه عام وأشار إلى

ذلك فى كتابه الخصائص وهو يعرض دلالة أصوات الكلمة على أجزاء الحدث الذى تدل عليه[1].

«فالكلم وضعت - فى أول أمرها - على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة، ثم فئمت - أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر أو القلب أو الطرف - فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد والقبائل، والبيئات، والأهوية فكان لكل زيادة أو حذف أو قلب أو إبدال، أو صيغة معناة أو غاية أو فكرة دون أختها ثم جاء الاستعمال، فأقرها مع الزمن على ما أوحته إليهم الطبيعة، أو ساقهم إليها الاستقراء والتتبع الدقيق، وفى كل ذلك من الأسرار والغوامض الآخذة بالألباب ما تجلت - بعد ذلك - تجليا بديعا استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع[2].

وقد مال الأب أنستاس الكرملى إلى هذا الرأى وقال «إننا اتبعناه منذ أولعنا بهذه اللغة المبينة الرائعة فأخذنا بنشره وتفصيل دقائقه منذ سنة ١٨٨١م[3].

وكذلك الأب مرمرجي الدومنكى، فقد دافع عن هذا الرأى وكتب فيه أبحاثا نشر منها ثلاثة صغيرة بعنوان (أبحاث ثنائية ألسنية)[4] وقد حاول فى بحوثه أن يقارن بين العربية، والألسنية السامية، وتأييد ما يدعو إليه من رد الثلاثى إلى الثنائى[5].

فمثلا (نهر) ورد بثلاثة معان هى : الجرى والسيلان - فحوى الزجر - مدلول النور فبالمعنى الأول : أصله الثنائى (هر) توج بزيادة النون فى أوله وهو مأخوذ من الثنائى المثنى (الرباعى فى نظر النحاة) هرهر وهو حكاية صوت الماء الكثير ومن هذا القبيل تكون جميع مدلولات هذا الحرف المراد بها الجريان فى اللغات السامية الأخوات، وبالمعنى الثانى أصله : الثنائى (نه) ذيل بزيادة الراء وهو مأخوذ من الثنائى المثنى (نهنه) ومعناه كف ومنه الناقص (نهى فلانا عن

---

(١) نشأة الفعل الرباعى فى اللغات السامية الحية ٢٢ وفقه اللغة للمبارك ٧٥ وانظر: معجميات عربية سامية ط.١٩٥٠ ص٥.

(٢) نشوء اللغة ص١.

(٣) المصدر السابق ص٢.

(٤) طبع أولها سنة ١٩٣٧ ثم الثانى سنة ١٩٤٨ وتلاه الثالث سنة ١٩٥٠.

(٥) انظر: الرسالة الأولى ص ٦ والثالثة ص٣.

كذا) زجره والمناسبة متحققة وبالمعنى الثالث : لم يرد (نهر) بمعنى أضاء فعلا ثلاثيا فى العربية لكن له وجود فى السريانية والعبرية وهو آت من الثنائى (نر) بطريقة الإقحام وهو ظاهر فى الأجوف العربى (نار) ومن nor الثنائى فى السريانية جاء الثلاثى nhar وفى العبرية نجد nur نار لهب وner مصباح وهكذا[1] .

(ب) نشأة الثلاثى عن الثنائى بواسطة المعلات :

ارتأى هذه الوجهة الأستاذ عبد الله العلايلى، فهو يؤمن بأن الثلاثى نشأ عن الثنائى إلا أنه يجعل نشأة الثلاثى من الثنائى بواسطة المعلات ومن هنا قال : إن هذه المعلات المحفوظة فى شتى المعاجم يجب أن نتخذها عمدتنا فى الدرس لفهم الثلاثى على وجهه لأنها الأصل الذى انفصل عنه، ولم يكن عمل التصحيح إلا ضربا من إقرار اللغة على صورة واحدة من الثلاثية[2] .

فالمعلات ثنائيات ألحقت بالثلاثيات بتصحيح حركة الحرف حرفا فلا ريب فى أنها أقدم ما حفظت اللغة من كلمات العهود السابقة والعريقة فى القدامة[3] .

فمثلا : (عبل) مأخوذ من (علا) المعتلة وأصلها (عل) و« عبث » تعود إلى (عثا) وأصلها (عث) و(عبد) تعود إلى (عدا) وأصلها (عد) وهكذا فمطلق الثلاثى نشأ عن الثنائى على هذه الصورة التى عليها المعلات بزيادة حرف من حروف الهجاء، غالبا ما يكون فى حشو الكلمة[4] .

وهذه النظرية تتسم بالتكلف، لأنها تستلزم انسلاخ الحرف الواقع وسط الكلمة وهذا غير مقبول، لأنه فى موقع حصين، وكيف تبقى المادة لتدل على معناها بعد انسلاخه؟ ولماذا اختصت الباء وحدها بأن تكون هى الزائدة حشوا؟ إن هذا افتراض وظن.

---

(١) الثنائية الألسنية الرسالة الأولى ١٣٥ - ١٣٧ .
(٢) مقدمة لدرس لغة العرب ٢٠١ . (٣) المصدر السابق ١٣٢ .
(٤) المصدر السابق ٢٠٠ - ٢٠٣ .

وفى كلام الأستاذ العلايلى نفسه ما يؤيد أن رأيه احتمال، وظن، قليل الجدوى فى البحث اللغوى، يقول: «وكيفما كان الأمر فإنه لا يعنينا فى العمل اللغوى أبدا، لأن العربية لم تعد على شيء سوى الثلاثى، وإنما هو يمت إلى التاريخ اللغوى فى التأصيل، والتفريع على المواد المحفوظة»(1).

(جـ) نشأة الثلاثى عن الثنائى على طريق النحت:

ذهب إلى تلك الوجهة الأستاذ جورجى زيدان، فهو يرى: أن الثلاثى يمكن أن يكون مأخوذا من أصلين ثنائيين على طريق النحت، وهذا إذا أمكن أن يكون لكل من الأصلين معنى فى نفسه، فبعض الأفعال الثلاثية تقبل الحل إلى أصلين لكل منهما معنى فى نفسه، نحو قطف، فهو يفيد القطع والجمع والأصل فيه - على ما يرى - (قط + لف) الأولى قطع والثانية جمع وبالاستعمال أهملت اللام، ونقلت حركتها إلى ما قبلها، فصارت قطف، ومثلها قمش بمعنى جمع ما على الأرض من فتات وهى ترد إلى قم بمعنى كنس، وقش بمعنى جمع، وبالتخفيف ألغيت القاف الوسطى، فقيل: قمش، ومثل ذلك كثير فى الألفاظ العربية.

ويقول: إنه «إن استبعد بعضهم هذا الاحتمال فهو غير مستبعد عند من له شيء من الاطلاع على خصائص الألفاظ، وقابليتها للإبدال والنحت».

وإذا لم يكن لكل من اللفظين معنى فى نفسه فلا يخلو أن يكون لأحدهما أولا، فإن كان الأول كان أحد اللفظين فعلا، والآخر حرفا زيد اعتباطا، وهو فى الغالب أحد هذه الحروف (ل م ن ر) وربما توهم الواضع فى هذه الزيادة شيئا من المبالغة، أو تنويع الفعل بما يطابق قصده نحو فض ورفض، وهب ولهب، وشق وشلق، وكن وسكن.

وإذا لم يكن لأحدهما معنى فى نفسه أى لا يكون اسما ولا فعلا فلا يخلو أن يكون حرفا، وربما كان اسما أو فعلا فى الأصل، ولم يعد مميزا الآن، ولدينا من هذا النوع بعض الكلمات العربية نقدمها مثالا:

---

(1) المصدر السابق ٢٠٣.

من ينظر فى لفظة (مال) بمعنى مقتنيات لا يخطر له إلا أنها أصل مستقل ولكنها فى الواقع مركبة من (ما) الموصولة ولام الإضافة، فكانوا يريدون بقولهم: مالك: الذى لك، أى مالك ومقتنياتك.

وهكذا إذا بحثنا عن نور ونار فإنا نراها مركبة من أصلين، فهى فى العبرانية (أور) وفى الأشورية (أر) ولنا فى العربية ما يدل على سابق وجودها على هذه الصورة، فإننا نقول: استأور فلان، أى عمل فى الظلمة، وهى على صيغة استفعل، وصاغه من أصل ربما كان (آر) ونظراً لدلالة هذه الصيغة على الطلب والرغبة يرجح أن قصدهم بـ « استأور فلان فى الظلمة » أنه أسرع يطلب النور، ولنا - أيضا - « الأوار » حر الشمس والنار.

أما النون فإما أن تكون بقية كلمة ذات معنى أو أنها لا معنى لها ألحقت اعتباطا ومن هذا القبيل كلمة « ويل » فإن أصلها « وى + لى أو له » وبهذا علل بعضهم أن « ليس » مأخوذة من « لا » النافية و« أيس » الدالة على الكون المطلق فى أكثر اللغات المرتقية، ويعنى بها بعض اللغات السامية[1].

وهذا الرأى قد بنى الأستاذ جورجي زيدان أصله - وهو النحت - على رأى بعض اللغويين فى الرباعى والخماسى، وعلى رأسهم ابن فارس إذ يقول: إن للرباعى والخماسى مذهبا فى القياس يستنبطه النظر الدقيق، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت، ومعنى النحت، أن تؤخذ كلمتان، وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ[2].

ولم يوافق علماء اللغة على هذا الرأى لأنه « لا يمكن أن تنبنى عليه أحكام، لأن الأمور اللغوية يجب أن تتفق فى مواد كثيرة من اللغة، بحيث يتحقق لدى الباحث معنى الاستقراء، ويستطيع أن يثبت الوجهة التى ارتآها بما بدا له من ألفاظ يتحقق بها هذا الأمر »[3].

---

(١) انظر فى ذلك كله: الفلسفة اللغوية ٨٥ - ٨٩.

(٢) المقاييس ١ /٣٢٨، ٣٢٩ وانظر الحديث عن النحت عند ابن فارس ص٢٤٤ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٤ /٨٨.

ونحن نؤمن – كما يؤمن غيرنا من الباحثين – بأن الأصل فى الألفاظ العربية هو الثلاثى كما هو واقع الاستعمال اللغوى، ومرحلة الثنائية مرحلة تاريخية لأن طائفة الألفاظ التى تحققت فيها قليلة لا تكفى لإثباتها، فمواد العربية كثيرة تصل كما فى اللسان لابن منظور إلى ثمانين ألف مادة، ولا يمكن التحقق بشأن هذه النظرية إلا بسعة الاستقراء فى المواد اللغوية، والمقارنة باللغات السامية من أخوات العربية وذلك يحتاج إلى كثير من الجهد ومع ذلك فنحن لا نؤمن بأن النظرية غير مجدية تماما بل إننا نطلب من الباحثين متابعة الجهود لإثارة هذه الناحية اللغوية التى تكشف عما فى العربية من أسرار عجيبة.

* * *

ثانيا : النحت

تعريفـــــه :

هو : انتزاع بعض الحروف من كلمتين فأكثر، وتكوين كلمة منها لتفيد المعنى على سبيل الاختصار.

وقد تنبه القدماء إلى هذا المعنى، قال ابن فارس فى «فقه اللغة» - باب النحت - : «العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار، وذلك رجل عبشمى منسوب إلى اسمين، وأنشد الخليل :

أقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك حيعلة المنادى

ومعناه : أن الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما خشبة واحدة» [1] .

فكلمة «عبشمى» مأخوذة من كلمتين هما (عبد - شمس)، وكلمة (حيعلة) مأخوذة من (حى على الصلاة) التى يقولها المؤذن للصلاة «أى أنه أخذ من هذه الكلمة شىء ومن تلك شىء آخر وجعلت واحدة» [2] .

وبهذا يتضح صلة النحت بالاشتقاق فهو وإن لم يكن اشتقاقا على الحقيقة - لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من أخرى [3] فإنه - كما يبدو - توليد شىء من شىء وإن خالف الطريقة التصريفية [4] .

ولكن من الفروق الجوهرية بينهما أن «الاشتقاق - فى أغلب صوره - عملية إطالة أبنية الكلمات فى حين أن النحت اختزال واختصار فى الكلمات والعبارات» [5] وأن الاشتقاق طريقة أدل على الحيوية، وأشبه بطريقة توالد الأحياء فى زيادتها ونموها بخلاف النحت، فطريقته أشبه بطريقة الجوامد فى زيادتها، ونموها عن طريق اللصق والإضافة» [6] .

والنحت من طرق نمو اللغة، وهو كثير فى اللغات الهندية الأوربية إلا أنه فى

---

(١) المزهر ط الأولى ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣
(٢) مجلة المجمع ١ / ٣٨٢
(٣) الاشتقاق والتعريب ص ١٣
(٤) دراسات فى فقه اللغة ص ٢٧٧
(٥) من أسرار اللغة ص ٧١
(٦) فقه اللغة للمبارك ص ١٢٥

اللغات السامية – وبخاصة العربية – قليل، لأن هذه اللغات اعتمدت على الاشتقاق الذى يعتبر طريقا حيويا فيها، يزيد من ثروتها ونموها كما عرفنا، ولعل العربية كانت تتخذ النحت طريقا للنمو إبان طفولتها فلما اكتملت واشتدت تركته إلى الاشتقاق.

(أ) النحت السماعى

ما بقى فى العربية من الألفاظ المنحوتة قليل يمكن بيانه فى الآتى :

١ – تكوين كلمة من بعض حروف كلمتين، وذلك ورد فى حالة النسب إلى المركب الإضافى مثل: عبد شمس فيقال: عبشمى، وامرىء القيس فيقال: مرقسى.

ففى (عبشمى) أخذ المتكلم من الكلمة الأولى – وهى (عبد) – العين والباء، وأضاف إليهما من الكلمة الثانية (شمس) الشين والميم، وكون كلمة جديدة ثم نسب إليها.

وكلمة (مرقسى) أخذ المتكلم من الكلمة الأولى – (امرىء) – الميم والراء وأضاف إليهما من الكلمة الثانية – (القيس) – القاف والسين فتكونت كلمة واحدة ثم نسب إليها.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن لذلك النحت قاعدة، فهو يكون بأخذ الفاء والعين من كل من المضاف والمضاف إليه، لكن ذلك إن صح فى بعض المركبات الإضافية فلا يصح فى بعضها الآخر، وهذا واضح فى أنه ينطبق على المثال الأول، ولا ينطبق على المثال الثانى، هنا.

فالأدق أن يقال: إنه يكون بأخذ بعض الحروف على النحو السابق.

٢ – تكوين كلمة من بعض حروف جملة كاملة، لتدل على معنى الجملة باختصار، مثل (بسمل) إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم)، و (حمدل) إذا قال: (الحمد لله)، و (حوقل أو حولق) إذا قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، و(طلبق) إذا قال: (أطال الله بقاءك) و (دمعز) إذا قال: (أدام الله عزك)، و(حيعل المؤذن) إذا قال: (حى على الصلاة – حى على الفلاح).

وفى تلك الحال يظهر المنحوت فى صورة فعل – كما مر – أو مصدر

فيقال: (البسملة) و (الحمدلة) و (الحوقلة أو الحولقة) و (الطلبقة) و(الدمعزة) و (الحيعلة)، أو مشتق مثل (المبسمل) وعلى ذلك قال الشاعر:

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحديث المبسمل

وقال الآخر:

أقول لها ودمع العين جار ألم تحزنك حيعلة المنادى

ولعل كثيرا من هذه الألفاظ وجد في العصر الإسلامي.

وكان ابن جني يجيز النحت بطريقه السماعي المألوف عن العرب، فلا مانع عنده من النحت الجملي المعروف في مثل: حيعل وبسمل وحوقل إلخ، فهو يجيز أن تقول: بأبأت بالصبي بأبأة وبئباء إذا قلت له: بئبا [1] وابن جني يتابع أسلافه في اعتبار مثل هذا التركيب النحتي بناء مستعملا وجاريا في اللغة على أمثاله، «فأصل هذا أن الباء حرف جر، والهمزة فاء الفعل فوزن هذا على هذه المقدمة بفبفت بفبفة وبفبافا إلا أنا لا نقول مع هذا إن هذه المثل على ما ترى، لكن نقول: إن بأبأت الآن بمنزلة رأرأت [2] عيناه وطأطأت رأسي، ونحو ذلك مما ليس منتزعا ولا مركبا، فمثاله إذا فعللت فعللة وفعلالا كدحرجت دحرجة ودحراجا، وعلى هذا اشتقوا منهما (البئب) فصار - (فعلا) من باب سلس وقلق قال:

يا بأبى أنت ويا فوق البئب

فالبئب الآن بمنزلة الضلع والعنب والقمع والقرب [3].

وقد أتى ابن جني لهذا النحت بنظير من واقع اللغة، قال:

فالخازباز (صوتان جعلا واحدا) [4] الألف - عندنا - فيهما أصل بمنزلة الألف (قاف) و (دال) وقال الشاعر:

ورمت لهازمها من الخزباز [5].

---

(١) المراد: أنه يقول له: بابى انت اى افديك بأبى. الخصائص ١/ ٢٧٥، ٣/٢٢٧، ٢٢٨

(٢) تحركت حدقتاهما ودارتا.

(٣) الخصائص ١/ ٢٧٦

(٤) لسان العرب ط بيروت ٥/ ٣٤٧، ٣٤٨

(٥) انظر مادة (بأبأ) واشتقاقاته والخازباز: لسان العرب ط بيروت ١/ ٣٥، ٣٦، ٥/٣٤٧، ٣٤٨

فالخزباز الآن بمنزلة السربال والغربال وألفه محكوم عليها بالزيادة كألفهما، وهذا كباء الجر الزائدة في: بأبي أنت، أصبحت فاء في بأبأت بالصبي، وألف قاف ودال كذلك إذا اعتزمت الاشتقاق منها يعتقد فيها القلب فتقول: قوفت قافا، ودولت دالا [1]، ولذلك حكم أبو علي على ألف (يا) - بعد مزجها باللام - في قول الشاعر:

فخير نحن عند الناس منكم إذا الداعي المثوب قال يالا

فبعد أن كانت أصلا كألف (ما) و (لا) ونحوهما حكم عليها بالانقلاب كألف باب ودار، ويقول ابن جني: « سألته - أي أبا علي - عن علة ذلك فقال: لما خلطت لام الجر من بعدها وحسن قطعها، والوقوف عليها والتعليق لها في قوله (يا لا) أشبهت (بال) هذه الكلمة الثلاثية التي عينها ألف، فأوجب القياس أن يحكم عليها بأنها كباب وساق ونحو ذلك فأنقت لذلك وذهب بي استحساني إياه كل مذهب » [2].

٣ - تركيب كلمة من كلمتين فأكثر، دون حذف شيء من الحروف الأصلية ومع بقاء معنى كل كلمة بعد التركيب كما كان قبله، وفائدة التركيب حينئذ إفادة المعنى بإيجاز.

وهذا مثل (شقحطب) [3] على وزن سفرجل، فهو منحوت من (شق حطب) [4]، ومثل (حبقر) وأصله (حب - قر) [5].

وقد ذكر بعض العلماء هذا في النحت، وجعله قسما من أقسامه لمجرد أن الكلمتين قد امتزجت إحداهما بالأخرى، فحدث نوع من التغيير في الصيغة أو الهيئة، وذلك كاف - عندهم - في إطلاق اسم «النحت» عليه.

ولكن هذا النوع - في الحقيقة - لا يعد نحتا، لأنه لم يحذف شيء من

---

(١) الخصائص ١ / ٢٧٥، ٣ / ٢٢٧ ، ٢٢٨

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣ / ٢٢٨ ، ٢٢٩ والنص بالجزء الثالث.

(٣) هو كبش ذو قرنين منكرين، وقيل: الكبش الذي له أربعة قرون. اللسان ١ / ٤٨٨

(٤) المزهر ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٣

(٥) حب: اسم للبرد - بفتح الراء - وهو حب الغمام، والقر: البرد: بسكون الراء.

الحروف الأصلية في الكلمات التي امتزج بعضها ببعض، وهذا شرط أساسي للقول بالنحت.

والأولى بالاعتبار أن يطلق على عملية مزج الكلمات على هذه الصورة اسم (التركيب) فالكلمات التي تخضع لذلك مركبة لا منحوتة.

وفي العربية بعض الأدوات التي قيل بتركبها مثل (مهما) فيرى الكوفيون أنها مركبة من (مه) - بمعنى اكفف - و (ما) الزائدة، ونتج من التركيب معنى لم يكن من قبل [1].

وهذا النوع الذي يقوم على مجرد اللصق - فقط موجود بكثرة في اللغات الهندية الأوربية مثل Thank - في الإنجليزية - فيقال: Thankful بمعنى شاكر أو شكور و Un thankful بمعنى غير شاكر أو غير شكور و Un thank fulnes بمعنى عدم شكر.

وفي التركية (إو) منزل، فيقال: (إودن) خارج المنزل (إولر) منازل (إولر دن): خارج المنازل، والتركية من مجموعة اللغات الطورانية، ومثلها اليابانية وبعض لغات الأمم البدائية [2].

(ب) النحت فيما زاد على ثلاثة أحرف

كان لابن فارس رأي في الكلمة الزائدة على ثلاثة أحرف وهو: أنها منحوتة من كلمتين، يقول: «اعلم أن للرباعي والخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق، وذلك أن أكثر ما نراه منه منحوت، ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ» [3].

والمطلع على كتاب «المقاييس» يرى أن ابن فارس قد طبق قاعدته على كلمات كثيرة جعلته يتخذ النحت فيها مذهبا قياسيا، فقد بلغ عدد الكلمات

---

(١) خرجت على هذا النوع أدوات كثيرة مثل (لن) و (هلم) وغيرهما مما اختلف النحاة في بساطته أو تركيبه، وقد أثبت البحث الحديث صحة تركيب بعضها مثل (لن) دون البعض الآخر مثل (هلم). انظر كتابنا: (مناهج البحث في اللغة والمعجم ص ٦٧ وما بعدها).

(٢) انظر: ص ١٦٩، ١٧٠ من هذا الكتاب.

(٣) المقاييس ١ / ٣٢٧ وانظر: المزهر ط الأولى ١ / ٢٣٢

التى قطع فيها بالنحت «فى أبواب» مزيدات الثلاثى وحدها أكثر من ثلاثمائة كلمة منحوتة بين فعل وصفة» [1]، وقد بلغ عدد المنحوتات فى باب واحد ثمانين منحوتا» [2].

وقد قسم ابن فارس ألفاظ الرباعى والخماسى ثلاثة أقسام:

الأول: قسم منحوت من أصلين ببقاء مادة أحدهما على حالها، وإضافة حرف أو أكثر من المادة الثانية، ويعتبر هذا الباقى المضاف دليلا عليها. ويقع الملصق من الحروف أولا وحشوا وآخرا.

فمثال الواقع فيه أولا من الأفعال (بلخص) – الذى منه تبلخص لحمه بمعنى غلظ – يعد منحوتا من (بخص) و (لخص) – بإلصاق الباء من المادة الأولى بالمادة الثانية، ومن الأسماء (البرقش) (طائر) – مأخوذ من (برش) و(رقش) بإلصاق الباء من الأولى بالثانية [3] ومن الصفات: (البحتر) – للذى حرم الطول – فهو منحوت من (بتر) و (حتر) بإلصاق الباء من المادة الأولى بالثانية [4].

ومثال الواقع فيه حشوا من الأفعال: (بلطح) من (بلط) و (بطح) بإضافة اللام من المادة الأولى، ومن الأسماء (البرجد) – اسم للكساء المخطط – أضيفت الجيم من (البجاد) لكلمة (برد) [5]، ومن الصفات: (الصقعب) من (صعب) و (صقب) بإضافة العين للمادة الثانية [6].

ومثال الواقع فيه آخرا من الأفعال: (بحثر) من (بثر) و (بحث) بزيادة الراء

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ص ٢٩٦   (٢) المقاييس ٤ / ٣٥٧ – ٣٧٣

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٣١   (٤) المصدر السابق ١ / ٣٢٩

والبتر معروف، والحتر من حترت وأحترت بمعنى: لا تفضل على أحد ويزعم ابن فارس أن هذا المعنى صار فى القصير لأنه لم يعط ما أعطى الطويل.

(٥) المصدر السابق ١ / ٣٣٠ وبلطح: إذا ضرب بنفسه الأرض والمستعمل من البلط: أبلط الرجل: إذا لصق ببلاط الأرض، والبطح معروف فكأن الذى بلطح الأرض وضربها بنفسه قد بطح وأبلط، والبجاد: الكساء، والبرد: معروف.

(٦) المصدر السابق ٣ / ٣٥٢ والصقب: الطويل، والصعب: من الصعوبة، ويستخدم الصقب – أحيانا لمعنى القرب تارة والعمود تارة أخرى.

من المادة الأولى، ومن الأسماء (الثفروق) (قمع الثمرة) من (ثفر) و (فرق) بزيادة القاف من المادة الثانية [1] ومن الصفات (الضبطر) - للرجل الشديد - من (ضبط) و (ضبر) بأخذ الراء من المادة الثانية للمادة الأولى [2] ومثلها (صهصلق) - الصوت الشديد للمرأة والرعد والفرس - مأخوذ من (صهل) و(صلق) حذفت اللام من المادة الأولى وامتزج الباقى منها (الصاد والهاء) بالمادة الثانية، وهذا القسم عرفت فيه كلا المادتين.

الثاني: قسم زيد على حروفه الأصلية بعض الحروف لمعنى، وهذا ما لم تعرف فيه المادة التى يمكن أن تعود إليها الحروف الزائدة المضافة إلى المادة الأخرى المعروفة.

مثال ذلك: (بحظل الرجل بحظلة) - قفز قفزان اليربوع - فالباء زائدة على (حظل) [3]، ومثله (بلعوم) من (بلع) والميم زائدة، وكذلك (عرمرم) من (عرم) والراء والميم زائدتان.

وهذا ما يشير إليه ابن فارس بقوله: (ومن هذا الباب ما يجيء على الرباعى وهو من الثلاثى - على ما ذكرناه - لكنهم يزيدون فيه حرفا لمعنى يريدونه من مبالغة كما يفعلون ذلك فى (زرقم) و (خلبن) [4].

الثالث: قسم وضع من الأصل على أربعة أحرف أو خمسة وليس منحوتا، ولم يزد فيه شىء، وهذا ما لم يهتد ابن فارس إلى أنه منحوت أو مزاد فيه بعض الحروف مثل الزخرف، والضمعج وهو الناقة الضخمة، والطفنش: الواسع صدور القدمين ويصرح ابن فارس فى مواطن من كتابه (المقاييس) بأنه ربما كان لمثل

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٣٣ وبحثر الشيء: بدده وبحث: طلب شيئا فى التراب و(البشر) الذى يظهر على البدن، والثفر: المؤخر، وفرق معروف والثفروق منحوت منهما (من الثفر وهو المؤخر، ومن فرق) لأنه شيء فى مؤخر الثمرة يفارقها.

(٢) المقاييس ٣ / ٣٥٠ والمزهر ط الأولى ١ / ٣٣٢ وضبر: اكتنز.

(٣) حظل الماشى يحظل حظلانا. إذا كف بعض مشيه (لمرض أو عيب) والحظلان: عرج الرجل وقد توصف به الشاة والكبش حينما يكفان من بعض مشيتهما، وقد يكون ذلك لالتواء عرقوب الكبش. اللسان ١٣ / ١٦٥

(٤) المقاييس ١ / ٣٣٢ والزرقم: الشديد الزرق، والخلبن، المرأة الخرقاء.

ذلك أصل لكنه لم يهتد إليه كالمخضرم أو أن تكون الكلمة من هذا النوع أعجمية كالخندريس [1].

وبهذا التحليل حاول ابن فارس إرجاع أكثر الكلمات الرباعية والخماسية إلى الثلاثي.

ويؤكد الدكتور الصالح صحة هذا المذهب، وموافقته للدراسة المعاصرة فيقول: «ولا تناقض في شيء مما رآه ابن فارس فإن الأمثلة التي قفي بها على تعريفه للنحت، والأمثلة التي فرقها على مواد معجمه تبعا لمذهبه في مزيد الثلاثي كلها تؤكد اعتقاده بأن السوابق، والأواسط، واللواحق، أو كما اصطلح عليها بعض المعاصرين: التصدير والحشو والكسع بقايا كلمات قديمة مستعملة تناسب ما لمح في الحرف العربي من قيمة تعبيرية فكأن المزيد بحرف – في أوله أو وسطه أو آخره – إنما نحت من كلمتين اختزلتا على سواء أو اختصرت إحداهما أكثر من الأخرى، أو ظلت إحداهما على حالها على حين رمز للأخرى بحرف منها يغلب أن يكون أوضح حروفها بيانا وتعبيرا» [2].

وادعى الدكتور الصالح أن ابن جني عبقري اللغويين يأخذ بهذا الرأي، ويميل إليه، وهو النحت فيما زاد على ثلاثة أحرف من الكلمات، ويستدل على ذلك بقوله في (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني): «هذا غور من العربية لا ينتصف منه، ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غفلا مسهوا عنه، وهو على أضرب منها: اقتراب الأصلين الثلاثيين كضياط وضيطار... ومنها: اقتراب الأصلين ثلاثيا أحدهما ورباعيا صاحبه كدمث ودمثر، وسبط وسبطر» [3].

وقد استنبط من ذلك أننا لو سألنا ابن جني رأيه في هذه الراء المزيدة على

---

(1) المصدر السابق ٣/٤٠٢، ٤٥٨، ٥/١٩٤

(2) دراسات في فقه اللغة ص ٢٨٢

(3) الخصائص ٢/١٤٥، ١٤٦. الدمث: السهل من الأرض، والدماثة سهولة الخلق والوادي الدمث: السائل، وأرض دمثر: سهلة، والسبط والسبطر: الشعر الذي لا جعودة فيه أي مسترسل، وسبط الرجل: انبسط على وجه الأرض، واسبطر: امتد، والسبطرى: الانبساط في المشي.

السبط لما كان له أن يعدها حشوا من غير فائدة وهو فى طليعة القائلين بالقيمة التعبيرية للحرف العربى، بل الذى نرجحه أنه يعد هذه الراء الحرف الأبرز الأقوى فى مادة ثلاثية مختزلة، أما الاختلاف حول تقدير هذه المادة المختزلة التى فيها الراء فأمر ليس بذى بال، ولقد رأينا إمام أصحاب النحت ابن فارس يقنع غالبا لبيان وقوع النحت بحرف واحد يعوض المادة كلها، ويقوم مقامها، وابن جنى يرى أن أكثر كلام العرب على مثال هذا وإن كان لم يعن هنا بتقرير ظاهرة النحت عنايته بتقرير ظاهرة التقارب فى اللفظ والمعنى.

وقبل أن نقرر موقفنا مما ادعاه الدكتور الصالح بالنسبة لعالمنا ابن جنى يلزم أن نذكر ما ذهب إليه القدماء بشأن الزائد على ثلاثة أحرف، والناظر فى كتاب «الإنصاف فى مسائل الخلاف» يرى خلافا فى ذلك الزائد على ثلاثة أحرف بين الكوفيين، والبصريين.

فالكوفيون يذهبون إلى أن كل اسم زادت حروفه على ثلاثة أحرف، ففيه زيادة، فإن كان على أربعة أحرف نحو جعفر ففيه زيادة حرف واحد، واختلفوا فذهب أبو الحسن على بن حمزة الكسائى إلى أن الزائد فيما كان على أربعة أحرف الحرف الذى قبل آخره، وذهب أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء إلى أن الزائد فيما كان على أربعة أحرف هو الحرف الأخير، وإن كان على خمسة أحرف نحو سفرجل ففيه زيادة حرفين.

وذهب البصريون إلى أن بنات الأربعة والخمسة ضربان غير بنات الثلاثة، وأنهما من نحو جعفر وسفرجل لا زائد فيهما ألبتة.

واستدل الكوفيون بأن وزن الرباعى (فعلل) والخماسى (فعلل) فإحدى اللامين فى الأول زائدة، واللامان فى الثانى زائدتان ففى جعفر ونحوه حرف زائد، وفى سفرجل ونحوه حرفان.

واستدل البصريون بأنه لم يقل أحد بزيادة أى حرف من ذلك وإلا لكان وزن جعفر – على اعتبار أحد الحروف زائداً – فعلر – فعفل – فعّل – بتضعيف العين – جعفل، وأجابوا عن دليل الكوفيين بأنه غلط وجهل بموضع وزن الأسماء وتمثيلها بالفعل دون غيره فقد اختير لفظ الفعل لأنه عبارة عن كل شىء من الألفاظ، ألا تراك تقول لصاحبك: قد ضربت زيدا أو خاصمته أو أكرمته أو ما

أشبه ذلك فتقول: قد فعلت، وكان الثلاثى أولى بذلك من قبل أن أقل الأسماء والأفعال بنات الثلاثة، وفيها بنات الأربعة والخمسة فلو وقع التمثيل بشىء على أربعة أحرف أو خمسة لبطل وزن الثلاثى به إلا بحذف شىء منه، ونحن نجد بنات الثلاثة تبنى على أربعة أحرف بزيادة حرف نحو ضيغم، وهو من الضغم وهو العض، وعلى خمسة أحرف بزيادة حرفين نحو سرندى وهو من السرد، ولم يعلم أنه بنى شىء من بنات الأربعة والخمسة على ثلاثة أحرف، فلما كان الأمر على ما ذكرنا وجب التمثيل بالفعل، وإذا احتجنا إلى تمثيل رباعى وخماسى زدنا ما يلحقه بلفظ الرباعى والخماسى، فهذا الذى نزيده على الفعل زائد وإن كان الممثل به أصليا لأن الضرورة ألجأت إلى أن نزيد على الفعل ليلحق الممثل بالممثل به، فدل على صحة ما ذهبنا إليه (١) .

وبهذا يتلخص رأى البصريين فى القول بأصالة ما زاد على ثلاثة أحرف، إن لم يكن الزائد من حروف (سألتمونيها) وبشروطه الخاصة .

ولكن الكوفيين يقولون بزيادة ما فوق الثلاثى، وإن لم يكن من تلك الحروف المذكورة، وكما يقول بعض المحدثين: اعتمد كل من الفريقين فى أدلته على الميزان الصرفى (الفاء والعين واللام) لا على رد الكلمات إلى أصولها - كما كان يرجى منهما - ولذلك كان استدلالهما متداعيا منهارا (٢) فلا تدل مقابلتهم للحرف الزائد على ثلاثة بلام أو لامين على أصالة الحرف أو زيادته، ولو وضعوا للميزان (ف ع ل) للثلاثى و (ف ع ل م) للرباعى و (ف ع ل م ن) للخماسى لما كان هناك فرق بين تلك الحروف واللام التى تزاد فلا ينهض أى حرف من ذلك فى دلالته على أصالة أو زيادة، وأما قول البصريين بأنه لو كان أحد أحرف الرباعى فى نحو جعفر زائدا لكان وزنه فعلر إلخ قول منقوض، لأن العلماء حين قالوا يعبر عن الزائد بلفظه إنما قصدوا ما يزاد من حروف الزيادة العشرة (سألتمونيها) لا المزيدة للإلحاق أو الحروف التى تزاد من أصل الوضع، وإلا فإنه يعبر عنها بما عبر عما تقدمه لا بلفظه (٣) .

---

(١) الإنصاف فى مسائل الخلاف. المسألة ١١٤ ج ٢ ص ٧٩٣ - ٧٩٥

(٢) الاشتقاق (عبد الله أمين) ص ٤٠٦ (٣) المصدر السابق ص ٤٠٩ - ٤١١

وقد فسر الأستاذ عبد الله أمين أصالة ما زاد على الثلاثة بطريق أجدر بالقبول، ويوفق بين المذهبين السابقين للبصريين والكوفيين فأكثر الكلمات الثلاثية والرباعية والخماسية - إن لم تكن كلها - أصلها ثنائية ثم زيدت من أصل الوضع حرفا أو حرفين أو ثلاثة حتى صارت ثلاثية ورباعية وخماسية، وصارت الزيادات من أصول الكلمات، وقد قال سيبويه: إن المزيد للإلحاق يصبح من بنية الكلمة، ويجرى مجرى ما لا زيادة فيه» (١) .

واعتقد أن ابن جنى كان ممن يرى هذا الرأى، فالزائد على ثلاثة أحرف يلاحظ فيه أن حرفا أو أكثر قد أضيف للمادة الثلاثية على أنه زائد عليها من أصل الوضع، ثم اعتبر الزائد من أصول الكلمة التى لا تفارقها، ويبدو ذلك من فصل كبير عقده بعنوان (باب فى تداخل الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية)(٢) .

ومن أوضح ما ذكره فى موضوعنا قوله: «فأما تداخل الثلاثى والرباعى لتشابههما فى أكثر الحروف فكثير منه قولهم: سبط وسبطر، فهذان أصلان لا محالة ألا ترى أن أحدا لا يدعى زيادة الراء، ومثله سواء دمث ودمثر وحبج وحبجر (٣) .

ومن الأصلين الثلاثى والرباعى المتداخلين قولهم قاع قرق وقرقر وقرقوس(٤) وقولهم: سلس وسلسل، وقلق وقلقل، وذهب أبو إسحاق فى نحو قلقل وصلصل وجرجر وقرقر إلى أنه فعفل، وأن الكلمة لذلك ثلاثية حتى كأن أبا أسحاق لم يسمع فى هذه اللغة الفاشية المنتشرة بزغد وزغدب وسبط وسبطر ودمث ودمثر وقول العجاج:

ركبت - أخشاه - إذا ما أحبجا (٥)

---

(١) المصدر السابق ٤١١ - ٤١٢ (٢) الخصائص ٢/٤٤ - ٥٥

(٣) الحبج: المنتفخ السمين والحبجر - أيضا - الغليظ يقال: وتر حبجر.

(٤) أملس ناعم .

(٥) أحبج: ظهر خطره وهو فى مقام الحديث عن المهمه فى صدر البيت (ومهمه هالك من تعرجا) .

هذا مع قولهم: وترحبجر [١] ، ويمكن على هذا المعنى أن نحمل تعليق ابن جنى على رأى أحمد بن يحيى ثعلب فى قول الشاعر:

يرد قلخا وهديرا زغدبا [٢]

فى أن الباء زائدة، وأخذه من: (زغد البعير يزغد زغدا فى هديره) فقد قال: إن قوله الباء زائدة كلام تمجه الآذان، وتضيق عن احتماله المعاذير، وأقوى ما يذهب إليه فيه أن يكون أراد أنهما أصلان مقتربان كسبط وسبطر [٣] .

وهو ينظر إلى تحقق ذلك فى الحرف الواقع فى حشو الكلمة كزرم وازرأم، وخضل واخضأل، وزهر وازهأر وضفد واضفأد وزلم وازلأم فلا تكون همزته إلا أصلا وكذلك لام ازلغب هى أحرى أن تكون أصلا [٤] وما ذلك إلا لأنه ينظر إلى أنه أضيفت إلى الثلاثى حروف أخرى لتنويع معناه وصارت بعد ذلك من أصول الكلمة، وهذا مبنى على وجود فرق بين تلك الحروف التى زيدت من أصل الوضع وبين الحروف التى توجد وتحذف وهى حروف (سألتمونيها) والزيادة بالتضعيف ونحوهما.

ولعل فهمنا لهذا ينبنى على أن ابن جنى أثبت فى الاشتقاق الأكبر أن الحرف الزائد ينوع معنى البناء فهناك فرق بين جلف وجلم وجرف وجنف إلخ[٥].

ولعل الدكتور الصالح قد استنتج اعتراف ابن جنى بالنحت فيما زاد على الثلاثة من العبارة التى ذكرها موازنة بما ورد عن سيبويه فى الكتاب من عبارة مماثلة مصاحبة لطريقة النحت السماعية حيث يقول: «وقد يجعلون للنسب فى الإضافة اسما بمنزلة جعفر، ويجعلونه من حروف الأول والأخير ولا يخرجونه من حروفها ليعرف كما قالوا سبطر فجعلوا فيه حروف السبط إذ كان المعنى واحدا وسترى بيان ذلك فى بابه إن شاء الله فمن ذلك عبشمى وعبدرى» [٦].

---

(١) وترحبجر: قوى ممتلىء.

(٢) القلخ والزغدب: هدير البعير وانظر: الخصائص ١/٥٢

(٣) المصدر السابق ١/٤٩ (٤) المصدر السابق ١/٥٢

(٥) واستدللنا من ذلك على إيمانه بالثنائية اللغوية على ما سبق بيانه ص ٢٩٠

(٦) الكتاب ٢/٨٨ ودراسات فى فقه اللغة ص ٣٠٣

ولكننا نرى أن ذلك كله احتمال وظن لا يمكن القطع فى أمره فإذا كان أسلوب سيبويه محتملا له فإن كلام ابن جنى لا يوجد فيه ذلك، ولو كان ابن جنى - كما يخيل لنا - أراد الإشارة إلى النحت بصورته المعروفة فيما زاد على الثلاثى لكان أولى به أن يصرح بوقوعه فى سبط وسبطر ونحوهما بوضوح أكثر من ذلك، وبخاصة أنه معاصر لابن فارس الذى أوضح تلك النظرية بأجلى بيان، ولا سيما كذلك أننا عرفنا عن ابن جنى ولعه بالبيان الواضح الذى يخرج به أحيانا إلى حد الاستطراد.

ولعل أمر النحت فيما زاد على الثلاثة لم يرق فى نظره فعدل عنه، ويمكن فهم ذلك من أنه صرح بأن الراء فى سبطر لا يمكن عدها زائدة وهاجم ثعلبا حينما قال بزيادة باء (زغدب).

والمحدثون يعدون نحت ما فوق الثلاثى من قبيل التحايل والتعسف والتعارض مع المناهج العامة التى تسير عليها اللغات الإنسانية بصدد الكلمات الدالة على الحدث وتصريفها [1] ويتطرف الأستاذ العلايلى فيعد ذلك مما يظهر « مقدار الوهم والدخل الذى سقط فيه الأقدمون، وأن العربية شبت عن النحت بما فيها من القوانين العملية، فالنحت - أبدا - ظاهرة من طفولية اللغة » [2] .

النحت بين السماع والقياس

مال كثير من العلماء إلى أن يكون النحت سماعيا، إذ لم يرد عن العرب من الكلمات المنحوتة إلا القليل، ولذلك منع بعضهم استخدامه فى المصطلحات العلمية لأن (لغتنا ليست من اللغات التى تقبل النحت على وجه لغات أهل الغرب كما هو مدون فى مصنفاتها، والمنحوتات عندنا عشرات أما عندهم فمئات بل ألوف، فساغ لهم النحت أما عندنا فاللغة تأباه وتتبرأ منه).

. وذهب بعض الباحثين إلى جواز النحت، واستخدامه فى اللغة ونقل المصطلحات العلمية دون قيد أو شرط.

لكن الرأى الأولى بالقبول هو القول بجوازه حين تدعو الحاجة إليه، فما لم

---

(١) فقه اللغة د. وافى ص ١٨٢   (٢) مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٥٣

نجد عن طريق الاشتقاق، والنقل منفذا اتخذنا النحت سبيلا يثرى اللغة فى وضع مصطلحات جديدة، ولا سيما فى عصرنا الذى تفتح بالعلوم والمعارف، وكثرت فيه الصناعات والمخترعات.

ويشترط للنحت أن تكون الحروف متساوقة بعضها مع بعض، وتجرى على أحكام العربية وطرق صياغتها واستعمالاتها المعروفة حتى لا يؤدى النحت إلى الإخلال بالاسم، وتشويهه أو بعده عن الذوق.

وعلى هذا الانسجام بين الحروف نحتت (أنفمى) للصوت الذى يخرج من الأنف والفم معا، و (لبأرز) من (لبنان) و (أرز) وهو شجر معروف هناك.

أما أن يقال فى الطب الذى هو (جسدى نفسى) Physchosomatic على طريق النحت النفسجى أو النفسجسدى فهو ناب عن الذوق، ومفسد للاسم بإضاعة بعض أحرفه، ولذلك حكم بعض المحدثين بفساد هذا النحت، لأنه لم يحقق الغرض المطلوب، مع الإخلال بالأصل، فالنحت يحتاج إلى ذوق سليم خاصة، فكثيرا ما تكون ترجمة الكلمة الأعجمية بكلمتين أصلح وأدل على المعنى من نحت كلمة عربية واحدة يمجها الذوق ويستغلق فيها المعنى.

فالنحت طريقة يلجأ إليها اللغوى عند الحاجة، وبذلك كان قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو قرار صائب.

* * *

الفصل الثانى

القلب والإبدال

تكلمنا عن أنواع الاشتقاق الصغير والكبير، والأكبر، وبينا أن الكبير قائم على تقليب المواد اللغوية بتقديم بعض حروفها على بعض، وهذا هو المعروف عند الصرفيين بالقلب المكانى، كما بينا - أيضا - أن الاشتقاق الأكبر قائم على أساس أن بعض الحروف يختلف بين لفظ وآخر ويكون المختلف فيه متحدا مخرجا أو صفة وهذا هو المعروف بالإبدال.

ويقتضينا ذلك - بعد أن عرفنا أن لكل منهما سرا من أسرار اللغة فى دوران المادة حول معنى واحد، ومناسبة الحروف للمعانى أن نبين معنى القلب والإبدال ومنشأهما باعتبارهما مصدر هذين النوعين من الاشتقاق، وأنهما - بذلك - عاملان مهمان فى نمو الثروة اللغوية، وتفرعها على نحو واسع مفيد فى الوجوه المشار إليها.

أولا : القلب

تعريفه :

هو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض، ويحدث فى الصحيح، والمعتل، والمهموز إلا أنه فى الأخيرين أكثر وقد أورد السيوطى فى فصل خاص عن القلب أمثلة كثيرة منها - جبذ وجذب، وما أطيبه، وما أيطبه، وعاث وعثا، إذا أفسد، وهفا فؤاده وفها، واعتاقه الشىء، واعتقاه إذا حبسه، وشاءنى الأمر وشآنى : إذا أحزننى.

وقد ورد القلب فى كلام العرب على صور كثيرة معروفة فى فن الصرف منها تقديم اللام على العين كآن وأنى، أو على الفاء كأشياء - على أرجح الأقوال - أو تقديم العين على الفاء كجاه فى وجه أو تأخير الفاء عن اللام كالطادى فى الواطد والحادى فى الواحد، وغير ذلك مما هو معروف هناك.

آراء العلمـاء فى نشـأته

١ - رأى البصريين :

يرى البصريون أن الكلمتين المتحدتين فى الحروف المختلفتين فى الترتيب قد نشأتا عن أحد طريقين :

(أ) الطريق الأول - القلب :

إذا أمكن الحكم على إحدى الكلمتين بالأصالة والأخرى بالفرعية بأن تكون إحدى الكلمتين أكثر تصرفا من الأخرى أو أكثر شيوعا فى الاستعمال .

فمن الأول : أنى وآن، والأولى أصل لأنها أكثر تصرفا لورود المصدر منها دون الثانية، وكذلك يئس يأسا وأيس مقلوب منه، فيئس له مصدر وأيس لا مصدر له، ومن الثانى شاكى السلاح، وشائك السلاح، وجرف هار وهائر، فشاكى وهار أكثر استعمالا من نظيريهما ولذلك عد كل منهما أصلا لصاحبه[١] وهذا يكون عند قبيلة واحدة أو عند العرب جميعا .

(ب) الطريق الثانى - اختلاف اللهجات :

وذلك إذا لم يمكن الحكم على إحدى الكلمتين بأنها أصل للأخرى . وذلك إذا تساويتا فى التصرف والاستعمال، فقولهم جذب وجبذ ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه، وذلك أنهما جميعا يتصرفان تصرفا واحدا نحو جذب يجذب جذبا فهو جاذب، والمفعول مجذوب، وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ والمفعول مجبوذ، فإذا جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك[٢] .

فالكلمتان - هنا - تساويتا تصرفا واستعمالا فكلاهما أصل قائم برأسه، وإحدى الكلمتين تستعمل فى قبيلة والأخرى فى قبيلة أخرى فهما من اختلاف اللهجات .

٢ - رأى اللغويين ونحاة الكوفة :

يرى هؤلاء العلماء أن اختلاف الكلمتين على النحو السابق يعد قلبا مكانيا، لا فرق بين صيغة وأخرى، وأن الناطق به العرب جميعهم، أو قبيلة معينة،

---

(١) المزهر ١ / ٤٨١

(٢) الخصائص ٢ / ٧٠

وقد أخذ بهذه الوجهة ابن دريد فى الجمهرة وأبو عبيد فى الغريب المصنف، وابن النحاس فى شرحه على المعلقات، وعلى ذلك فلا يسوغ أن يكون من باب اختلاف اللهجات [1] .

ويبدو ضعف المذهب البصرى لأنه بنى على أسس واهية لأن قلة تصرف الكلمة لا تصح أن تكون مقياسا لفرعيتها لجواز أن تكون متصرفة وأماتها العرب أو لم يصل إليها الرواة.

ومقياس الاستعمال غير منضبط لتعريضه الكلمة لأحكام مختلفة حسب الذيوع وعدمه.

كذلك يبدو ضعف وجهة اللغويين، والكوفيين بناء على عدم استقرار فكرتهم عند التطبيق على الأمثلة، فعلى الرغم من أنهم حكموا على اكرهف بأنها مقلوبة عن اكفهر[2] نجد صاحب اللسان يذكر أن اكرهف لغة فى اكفهر، وفى موضع آخر قال: «والمكرهف لغة فى المكفهر أو مقلوبة عنه وكذلك ورد اضمحل لغة جمهور العرب، وامضحل لغة قبيلة معينة، فهى عند بنى كلاب[3] .

ويبدو أن اختلاف الترتيب ينشأ من اختلاف القبائل ولا ضير فى تسميته قلبا مكانيا مع ملاحظة أنه نشأ من اختلاف القبائل، فلا تفرقة بين القلب، وبين اختلاف اللهجات.

فحادثة القلب الصوتية قد ترجع فى بعض الألفاظ إلى عهد بعيد جدا فى تاريخ اللغة بحيث تأصلت كل واحدة من اللفظتين كمدح وحمد، وجذب وجبذ فى قبيلة من القبائل، أو فى معنى مختلف بعض الاختلاف عن معنى اللفظة الأخرى حتى بدت للباحث أنها لغات متعددة وتنوسيت الحادثة الصوتية التى هى قلب مواقع الحروف [4] .

---

(١) المزهر ١/٤٧٦ – ٤٨١ (٢) الخصائص ٢/٧٣، ٧٤ والمزهر ٤٧٦١

(٣) فقه اللغة د. نجا ٣/٥٨، ٥٩، ٤/٥٣، ٥٤ وانظر: اللسان ط بولاق ٦/٤٦٨، ١٣/٤١٤ وط بيروت ٩/٢٩٨

(٤) فقه اللغة للمبارك ٨٧

ثانيا : الإبدال

تعريفه :

في اللغة : مصدر أبدلت كذا من كذا إذا أقمته مقامه، والأصل فيه جعل شيء مكان شيء آخر (1) .

وفى الاصطلاح : جعل حرف مكان آخر مطلقا (2) .

وهذا تعريف عام يشمل الصرفى واللغوى .

ولم يلاحظ الصرفيون فى تعريف الإبدال - بالمعنى السابق - أية اعتبارات تجوز التبادل، بين الحرفين وربما كان ذلك منهم لأنهم نظروا نظرة عامة، فوجدوا بعض الحروف ينوب عن الآخر فى كلمات كثيرة سواء المطرد منها وغيره حتى عرفوا الإبدال بأنه جعل حرف مكان آخر مطلقا .

ولذا نلاحظ أن الإبدال نوعان :

١ - **المطرد** : وهو الذى يخضع لقواعد منتظمة، وحروفه (هدأت موطيا) فالواو والياء تقلبان همزة - مثلا - إذا تطرفتا إثر ألف زائدة كما فى كساء وبناء إذ أصلهما كساو وبناى ، والواو إذا تحركت وانفتح ما قبلها قلبت ألفا كما فى قال فأصلها قول على ما هو معروف فى علم التصريف، وهذا النوع لا صلة له ببحثنا لأنه لا يرد على وجوه مختلفة بل ينطق بطريقة واحدة عند العرب جميعا .

٢ - **غير المطرد** : وهو الذى لا تحكمه قواعد أو قوانين ولذا فهو يسلك

---

(١) لسان العرب ٩ / ٥ ، ١٣ / ٥٠ ، ٥١

(٢) فى كتب التصريف تفريق بين الإبدال والتعويض والقلب وبيان النسبة بينها فهى تعرف الإبدال بأنه جعل حرف مكان آخر مطلقا، والتعويض بأنه جعل حرف خلفا عن حرف آخر أو أكثر سواء كان المعوض فى غير مكان المعوض عنه مثل عدة وابن أو فى مكانه نحو اصطبر ومخيريج فى تصغير مستخرج، فكل إبدال تعويض ولا عكس، والقلب هو : جعل حرف من حروف العلة والهمزة مكان حرف منها مثل قام وقائم فكل قلب إبدال ولا عكس، وقد خرج التعويض من تعريف الإبدال بقيد المكان وخرج القلب بقيد الإطلاق إذ هو يختص بكون المبدل فى مكان المبدل منه ولا يختص بحروف العلة، ومن راعى الاختصاص جعل بينهما التباين . انظر : الخصائص ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ والأشمونى مع الصبان ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ والتصريح ٢ / ٣٦٦ والأشباه والنظائر ١٢٣١ ، ١٢٥ ومقدمة الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١ / ٩

طرائق مختلفة عند قبائل العرب، فقبيلة تقول: درأ وأخرى: دره: وقبيلة تقول: اجتمعوا وأخرى تقول: اجدمعوا وغير ذلك، وهذا النوع هو مجال بحثنا [1].

ويمكن معرفة الإبدال - عند الصرفيين - بأمور كثيرة منها:

(أ) الرجوع إلى الأصل كما فى كلمة - قال - فهى من القول، أو النظائر من المشتقات، كما فى تراث فالتاء مبدلة من الواو لوجودها فى ورث ووارث.

(ب) كثرة التصريف وقلته مثل جدث وجدف فالأول أصل لقولهم أجداث ولم يقولوا أجداف.

(جـ) قلة استعمال البدل كما فى الثعالى والأرانى فالياء فيهما بدل من الباء فى الثعالب والأرانب.

(د) أن يترتب على القول بالأصالة حدوث وزن لا يوجد فى العربية كما فى (هراق) فالهاء مبدلة من الهمزة إذ لا يوجد فى اللغة العربية وزن هفعل [2]. ومثل ازدجر واصطبر إذ لا يوجد وزن افدعل أو افطعل.

أهميـــة الإبـــدال :

للإبدال اللغوى أهمية كبيرة نذكر بعضها فيما يلى:

١ - تنويع المعانى واتساع دائراتها «فانت ترى أن الوشوشة تنصرف إلى صوت لا تنصرف إليه الوسوسة أو الوصوصة وأن الهديل غير الهدير وأن فلج غير فرج أو فلح [3]، وهذه القيمة التعبيرية للحرف كانت لابن جنى اليد الطولى فى إثباتها والبرهنة عليها من واقع اللغة ففى باب (إمساس الألفاظ أشباه المعانى) ساق أمثلة متعددة تفيد تنوع المعنى تبعا لاختلاف الحروف وبنى كلامه على المناسبة بين المعانى والأصوات الطبيعية المعبرة عنها يقول «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما

---

(١) اللهجات العربية د. نجا ٥٥

(٢) الأشمونى مع الصبان ٤ /٢٨٣ - ٢٨٥

(٣) التطور اللغوى التاريخى ١١٥ وفقه اللغة للمبارك ٥٠

نستشعره» [١] ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح قال سبحانه: «فيهما عينان نضاختان» فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه [٢] وهناك أمثلة كثيرة توحى بمعان مهمة زدناها بيانا فى حديثنا عن الاشتقاق.

٢ - معرفة الإبدال تؤدى إلى وقوف الإنسان على المعانى الحقيقية للألفاظ وتفسيرها بالمعنى المناسب فى التراكيب التى تقع فيها وهذا يفيد فى فهم النصوص الأدبية فإن أدنى زيغ فى الكشف عن معنى الألفاظ أو الصور الأدبية يؤدى إلى البعد عن أهداف النص ومراد صاحبه وقد بعد أحدهم عن الصواب حينما حاول أن يفسر الشطر الثانى من فائية ابن زيدون وهو:

سرى الأين من آثاره فيه مزحف .

فقد فسر الأين بالتعب والإعياء والمعروف أن المزحف هو موضع زحف الحية ولا ترابط بين الأين بهذا المعنى الذى فسره وبين المزحف [٣] .

٣ - قد ينتفع بالإبدال فى المصطلحات العلمية لتخصيص اللفظين المتعاقبين لمسميين متشابهين بينهما علاقة معينة، فالأرثة والأرفة [٤] يمكن وضع الكلمة الأولى - كما قال الأستاذ التنوخي - لكلمة borne (أى المنار) بين الأرضين المتجاورتين دفعا لنزاع الجارين والكلمة الثانية للحد بين الأرضين وللأمير مصطفى الشهابى معجم زراعى اتخذه مرجعا له فى تحقيق ما ورد فى كتاب أبى الطيب من ألفاظ النبات وقال إنه يجعل فى معجمه التأريث مقابل Abornage بالفرنسية والتأريف مقابل Codastre [٥] .

٤ - دفع التصحيف قال أبو حيان سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول: ما ذقت عدوفا ولا عدوفة قال: وكنت عند يزيد بن مزيد الشيبانى فأنشدته بيت قيس بن زهير:

---

(١) الخصائص ٢/١٥٧ (٢) المصدر السابق ١٥٨

(٣) مقدمة كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ص ٤٠ والمزهر ١/٢٢٢ واللسان ١١/٢٩

(٤) الأرث والأرف: الحد بين الأرضين. لسان العرب ٢/٤١٦، ١٠/٣٤٥، ٣٤٦

(٥) مقدمة كتاب الإبدال ص ٤١

ومجنبـــات مـا يذقـن عـــدوفـة   يقذفن بالمهــرات والأمهـــار [١]

بالدال فقـال لى يزيد : صحـفـت يا أبا عـمرو إنما هى عـذوفـة بالذال قـال : فقلت له : لم أصحف أنا ولا أنت تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال [٢] .

٥ – الربط بين الألفاظ المتشابهة فى اللغات السامية فالعربية والسريانية والعبرية وغيرها من أخواتها ترجع إلى لغة واحدة هى السامية الأم إلا أنها اختلفت لاختلاف البيئات والأحوال وأحيانا يكون هذا الإبدال قياسيا فالثاء فى العربية تقابلها الشين فى العبرية والتاء فى السريانية فيثب العربية يقابلها **Yashav** العبرية ويتب السريانية، وأمثلة هذا التبادل كثيرة فى الأخوات الساميات .

علاقات التبـــادل :

كان للغويين اتجاه خاص فى بحث الإبدال، بنوه على أساس أن يكون بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية تتمثل فى اتحاد المخارج أو تقاربها والتماثل أو التقارب فى بعض الصفات ورتبوا على ذلك مناسبة الحروف لمعانيها على نحو يكشف عن سر استعمال الحروف كما ظهر لنا فيما سموه الاشتقاق الأكبر، وأساسه هو الإبدال [٣] .

ومما اتحد المختلف فيه مخرجا قولهم : خامل وخامن، وهتل وهطل فاللام والنون من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا، والتاء والطاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا .

ومما تقارب الحرف المختلف فيه مخرجا قولهم : الناس والنات، فالسين من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى والتاء من طرفه مع أصول الثنايا العليا، وهما متحدتان فى بعض الصفات، فأبدلت السين تاء لموافقتها إياها فى الهمس وتجاور المخارج .

---

(١) المجنبات : الخيل البعيدات ما بين الرجلين وهو مدح لها والعدف : الأكل وما يذقن عدوفة : أى شيئا . اللسان ١ / ٢٧٠ ، ١١ / ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) فقه اللغة للمبارك ٥٠

(٣) الفلسفة اللغوية ٣٦ ، ٣٧ وفيه أمثلة للإبدال فى العبرية والأشورية .

ومن ذلك قولهم: السراط والصراط، ومسقع، ومصقع، وسبقت وصبقت، وقطل وقطم، فهى مع اتفاق الحرف المختلف فيه فى المخرج أو تقاربه تتفق فى بعض الصفات فالسين والصاد تشتركان فى الهمس والرخاوة والصفير، واللام والميم تشتركان فى الجهر، والتوسط والذلاقة والاستفال، والانفتاح مما يسوغ الإبدال، ويقرره .

آراء العلماء فى الإبدال

اختلف علماء اللغة فى نشأة هذا النوع من الكلمات التى يبدو التقارب بين حروفها ومعانيها، ونحن نذكر لك الآراء فى ذلك.

١ - نشأت كلمات هذا النوع عن اختلاف اللهجات:

قال بذلك أبو الطيب اللغوى وابن السكيت وأبو محمد البطليوسى وابن خالويه وأبو على القالى وغيرهم. قال أبو الطيب فى كتابه: «ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة، تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا فى حرف واحد[1].

قال: والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة وطورا غير مهموزة، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميما، والهمزة المصدرة عينا كقولهم فى نحو: أن: عن، لا تشترك العرب فى شىء من ذلك إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون [2] .

ونقل السيوطى عن العلماء الآخرين ما يؤكد ميلهم إلى هذا الرأى وأخذهم به [3] .

٢ - نشأت كلمات هذا النوع عن أحد طريقين :

(أ) الطريق الأول: الإبدال :

إذا أمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى تبعا لكثرة التصرف وشيوع الاستعمال، وهذا يمكن حدوثه عند قبيلة واحدة من العرب أو عند العرب جميعا.

---

(١) سر الصناعة ١ / ١٧٢ (٢) المزهر ١ / ٤٦٠ (٣) المصدر السابق ١ / ٤٦٠

(ب) الطريق الثانى : اختلاف اللهجات :

وذلك إذا لم يمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى لتساويهما تصرفا واستعمالا، ويكون عند قبائل عربية متعددة.

وقد قال بهذا الرأى فريق آخر من العلماء على رأسهم ابن جنى، ووافقه ابن سيدة، وابن يعيش.

وهذا الحكم المبنى على الشيوع وكثرة التصرف قد تعرض لنقد علماء اللغة فوجهته غير صالحة لأن تكون مقياسا علميا سديدا، فمقياس التصرف لا يعول عليه، ومقياس الاستعمال غير منضبط على ما بينا فى حديثنا السابق عن القلب.

أضف إلى ذلك أن أرباب هذا الرأى قد رجعوا عنه، فنحن نلاحظ أن ابن جنى وهو من زعماء هذا الرأى - قد أحس بضعف هذا المقياس فى قرارة نفسه فهو يقول - مثلا - فى الخصائص « فأما قولهم ما قام زيد بل عمرو، وبن عمرو فالنون بدل من اللام ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن)، والحكم على الأكثر لا على الأقل، هذا هو الظاهر من أمره، ولست مع هذا أدفع أن يكون (بن) لغة قائمة برأسها [1] .

فهذا دليل على عدم اعتداد ابن جنى بهذا المبدأ وتشككه فيه، وهذا - كما قال أستاذنا الدكتور نجا - يعطينا صورة صادقة عن ضعفه [2] . وقد أيد الرأى الأول فريق من علماء اللغة المحدثين [3] فالإبدال ينشأ من اختلاف اللهجات.

ويلاحظ أن هذا الرأى - على الرغم من أنه يجعل ألفاظ هذه الظاهرة من اختلاف اللهجات، لا ينسى أن التقارب بين الحروف ملحوظ فيها [4] وهذا يشير إلى تطور صوتى، وإن كان بين لهجات متعددة.

وبعد استعراضنا لهذه الآراء ومناقشتها نحس بأنه لابد لنا من نظرة واعية

---

(١) ٢/ ٨٤ (٢) اللهجات العربية ٥٨

(٣) انظر: اللهجات العربية د. نجا ٥٨ والتطور اللغوى التاريخى د. السامرائى ص١٠٨ - ١١٣ وفقه اللغة د. رافى ١٧٨ ، ١٧٩

(٤) لم يلتزم ذلك كثير ممن روى ألفاظ هذه الظاهرة من القدماء كأبى الطيب اللغوى. انظر كتابه: (الإبدال) جـ١ صفحات ٢٠٥ - ٢٥٢ ومقدمة محققه ص ١٠ ، ١١

ومن تحليل علمي دقيق نتتبع به الظواهر المختلفة والدواعي الكثيرة التي أحاطت وتحيط باللغة، ونشأة مفرداتها والظروف التي عاشت فيها ومرت بها في مراحلها التاريخية المتعددة، حتى نصل إلى الحقيقة «ونستنتج القانون الذي ينظم حوادثها إن كان لها قانون مطرد، وهذا يعتبر المفتاح لعلم الاشتقاق الذي يكشف الصلة بين كلمات تباعدت أصولها» (١).

أسباب الإبدال

الأسباب التي دعت – وتدعو – إلى استعمال بعض الحروف مكان بعض كثيرة، ومتشعبة، وربما رجع الاختلاف بين الأصوات إلى واحدة أو أكثر منها، وسأحاول – جهدي – استقصاءها جميعا، حتى نستطيع تفسير ما ورد من ألفاظ هذه الظاهرة تفسيرا صحيحا.

والذي جعلنا نفكر في هذا التفسير وجود تلك الألفاظ في لغتنا العربية، غير منسوبة إلى قائليها، أو غير محددة النسبة، فكتب اللغة تذكر أن هذا الاستعمال لهجة قيس أو لهجة تميم أو غيرهما من القبائل العربية دون الجزم بأنها لهذه القبيلة أو تلك.

وبعد عرضنا للأسباب وتحليلها، تحليلا علميا دقيقا، نحاول تطبيقها على بعض الكلمات، لنبين أن الدراسة الواعية للألفاظ التي تحويها ظاهرة الإبدال، يمكن إخراج الكثير منها عن دائرته، وعلى ضوء تلك الدراسة يمكن علاج هذه المشكلة اللغوية، التي اضطربت فيها الآراء، واختلفت فيها وجهات الباحثين قديما وحديثا.

١ – اختلاف اللهجات :

تختلف طبيعة الجزيرة العربية وبيئاتها الاجتماعية، بداوة وحضارة ولذلك أثره في تعدد اللهجات.

واللغة عادة اجتماعية يقابل مخالفها بالسخرية والإنكار من جماعته التي ينتمي إليها.

---

(١) فقه اللغة للمبارك ٣٩

ومن المعروف أن أية جماعة إنسانية، تتمسك بالاستعمال اللغوى المتعارف بينها فلا تتخلى عنه، وقد روى عن أبى حاتم أنه قال لأم الهيثم: كيف تقولين أشد سوادا من ماذا؟ قالت: من حلك الغراب، قال: أفتقولينها من حنك الغراب؟ فقالت: لا أقولها أبدا [(١)] .

ولذا فإن اختلاف اللهجات يعد من العوامل المهمة فى تفسير ظاهرة الإبدال.

فالقبائل البدوية تميل إلى الأصوات الشديدة، فى نطقها لأن طبيعتها تتناسب مع الفرقعات والأصوات السريعة، على حين تميل القبائل الحضرية إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة، فالباء والتاء والدال، والكاف قد ينطقها المتحضرون: فاء - سينا - زايا - شينا [(٢)] .

ولا يتحول أحدهما عن طريقته إلا بعسر، وحين يريد النطق باللغة النموذجية، وهذا يحدث فى الأوساط العلمية اليوم حيث تلقى المحاضرات بالفصحى، ثم يعود ملقيها إلى طبيعته اللهجية بعد ذلك.

وقد تتسبب عوامل كثيرة فى جذب الإنسان إلى تغيير نطقه كسهولة الصوت الجديد، أو استحسانه أو رغبة فى تقليد شخص آخر أو تبعا لعوامل الزمن والثقافة أو غير ذلك مما يذكره اللغويون.

ولو أن علماء اللغة ورواتها نسبوا كل لفظ إلى صاحبه لقلل ذلك من خطر هذه الظاهرة ووجودها.

وبناء على محاولة نسبة النطق المعين إلى ذويه يمكن تفسير عدد غير قليل من الألفاظ، قيل أنه من الإبدال.

٢ - التطور الصوتى :

لعل الأصوات العربية كانت فى تطور مستمر على لسان أهلها، فى عصر النشأة والنمو ويعد التغير الصوتى عاملا مهما ترجع إليه كثير من أمثلة

---

(١) المزهر ١ / ٢٢٩

(٢) انظر: فى اللهجات العربية ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٨٦ مثل: عكوب وعكوف - النات والناس - الدغدغة والزغزغة وعليك وعليش.

الإبدال، وهذا التغير مبنى على أساس العلاقة بين الحروف المتبادلة فى المخرج أو الصفات كما قرر علماء اللغة، فالأصوات التى تتألف منها الكلمات ينسجم بعضها مع بعض.

يقول الأستاذ فندريس: « فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها مع بعض ارتباطا وثيقا، فهى تكون نظاما متجانسا، مغلقا، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها، هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات، وهى ذات أهمية قصوى لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل من نظام من الأصوات »[1].

وهذا الانسجام يختلف بين قبائل العرب لاختلاف بيئاتهم وثقافاتهم وتبعا لنواح (طبيعية، فسيولوجية، ونفسية معا) [2] ويترتب عليه إبدال بعض الحروف.

كما أن اختلاف الأزمان، والأجيال يؤدى إلى التغير الصوتى فى اللغة الواحدة، بل إن اللغة يعتريها التغير فى العصر الواحد والجيل الواحد بحيث تبدو آثاره واضحة من بلد إلى بلد بل إن هذا الاختلاف فى النظام الصوتى « يتغير إن قليلا وإن كثيرا من سن إلى أخرى » [3].

وعلماء اللغة المحدثون يؤكدون أنه ليس من الممكن أن ينطق اثنان من أبناء أمة واحدة وفى جيل واحد، نطقا متماثلا فى كل الصفات [4].

وهذا التطور الصوتى له آثاره فى نشأة بعض الصيغ، وقد تستعمل هذه الصيغ الجديدة - بجانب القديمة - فى بيئة لغوية واحدة، فى فترة معينة، وقد تموت القديمة وتبقى الجديدة فى الاستعمال،أو يعيش الاثنان معا، أما فى البيئات المتعددة فلا مانع من وجود كل فى موضعه.

ولهذا التطور الصوتى عوامل كثيرة ساعدت عليه، نتحدث عنها بالتفصيل فيما يلى:

---

(١) اللغة ٦٢ (٢) المصدر السابق ٧٥ - ٧٨

(٣) المصدر السابق ٦٦ واللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ٣٥ ، ٣٦

(٤) الأصوات اللغوية ١٧٠

(أ) أعضاء النطق :

تعزى بعض التبدلات الصوتية إلى هذا الجهاز الذى تتكون فيه الأصوات، على أساس اختلافه بين الشعوب، وما يجرى عليه من تطور، وما يكون فيه أو يحدث له، من عيوب نطقية، فقد ادعى بعض العلماء أن أعضاء النطق تختلف من شعب إلى آخر، تبعا لخصائص الشعوب، ومقوماتها، الوراثية، والاجتماعية، وجعل لذلك أثره فى التطور الصوتى [١] .

ولكن علم التشريح أثبت أنها لا تختلف بين الشعوب، ولم يقم دليل تشريحى أو لغوى مؤكد – حتى الآن – على هذا الاختلاف .

ومع ذلك فلابد أن يكون هناك تأثير ما وإن لم يوجد خلاف واضح، لأن أفراد البيئة الواحدة يختلفون فى طريقة النطق، كما أن الطفل يختلف عن أبويه[٢] وقد وصف الأستاذ « فندريس » هذا التغيير بأنه « خطير النتائج لأنه لا يبشر بشىء أقل من انقطاع التوازن فى النظام الصوتى » [٣] .

وإذا كان هذا فى بيئة واحدة، وشعب واحد، فلا ريب أن حدوث التخالف بين الشعوب يكون أكثر وضوحا، تبعا لما يحيط بالفرد فيها من مؤثرات، وعوامل واستعداد لأعضاء الجهاز الصوتى .

وهذا الجهاز لا يثبت على حال واحدة، بل إنه يتطور، ويختلف، تبعا لمراحل تكون الإنسان، ونموه، واختلاف البشر بعضهم عن بعض، كما يتطور كل ما في الكون فهو يخضع لما تخضع له كل الكائنات، من سنن النشوء والارتقاء، ولذلك تأثيره فى الأصوات ولو كان ضئيلا .

ولعل لعيوب أعضاء النطق أثرا فى تغير النظام الصوتى، فالملاحظ أن تلك الأعضاء يعتريها عيوب، منذ ولادة الطفل أو فى أثناء حياته، لمرض أو غيره من الأسباب فيترتب عليها عيوب فى أداء الأصوات .

ومن المحتمل أن بعض العرب الذين أخذت عنهم اللغة كان فى لسانهم عيوب نطقية، فنقلت إلينا الألفاظ، كما سمعت منهم، وفيها بعض الأصوات

---

(١) فقه اللغة د. وافى ١٣٠ (٢) اللغة ٦٤ (٣) المصدر السابق ٦٥

التى تأثرت بعيوب لسانهم، ولم ينتبه الرواة إليها، لأنهم كانوا مشغولين بعملية الجمع دون ملاحظات أخرى.

ومما هو مسلم أن اللثغة تتسبب فى إبدال بعض الحروف، كما فى نطق الراء التى تتحول عند الألثغ إلى غين، أو همزة، أو لام، فكلمة (يا ربى) قد تنطق: (يا غبى)، و (يا أبى)، و (يالبى) [1].

ولا ريب أن لذلك أثرا ما فى الإبدال [2].

(ب) الزمان والمكان :

الزمـــان :

كل شىء فى الوجود يتطور، تبعا لتطور الزمن، واختلاف عصوره، ولا سيما الكائنات الحية، فهى تتغير من آن لآخر، واللغة كائن حى، وقد لوحظ أن نطق الفرد يختلف من فترة لأخرى، والطفل يقلد أبويه، والمحيطين به، ومع ذلك فانتقال اللغة من جيل إلى جيل، يتبعه شىء من التطور فى النظام الصوتى.

ولا ريب أن العربية كانت تنتشر بين القبائل ومرت عليها أزمان طويلة قبل نزول القرآن الكريم بها، وجمع الرواة لها.

وهذا يقتضى أن الألفاظ التى جمعت تشتمل على أصوات اعتراها التغيير. نتيجة اختلاف الزمن على الناطقين بها.

وقد حاولت الأمم – ولا تزال تحاول – أن تتصدى لنقل لغاتها بين الأجيال بوسائل مختلفة، كالتعليم والتلقين، وغيرهما، وهذا من شأنه أن يقلل من خطر التغيرات التى تطرأ عليها، ونذكر هنا أن العربية لقيت اهتماما كبيرا من أهلها، لأنها لغة القرآن الكريم، الذى كان سببا فى وصول أصواتها إلينا، على الرغم من توغلها فى القدم وتتابع الدهور عليها وما نجده من لهجات عامية منتشرة بيننا خاضع للنمط العام التطورى، وللزمن أثره فى اختلافها وتشعبها.

ومن المؤكد أن من أحداث الزمن فى اللغات، بعض الأحداث الصوتية

---

(١) المزهر ١ / ٢٦٥ وتاريخ آداب العرب ١ / ١٥٤

(٢) بالغ الأستاذ جورجى زيدان فعزا ألفاظ الإبدال إلى علة طبيعية فى أعضاء النطق، وجعل ذلك عاما فى جميع الأمم. الفلسفة اللغوية ٣٩، ٤٠

التى تؤدى إلى تبدلات الحروف، فتنشأ بعض الألفاظ التى تدخل تحت ظاهرة الإبدال.

المـــكان :

لا جدال فى أن البيئة الطبيعية تؤثر على الإنسان، الذى يعيش بين أحضانها جسميا، وعقليا، وخلقيا، كما تؤثر على تصرفاته، ومنها اللغة، فهى أحد هذه التصرفات.

وعلم اللغة الحديث يثبت بالتجربة أثر اختلاف البيئات الصحراوية، والزراعية، والصناعية، وغيرها فى اتجاه القاطنين بها.

فمن سكن المدن الزراعية، أو الصناعية، وتأثر بالثقافات كان له نمط لغوى خاص، يختلف عن النمط الذى يتجه إليه سكان الصحارى، وهذا واضح فى البيئة العربية التى نعرف عنها هذا الاختلاف.

فالعربى البدوى – مثلا – يميل إلى تقليل الجهد العضلى، وسرعة النطق ورفع الأصوات، وجهرها، وشدتها على حين يميل العربى الحضرى، إلى الأناة والاطمئنان فى النطق، وتستدعى منازل المدن خفض الأصوات، وهمسها [١] والفروق النطقية بين هذا وذاك، كثيرة، ومبثوثة فى كتب اللغة.

فالطبيعة لها أثرها المهم فى الاتجاه اللغوى وبخاصة فى المفردات [٢].

(جـ) الحيـــاة الاجتماعيـة :

العزلة والاختلاط الاجتماعى :

قد تتسبب البيئة الجغرافية من صحراء، وجبال، أو بحار، أو صعوبة المواصلات ومشقتها، أو نحو ذلك، فى عزل شعب عن الاتصال بالآخرين، فيختلف سلوكه وعاداته، كما يختلف التطور اللغوى عنده عما عليه غيره، من الشعوب، وقد يحدث ذلك لفريق من أبناء اللغة الواحدة فتختلف لغته، وطريقة نطقه، عن بنى جنسه، ولهذا أثره فى تغير الأصوات وتبدلها.

---

(١) فى اللهجات العربية ط ٣ ص ١٠٠، ١٠٦، ١٣٢

(٢) محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها ص ٥١

كما أن الحياة، وحاجاتها، تتطلب الاختلاط والاتصال بين الشعوب، وبين جماعات الأمة الواحدة، لتبادل المنافع، الاجتماعية، تجارية، وزراعية، وصناعية وغيرها أو للهجرة أو للغزو، والسيطرة، فيحدث ذلك آثاره فى أحوال الأمم المختلطة، وتتأثر لغاتها بعضها ببعض ضعفا، أو قوة، كما يختلف أداء الأصوات فيها، وقد تنقسم اللغة الواحدة إلى لهجات.

وعن طريق هذا الاتصال بين الشعوب وأبناء اللغة الواحدة «كانت الانقلابات السريعة، الغريبة، فى تطور بعض اللغات، لأن الشعب الذى يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحيانا عوائد النطق فى اللغة التى تركها[1]، فيمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزى أو الألمانى، وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطار، بسبب التردد فى صيغة الكلمات[2].

وبعض هذه التأثيرات يبدو فى الناحية الصوتية ولذلك أثره فى الإبدال.

الثقافة والحضارة :

للثقافة والحضارة آثارها على نواحى الحياة، ومنها اللغة.

وتتصل الأمم بعضها ببعض، بالود والتعاون، والمعاملات الطيبة، أو بالغزو أو الهجرة كما بينا، ولذلك أثره فى تبادل الثقافات، والحضارة والتقدم والرقى.

كما يتصل أبناء الأمة الواحدة بعضهم مع بعض، على النحو المتقدم، وتخضع اللغات للتأثير الثقافى، والحضارى، فينالها بعض التغيرات، وبعضها – ولا شك – صوتى، كالنبر والتنغيم، أو استبدال صوت لين بغيره، مما يناسب التحول الذى طرأ على الناطقين باللغة.

وقد حدث ما يشبه ذلك للغة العربية الفصحى، وقت نشأتها ونموها تأثرا منها بعوامل الحضارة، والثقافة، ونجم عنه بعض أمثلة الإبدال.

الحالة النفسية :

لا ريب أن ما يعترى الأمم من هدوء واستقرار، وقلق وترحال، وما تكون

---

(١) اللغة ٨٢، ٨٣.

(٢) المصدر السابق ٦٣، ٨١

عليه من سرور، أو حزن، أو غير ذلك من أحوال نفسية، له آثاره على لغتها، وطريقة نطقها.

فالألفاظ قد تكون رقيقة ضعيفة، أو قوية عميقة، وقد تكون واضحة، أو غامضة، حسب الجو النفسى الذى يكون عليه المتكلم.

والأفراد – كالجماعات – يعتريها الرضا النفسى، والبهجة، والمتعة، والقلق والضيق، والمشكلات المؤرقة، وتبدو آثار ذلك فى نطقهم.

وقد عزا بعض الباحثين المحدثين تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة، أو العكس إلى الحالة النفسية، فالدعة والاستقرار تنقل الأصوات من الشدة إلى الرخاوة، والقوة، والجبروت تدعو إلى العكس(١).

(د) عوامل اجتماعية أخرى :

هناك عوامل اجتماعية أخرى، كثيرة، قومية ودينية، وعصبية، وغيرها، لها آثار لغوية من إحياء صوت قديم أو إماتة صوت مولد، أو هجر صوت قديم، وتوليد آخر إلى غير ذلك.

وتبذل المحاولات فى العصر الحديث لتحقيق السيادة اللغوية، للعربية الفصحى على التخاطب بالعاميات، ومن أجل ذلك عادت بعض أصواتها كالثاء، والذال، والظاء، بعد التحريف الذى طرأ عليها إلى نطقها القديم الفصيح (٢).

كما أن القرآن الكريم كانت له آثاره فى حفظ العربية، وأصواتها إلى اليوم وقد تعصبت القبائل العربية للهجاتها المتعددة وظل ذلك إلى أن توحدت فى لغة عامة.

وكم تصارعت العربية مع اللغات التى اتصلت بها، بعد الفتوح الإسلامية ولا شك أن هذا وغيره له آثار لغوية، يتعلق بعضها بظاهرة الإبدال.

٣ – دواع لغوية :

أهم هذه الدواعى، تفاعل الأصوات، والاشتقاق، وتغير المعنى، والتصحيف والتحريف، والكذب فى الألفاظ واختلاقها وكل ذلك يتصل باللغة، تركيبا، وأخذا وكتابة، وحديثا.

---

(١) الأصوات اللغوية ١٧٤ (٢) فقه اللغة للمبارك ٤١

(أ) تفاعل الأصوات :

هو تأثر الصوت اللغوى بما يجاوره مما قبله أو بعده من الحروف، وأهم ما يشمله: ما يسمى بالمماثلة، والمخالفة.

المماثلة :

الانسجام الصوتى، يقتضى أن تتسق الحروف بعضها مع بعض، فإذا تجاور حرفان متنافران فلابد من تغيير أحدهما، ويقع ذلك فى كل اللغات ومنها العربية.

ومن أمثلتها: انقلاب النون الساكنة ميما إذا وليها باء كما فى (أنبئهم) وقلب تاء الافتعال طاء، إذا كانت فاء الكلمة من حروف الإطباق كما فى (اصطبر – اطلع – اظطلم) .

وقد يقتصر التحول على الصفات، كتفخيم الراء إذا فتحت، أو ضمت، أو سكنت، بعد ضم أو فتح، وترقيقها فى غير ذلك.

وقد يؤدى هذا التفاعل إلى فناء أحد الصوتين فى الآخر كما فى اظلم، وادكر. وقد قسم المحدثون هذا التأثر إلى رجعى وتقدمى.

فالرجعى: هو الذى يتأثر فيه الصوت الأول بالثانى.

والتقدمى: هو الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول.

وتميل اللغة إلى الانسجام الصوتى إذ هى لغة الموسيقى اللفظية، والتركيبية كما سماها الأستاذ العقاد.

المخالفة :

إذا اشتملت الكلمة على صوتين، متماثلين فأحيانا تبقى صورتاهما، إذا لم يكن فى ذلك ما يخل بالانسجام، والسهولة فى النطق، وأحيانا يقتضى التخفيف تغير أحدهما، وهذا يرد فى كثير من اللغات السامية ومنها العربية.

فإذا ضمت الكلمة صوتين من نوع واحد فإن أحدهما قد يتغير إلى صوت لين طويل – غالبا – أو إلى أحد الأصوات الواضحة (ل . ن . م . ر .) التى تشبهها، وبخاصة اللام والنون [1] .

---

(١) الأصوات اللغوية ١٥٣ ، ١٥٤ .

ومن ذلك: عس: طاف بالليل والعوس: الطوفان بالليل، والرس: دفن الميت، والرمس: مثله [1] وإجاص: قيل فيها: إنجاص [2] ونحو ذلك.

فالمخالفة تكون عاملا لتخفيف ما كره النطق به، وبخاصة حين يكون نطق المتماثلين محتاجا إلى جهد عضلي [3].

ولذلك - بلا شك - أثره في الإبدال.

(ب) الاشـــــتقاق:

قد تتحد الكلمتان في المعنى والحروف إلا حرفا واحدا، مع خلاف في أصلهما الاشتقاقي، فيؤدي ذلك من حيث الظاهر إلى دخولهما في نطاق الإبدال.

ولكن النظرة المتأنية تخرجهما منه، ومن ذلك: أعديته، وآديته، بمعنى: قويته، وأعنته، فقد ذكر ابن جني: أن العين غير مبدلة من الهمزة، لأن كلا منهما مأخوذ من أصل يختلف عن صاحبه، فالأول مشتق من العداوة والثاني من الأداة [4].

وعلى هذا النحو تفسر طائفة غير قليلة من ألفاظ هذه الظاهرة، فتخرج عن دائرتها.

(جـ) تغير المعنى:

إن المعاني تتجدد وتتطور في اللغات ولا سيما لغتنا العربية المبنية على المجاز، يقول الأستاذ العقاد: «في هذه اللغة الشاعرة، توجد كلمات كثيرة، بقي لها معناها الحقيقي، مع شيوع معناها المجازي على الألسنة، حتى ليقع اللبس في: أيهما السابق وأيهما اللاحق [5] في الاستعمال، فالعزة يوصف بها المكان المنيع، والرجل المنيع فالعزيز في الحالين غير السهل المباح والفريضة هي الخشبة التي فرضت، أو حزت وبينت فيها العلامات، ويقال: الفرائض، عن الحدود المبينة

---

(1) المصدر السابق ١٥٣، ١٥٤

(2) المزهر ١/ ٢٦ وجاص عن الشيء: مال وحاد عنه.

(3) انظر أمثلة كثيرة وتوضيحات لها في الكتاب: (باب ما شذ فأبدل مكان اللام ياء كراهية التضعيف) والخصائص ٢/ ٢٢٧، ٢٣١

(4) سر الصناعة ١/ ٢٤٢، ٢٤٣

(5) اللغة الشاعرة ٣٩

الواضحة[1] وكلمة: رأس، تطلق على رأس الإنسان، ورأس الجبل ورأس النخلة، ثم أخيرا رأس الحكمة [2].

وهذا التطور المعنوى، قد يتسبب فى مساواة لفظ بآخر، فيتفق معه فى المعنى، وقد يتصادف أن تتفق - حينئذ - الكلمتان فى جميع الحروف إلا حرفا واحدا وقد يكون أحد المعنيين مجازا إلا أنه عرف واشتهر، فكأنه حقيقة بكثرة الاستعمال على ما سبق.

ولو أن اللغويين حاولوا الفصل بين المعانى، وبيان حقيقتها، ومجازها، وصلة هذه المعانى بعضها ببعض لأدى ذلك إلى تفسير قدر كبير من الألفاظ التى تدخل ظاهرة الإبدال.

وقد يكون من ذلك كلمتا: ثوم وفوم فالفاء ليست بدلا من الثاء لاختلاف المعنى، فالفوم، الحنطة، وما يختبز من الحبوب، والثوم: معروف، وهو يختلف عن الحبوب التى تختبز [3].

وبذلك يتبين لنا أن التغير المعنوى له أثر فيما عد من ألفاظ هذه الظاهرة.

(د) التصحيف والتحريف :

التصحيف خاص بنقط الحروف المتشابهة فى الشكل مثل (ب ت ث - ج ح خ - د ذ - ر ز - س ش - ص ض - ط ظ - ع غ - ف ق) وخاصة عند استعمال الحروف فى تكوين الكلمات.

والتحريف خاص برسم الحروف المتشابهة وشكلها مثل: الدال والراء، والذال، والزاى والدال واللام، والنون والزاى.

والتصحيف قسمان :

١ - تصحيف الخط :

وينشأ من اختلاط نقط الحروف المتشابهة، وفى المعاجم كثير من ذلك، مثل: جفأه وحفأه: صرعه، وخفأه: اقتلعه فضربه به [4].

واحتمال التصحيف الكتابى فى هذا ونحوه قوى.

---

(١) المصدر السابق ٤١ (٢) فى اللهجات العربية ص ١٦٣

(٣) سر الصناعة ١ / ٢٥٢ والقاموس ٤ / ١٠١، ١٨٧

(٤) انظر هذه الكلمات فى باب الهمزة من القاموس وغيره من المعاجم.

٢ - تصحيف السمع :

وينشأ من نطق الأحرف المتقاربة، مخرجا أو صفة، كالهمزة والهاء فى اتمهل واتمأل والباء والميم فى كثب وكثم وهذا - وأمثاله - مما يتوهم فيه الإبدال.

وقد وقع التصحيف من فحول رواة اللغة وعلمائها، أمثال الخليل، والأصمعى، وأبى عمرو بن العلاء، وأبى زيد، وأبى عبيد، وغيرهم (١) .

فلعل هذا كان له أثر، فى نشأة بعض الكلمات التى عدت من الإبدال.

(هـ) صنع الألفاظ واختلاقها :

لقد زيد فى الأشعار على لسان بعض القبائل العربية، لإرادتها زيادة أمجادها ومفاخرها، كما أن الرواة زادوا فى تلك الآثار الأدبية، أيضا وقد اتهم بذلك خلف الأحمر، وحماد الرواية، كما يذكر ابن سلام الجمعى (٢) .

ولا ريب أن اللغة بألفاظها، تعتمد - بعد القرآن الكريم - على التراث الأدبى، وبخاصة الشعر، الذى كان يحتل الصدارة فى البيئة العربية ويسرى على الألسنة فى جميع الأصقاع، فتنتشر لذلك الألفاظ، ولو كانت فى أبيات مصنوعة.

كما ذكر السيوطى أن ألفاظا كثيرة قد اخترعت، وعقد لذلك أبوابا فى مزهره (٣) .

ومما أورده من الألفاظ المصنوعة، (عنشج) : ثقيل وخم، ذكر أنه مصنوع و(ضهيد) : الرجل الصلب، عن الخليل - كذلك - أنه مصنوع (٤) .

وذكر الدكتور السامرائى : أن السعة التى أضيفت للمعجم العربى، بطريقة الإبدال قد توسع فيها، وربما دخلها شيء من التجوز والتوسع والكذب، وذلك أنك تجد الكثير مما عرض له الإبدال - كما نص عليه الأقدمون - يفتقر إلى الشاهد الصحيح.

---

(١) المزهر ٢ / ١٨١ (٢) طبقات فحول الشعراء ٣٩ - ٤١

(٣) هى : النوع الثانى (معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت) والنوع الثامن «معرفة المصنوع» والنوع العاشر «معرفة الضعيف والمنكر والمتروك» والنوع الحادى عشر «معرفة الردىء والمذموم». (٤) المزهر ١ / ٩٠

وقد ضرب أمثلة لذلك من المعاجم ومنها: بعير مبلند ومكلند، إذا كان شديدا، وقد ابلندى يبلندى ابلنداءا، واكلندى يكلندى اكلنداءا: إذا اشتد.

ثم يقول: وما أظن أن العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة [١].

ويبدو لنا أن هذا الحكم مطلق، يجب تخصيصه بما روى عمن ليس من أهل الضبط والإتقان [٢].

وبعد هذا نقول: إنه لا يبعد أن تكون بعض الألفاظ المخترعة قد أضيفت إلى اللغة، وكان لها أثرها، فى ظاهرة الإبدال.

* * *

---

(١) التطور اللغوى التاريخى ١١٥

(٢) المزهر ١/٦٣ – ٦٧، ١٢٠ – ١٢٤، والمعاجم اللغوية ٦٨

الدراسة التطبيقية لظاهرة الإبدال

وهنا نأتى إلى تطبيق هذه الأسباب على كلمات استعملت فيها بعض الأصوات مكان بعض، لنصل بشأنها إلى الرأى الحق، والتفسير العلمى الصحيح، المبنى على التحليل، والفحص الدقيق.

التبادل بين الهمزة وحروف العلة

قسم القدماء هذا الإبدال إلى واجب مثل: كساء، وبناء، وصحراء، وإلى جائز مثل: أقتت، ووقتت، وألل، ويلل، وإلى شاذ مثل: جأن فى جان، والضألين، فى الضالين وهذا ما يسمونه بتحقيق الهمزة.

كما أنها قد لا تحقق فى بعض الألفاظ مثل: لرووف - قريت - توضيت.

وعلماء العربية القدامى يعدون ذلك من باب الإبدال، فالهمزة المحققة مبدلة من الألف، أو الواو أو الياء، والمسهلة عكس ذلك أبدلت منها هذه الحروف.

وقد قسموا هذا الإبدال إلى واجب، وجائز، وشاذ حسب قواعد التصريف، فى الموافقة، أو المخالفة للقياس.

والملاحظ أنه لا توجد علاقة صوتية، تسوغ التبادل بين الهمزة، وهذه الثلاثة، وقد أوضح بعض المحدثين المفارقات بين الثلاثة المذكورة، وبين الهمزة، من عدة وجوه:

١ - الألف صوت انطلاقى مجهور، أى حركة أو مصوت، بالإطلاق الحديث، على نقيض الهمزة تماما [١].

٢ - الهمزة من الحنجرة، والواو من أقصى اللسان، والياء من وسط اللسان، مع ما يحاذى الموضعين من الحنك الأعلى.

٣ - الهمزة صوت انفجارى شديد، وهما انطلاقيان (لينان).

٤ - الهمزة صوت ذو وجود صوتى وسياقى (فونوتيكى وفونولوجى) أما هما فوجودهما انتقالى سياقى (فونولوجى) فحسب، مهما تكن ظروف وجودهما فى المادة اللغوية.

---

(١) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٢٥

٥ – الهمزة صوت مهموس، أو لا هو بالمهموس ولا بالمجهور، وهما مجهوران، إلا فى حالة خاصة، وهى حالة الوقف، على مثل العفو والسعى، حيث يمكن أن يتعرضا للهمس فى هذا الموقع، وهو ما يقع أحيانا لحركات أواخر الكلمات، فى حالة ما سماه القدماء بالروم، وهى حالة من حالات الوقف (١) .

بيد أن القدماء يرون وجود ثقل، فى حروف العلة، ولذلك قلبت همزة للتخفيف، وذلك متحقق – أيضا – في تحويل الهمزة إلى هذه الحروف، حتى إنهم قالوا فى تعريف الإعلال: إنه « تغيير حروف العلة ، بالقلب ، أو التسكين، أو الحذف، للتخفيف » وعدوا من حروف الإعلال الهمزة (٢) .

وقالوا: إن « الهمزة حرف شديد، مستثقل، يخرج من أقصى الحلق، فلذلك الاستثقال شاع فيها التخفيف، لنوع من الاستحسان » (٣) .

ومن هنا منع وقوع الهمزة فى كلمة، فاء، وعينا معا، أو عينا ولاما معا، وعلل ذلك ابن جنى بثقل الهمزة، فكيف بالهمزتين معا؟ قال فى سر الصناعة:

« وإنما لم تجتمع الفاء والعين، ولا العين واللام همزتين، لثقل الهمزة الواحدة، لأنها حرف سفل فى الحلق، وبعد عن الحروف، وحصل طرفا، فكان النطق به تكلفا، فإذا كرهت الهمزة الواحدة، فهم باستكراه الثنتين ورفضهما – لاسيما إذا كانتا مصطحبتين غير مفترقتين فاء وعينا، أو عينا ولاما – أحرى، فلهذا لم تأت فى الكلام، لفظة توالت فيها همزتان أصلا » (٤) وذكر ابن سيدة أن حروف العلة تعل لطلب الخفة والكثرة والمناسبة (٥) .

والمحدثون على وفاق مع الأقدمين، فى سبب التغيير المذكور يقول أحدهم: « ولسنا نشك لحظة فى أن ما تعوده اللسان العربى فى معاملته للواو والياء، والهمزة، ناشىء عن بعض الكراهات، التى لم يألفها، غير أن أسباب هذه الكراهات، تحتاج فى الحقيقة إلى شىء من التحليل، يكشف عن مدى ما تحتوى من ثقل، أو تنافر، يلجأ الناطق حياله إلى المخالفة، أو التصرف، بصورة ما، هربا من هذا الذى يكرهه » (٦) .

---

(١) المصدر السابق ٤٨ والأصوات اللغوية ٤٣

(٢) القواعد والتطبيقات ٦ ، ٧

(٣) شرح الشافية « العصام » ١٥٠

(٤) سر الصناعة ١ / ٨١

(٥) المخصص .

(٦) القراءات القرآنية ٧٨

فلهذا كان الإبدال بين الهمزة، وتلك الحروف الثلاثة، ولأجله - أيضا - خففت الهمزة، بتسهيلها، وجعلها بين بين، وكل ذلك من ضروب التخفيف، وألوانه.

ويبدو لنا أن التفسير الحق لهذا التغيير يقوم على أساس اختلاف اللهجات وشئون الاجتماع العربى، فقد روى لنا أن الذين يحققون الهمزة، هم قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، فهى - أساسا - من لهجات تميم وقيس وبنى أسد ومن جاورهم.

والهمزة لأنها صوت حنجرى، انفجارى، شديد، مما يناسب البيئة البدوية، وقد ذكرنا أنها ثقيلة فى النطق، بما يجعلها مناسبة لطبيعة البدوى، دون الحضرى.

كذلك فقد روى أن التسهيل - فى أصله - لهجة البيئة المتحضرة، وهم أهل الحجاز، وبخاصة قريش فى مكة، والأوس والخزرج فى المدينة، ولم يكن الحجازيون جميعا بعيدين عن تحقيق الهمز إلى تسهيله، بل منهم من استهواه تحقيقه، وهم من سماهم سيبويه (أهل التحقيق) فكانوا ينطقون بالهمز كإخوانهم من القبائل المحققة له، يقول سيبويه، «وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز، من أهل التحقيق، يحققون نبىء وبريئة، وذلك قليل ردىء» (١) .

ويذهب الدكتور الراجحى إلى أنه «من المرجح أن القبائل الحجازية التى كانت تجنح إلى تحقيق الهمزة هى تلك القبائل التى كانت تسكن أطراف الحجاز، مجاورة لأهل البادية، من وسط شبه الجزيرة وشرقيها» (٢) .

ولعل من هؤلاء المجاورين للبدو قبيلة (عكل) التى نسب إليها ابن جنى همز بعض الكلمات، فقد قال عن كلمة (ترقؤة) إنها لغة لبعض عكل، ووجه القول عليها - عندى - أن تكون مما همز من غير المهموز، بمنزلة: استلأمت الحجر، واستنشأت الرائحة (٣) .

و (عكل) من «طابخة» (٤) و «طابخة» من «خندف» (٥) التى سكنت

---

(١) الكتاب ٢ / ١٧٠ واللسان ١ / ١٤ (٢) اللهجات العربية ١٠٦

(٣) الخصائص ٢/ ٢٠٧

(٤) وهم بنو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مناة. نهاية الأرب ٣٦٧ ، ٣٦٨

(٥) من مضر من العدنانية وهم بنو طابخة واسمه عمرو بن إلياس بن مضر وللتسمية بطابخة قصة. انظر: نهاية الأرب ٣٢٢

الحجاز «فلعل» (عكل) كانت تسكن أطراف الحجاز، مجاورة للقبائل البادية، في وسط شبه الجزيرة، وشرقيها» [1] .

وقد اتخذت اللغة المثالية الهمز من مبادئها، بحيث ينطق به المتكلم الفصيح، في مجال استخدام اللغة المشتركة، في الشعر، والنثر، بدويا كان أم حضريا .

التبادل بين حروف العلة والسواكن (الصوامت)

١ - بالله - والله - الثعالب - الثعالى - لببت - لبيت .

٢ - اتصل واتقى - ايتصل وايتقى - اتسر واتبس - ايتسر وايتبس .

٣ - علج وعشج وحجتج - على وعشى وحجتى - شجرات - شيرات .

٤ - تصدد - تصدى - تصدية .

٥ - خامس - خامى - سادس - سادى .

٦ - قراط - قيراط - شراز - شيراز .

٧ - تقصص - تقصى .

٨ - تقضض - تقضى .

٩ - تمطط - تمطى .

١٠ - تلظظ - تلظى .

١١ - تطاللت - تطاولت - تلك - تيك .

١٢ - أما - أيما .

١٣ - تظنن - تظنى - تسنن - تسنى .

١٤ - هناه - (أصلها هناو) - هنه - هنا - هذه - هذى .

---

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ١٠٧

التحليل والتفسير :

هذه بعض الأمثلة، التى حدث فيها التبادل، بين حروف العلة، والسواكن.

وقد قيل لنا : إن فيها إبدالا، ونحن نلاحظ أن السواكن (الصوامت) - فى عمومها - تختلف مخارجها، عن مخارج حروف العلة، كما تختلف عنها فى كثير من الصفات، ومن هنا لا يصح التبادل بينها، لفقدان العلاقة الصوتية، وعلم اللغة الحديث قد وضع نصب أعيننا هذا الشرط، للحكم بالإبدال، فإذا فقد فإن التاريخ اللغوى يكشف لنا عن أسباب الخلاف، بين الألفاظ، المتقدمة، وأشباهها، وذلك يكمن فى اختلاف عوامل الاجتماع، والحياة العربية، فى بيئاتها المختلفة.

فالعرب تختلف طبيعة البيئة، التى يعيشون عليها، من صحراء، وسهول، ونماء وخصب، وزراعة، وتجارة، وصناعة، كما أن الأحوال البدوية، التى تتصف بها بعض القبائل، والأحوال الحضرية التى تعيشها قبائل أخرى، كانت تترك آثارها على النطق، فيختلف هنا عن هناك.

ولا ريب أن البدو يميلون إلى الأصوات الجلدة الشديدة على حين يميل الحضر إلى الأصوات اللينة الرخوة، وكتب اللغة تؤيد ذلك.

وهى تثبت أن استعمال الياء مكان الباء، والعكس، يشبه أن يكون لغة[1].

كما أن استعمال التاء، فى مكان الواو، أو الياء أو العكس من خصائص جماعة بأعيانهم، والأول لغة لأكثر العرب، والثانى خاص ببعض الحجاريين الذين لا يعبأون بتلاعب الحركات، فيقولون اوتصل - اوتقى - ايتسر - ايتبس - يوتصل - يوتقى - ييتسر - ييتبس - موتصل - موتسر - موتبس، ثم يقلبون ما يستحق القلب من الواو أو الياء تبعا للحركات السابقة عليها [2] .

ومع أن الجيم والياء متحدتان فى المخرج، وبعض الصفات، مما يسوغ الإبدال، بينهما، فإن استعمال كل منهما بدل الأخرى ورد على أنه لهجات، فقد

---

(١) المزهر ١ /٤٧٣ (٢) المصدر السابق ١ / ٤٦٠ - ٤٧٥

عرف إبدال الياء جيما عند قضاعة [١] والجيم تناسب تلك القبيلة البدوية، كما أن الياء تناسب المتحضرين من غيرها.

واستعمال اللام مكان الواو، أو الياء، أو الهاء مكان الياء، لهجات عربية، كما نقل إلينا علماء اللغة ورواتها [٢].

وقد يكون التبادل بينها، وبين السواكن (الصوامت) ناشئا عن كراهة تكرير الصوت أكثر من مرة، وهو ما يعرف لدى المحدثين بالتماثل بين الأصوات، ويلجأ من أجل تخفيفه إلى طريقة المخالفة، وهى تحويل أحد المتماثلين إلى صوت لين، ويتحقق ذلك فى قلب الباء، والدال، والراء، والسين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والميم، والنون، إلى صوت لين، كما فى لبيت، وتصدى، وغيرها، من الأمثلة المذكورة.

وهذا يثبت – بوضوح – أن هذه الاستعمالات – فى غالب أمرها – راجعة إلى اختلاف اللهجات، وحسن ذوق العربى بعد أن تحضر.

* * *

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٢٢

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٥ ولسان العرب ٣٣٧٢ يقول: وذى بكسر الذال للمؤنث، وفيه لغات: ذى وذه إلخ.

التبـــادل بين الصـــوامت

١ – أن – عن – رجل إنزهو وعنزهو [1] مؤتل – معتل – لأل – لعل – كثأ – كثع – التمىء – التمع – أير – هير [2] – أرقت – هرقت.

٢ – بنات بخر – بنات مخر [3] .

٣ – ذعالت – ذعالب [4] – صلت – صلب – نات – ناس – اصطبر – اطرد – اظطلم – تابوت – تابوه.

٤ – جثوت – جذوت – جدث – جدف [5] .

٥ – نفح ينفح – نفخ ينفخ [6] .

٦ – زقر – سقر – صقر – زمزمة – صمصمة [7] .

٧ – سده – شده (٨) – جعسوس – جعشوش [9] .

٨ – الطجع [10] .

٩ – عليش – عليك.

١٠ – قشطت – كشطت [11] .

التحليل والتفسير :

وردت تلك الأمثلة، على أنها من باب الإبدال، ولكن هناك شروط يجب توافرها، ليحكم به بين كلمتين، أو أكثر وهى :

١ – وجود العلاقة الصوتية كما تقدم.

---

(١) من الزهو .　　(٢) للصبا .

(٣) سحائب يأتين قبل الصيف، بيض، منتصبات فى السماء.

(٤) ذعالب : جمع ذعلبة بكسرتين بينهما سكون، وهو طرف الثوب أو ما تقطع منه، كذا فى اللسان، وفى الأشمونى جمع ذعلوب كعصفور ٤ / ٣٣٩　　(٥) القبر .

(٦) النفخ للنار والنفخ به يشتد اللهب ويقوى اشتعاله.

(٧) الجماعة .　　(٨) رجل مسدوه فى معنى مشدوه.

(٩) كل ذلك إلى قماة، وقلة، وصغر.　　(١٠) بمعنى اضطجع .

(١١) نزعت وقلعت وكشفت تقول كشطت الجل عن ظهر الفرس وقشطته : نزعته وكشفته وكذلك غيره من الأشباه. اللسان ٩ / ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢ - اتحاد الكلمتين فى المعنى على سبيل الحقيقة .

٣ - اتحاد الكلمتين فى الاشتقاق .

ولو تأملنا تلك الكلمات فإنه يبدو لنا أن بعضها تتحقق فيه الشروط، وبعضها لا، وبناء على ذلك، فلابد من النظر فيها، نظرة، فاحصة، على أساس أسباب الإبدال التى شرحناها، وبتطبيقها عليها يبدو أن الكلمات المختلفة فى حرف تنتسب إلى واحد، أو أكثر من تلك الأسباب المتقدمة .

فهنا يمكن أن نلاحظ كلمات تتوافر فيها العلاقة الصوتية، بين الحروف المختلفة منها (كالهمزة والعين، والهاء) و (الباء والميم) و (الثاء والذال والفاء) و(الحاء والخاء) و (الزاى والسين والصاد) و (القاف والكاف) .

كما نلاحظ كلمات أخرى لا تتوافر بين حروفها المختلفة هذه العلاقة .

ومع توافر العلاقة الصوتية فإن الفيصل فى الحكم هو وجود باقى الشروط .

ويبدو من الملاحظات اللغوية أن كلا منها قد فقد جانبا من تلك الشروط، أو اتجه اتجاها خاصا تحكمه عوامل الاجتماع العربى .

ونحن نحلل لك ذلك بما يبين أن أغلب تلك الأمثلة لا يدخل فى باب الإبدال، كما ذهب إلى ذلك الأقدمون، ومن تابعهم من المحدثين .

فمن الحروف التى تقاربت مخاربها، وصفاتها (الهمزة والعين) و (الثاء والفاء) ، (والزاى والسين والصاد) و (القاف والكاف) فوجد بينها مسوغ الإبدال، لكن كتب اللغة تذكر أنها لهجات .

فإبدال العين من الهمزة فى مثل (أن - عن) يسمى بالعنعنة وهى منسوبة إلى بنى تميم، والظاهر أن العنعنة كانت خاصة بإبدال همزة (أن) ثم امتد الاصطلاح إلى غيرها، في مثل (إنزهو ٠ عنزهو) ولذلك ذكر ابن جنى أنهم أبدلوا الهمزة فى غير (أن) سواء كانت أولا أو وسطا ووافقه على ذلك الدكتور أنيس، بل حكى عن الأصمعى صورا أخرى فى آخر الكلمة للعنعنة مثل كثأ اللبن = كثع، والتمىء لونه = التمع [١] .

---

(١) سر الصناعة ١ / ٢٣٤ والمخصص ١٣ / ٢٧٤ وفى اللهجات العربية ط ٣ ص ١١١

والثاء والفاء فى مثل (جدث وجدف) عند قبيلين من العرب فالثاء للتميميين، والفاء للحجازيين [1] .

والزاى والسين، والصاد فى مثل (زقر - سقر - صقر) فيها تقريب للصوت من الصوت، فقد قربت السين والصاد من القاف بإبدالهما زايا، لأن القاف مجهورة، وهما مهموستان فقلبتا إلى حرف يوافق القاف فى الجهر، ومن نفس مخرج السين، والصاد، وهو الزاى، وهذا التقريب من خصائص نطق قبيلة (كلب) [2] وكذلك التقريب فى زمزمة وصمصمة يعد من اختلاف اللهجات[3] .

والعلاقة بين القاف والكاف فى مثل (قشطت وكشطت) قوية فلا مانع من التبادل بينهما، وهما - مع ذلك - لهجتان فالقاف تميمية، لاختيار تميم للأصوات المستعلية القوية، والكاف حجازية، لاستفالها، ورقتها [4] .

ومن الحروف التى تباعدت فى المخرج وبعض الصفات (التاء والسين والهاء) و (الشين والكاف) .

ونلاحظ أن رواة اللغة ينسبونها إلى طوائف عربية مختلفة .

فاستعمال التاء مكان السين فى مثل (نات وناس) تنسب إلى خثعم وزبيد، من قبائل اليمن البدوية وتسمى بالوتم [5] .

واستعمال الهاء مكان التاء فى (تابوه وتابوت) يبدو أنه لهجة عربية، مثل (الفراه) فى لغة عامة عقيل، و (وأد البناه من المكرماه) فى لغة طيىء،

---

(١) المزهر ١ ٢٢٤ والمخصص ١٣ / ٢٨٦

(٢) سر الصناعة ١ / ٢٠٨

(٣) يؤكد ذلك وجود مصدر اشتقاقى مستقل لكل منهما وعدم اتفاق المعنى فى مادتيهما، من جميع الوجوه، وعند فتح الحرفين المكسورين تبقى الصمصمة بمعناها، وتنصرف الزمزمة إلى الصوت البعيد الذى له دوى فاللفظان لم يتفقا من جميع الوجوه سواء المعنى أو الضبط والمطلوب تحققه فى الإبدال.

انظر: القاموس ٤ / ١٦٣ ، ١٤٧ واللسان ١٥ / ٢٤١ وسر الصناعة ١ / ٢٢٠ والخصائص ٢ / ١٤٢ ، ١٤٣

(٤) سر الصناعة ١ / ٢٧٨ واللسان ٩ / ٢٥٥

(٥) المزهر ١ / ٢٢٢ واللهجات العربية ٦٤ وفى اللهجات العربية ١٠٥

ويمكن أن يكون ذلك جرى – أولا – فى حال الوقف، ثم سرى إلى الوصل كما ذكر ابن جنى [١].

واستعمال الشين مكان الكاف فى مثل (عليش – عليك) لهجة ربيعة، ومضر، وهما من القبائل البدوية، وتسمى بالكشكشة [٢].

فسبب اختلاف اللهجات واضح فى كل ما تقدم.

واختلاف المعنى يجعل من الصعوبة القول بالإبدال بين الثاء والذال، فى مثل سابق هو (جثوت وجذوت) فالكلمتان – على الرغم من تقارب الحرفين مخرجا، وصفة، مختلفتان معنى، فالجثو هو: القيام على الركب، والجذو: على أطراف الأصابع، فلا إبدال لاختلاف المعنيين [٣].

وكذلك إذا كان المعنى واحدا فى الكلمتين إلا أنه فى إحداهما حقيقى، وفى الأخرى مجازى، كما فى وقوع التاء موقع الباء فى (ذعالت وذعالب)، فمادة (ذعت) تدور حول الإضعاف، والإنهاك، فيتفق مع معنى (الذعالب) – التى هى أخلاق الثياب – على سبيل المجاز، فيكون جمعا بين حقيقة، ومجاز، وليس ذلك إلا نقضا للشرط الأساسى الذى هو اتحاد المعنيين على سبيل الحقيقة[٤].

وكذلك (صلب وصلت) فالصلب: هو الرجل الشديد، والصلت الرجل الماضى فى الحوائج، ويفهم منه الشدة، على سبيل المجاز.

واختلاف الصيغة يجعل الحكم بالإبدال غير سائغ كالمثال السابق، فقد اختلفت هيئة الصيغة، فالكلمة الأولى (صلب) مضمومة الصاد، والثانية (صلت) مفتوحتها، وذلك إخلال بشرط الإبدال [٥].

وكما فى استعمال الحاء مكان الخاء فى (نفح ونفخ) لأن ضبط التصريف مختلف، فأنت تقول فى المضارع والأمر من الأول (ينفح – انْفَح) بفتح الفاء – ومن الثانى (ينفخ – انفخ) بضمها، فاختلفتا صيغة، فلا يقع بينهما تبادل[٦].

---

(١) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الوجه الثانى من الورقة ١٠٧ والمحتسب ١ / ١٢٩، ١٣٠

(٢) المزهر ١ / ٢٢١ والخصائص ٢ / ١١

(٣) القاموس ٤ / ٣٦١، ٣٦٢

(٤) المصدر السابق مادة «ذعت».

(٥) المزهر فصل التصحيف واللسان ٢ / ١٥، ٣٥٨

(٦) القاموس ١ / ٩٩، ٣٢٠

والتبادل بين الهمزة والهاء كما فى (أير وهير ودرأ ودره) سائغ لوجود العلاقة الصوتية.

وقد يقويه - فى بعض الصيغ - أن عدم القول بالإبدال يؤدى إلى وجود وزن لا يعرف فى العربية، كما فى (هرقت وأرقت) فلا يوجد وزن (هفعل) حتى يحمل عليه إذا لم نحكم بالإبدال.

وفى استعمال اللام مكان الضاد فى مثل (الطجع) شذوذ فالذى يبدو أن الضاد العربية - وإن تقارب مكان خروجها مع اللام - فى نطقها صعوبة تجعل التبادل بينهما غير مستساغ، وبخاصة لامتياز الضاد بالاطباق، وقد وصف الصرفيون هذا الإبدال بالشذوذ (١) أو الندور (٢).

واختلاف الاشتقاق يمنع القول بالإبدال فى بعض الكلمات، مثل (بنات بخر، ومخر) فمع أن الباء، والميم متفقان فى المخرج، وكثير من الصفات فإن المعاجم تذكر تصرفا لكل من (بحر - بخر - مخر) (٣) مما يؤكد أن كلا من الكلمتين أصل، لاختلاف الاشتقاق، ومع ذلك فمن نطق بالباء كان بدويا، إذ الباء صوت شديد، يناسب البدوى، ومن نطق بالميم كان حضريا، إذ الميم صوت متوسط بين الشدة، والرخاوة، فهو مناسب للحضرى.

ولقوانين التفاعل بين الأصوات دخل فى تحويل بعض الحروف بحيث تصير الكلمات على هيئة توهم حدوث الإبدال، بينها، كما فى اجتماع الصاد، أو الضاد أو الطاء، أو الظاء مع التاء، فتقلب التاء طاء وهذا نتيجة تأثر الأصوات بعضها ببعض، ويتحقق ذلك فى صيغة (افتعل) إذا كانت فاؤها أحد الحروف المطبقة السابقة، كما فى (اصطبر، واطرد، واظطلم) إذ لا يمكن النطق بالتاء المهموسة المستفلة، بعد الحروف المطبقة، فدعا ذلك إلى نوع من التماثل، والانسجام، فحولت التاء إلى طاء، لتماثل الضاد، وأخواتها فى الإطباق، والاستعلاء، ويعرف هذا التغيير - فى الاصطلاح الحديث - باسم المماثلة، ولها نوعان، تقدمى، ورجعى.

وقلب تاء (افتعل) على الصورة السابقة من النوع التقدمى الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول.

---

(١) الأشمونى ٤ / ٢٨٠ (٢) التصريح ٢ / ٣٦٧
(٣) القاموس ١ / ٣٦٧، ٣٦٩، ٢ / ١٣١

وقد يقلبون التاء من جنس الحرف الأول، فيقولون اصبر - اظهر - اظلم - بتشديد الصاد والظاء - ، وهذا التأثر رجعى، تأثر فيه الأول بالثانى.

ويقال - أيضا - فى اظلم بتشديد الظاء: انظلم، وهذا هو ما يعرف فى علم الأصوات باسم المخالفة، وهو أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين، كل المماثلة، فيقلب أحدهما إلى صوت آخر، لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين[١] .

والتصحيف يلعب دورا مهما فى اتفاق الكلمات، مما يوقع فى توهم الإبدال، كما هو ملاحظ بين الباء والتاء فى (صلب وصلت) والحاء والخاء فى (نفح ونفخ) وكما فى استعمال الشين مكان السين فى (جعسوس وجعشوش) إذ المخارج متباعدة، والخلاف حاصل فى بعض الصفات، فلا مسوغ للتبادل، فمن الجائز أن تكون الباء والشين هى الأصل، وقد نشأت عنها التاء والحاء والسين بطريق التصحيف، ويؤيد ذلك فى المثال الأخير وجود المادة فى المعاجم بالشين دون السين.

كما أن اللثغة التى تلحق اللسان العربى قد تحدث تأثيرها فى تغيير الكلمات مثل (السدة والشدة) فمن المحتمل أن يكون ذلك لثغة لحقت النطق العربى عندما تكلم باللفظ شخص أجنبى عن اللغة ويؤكد ذلك - كما ذكرنا - عدم ورود المادة بالسين فى معاجم اللغة العربية[٢] .

ومن هذا التحليل الدقيق للكلمات يتبين أن الأسباب التى ذكرناها كان لها أثر كبير فى دخول كثير من الكلمات فى الإبدال مع أنها ليست منه.

ولو أننا - بالبحث الواعى - تتبعنا كل الكلمات، التى يظن فيها الإبدال، أو قيل به فيها، وهى كثيرة فى بطون المعاجم، وكتب اللغة، وطبقنا عليها تلك الأسباب لأخرجنا الكثير منها من دائرة الإبدال، فلم يبق فيها منه إلا القليل[٣] .

وبذلك نكون قد حللنا مشكلة كبرى، من مشكلات لغتنا العربية فلا تبقى تلك الألفاظ عبئا ثقيلا على مواد العربية، وتصرفاتها.

* * *

(١) سر الصناعة ١/٢٢٤ ، ٢٢٥ والخصائص ٢/١٤١ والأصوات اللغوية ١٥٢

(٢) انظر باب الهاء فى القاموس ولسان العرب.

(٣) انظر فى تفصيل ذلك بحثنا بعنوان (رؤية لغوية جديدة للإبدال فى الحروف الصامتة) بمجلة كلية اللغة العربية فى القاهرة العدد العاشر ص ٢١٠ وما بعدها.

الفصل الثالث

القياس والارتجال

أولا – القيـــاس

يعد القيـاس طريقـا لنمـو اللغـة، ووسـيلة من وسـائل إثرائها فـيمكن عن طريقه أن تولد كلمات أو صيغ كثيرة لاستعمالها فى أغراض شتى تبعا لمقتضيات المقـام.

فلكل لغة أنماط معينة ترسم طريق توليد الصيغ وارتباط الألفاظ بالمعانى وليس بمستطاع المتحدث باللغة أن يضع لفظا لكل معنى يرد على خاطره كما أنه لا يستطيع أن يستعمل صيغة لكل غرض أو تركيبا لكل حديث.

وإذا كان هذا شأن اللغات بعامة فإن لغتنا العربية بلغت الذروة فى دقتها وتناسقها ووضوح طرق استعمالها فأمام المتحدث بها منهج مرسوم يسير وفقه فى توليد الألفاظ من المواد اللغوية وقواعد ونظم موروثة فى استعمالها وتراكيبها اللغوية فليس عليه إلا أن يسمع ما يقوله العربى ويسير على منواله.

وهذا هو القياس الذى يؤدى إلى الاقتصاد فى المجهود الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمتاع غير مفيد [1] ويحفظ للغة قواعدها وينمى ألفاظها.

تعريف القيـــاس :

القياس فى اللغة : التقدير [2].

وفى الاصطلاح – عند علمائنا القدامى – حمل مجهول على معلوم فى إثبات حكم له أو نفيه عنه لأمر جامع بينهما، أو كما يقول ابن علان : حمل غير المنقول عن العرب على المنقول عنهم إذا كان غير المنقول فى معناه فى معنى المنقول عنهم»[3].

---

(١) اللغـة ص ٢٠٦

(٢) هو مصدر للفعل قاس بمعنى : قدر. انظر: داعى الفلاح لابن علان مخطوطة دار الكتب ص ١٦١.

(٣) المستصفى للغزالى ٢/ ٢٨٢ ، وداعى الفلاح ص ١٦١.

وعلى هذا فأركان القياس أربعة هى: المقيس عليه، وهو الأصل المعلوم أو المنقول عن العرب، والمقيس، وهو الفرع المجهول أو غير المنقول عن العرب، والعلة وهى الأثر الجامع بين المقيس والمقيس عليه، والحكم، وهو ما ثبت للمقيس عليه ويعطى للمقيس.

ويطلق القياس – فى اصطلاح المحدثين كما يقول فندريس – : على العملية التى بها يبتكر الذهن صيغة أو كلمة أو تركيبا تبعا لأنموذج معروف [1].

« فليس القياس إلا استنباط مجهول من معلوم، فإذا اشتق اللغوى صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة فى مادة أخرى سمى عمله هذا قياسا، فالقياس اللغوى هو: مقارنة كلمات بكلمات، أو صيغ بصيغ، أو استعمال باستعمال، رغبة فى التوسع اللغوى، وحرصا على اطراد الظواهر اللغوية » [2].

وليس معنى هذا التقنين ألا يشذ عن القواعد شىء « فهناك صيغ تثبت أمام القياس، ومن أجل ذلك تسمى بالشاذ إذ يحتوى نحو كل لغة من اللغات على قدر يزيد أو ينقص من الأسماء والأفعال الشاذة وتسمى – أيضا – بالصيغ القوية في مقابلة الصيغ الضعيفة أو العليلة التى تستسلم للتنظيم الذى يفرضه القياس، هذه الصيغ القوية تبقى خارج القاعدة.. وأغلب الظن أن اللغة تقضى على بعض هذه الصيغ شيئا فشيئا لتردها إلى القاعدة [3].

وقد يكون من نتيجة العمل القياسى – فى بعض الأحيان – التقليل من عدد الصيغ الشاذة أى إضعاف النوع القوى ولكن ذلك ليس قاعدة مطردة [4].

آراء العلماء فى القياس وأثره اللغوى

القياس فى معناه المختصر الواضح: أن نحاكى العرب فى كلامهم [5] وقد صرحنا بأن للعرب منحى خاصا فى كلامهم سلكه كل واحد منهم، وعلى هذا الأساس بدأ اللغويون يطبقون مبادىء القياس « فإذا قال عالم كابن سلام فى مقدمة طبقات الشعراء: إن أول من وضع قياس العربية هو أبو الأسود الدؤلى فإن

---

(١) اللغــة ص ٢٠٥
(٢) من أسرار اللغة ص ٩
(٣) اللغــة ص ٢٠٨
(٤) المصدر السابق ص ٢١٠
(٥) اللغــة والنحو ص ٢٢

ابن سلام لا يريد أكثر من أن أبا الأسود قد بدأ وضع قواعد عامة لبعض نصوص اللغة، دون أن يستنبط كلمات جديدة يضيفها إلى ألفاظ العرب» [١] .

ثم زادت مطالب الحياة بتقدم العرب، وحضارتهم، فزيد - فى اللغة - على أساس القياس، وبهذا أحكمت قواعده، وأخذت تبرز، فقرر الخليل وسيبويه أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم [٢] .

فالقياس فى اللغة يبدأ ضعيفا، ثم يكثر ويشتد بمضى الزمن فمثلا عندما أراد الناطق القديم أن يدل بكلمة على حرفة الكاتب صاغ مادة (كتب) على وزن (فعالة) وهكذا حتى كثرت الكلمات الدالة على الحرفة والتى على هذا الوزن، فأمكن للنحاة فيما بعد أن يستخرجوا لهذا الوزن معنى ووظيفة [٣] .

ومن هنا لاحظ العلماء العرب أن تصطبغ الزيادة بلون عربى لتجىء مشابهة لما سبق عن آبائهم وأجدادهم، ونشأت بذلك صيغ جديدة، وألفاظ جديدة خضعت لفكرة القياس.

وقد أخذ هذا المفهوم يتسع شيئا فشيئا، وينتصر له العلماء جيلا بعد جيل حتى قوى على يد أبى عثمان المازنى ، وكانت آراؤه أساسا قامت عليه مدرسة القياس فى القرن الرابع الهجرى ، فقد سار على نهج المازنى - وتوسع فيه - أبو على الفارسى، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى.

ومما قاله أبو عثمان المازنى «ألا ترى أنك إذا سمعت قام زيد أجزت أنت ظرف خالد، وحمق بشر، وكان ما قسته عربيا كالذى قست عليه، لأنك لم تسمع من العرب أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول، وإنما سمعت بعضا فجعلته أصلا، وقست عليه ما لم تسمع» [٤] وقد نقل هذا عنه ابن جنى فى خصائصه مع تغيير طفيف في العبارة [٥] .

وقال الفارسى - فيما حكاه عنه ابن جنى - : والقياس ألا يجوز إلا أن تبنى على أمثلة العرب لأن فى بنائك إياه إدخالا له فى كلام العرب، والدليل على

---

(١) طرق تنمية الألفاظ ص ١٥
(٢) المنصف ١ / ١٨٠
(٣) المدخل ص ٨٤
(٤) المنصف ١ / ١٨٠
(٥) الخصائص ١ /٣٥٧

ذلك أنك تقول: طاب الخشكنان فترفعه وإن كان أعجميا لأن كل فاعل عربى مرفوع، فإنما تقيس على ما جاء وصح [1].

وحكى ابن جنى عنه أيضا: قال: قال أبو على - وقت القراءة عليه كتاب أبى عثمان - لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبنى بإلحاق اللام اسما وفعلا وصفة لجاز، ولكان ذلك من كلام العرب، وذلك نحو قولك خرجج أكرم من دخلل وضربب زيد عمرا، ومررت برجل ضربب، وكرمم، ونحو ذلك، فقلت له: أفترتجل اللغة ارتجالا؟ قال: ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذا من كلامهم قال: ألا ترى أنك تقول: طاب الخشكنان فتجعله من كلام العرب، وإن لم تكن العرب تكلمت به هكذا قال [2].

وقال أبو على: أخطىء فى خمسين مسألة فى اللغة ولا أخطىء فى واحدة من القياس [3].

ويقول ابن جنى: واعلم أن من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب، نحو قولك فى قوله: كيف تبنى من ضرب مثل جعفر: ضربب هذا من كلام العرب، ولو بنيت مثل ضيرب أو ضورب أو ضروب أو نحو ذلك لم يعتقد من كلام العرب لأنه قياس على الأقل استعمالا والأضعف قياسا، وقد قال بعد ذلك إن فيه نظرا صالحا [4] وقال أيضا: وهذا باب مطرد متقاود، وقد كنت ذكرت طرفا منه فى كتابى فى شرح تصريف أبى عثمان غير أن الطريق ما ذكرت لك فكل ما قيس على كلامهم فهو من كلامهم، ولهذا قال من قال في العجاج ورؤبة، إنهما قاسا اللغة، وتصرفا فيها، وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما» [5].

وقد توسع العلماء فى بحث القياس - كما ذكرنا - حتى أصبحت له فروع متعددة أهمها الأقسام الأربعة التى أشار إليها الإمام الأكبر الخضر حسين فى كتابه (القياس في اللغة العربية) يقول: ترد كلمة القياس عند البحث فى معانى الألفاظ العربية وأحكامها على أربعة وجوه:

---

(١) المنصف ١ /١٨٠، ١٨١

(٢) الخصائص ١ /٣٥٨، ٣٥٩

(٣) المصدر السابق ٢ /٨٨

(٤) المصدر السابق ١ /١١٤

(٥) المصدر السابق ٢ /٨٨

١ – حمل العرب أنفسهم لبعض الكلمات على أخرى، وإعطاؤها حكمها لوجه يجمع بينهما، كما يقال: أعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم لمشابهته له فى احتماله لمعان لا يتبين المراد منها إلا بالاعراب والقياس بهذا المعنى واقع عن العرب أنفسهم، ويذكره النحوى تنبيها على علة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح.

٢ – أن تعمد إلى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجودا وعدما فتعدى هذا الاسم إلى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف، وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة، ومثال ذلك اسم الخمر عند من يراه موضوعا للمعتصر من العنب خاصة، وما وضع للمعتصر من العنب إلا بوصف هو مخامرته للعقل وستره، فإذا وجد عصير من غير العنب يشارك المعتصر من العنب فى الشدة المطربة المخمرة للعقل فإن من يقول بصحة هذا القياس بجعل هذا العصير من أفراد الخمر، ويسميه خمرا تسمية حقيقية لغوية، وهذا ما ينظر إليه علماء أصول الفقه عندما يتعرضون لمسألة (هل تثبت اللغة بالقياس؟).

٣ – إلحاق اللفظ بأمثاله فى حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة كصيغ التصغير والنسب، والجمع، وأصل هذا أن الكلمات الواردة فى كلام العرب على حالة خاصة يستنبط منها علماء العربية قاعدة تخول المتكلم الحق فى أن يقيس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق به من أمثالها.

٤ – إعطاء الكلمة حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها فى نوعها ولكن توجد بينها مشابهة من بعض الوجوه. كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجى قياسا على الأسماء المنتهية بتاء التانيث.

وهذان النوعان الأخيران بحثهما شيخ الأزهر وسمى الأول منهما بالقياس الأصلى والثانى بقياس التمثيل [1].

وهذه الأقسام كانت مثار طعن عنيف من بعض الباحثين لأنها

(١) القياس فى اللغة العربية ص ٢٥ – ٢٧

اتسمت بسمة فلسفية فى غالب صورها وفرضت عللا ربما لم يقصد العرب إليها [١] .

وكان القياس بهذه المعانى عرضة لنقد ابن مضاء الأندلسى الذى ثار عليه قديما ثم تبعه كثير من المحدثين.

يقول ابن مضاء فى الدعوة إلى إلغاء القياس « والعرب أمة حكيمة فكيف تشبه شيئا بشيء، وتحكم عليه بحكمه، وعلة حكم الأصل غير موجودة فى الفرع، وإذا فعل واحد من اللغويين ذلك جهل ولم يقبل قوله، فلم ينسبون ما يجهل به بعضهم بعضا، وذلك أنهم لا يقيسون الشيء، ويحكمون عليه بحكم إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودة فى الفرع، وكذلك فعلوا فى تشبيه الاسم بالفعل فى العمل وتشبيههم إن وأخواتها بالأفعال المتعدية فى العمل » [٢] .

وقد ترك شيخ الأزهر القسم الأول والثانى فلم يبحث فيهما على الرغم من أنه اعترف بأن الأول واقع عن العرب، ويمكن أن يصدق ذلك – فى رأينا – على النوع الذى سماه بقياس التمثيل، ولذلك نرى أن بعض العلماء قد أنكره باعتراف الإمام نفسه [٣] .

أما النوعان الثانى والثالث فلم يتعرضا لتلك النقود، بل حظيا بتأييد كثير من العلماء حتى فى المجامع اللغوية، ففى القاهرة أجاز مجمعها القياس الطبيعى المتمثل فى هذين النوعين:

١ – حين تذكر كتب اللغة المصادر ولا تذكر أفعالها أو العكس، أو حين يذكر الفعل الثلاثى ولا يذكر بابه هنا يستطيع المرء أن يلجأ إلى القياس ليستنبط مجهولا من معلوم، ومثل هذا القياس إذا أتيح لنا يكمل نقصا كبيرا فى المعاجم.

٢ – تعميم المعنى بعد أن كان خاصا قياسا على ما فعله العرب فى كلمة (الخمر) [٤] .

ونتكلم – بعون الله تعالى – عن آراء العلماء فى هذين النوعين فنقول: إن

---

(١) من أسرار اللغة ص ١٥ ، ١٦ ومناهج البحث فى اللغة ص ٢٤ – ٢٦ ومدرسة الكوفة ص ٤١٢

(٢) الرد على النحاة ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) القياس فى اللغة العربية ٧٤

(٤) من أسرار اللغة ص ١٦

أهم ما قيل فى ذلك من آراء يكمن فيما ذهب إليه البصريون والكوفيون، وعلى الرغم من أن المدرستين البصرية والكوفية كانتا متعاصرتين فإن كلا منهما كانت لها طريقة خاصة فى البحث، وكان لهذه الطريقة أثرها فى القياس.

وكل من المدرستين اتخذ من السماع مبدأ للقياس إلا أنهما اختلفتا فى تحديد مفهوم السماع الذى ينبنى عليه.

فالبصريون يعدون المسألة قياسية إذا وردت لها شواهد متعددة من كلام العرب، وقد «بالغوا فى التحرى والتنقيب عن الشواهد السليمة وأبلوا فى ذلك ما شهد لهم به الدهر، فتجافوا عن كل شاهد منحول ومفتعل... فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة الصحة لكفالة مقدماتها بسلامتها» [1].

ولكن الكوفيين كانوا يعتبرون المسألة قياسية، ولو ورد لها شاهد واحد من كلام العرب، وقد عولوا على شعر الأعراب بعد أن امتزجوا وتأشبوا بالمحتضرين، ولان جفاؤهم، ومن أجل هذا كان البصريون يغتمزون الكوفيين، فيقول الرياشى البصرى: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز [2].

وقد اختلف المحدثون في تقدير كل من الرأيين، فعلى حين يمتدح فريق منهم رأى البصريين يعيبه فريق آخر، وكذلك تختلف نظرتهم إلى رأى الكوفيين.

أما رأى البصريين فقد امتدحه الشيخ محمد الطنطاوى، وقد ذكرت نص كلامه فيما مضى.

وهو يرى أن البصريين كانوا يؤثرون السماع على القياس فلا يصيرون إليه إلا إذا أعوزتهم الحاجة، وقد تشددوا فى رواياتهم فلا يحملونها إلا عن موثوق بفطرته.

أما الكوفيون فعلى عكسهم فضلوا القياس على السماع فى كثير من

---

(١) نشأة النحو ص ١٠٢

(٢) حرشة الضباب: صائدوها. الكواميخ: أنواع من الأدم. الشواريز: جمع شيراز وهو اللبن الثخين وتوفى الرياشى سنة ٢٥٧ هـ وانظر الفهرست ص ٨٦

مسائلهم لتنائيهم عن خلص العرب، ولذلك تساهلوا فى رواياتهم فنقلوها عن أعراب لا يرى البصريون سلامتهم.

وقد ميز رأى البصريين بما يأتى:

١ - البصريون احتاطوا فى أقيستهم فلم يدونوها إلا بعد توافر أسباب الاطمئنان عليها، بخلاف الكوفيين الذين تفككوا من قيودهم، ولذا يقول السيوطى: اتفقوا على أن البصريين أصح قياسا لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ.

٢ - أنهم لا يعولون على القياس النظرى عند انعدام الشاهد إلا فيما ندر جدا، أما الكوفيون فطالما جنحوا إليه، إذ لا ريب أن السماع فى اللغة ركن أول لأنها ليست فلسفة يتحكم فيها ميزان العقل والدراسة، والتشدد فى القياس الذى يؤذن بصحة نظائره حكم لازم وإلغاء القياس النظرى فى اللغة مستقيم مع الواقع (١).

وقد ترتب على إصاخة الكوفيين إلى كل مسموع، وقياسهم عليه أن عثرت بهم عجلة الرأى، وقد يتساهلون - مع هذا - فى التثبت من معرفة القائل، وربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر ولا يعلم قائله، كاستشهادهم على جواز دخول اللام فى خبر لكن بقول المجهول:

... ... **ولكننى من حبها لعميد(٢)**

وقد نصوا على أن ذلك أفسد النحو (٣).

ورأى الأستاذ الطنطاوى هو الذى أرجحه وأميل إليه، ذلك أن البصريين بتحريهم وطلبهم تحقق الكثرة لجعل المسألة قياسية أوضحوا لنا مبلغ تمسكهم بعدم إقرار قاعدة ما حتى يطلعوا بثقة ودقة على ما يؤيدها من كلام العرب، وهذا هو السماع بمعناه الحق، فهم لم يتسرعوا فى إصدار أحكامهم لمجرد مثال رأوه أو كلمة صادفتهم فيصدروا على العرب حكما لا يعرف الدقة.

---

(١) نشأة النحو ص ١٣٠ - ١٣٢

(٢) من شواهد الزمخشرى فى المفصل والرضى فى شرح الكافية وانظر خزانة الأدب للبغدادى الشاهد ٨٦٥ والمغنى لابن هشام فى مبحث لكن.

(٣) نشأة النحو ص ١١١

أما الكوفيون فلم يكونوا نصيين - كما ادعى أصحاب الرأى الثانى - إذ الشاهد الواحد لا يكفى لتأكيد ظاهرة لغوية، وقد يكون مصنوعا أو مجهول القائل، ومعرفة الأحوال التى نشأ فيها النص وقائله ودعمه بما يؤيده من النظائر أمور مهمة لتأكيد صحة الورود عن العرب.

ويؤيد لك اعتماد الرأى الأول على السماع قول ابن جنى:

« واعلم أنك إذا أداك القياس إلى شىء ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته فأنت فيه مخير تستعمل أيهما شئت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه ألبتة »(١) .

وقد استنبط علماء اللغة القواعد من كل التراث الذى وصل إليه اللغويون جمعا ورواية عن قبائل كثيرة، وعدوا ما خالف قوانينهم التى وضعوها شاذا أو مؤولاً، وهذا النظام شرحه ابن جنى حين قال: « إن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين: أحدهما ما لابد من تقبله كهيئته لا بوصية فيه، ولا تنبيه عليه نحو حجر ودار، وما تقدم، ومنه ما وجدوه يتدارك بالقياس وتخف الكلفة فى علمه على الناس فقننوه وفصلوه إذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب المعنى عن المذهب الحزن البعيد، وعلى ذلك قدم الناس فى أول المقصور والممدود ما يتدارك بالقياس والأمارات، ثم أتلوه ما لابد له من السماع والروايات »(٢) .

« فلما رأى القوم كثيرا من اللغة مقيسا منقادا وسموه بمواسمه وغنوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار، والإيجاز ثم لما تجاوزوا ذلك إلى ما لابد من إيراده ونص ألفاظه التزموا وألزموا كلفته إذ لم يجدوا منها بدا ولا عنها منصرفا، ومعاذ الله أن ندعى أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا، لكن ما أمكن ذلك فيه قلنا به، ونبهنا عليه كما فعله من قبلنا ممن نحن له متبعون، وعلى مثله وأوضاعه حاذون، فهذا مذهب العلماء بلغة العرب، وما ينبغى أن يعمل عليه، ويؤخذ به »(٣) .

---

(١) الخصائص ١/١٢٥، ١٢٦
(٢) المصدر السابق ١/٣٠٣، ٣٠٤
(٣) المصدر السابق ٢/٤٣

وقد عد بعض المحدثين الاستنباط من اللهجات المتعددة خلطا [١] وخطأ[٢] وقرر الدكتور تمام أن نحاة العرب وقعوا فى مخالفة منهجية أخرى حينما « تتبعوا مراحل اللغة العربية المتعاقبة فى فترة من مائة وخمسين سنة قبل الإسلام إلى ما يسمونه بعصور الاحتجاج، أى ما يشمل ثلاثة قرون من تاريخ لغة العرب، وتلك حقبة لا يمكن أن تظل اللغة فيها ثابتة على كل حال، بل لابد أنها تطورت » [٣] ويوافقه على ذلك الدكتور عبد الرحمن أيوب ففى نظره « كان علماء اللغة الأقدمون يخلطون بين الحقائق التاريخية، والحقائق الوصفية، ويعللون بهذه لتلك، أو يقيسون لغة عصر متأخر على الوقائع اللغوية لعصر متقدم، ومثال ذلك تعليل علماء النحو العرب إعراب كلمة بطريقة ما بأن أصل الجملة هو كذا وكذا، أو إعرابك أنت جملة مصرية محكما فى ذلك ما تعرف من قواعد العربية الفصحى » [٤] وعندهم أن دراسة القدماء للغة دراسة معيارية « تخضع الصواب والخطأ فى استعمالها لا لمقياس اجتماعى، بل لمجموعة من القواعد تفرض فرضا، ويعد كل ما لا تنطبق عليه إما شاذا أو خطأ ينبغى ألا يدخل فى دائرة الاستعمال العام » [٥] « والقواعد المعيارية نماذج يقيس عليها المتكلم، ويحكم عليه بالخطأ إذا خرج عنها » [٦] .

ويرى هؤلاء المحدثون أن الدراسة الوصفية التى تقوم على الملاحظة والاستقراء، واستنتاج قواعد تعتبر تعبيرات عن الوظائف التى تؤديها الوحدات اللغوية سواء كانت هذه الوحدات صوتية أم صرفية أم معجمية هى الدراسة الجديرة بالاتباع فالدراسة الحديثة للغة تبدأ باتخاذ حديث متكلم من أبناء اللغة، وتسجيل كلماته من قصص أو أمثال أو جمل مختارة، ثم وصف هذه المادة المسجلة مع مطالبة المتكلم بالإعادة حين إجراء الوصف ضمانا للدقة فى العمل فيكون مثله مثل من يقوم بتشريح الجسم الإنسانى [٧] « والاستقراء أفضل من القياس لكونه منهجا علميا صحيحا إذا اتبعه الباحث وصل إلى نتائج

---

(١) من أسرار اللغة ص ٣٢
(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٢٥
(٣) المصدر السابق ص ٢٤ ، ٢٥
(٤) أصوات اللغة ص ١١
(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٨
(٦) أصوات اللغة ص ١٣
(٧) المصدر السابق ص ٢٤

وقواعد مستمدة من الحقائق اللغوية [١] والقدامى لم يتبعوا ذلك كما «لم يفطنوا إلى العلاقة بين العربية وأخواتها الساميات [٢] والدراسة الحديثة تعتمد على المقارنة اعتمادا كبيرا، والمحدثون يدرسون اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية متطورة فقد اهتدوا إلى أن كل كلمة فى اللغة يمكن أن يدرسها النحوى من نواح ثلاث:

١ - من ناحية الأصوات التى تتألف منها الكلمة سواء كانت اسما أم فعلا أم حرفا، وفيها نعرف طبيعة الحروف، وما يحدث من أثر اجتماعها في الكلمة من تغيرات... إلخ وهذا ما يسمونه Phonetics (أى علم الأصوات).

٢ - ناحية صيغة الكلمة، وما طرأ عليها فى حالاتها المختلفة من تأنيث وجمع، وتثنية وإعراب، وتصغير ونسب، وغير ذلك من الصيغ التى تختلف بتغيير بنيتها، أو إلصاق زوائد بها، وهذا ما يسمونه Morphology (أى علم الصيغ).

٣ - ناحية التركيب Syntax بمعنى أنه إذا انتهى من الكلام على صيغة المفرد انتقل إلى تآلف الكلمة مع الكلمة، والجملة مع الجملة، فنظر إلى وظيفة الكلمة فى التركيب، وارتباط التركيب بالتركيب [٣].

ويدعو المحدثون - كذلك - إلى دراسة اللغة النموذجية فقط، وترك اللهجات المحلية لدراسة خاصة، ويعيبون على القدماء عدم أخذهم بهذا المبدأ[٤] على حين يثبت أحدهم نقيض ذلك، وهو أن اللغويين الأقدمين لم يعرضوا للهجات العربية القديمة فى العصور المختلفة عرضا مفصلا لأنهم شغلوا عن ذلك باللغة الأدبية الفصحى التى نزل بها القرآن، وصيغت بها الآثار الأدبية فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وهم لشعورهم بعدم توفرهم على دراسة هذا الموضوع دراسة عميقة كانوا يتخلصون من اختلاف اللهجات بالاعتراف بتساويها جميعا

---

(١) المدخل ص ٧٢، ٧٣ (٢) المصدر السابق ص ٧٢، ٧٣

(٣) المصدر السابق ص ٨٠، ٨١

(٤) من أسرار اللغة ص ٢٢، ورأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية.

فى جواز الاحتجاج بها كابن جنى الذى عقد بابا خاصا سماه (اختلاف اللغات وكلها حجة) [١] .

ويبدو لنا أن دراسة القدماء للغة والنحو كانت دراسة ناجحة إلى حد بعيد، وهم لم يكونوا معياريين فقط، بل كانوا وصفيين أيضا لأن دراستهم قامت - باعتراف المحدثين - على ملاحظة المادة اللغوية التى جمعها الرواة، واستنباط القواعد منها، وكان العرب - على امتداد عصر الاحتجاج - ينطقون لغة واحدة لا تختلف ألفاظها أو قواعدها أو طريقة أدائها، إذ كانوا يتوارثون الفصاحة فى عزلة عن الاختلاط بغيرهم من الأجانب، فلا يعد فيهم متقدم أو متأخر، ولا يقال : إن تطورا ذا بال قد حدث فى انتقالها من السلف إلى الخلف فى هذه الحقبة من التاريخ، ولذا فإنه بعد أن تغيرت الظروف المكانية والزمانية، وحدث تطور لغوى ملحوظ باختلاط العرب بغيرهم انتهى عصر الاحتجاج، وإننا نجد بعد ستة عشر قرنا مرت على لغة العرب - فى بيئتنا الأزهرية، والمثقفين بالعربية فى كل مكان - من تجرى على لسانه العربية، كما كانت فى عصورها الأولى، فلا أقل من أن اللغة فى عصر الاحتجاج كانت تجرى على ألسنة المتكلمين بها دون خلاف يذكر.

وإذا كان المحدثون قد أتوا بنظام جديد لدرس اللغة، فإن النظرة اليسيرة تؤكد لنا أنهم لم يزيدوا عما ذكره القدماء شيئا سوى التنسيق والتنميق، أما حقيقة البحث وجوهره فهو قديم متأصل فى القدم، مأخوذ عن أربابه من عباقرة اللغويين السابقين، ولسنا نقول : إن النحاة جميعا كانوا يحتذون اللغة النموذجية، بل إننا نستطيع - فى ثبات وعزم - أن نؤكد أن من مذاهبهم ما احتذاها، وتبعها، وكان قياسه على الكثير والغالب والفصيح لا على القليل من اللهجات، فهم قد تتبعوا لغة قريش التى «ارتفعت - كما يقول ابن جنى - فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء» [٢] .

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ص ٥١ ، ٥٢ ونرى أن القدماء لم يسووا بينها فما كان منها كثيرا قاسوا عليه، وما كان قليلا لا يقاس عليه، ولا يستعمل إلا عند الضرورة واقرأ كلام ابن جنى فى الباب المشار إليه.

(٢) الخصائص ١١/٢

وقد نقلنا عن بعض المحدثين ما يثبت أن بالغ هم القدماء كان باللغة الأدبية المثالية.

أما وجود الشواذ فهو أمر لا يمكن تجنبه لأن قوانين اللغة ليست منطقية بل هي نتاج اجتماعى ولابد فيه من وجود ما يخرج على الظاهرة العامة «فكل نظام صرفى فيه مواضع نقص لا تخلو منها أية لغة ولو كانت من أشد اللغات تثقيفا، ففى كل قاعدة من قواعدها شواذ (لا يسوغها) منطق.. ولكن يسود التغيرات الصرفية اتجاهان عامان: الأول مبعثه الحاجة إلى التوحيد، ويميل إلى إقصاء العناصر الصرفية التى أصبحت شاذة، والآخر مبعثه الحاجة إلى التغيير، ويميل إلى خلق عناصر صرفية جديدة وإقصاء العناصر الصرفية الشاذة يكون بردها إلى القاعدة أى أن الحاجة إلى التوحيد تقنع بطريقة القياس» (١).

وهم – بهذا المجهود الجبار – شقوا طريقا لغويا كان وعر المسلك وذللوه «فاللغة التى نتعلمها فى المدرسة ندين بها إلى المجهود المزدوج الذى قام به الأدباء والنحاة فهم الذين ابتكروا لنا هذه الأداة الجميلة وسهروا عليها بحدب شديد، عاملين على ألا يعلوها الصدأ فيغير معالمها، وقد يبدو لنا أن تطهير اللغة الذى دام قرونا عديدة عمل جدلى رخيص مغرق فى الادعاء والتظاهر، ولكن الفوائد التى نجنيها من هذا العمل تحملنا على الاعتراف بالجميل لمن قاموا به (٢).

ويقول الدكتور السامرائى: «إن جهود الأقدمين من النحاة شىء عظيم فقد استطاعوا أن ينتقلوا بهذا العلم من ضوابط يسيرة يقيم بها المعربون ألسنتهم بعد أن ضاعت السليقة العربية إلى علم دقيق معقد متطور يدرس لذاته» (٣).

* * *

---

(١) اللغة ص ٢٠٤، ٢٠٥ (٢) المصدر السابق ص ٣٤٢
(٣) التطور اللغوى التاريخى ص ٧٥

أقسام الظواهر اللغوية

عقد ابن جنى لذلك بابين فى خصائصه أحدهما بعنوان (باب القول على الاطراد والشذوذ) [1] والثانى بعنوان (باب فى تعارض السماع والقياس) [2] وقد بين فيهما أن الكلام فى الاطراد والشذوذ على أربعة أضرب [3] :

١ - مطرد فى القياس والاستعمال جميعا وهذا هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة وذلك نحو قام زيد، وضربت عمرا، ومررت بسعيد.

٢ - مطرد فى القياس شاذ فى الاستعمال، وذلك نحو الماضى من يذر ويدع وكذلك قولهم مكان مبقل، هذا هو القياس، والأكثر فى السماع باقل، والأول مسموع أيضا، قال أبو دواد لابنه دواد: يا بنى ما أعاشك بعدى؟ فقال داود:

أعاشنى بعدك واد مبقل ... آكل من حوذانه وأنسل [4]

وقد حكى - أيضا - أبو زيد: مكان مبقل.

٣ - مطرد فى الاستعمال شاذ فى القياس نحو قولهم: أخوص الرمث [5] واستصوبت الأمر ومنه استحوذ، وأغيلت المرأة [6] واستنوق الجمل واستتيست الشاة، وقول زهير:

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا [7]

ومنه : استفيل الجمل ، قال أبو النجم :

يدير عينى مصعب مستقبل [8]

---

(١) الخصائص ١/٩٦ - ١٠٠ (٢) المصدر السابق ص ١١٧ - ١٣٣

(٣) هذه الأقسام تبع فيها أستاذه أبا على الفارسى ونقلها عنه مع التفصيل والتعليل القوى للشاذ الذى انفرد به عن أستاذه. انظر: لأبى على: المسائل العسكرية. الباب الرابع (باب ما كان شاذا فى كلامهم) والاغفال ص ٦٨ وما بعدها.

(٤) حوذان: اسم نبت، وأنسل.. بفتح الهمزة. ومعناه: أسمن حتى يسقط الشعر، ويروى بضمها ومعناه تنسل إبلى وغنمى. انظر اللسان (نسل) و (بقل).

(٥) الرمث: شجر ترعاه الإبل وإخواصه: أن يبدو به ورق ناعم كأنه خوصة.

(٦) أغيلت المرأة ولدها: إذا أرضعته وهى حامل.

(٧) استخوال المال : أن يسأل ناقة عارية للبنها وأوبارها أو فرسا للغزو عليها، وإخواله: إعطاؤه.

(٨) المصعب : الذى لم يذلل .

٤ – شاذ فى القياس والاستعمال جميعا كتتميم مفعول فيما عينه واو نحو ثوب مصوون، ومسك مدووف [١] وحكى البغداديون: فرس مقوود ورجل معوود من مرضه [٢].

فإذا فشا الشىء فى الاستعمال، وقوى في القياس فذلك ما لا غاية وراءه نحو منقاد اللغة من النصب بحروف النصب، والجر بحروف الجر، والجزم بحروف الجزم، وغير ذلك مما هو فاش فى الاستعمال قوى فى القياس وأما ضعف الشىء فى القياس، وقلته فى الاستعمال فمرذول مطرح غير أنه قد يجىء منه الشىء إلا أنه قليل [٣] فلا يسوغ القياس عليه، ولا رد غيره إليه. ولا يحسن أيضا استعماله فيما استعملته فيه إلا على وجه الحكاية [٤].

واعلم أن الشىء إذا اطرد فى الاستعمال، وشذ عن القياس فلابد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره، ألا ترى أنك إذا سمعت: استحوذ واستصوب أديتهما بحالهما ولم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما، ألا تراك لا تقول فى استقام: استقوم ولا فى استساغ استسوغ ولا فى استباع: استبيع ولا فى أعاد: أعود لو لم تسمع شيئا من ذلك قياسا على قولهم: أخوص الرمث [٥].

فإن كان الشىء شاذا فى السماع مطردا فى القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك، وجريت فى نظيره على الواجب فى أمثاله، فمن ذلك امتناعك من وذر، وودع، لأنهم لم يقولوهما ولا غرو عليك أن تستعمل نظيرهما نحو وزن ووعد لو لم تسمعهما، فأما قول أبى الأسود:

ليت شعرى عن خليلى ما الذى ... غالـه فى الحب حتى ودعـه

فشاذ. وكذا قراءة بعضهم ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ومن ذلك استعمال أن بعد كاد نحو كاد زيد أن يقوم هو قليل شاذ فى الاستعمال وإن لم يكن قبيحا ولا مأبيا فى القياس، ومن ذلك قول العرب: أقائم أخواك أم قاعدان؟ هذا كلامها، قال أبو عثمان: والقياس يوجب أن نقول: أقائم أخواك أم قاعدهما؟[٦] إلا أن

(١) مخلوط أو مبلول.
(٢) الخصائص ١/٩٧ – ٩٩
(٣) المصدر السابق ص ١/١٢٦
(٤) المصدر السابق ص ١/٩٩
(٥) المصدر السابق ص ١/٩٩، ١١٧
(٦) لأن الوصف يستغنى بالظاهر والضمير المنفصل دون المستتر، ويرى ابن هشام أنه =

العرب لا تقوله إلا قاعدان فتصل الضمير [١] والقياس يوجب فصله ليعادل الجملة الأولى [٢] .

وعدم جواز استعمال ما تحامته العرب مبنى على أنها استغنت عنه بغيره فقد استغنوا عن: وذر وودع – وإن كان مسوغا قياسا – بترك [٣] واستغنوا – أيضا – عن استعمال (أن) بعد (كاد) بعدم استعمالها فيقولون: كاد زيد يقوم، وكاد زيد أن يقوم [٤] واستغنوا عن قولهم: أقائم أخواك أم قاعدهما؟ بقولهم أقائم أخواك أم قاعدان؟ [٥] .

واستعمال ما رفضته العرب – لاستغنائها بغيره – جار فى حكم العربية مجرى اجتماع الضدين علي المحل الواحد فى حكم النظر وذلك أنهما إذا كانا يعتقبان فى اللغة على الاستعمال جريا مجرى الضدين اللذين يتناوبان المحل الواحد، فكما لا يجوز اجتماعهما عليه فكذلك لا ينبغى أن يستعمل هذان، وأن يكتفى بأحدهما عن صاحبه كما يحتمل المحل الواحد الضد الواحد دون مراسله [٦] ولكن الشاعر إذا اضطر جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس وإن لم يرد به سماع مما استغنت فيه العرب بغيره كما فى قول أبى الأسود السابق [٧] .

أما ما لم تنطق به العرب مما يجرى على القياس ولم تستغن عنه بغيره فلك أن تستعمله جريا على أمثاله، فانت تقول: وزن ووعد وإن لم تسمعهما قياسا على نظائرهما من وثب ووقف ووكل ونحوها، وكذلك لو احتجت إلى تكسير دمثر قياسا على: سبطر وسباطر، وكذلك قولهم: إن كان الماضى على (فعل)

= استغنى هنا بالمستتر على خلاف القياس لأنه يغتفر فى الثوانى ما لا يغتفر فى الأوائل، ويرى غيره أن (أم) منقطعة و (قاعدان) خبر لمبتدأ محذوف. أى أم هما قاعدان. انظر الصبان على الأشمونى ١ / ١٩٠، ١٩١

(١) يريد الضمير المستتر فى (قاعدان) فإنه من المتصل.

(٢) الخصائص ١ /٩٩ ، ١٠٠ وانظر أيضا ١٢٤ – ١٢٦

(٣) المصدر السابق ص ١ /٢٦٦ – ٣٩١ (٤) المصدر السابق ١ / ٣٩١

(٥) المصدر السابق ١ / ١٠٠ فأما امتناعهم من استعمال أفعال الويح والويل والويس والويب فليس للاستغناء بل لأن القياس نفاه، ومنع منه، وذلك أنه لو صرف الفعل من ذلك لوجب اعتلال فائه كوعد وعينه كباع فتحاموا استعماله لما كان يعقب من اجتماع إعلالين. انظر: الخصائص ١ /٣٩٢ ، ٣٩٣

(٦) المصدر السابق ١ /٣٩٦ ، ٣٩٧ (٧) المصدر السابق ١ /٣٩٦

بضم العين فالمضارع منه على يفعل، فلو أنك على هذا سمعت ماضيا على فعل لقلت فى مضارعه يفعل وإن لم تسمع ذلك كان يسمع سامع: ضؤل ولا يسمع مضارعه فإنه يقول فيه: يضؤل وإن لم يسمع ذلك، ولا يحتاج أن يتوقف إلى أن يسمعه، لأنه لو كان محتاجا إلى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التى وضعها المتقدمون وتقبلوها وعمل بها المتأخرون معنى يفاد ولا غرض ينتحيه الاعتماد ولكان القوم قد جاءوا بجميع المواضى والمضارعات، وأسماء الفاعلين والمفعولين والمصادر وأسماء الأزمنة والأمكنة والآحاد والثنائي والجموع والتكابير، والتصاغير، ولما أقنعهم أن يقولوا: إذا كان الماضى كذا وجب أن يكون مضارعه كذا، واسم مفعوله كذا، واسم مكانه كذا، واسم زمانه كذا، ولا قالوا: إذا كان المكبر كذا فتصغيره كذا وإذا كان الواحد كذا فتكسيره كذا دون أن يستوفوا كل شيء من ذلك، فيوردوه لفظا منصوصا معينا لا مقيسا ولا مستنبطا كغيره من اللغة التى لا تؤخذ قياسا ولا تنبيها (١) .

ومعنى ذلك أن شيئين اتفق عليهما وهما: المطرد قياسا واستعمالا والشاذ فيهما، وأما الآخران فيقتصر فيهما على الوارد عن العرب والمسموع فالقسم الثالث يقتصر علي المسموع منه، والقسم الثانى يترك منه ما تركه العرب، ويقاس الباقى، وقد أوضح ذلك الإمام محمد الخضر حسين (٢) .

ورأى ابن جنى هذا قد تعرض لنقود بعض المحدثين.

فالدكتور تمام حسان يرى أن سلوك ابن جنى فى هذه الأقسام سلوك منطقى يجرى فى ظل منطق أرسطو (٣) ويوضح وجهة نظره بقوله: «فالقسم الثانى من الأقسام الأربعة وهو المطرد فى القياس الشاذ فى الاستعمال لا يبدو أنه استعمل فى كلام العرب إذ إن الأمثلة التى أوردها ابن جنى على هذا القسم تنحصر فى بيت وقراءة ومثال، فالبيت لا يبعد أن يكون مصنوعا، وليست الصناعة نادرة فى شواهد النحو واللغة، وحتى على فرض صحة البيت لا أجد مانعا عروضيا ولا معنويا يمنع الدال من التشديد، وأما القراءة فيسميها هو بنفسه شاذة، وأنا أتحرج من الطعن فيها، ولكن يكفى ألا يذكرها ابن الجزرى فى الكلام عن سورة

---

(١) الخصائص ٢ / ٤١ ، ٤٢ (٢) القياس فى اللغة العربية ص ٧١ ، ٧٢
(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣٨ ، ٣٩

الضحى [١] وأن القراءات كلها فيما عداها مجمعة على تشديد الدال على نحو ما اقترحنا فى قراءة البيت وأما المثال: أقائم أخواك أم قاعدان فحجته لغة مشهورة ورد عليها (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ويكون الفاعل هنا مستترا والألف علامة الاثنين، والنون للرفع والتقدير: أم قاعدان هما؟ أو يكون التقدير: أم هما قاعدان، والألف فاعل ولا شذوذ عن القياس، فإذا صح ذلك فيما جاء به من شواهد كان الكلام عن القياس هنا كلاما لا يعضده شاهد واحد من شواهد اللغة، ومن هنا نستطيع أن ندرك خطر فرض المعايير على دراسة اللغة.

أما كلامه على القسم الثالث، وهو المطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس فلست أدرى كيف يرضاه اللغويون؟ فالقياس يقصد به دائما أن يكون جاريا علي الاستعمال المطرد، فإذا كان القياس مخالفا للاستعمال المطرد فلست أدرك مبناه ولا وجهه وإن كل مبنى وكل وجه يمثل هذا القياس لا يقبل مهما أجاد المدافعون عنه فى دفاعهم.

والرابع في القسمة لا يرضاه الاستعمال اللغوى، ولا القياس، ولكن القسمة المنطقية التى تجرى فى ظل منطق أرسطو جعلت ابن جنى يورده ويحتج له بما حكاه البغداديون، ولكن لا يعين واحدا منهم ولا شاهدا لهم، أفبعد هذا يدعى أن القياس وسيلة منهجية فى دراسة اللغة [٢] .

والمتأمل لما وجهه الدكتور تمام يرى أنه يرغب فى إلغاء ما عدا القسم الأول من أقسام القياس الأربعة التى ذكرها ابن جنى، ويؤكد أن ذكرها فرض لمعايير المنطق على اللغة ويبدو لنا أن تكلفه لتخريج الأمثلة لا يؤدى بنا إلى إلغاء القسم الثانى لما يأتى:

١ - لأنه مبنى على الاحتمال والظن لا على سبيل القطع واليقين فهو يقول: البيت لا يعدو أن يكون مصنوعا، ويقول عن القراءة: أنا أتحرج من الطعن فيها، وبعد تخريج الأمثلة على رأيه يقول: فإذا صح ذلك فيما جاء به من شواهد كان الكلام عن القياس كلاما لا يعضده شاهد واحد.

وهذا الأسلوب الذى اتبعه فى إبداء رأيه لا يكفى لإزالة القسم من أساسه.

---

(١) النشر ١/٤٠١ (٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣٧ - ٣٩

٢ – قوله بأن البيت مصنوع لا يؤيده دلائل من الواقع ولا من التاريخ.

٣ – كون القراءة لم يشر إليها ابن الجزرى لا يدل على نفيها فليس كل ما لم يذكره يعد ضعيف السند، وقد نقلها ابن جنى فى المحتسب عن ثقات الرواة ممن جمع القراءات الشاذة كابن مجاهد وغيره وهى منسوبة إلى النبى – ﷺ – وعروة وابن الزبير (١).

٤ – هناك شواهد أخرى تحمل ما شذ استعمالا لا قياسا فوثقت روايتها، فقد روى ابن جنى قول تأبط شرا:

فأبت إلى فهم وما كدت آيبا ... وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

وإذا كان هذا البيت قد روى برواية أخرى هى (ولم أك آيبا) كما ذهب إليه المرزوقى – فإن الرواية – كما ذكرها ابن جنى – حقيقة بالقبول دون ما عداها، ومثله ما أنشده أبو على من قوله:

أكثرت فى العذل ملحا دائما ... لا تكثرن إنى عسيت صائما

ومنه المثل: عسى الغوير أبؤسا (٢).

ففى تلك الشواهد جعل خبر كاد وعسى اسما صريحا، وهذا هو القياس غير أن السماع ورد بحظره والاقتصار على تركه.

٥ – والدكتور تمام – بهذا – يهدم أساسا من أهم أسس النمو اللغوى، فمعنى كلامه أن كل ما يوافق القياس ولم يجر به الاستعمال لا يجوز لنا أن نقيس عليه مع أن غيره من المحدثين قد أجازوا جميعا القياس عليه، بل استدلوا بورود هذه الأمثلة التى ذكرها ابن جنى على أنه يجوز لنا القياس على مثلها ما دامت موافقة للقياس فى أمثلة كثيرة غيرها (٣).

وأما القسم الثالث فلا تناقض بين الاطراد والشذوذ فالجهة مختلفة، والمعنى – كذلك – مختلف، فالمقصود بالاطراد فى هذا القسم أن الأمثلة المذكورة كاستحوذ وأمثاله تأكد سماعها عن العرب، والشذوذ هو خروجها على القواعد

---

(١) المحتسب ٢ / ٣٦٤ (٢) الخصائص ١ / ٩٨

(٣) من أسرار اللغة ص ١٤ – ١٦

المؤكدة بالأمثلة الكثيرة كاستقام ونحوه، فمثل استحوذ مطرد بمعنى: جاء عن العرب حقا ولكن لقلة أمثلته عد شاذا لا يقاس عليه، فلا تناقض.

وأما أن القسم الرابع لا يرضاه الاستعمال اللغوى فهذا أمر مسلم به، والقسمة المنطقية حتما تقتضيه، ولكننا لا نرى بأسا من ذكره فى الأقسام تنبيها للناطقين واللغويين على أنه لا يجوز استعمال غير ما ورد فى اللغة وسمع عن العرب فلا معنى - إذا - لأن يدعى الدكتور تمام أن القياس ليس وسيلة منهجية فى دراسة اللغة، إذ إن هذه الأقسام كانت بحثا علميا ودراسة واقعية أوضحت الظواهر اللغوية ومهدتها للبحث والاستعمال على أسس منهجية سليمة.

ويرى الأستاذ عباس حسن أن رأى ابن جنى فى هذه الأقسام فيه غموض وتناقض.

١ - فالغموض حصره فى أمرين: أحدهما هو القلة والكثرة وغموض مفهومها عند ابن جنى - كغيره من القدامى - والآخر هو منعه القياس على المطرد قياسا لا استعمالا، ونورد كلامه بنصه لتقرير دعواه ثم نناقشها.

(أ) ابن جنى اعتمد فى الاطراد والقياس على الشيوع والكثرة من غير أن يبين مداهما ولا حدودهما، فصادفتنا وجها لوجه تلك المشكلة المعقدة التى أشرنا إليها فيما سبق، ولقد سرد أمثلة للمطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس هى (أخوص - استصوب - استحوذ - أغيل - استنوق - استتيس) وقطع بعدم القياس عليها، ومعنى ذلك أن ورود ستة نظائر لا يكفى للمحاكاة، وأنها قلة لا تبيح القياس، فما الكثرة التى تبيحه إذا؟ على أنه حين سرد الستة ترك كثيرا غيرها من الألفاظ الخارجة على القياس، ومما تركه: أروح اللحم - أحوز الإبل - أعور الفارس - أحوش عليه الصيد - أعوض بالخصم - أفوق بالسهم - أشوكت النخلة - أحول الغلام - أطولت (أطلت) - أعول الرجل - أقولتنى ما لم أقل - أغيمت السماء - أعوه القوم - (أصابت ماشيتهم عاهة) - أحوجنى الأمر.. هذا على ما ذكره يبلغ واحدا وعشرين عدا أمثلة كثيرة متفرقة فى بطون المعاجم فهلا يكفى ذلك القدر للقياس عليه؟ [1].

---

(١) اللغة والنحو ص ٥١، ٥٢ بتصرف.

(ب) منع ابن جنى القياس على المطرد قياسا لا استعمالا، كماضى يذر ويدع وباقل مع أن العرب - كما سبق - قد نطقت بكل من الفعلين الماضيين وبكلمة مبقل فما الحكم لو لم تنطق؟ وبعبارة أجلى: أيجوز لنا أن نصوغ ماضى هذين الفعلين كنظائرهما فنقول: وذر وودع، وأن نجيء باسم الفاعل من أبقل على وزن مبقل ولو لم نسمع ذلك من العرب الخلص؟ إن جاز ذلك كان القياس عينه، وإن لم يجز أشكل الأمر بسبب منع كلمة أن تصاغ على وزان نظائرها الكثيرة، وشيء آخر هو أن بعض القراء قرأ الآية الكريمة ﴿ما ودَعك ربُّك وما قلَىٰ﴾ - بفتح دال ودع - أفيكون شاذا فى الاستعمال مع قراءة القرآن به؟ وهل يقبل ما يقال: إن القرآن قد يأتى بالشاذ استعمالا لكنه مطرد قياسا؟ إذ كيف يتفق القول أن يكون القرآن أسمى لغة عربية مع اشتماله على الشاذ استعمالا، فأين غير الشاذ فى الاستعمال إذا؟ [1] .

٢ - وأما التناقض فحيث يقول - فيما سبق - إن الشاذ فى القياس والاستعمال معا لا يجوز القياس عليه، ولا رد غيره إليه ويضرب لذلك مثالا بتتميم مفعول فيما عينه واو نحو ثوب مصوون، ومسك مدووف مع أن هذا التتميم لغة تميم تجعله فى الواوى العين وفى اليائى كذلك فهى تقول: رجل مديون كما تقول: ثوب مصوون [2] .

وقد قرر ابن جنى وغيره أن الناطق على قياس لغة من اللغات مصيب غير مخطىء، فكلامه هنا مناقض لما سبق أن قرره هو وسواه [3] .

ويشرح الأستاذ عباس حسن رأيه فى الأقسام الأربعة تفصيلا فيقرر أن النوعين المطرد قياسا واستعمالا والشاذ فيهما لا يخالف رأيه ما قال ابن جنى فيهما، ولكنه يخالفه فى النوعين الأخيرين.

١ - فالنوع المطرد قياسا لا استعمالا يذهب فيه مذهب أشباهه، ويرده إليها متابعة لرأى اللغويين السالف سواء كان العرب قد سبقوا للرد أو لم يسبقوا فنقول: أبقلت الأرض فهى مبقل ومبقلة، وودعت اللص للشرطى ووذرته،

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ - ٥٤ بتصرف. (٢) تاج العروس (دان) و (صان) .
(٣) اللغة والنحو ص ٥٤

لا نسأل أقالت العرب ذلك أم لم يقولوا ما دام النمط العربى الغالب يقضى بأن اسم الفاعل من غير الثلاثى على وزن المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر، ونزيد فى آخره التاء للتأنيث ما دامت هذه التاء تزاد آخر المشتقات، إلا ما استثنى منها، وليس من المستثنيات مبقل وأمثالها، ونأتى بالماضى للفعلين يدع ويذر جريا على نظائرهما فى النمط العربى أيضا - كما يشير بعض الأئمة - .

على أنه لا مانع فى هذا النوع من استعمال اللفظ المسموع ذاته - لاتساع اللغة - بشرط أن يكون هذا المسموع عن العرب المخالف للقياس لفظا كاملا تنصب المخالفة فيه على صيغة الكلمة وتكوينها المادى الكامل (أى على متنها وبنيتها) فلا تكون المخالفة عرضية مقصورة على حركات الحروف وضبطها من الوجهة الإعرابية أو على حذف حرف أو زيادته فى الإعراب فإن محاكاة هذه المخالفة العرضية وحدها مع جوازها ضارة غاية الضرر اليوم كما أسلفنا إذ تبعث على الفوضى والاضطراب والاختلاف فى بناء هيكل الكلمة وفى ضبط حروفها، وفهم المراد منها ومن الجملة، وهذا مصدر بلاء عظيم فى التعبير يجب الفرار منه، فإذا رأينا جمع مؤنث سالما منصوبا بالفتحة أو اسما من الأسماء الخمسة مرفوعا بالألف أو خبرا لإن منصوبا أو مفعولا مرفوعا . . . و . . . و . . . إلخ وجب ألا نتردد فى نبذه، وعدم التفكير فى محاكاته كيلا نفتح باب البلبلة الذى نسعى فى عصرنا لسده [1] .

٢ - وأما النوع المطرد فى الاستعمال دون القياس فلا مانع من اتخاذه مقيسا ترد إليه نظائره ويقاس عليه غيره مما لم ينطق به العرب، ولا مانع كذلك من الرجوع إلى المقيس الأصلى، فإذا أردنا أن نصوغ استفعل من باع فلنا أن نقول: استباع (تطبيقا للمقيس عليه الأصلى) ولنا أن نقول: (استبيع) كاستحوذ واستصوب كما يجرى اليوم على ألسنة الناس بفطرتهم (تطبيقا على المطرد فى الاستعمال دون القياس) ومثل هذا استفعل من دان فنقول: (استدان أو استدين وهكذا) [2] .

---

(١) اللغة والنحو ص ٥٥ - ٥٧

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ ، ٥٨

ونحن نخالف الأستاذ عباس حسن فيما ذهب إليه:

١ – نخالفه في ادعائه أن الغموض يحوط الاطراد والقياس عند ابن جنى لغموض مفهوم الكثرة عنده، ذلك أن الأمثلة التى أوردها ابن جنى للمطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس وهى ستة والأمثلة الأخرى التى أوردها الأستاذ حتى بلغ العدد واحدا وعشرين عدا أمثلة متفرقة فى بطون المعاجم – على حد تعبيره – هذه الأمثلة جميعها – فيما أرى – لا تستدعى جواز القياس عليها – كما ادعى الأستاذ – ذلك أنها وإن كثرت – فى نظره – فإن الشواهد المعلة المقابلة لها والتى بنيت عليها قاعدة الإعلال فى استقام واستفاد ونحوهما لا تدخل تحت حصر، وهى أمثلة تعد بالمئات بل الآلاف، وأعتقد أن الواحد والعشرين وما يمكن أن يضاف إليها بالبحث فى المعاجم تعتبر قلة قليلة بالنسبة لما سبق، فلا يجوز القياس عليها، فليس مفهوم الكثرة غامضا هنا، لأننى ذكرت فيما مضى أن اعتبار القلة والكثرة مسألة نسبية، فقد يعتبر الشىء كثيرا بالنسبة لشىء آخر، وقليلا بالنسبة لشىء ثالث.

وأيضا فلو أخذنا برأيه فى القياس على الأمثلة المذكورة لأدى ذلك إلى التلاعب فى أصول اللغة، ويمكن أن نعتبر جانبا من كلامه دليلا لنا فى هذا الموضوع، فقد منع فى بعض الأمثلة المسموعة المخالفة للقياس أن تستعمل إذا كانت المخالفة تتصل بحركات الحروف وضبطها من الوجهة الإعرابية، وقال: إن استعمالها يعتبر مصدر بلاء عظيم فى التعبير يجب الفرار منه كى لا نفتح باب البلبلة الذى نسعى فى عصرنا لسده، فكيف يسمح بالقياس على استحوذ ونحوه مع أنه يفتح بابا آخر للبلبلة؟.

٢ – كذلك نخالفه فى المطرد قياسا الشاذ استعمالا، فابن جنى يمنع القياس عليه، إذا كانت العرب قد تحامته للاستغناء عنه بغيره، ويجيز القياس فى الباقى، وهذا رأى دقيق فالاستغناء عادة عربية [1] وهو أدل على حكمة العرب فوضع كلمتين لمعنى واحد من واضع واحد عبث ينأى عنه الواضع الحكيم، فلما

(١) اللهجات العربية د. نجا ص ٥٧

استعملت العرب نظائر لما تركته كترك بدلا من ودع ووذر، والفعل المضارع مكان الاسم فى خبر كاد وعسى ونحوهما ولم تقرنه بأن كان هذا إيذانا صريحا منها بعدم استعمالها لما استغنت عنه، وقد قرر الإمام محمد الخضر حسين أن كثرة استعمال مثل ويح وويل ونعم ويذر فى موارد كلام العرب دون أن يتصرفوا فيه دليل على قصدهم لإبقائها على هيئتها، فمن تصرف فيها فقد أتى بها على وجه قصد العرب إلى تركه، والناطق بما يقصدون إلى إهماله ناسج على غير منوالهم، وناطق بغير لهجتهم [1] وقد نهج الأستاذ عباس على منوال بعض العلماء فى جواز استعمال المستغنى عنه كوذر وودع فقد قال بذلك ابن درستويه فى شرح الفصيح، فقد قال: «إنما أهمل استعمال ودع ووذر لأن فى أولهما واوا وهو حرف مستثقل فاستغنى عنهما بما خلا منه، وهو ترك، ثم قال: واستعمال ما أهملوا من هذا جائز صواب، وهو الأصل، وهو فى القياس الوجه وهو فى الشعر أحسن منه فى الكلام [2].

ولكن هذا غير معتمد لأن الحكمة شاهدة بما نقول، وهو مذهب جمهور أهل العربية كما يقول الأستاذ الإمام أما ما لم يستغن عنه العرب فلا جدال فى جواز القياس عليه، وإن لم يرد به سماع كما قدمنا.

وعلى ما شرحنا سار المجمع اللغوى - بالقاهرة - فقرر أنه حين تذكر كتب اللغة المصادر ولا تذكر أفعالها أو العكس أو حين يذكر الفعل الثلاثى ولا يذكر بابه هنا يستطيع المرء أن يلجأ إلى القياس ليستنبط مجهولا من معلوم، ومثل هذا القياس إذا أتيح لنا يكمل نقصا كبيرا فى المعاجم، وهنا تتحقق ميزة القياس فى نمو اللغة واتساعها.

ومسألة القياس على ما سمع عن العرب مخالفا لقواعد البصريين وأصولهم [3] وكل ما يرد وضعه وضعا جديدا ولا نظير له فى الأساليب المروية كانت محل نزاع منذ القديم حتى العصر الحاضر فقد انقسم العلماء فريقين:

---

(١) القياس فى اللغة العربية ص ٧١ ، ٧٢ (٢) المصدر السابق ص ٧٢
(٣) القياس فى اللغة العربية ص ٢٣ ، ٢٤

مجددين ومحافظين، وظل الجدل قائما بينهم فى كل العصور، وقد استمر الانقسام بينهم إلى الآن ولا سيما منذ إنشاء مجمع اللغة العربية ، على أن المجمع في بعض دوراته قد انتصر للأخذ بالقياس فى مسائل معينة رأى الحاجة ماسة إليها[1] .

ولا عجب فى ذلك فاللغة – كما يقول الأستاذ الزيات – لا يمكن أن تثبت ثبات الدين ولا أن تختتم ختام النبوة، لأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والأغراض لا تنتهى، والمعانى لا تنفد [2] .

* * *

(١) من أسرار اللغة ص ١٥ – ١٧

(٢) من مقال للأستاذ الزيات بمجلة الأزهر عدد يناير سنة ١٩٦٧

القيـــاس الفردى

لا ريب أن اللغات المختلفة – ومنها العربية – تحتاج إلى الزيادة فى مفرداتها وتراكيبها، تبعا لحاجات الحضارة، ومتطلبات الحياة المتجددة دائما، فاللغات تواكب التغير الاجتماعى تطورا ونموا، وأية لغة لا تستطيع متابعة السير مع أصحابها، تعد لغة جامدة يعتريها الوهن والفناء، يوما ما.

واللغات التى تنمو، وتتجدد تسلك مسالك متعددة، تفتح لها طريق الحياة المستمرة، فهى تلجأ إلى الاشتقاق الذى يجدد الكلمات [1] أو إلى القياس أو تغيز الدلالة، أو الاستعارة من اللغات الأخرى الحية، أو من لغات قديمة.

والقياس اللغوى – أحد الوسائل الحيوية للتوليد والنتاج – له أثره الفعال فى إثراء العربية بالمفردات والتراكيب، ولذا عنى علماؤها القدامى، والمحدثون بتطبيقه، وبيان آثاره.

فمثلا: قد سمع من العرب صياغة بعض الأفعال الصحيحة أو المعتلة، الثلاثية أو غير الثلاثية، بأنواعها الماضى والمضارع والأمر، وصياغة مصادرها، واشتقاق الصفات منها، كاسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل، ويمكن أن نلاحظ ذلك فى الأفعال علم وأعلم وهدى وأهدى ونحوها.

وقد ترد فى كتب اللغة أفعال ناقصة التصرف أو لا مصادر لها فيصح لنا أن نكمل تصرفاتها على نمط المسموع، ولو نقصت بعض المشتقات أكملناها على النمط المماثل لها.

وكذلك الحال فى الاستعمالات اللغوية والتراكيب، فلم نسمع عن العرب رفع كل فاعل، ونصب كل مفعول، وترتيبها فى الجملة، بل سمعنا منهم بعضه، ولنا أن نجرى على منوالهم فيما لم نسمع، فنرفع كل فاعل، وننصب كل مفعول يرد فى كلامنا، ولو لم ينقل عنهم هذا الكلام الذى نستعمله.

وينطبق ذلك على شتى الظواهر اللغوية.

---

(١) اللغة (فندريس) ٢٩٠

وعلى هذا فلا نتوقف فى كل شىء حتى نسمع عن العرب، فما ورد عنهم يعد نبراسا نحتذيه، لأن أكثر العربية له نظائر وأشباه، فغنوا بالاختصار عن الإطالة والاسهاب [١]، ووضع العلماء لذلك القواعد التى ينهجها الناطقون بالضاد.

فهنا يلجأ المرء إلى القياس ليستنبط مجهولا من معلوم، فالمتكلم يقيس ما لم يسمع (غير المنقول عن العرب) على ما سمع (المنقول عن العرب) لوجود الصلة والتشابه بينهما [٢].

وعلماء العربية يبنون قياسهم على أساس النصوص المروية عن العرب فى عصر معين، ومكان معين [٣] ولكن الأوربيين وسعوا من دائرته فجعلوه عملية فردية يلجأ إليها الإنسان على أساس ما اختزنه فى حافظته، ولذا فاللغات الأوربية تخضع – كل يوم – للتغير والتبدل، حسب رأى الجماعة الناطقة بها، ودون تقيد بالمسموع عن قدمائهم، ففى هذه اللغات تعددت وسائل النمو سواء كان اجتماعيا، أو فرديا وقد يحدث أن تنمو الكلمة فى القرية، أو الأسرة، – مثلا – ثم تأخذ طابع الاحترام فى الناس.

وربما تكون نشأتها عن طريق فرد فى المجتمع، دون توجيه واضح من الأدباء، أو المفكرين، وقد تموت كلمات، وتحل أخرى محلها، ويكفى أن نقارن بين لغة شكسبير، واللغة الإنجليزية الحديثة، لنجد فى العصر الحالى كلمات لم يكن يعرفها أو يستعملها شكسبير، كما نجد ألفاظا أخرى قد تغيرت دلالتها، وكل هذا على الرغم من أنه ليس بين العصرين إلا نحو أربعة قرون، فإذا ذهبنا فى

---

(١) الخصائص ٢ / ٤١ – ٤٣ بتصرف وانظر ص ٢١٢ – ٢١٦ – ٣٠٦ ، ٣٠٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٢٨٨ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٣) حدد علماء العربية القدامى الأنموذج الذى يقاس عليه بانه هو تلك الكثرة من الأمثلة والشواهد التى تجرى على منهج واحد ونظام ثابت، وتؤخذ عن العرب الذين عاشوا فى فترة زمنية محددة وفى بيئة لغوية خاصة، ثبتت فصاحة أهلها وبعدهم عن العجمة والانحراف من استعمال اللغة، وقد تأكد ذلك لسكان بادية الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلى إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ولسكان حاضرتها منذ العصر الجاهلى – أيضا – إلى منتصف القرن الثانى الهجرى.

انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١ / ٢٠٢ . ٢٩٤ . ٢٠٣ وانظر ص١٤٢ وما بعدها من هذا الكتاب.

الإنجليزية إلى عهد تشوسر وجدنا أن الانجليزى فى العصر الحديث، لا يكاد يفهم أو يعى ما يقوله هذا الشاعر الإنجليزى القديم [١] .

وقد يؤدى هذا القياس – عندهم – إلى استنباط شىء غير مألوف فى البيئة، ويسمى بالقياس الخاطىء.

وهو يقع من الأطفال والكبار على سواء.

فالأطفال يبتكرون فى مرحلة تعلمهم للغة، عددا كبيرا من الصيغ الجديدة، وذلك باستجابتهم لداعى القياس، ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يصلح فيما بعد، لأنها – فى غالب الأحيان – ليست إلا عوارض فردية ناتجة عن حس غير صائب، أو عن معرفة ناقصة باللغة، ولكن بعضها ينطبق مع الحس اللغوى العام، انطباقا يجعلها تنتهى بالاستقرار.

وقد يحصل أن يتجه فجأة جميع الأفراد من جيل واحد إلى الوقوع فى غلطة بعينها تفرض نفسها عليها، كأنها قانون، وتصير قاعدة، وعندئذ يصبح كل مجهود يقوم به المدرس فى المدرسة عبثا.

ويقول الأستاذ فندريس: هناك تراكيب بادية الخطأ، شائعة الاستعمال حتى بين المثقفين ويكاد الإنسان يدهش حين يعلم أن النحو قد سلم بها [٢] .

وبناء على نظرية القياس الفردى، والقياس الخاطىء عند الأوربيين [٣] وجدنا بعض الباحثين العرب المحدثين يتحدثون عن نظرية القياس الفردى، ويحاولون أن يجدوا لها طريقا إلى لغتنا العربية.

فيرى أحدهم أن القياس الفردى قد عرف عند العرب، وهو ما سماه العلماء توهما، مثل: (تمنطق) بمعنى: لبس النطاق، جاء على أساس توهم الأصالة فى الميم، وكان حقه (تنطق) و (تمسكن) مثله، ويقولون: إنه لما اشتهر الفعل (اتخذ) وشاع فى الاستعمال، توهم المتكلم أن التاء فيه أصلية، وجاءنا الثلاثى (تخذ) وهكذا.. ولكن اللغويين من المتأخرين، يقبلون ما تم من آثار هذا

---

(١) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ١٠٩ (٢) اللغة ٢٠٧

(٣) منهم فندريس فى كتابه (اللغة) وهرمان بول فى كتابه (مبادىء التاريخ اللغوى).

القياس، الفردى، ولا يقبلونها من المولدين، لا لشىء سوى أن الزمن قد تأخر بهم، ويعدونها – حينئذ – من الأخطاء اللغوية [1] .

ويقول – أيضا – إن هذا النوع من القياس الخاطىء يصاحبنا فى كل مراحل العمر، ونلجأ إليه فى كثير من تجاربنا .

فالطفل – منذ يولد إلى أن يشب – يستعمل كلمات خاطئة تصححها له بيئته، حتى يعود إلى المألوف فى لغة الكبار حوله .

كذلك الكبار يحدث لهم مثل هذا الخطأ، فعند القراءة فى كتاب أو مقال، قد يصادف القارىء كلمة لم يسمعها، أو لم يعرف دلالتها، فيستنبط نطقها أو معناها، وقد يكون مخطئا فى هذا الاستنباط، والمحامى حين ينطق كلمة (الخصم) – بكسر الخاء – قاسها على كلمة مدخرة فى ذهنه، ولم يسمع النطق القرآنى الصحيح ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [2] .

وعلى هذا – كما يقول صاحب هذا الرأى – يمكن أن يتم القياس – فى لغتنا العربية – على يد الأدباء والشعراء [3] .

وعلى أساس آراء الأوربيين لخص هذا الباحث الفرق بين نظرة القدماء ونظرة المحدثين للقياس اللغوى فيما يلى :

١ – ما يقاس عليه عند القدماء هو : النصوص التى سمعت عن العرب، وقد حدد زمنها، ومكانها، عند جمهرة العلماء، أما الذى يقاس عليه لدى المحدثين فهو ما يختزنه المرء فى حافظته من مسائل اللغة .

٢ – حاول البصريون تحديد نسبة شيوع الظاهرة التى يقاس عليها، أما المحدثون فقد رأوا أن المرء لا يقوم بعملية القياس على أساس نسبة الشيوع فحسب بل قد يكون قياسه فى بعض الأحيان على قدر سيطرة ذلك المدخر فى الحافظة على شعور صاحبه، وإن تمثل فى قليل من الشواهد، فقد يحدث أن يتم القياس فى ذهن المرء على أساس مثال واحد أو مثالين .

---

(١) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٣٧ – ٣٩

(٢) الآية ١٩ من سورة الحج، وانظر : من أسرار اللغة ٢٥ ، ٢٦

(٣) من أسرار اللغة ٣٠

٣ - كان القدماء من علماء اللغة يظنون أن عملية القياس إنما يقوم بها أولئك الذين كرسوا حياتهم لخدمة العربية، أما أصحاب اللغة من الفصحاء الذين يحتج بكلامهم فلا يكادون يلجأون إلى هذا القياس فى حياتهم، ولهذا ظهر فى بحوثهم ما سمى بالقياس، وما سمى بالسماع [١] .

ولكن يبدو لنا أن العربية تسير فى طريق آخر، وفى اتجاه لا يتفق - فى هذا - مع اتجاه اللغات الأجنبية، فأساس القياس فيها هو المسموع عن العرب السابقين، حسب شروط علمائنا المتقدمين حتى نضمن سلامة القياس.

ولا يصح أن يملك الأفراد - ولو كانوا أدباء أو شعراء - حق إنشاء الكلمات، وابتكار التراكيب ، ولا يصح القياس على ما أنتجوه ، لأننا لا نعتبر ما قالوه أو أنشأوه صحيحا، إلا إذا كان له سند من تراث الأسلاف، فنحن نعرف أن الأدباء والشعراء - من المحدثين - قد اختلطوا بالأعاجم وزاد اختلاطهم فى عصور التاريخ المتأخرة، ولا يعقل أنه لم يتسرب إلى لسانهم ألفاظ أعجمية، ومهما قيل عن فصاحة الشاعر، أو المتكلم العربى فلا شك أن طباع من اختلط بهم، وطرائقهم فى التعبير وألفاظهم ستدخل إلى لغته، وتعبيراته.

والمحدثون - من الشعراء - قد وقعوا فى أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، كما يقول الشيخ محمد الخضر حسين [٢] فالقياس فى العربية لا يخضع للأفراد، بل ينبغى إذا ما دعت إليه الحاجة أن يرجع إلى النصوص العربية المعتمدة، وأن تستشار الجماعات المتخصصة حتى يكون القياس سائغا، وملائما للذوق اللغوى العام.

ويوافقنا على ذلك بعض الباحثين المحدثين، فالأستاذ عبد الله العلايلى يرى إباحة القياس للواضع، لا للعفو [٣] من الناس، والواضع هو العرف الشامل أو المجامع، فلا يجوز أن يترك للمستعمل يجرى فيه على هواه، دون تواضع أو اصطلاح، ثم يقول: وهنا نأتى على معنى القياس عندنا أيضا، ونعنى به وقوف المستعمل عند وضع الواضع، والتصرف بالمادة على حسب القانون المخول فى

---

(١) المرجع السابق ٢٩ ، ٣٠

(٢) انظر ص ١٥٤ من هذا الكتاب .

(٣) المراد : أى فرد يستعمل اللغة .

الاشتقاق والتصريف والواضع هو العرف الشامل والجامع وما وراء ذلك من القياس والسماع عبث مطلق وتلاعب حقيقى [1] .

ويقول الدكتور تمام حسان تعليقا على الكلمات التى كان يخترعها الأستاذ سلامة موسى «ولكن استعمال كلمة جديدة لا يكفى نشرها فى صحيفة أو كتاب وإنما المعول عليه هو الذوق اللغوى العام» [2] .

وقد وضع المجمع اللغوى بالقاهرة أسسا للقياس تقوم على كثرة النصوص الواردة للظاهرة اللغوية، ومعرفة آراء علمائنا القدامى فيها وموقف جمهور العرب المعاصرين منها.

ولا ريب أن ذلك الاتجاه الذى نراه، وأكده علماؤنا الأفذاذ يحفظ للعربية شخصيتها المرتبطة بقرآننا المجيد، وسنة نبينا الكريم ﷺ، وتراثنا العربى الأصيل، فهى لغة العقيدة التى يحرص كل مسلم على سلامتها وإجادتها كما ورثناها.

وأملنا أن تستمر قوية عبر التاريخ بجهود أبنائها المخلصين.

* * *

---

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٩٨ ، ١٩٩

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣٣

ثانيا : الارتجال

تمهيد :

اللغة كائن اجتماعي متطور:

كل لغة تحتاج إلى زيادة عدة ألفاظها تبعا لمقتضيات الحياة المتجددة كل يوم وفى اللغات الأجنبية تعددت وسائل النمو سواء كان اجتماعيا أو فرديا وقد يحدث أن تنمو الكلمة فى القرية أو الأسرة مثلا ثم تأخذ طابع الاحترام فى الناس.... وربما تكون نشأتها عن طريق فرد فى المجتمع دون توجيه واضح من الأدباء أو المفكرين وقد تموت كلمات وتحل أخرى محلها.

أما بالنسبة للغة العربية فإن الموقف يختلف بسبب تاريخها الطويل وارتباطها بالعقيدة وللرقابة المستمرة التى فرضها علماء اللغة والتوجيه المستمر الذى فرضته أحوالها منذ قرون [١] ولذلك كان إنشاء ألفاظ جديدة فى العربية الفصحى قليلا جدا والتغيرات التى تتناول مادتها ضيئلة كذلك وهناك دوافع متعددة من التطور اليومى تحتاج إلى ابتكار كلمات جديدة فى كل اللغات فكلما تحقق أى تقدم فى الصناعة الإنسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها ظهور كلمات جديدة بقدرها [٢] وقد تكون هناك أسباب اجتماعية كثيرة تدعو إلى الزيادة فى جانب لغوى أو أكثر فلغة المغازلة كما يقول الأستاذ فندريس من أسرع اللغات تجددا وليس من العسير أن نجد تطور العادات ينعكس في الصور المختلفة التى تقدمها لنا هذه اللغة.

ويجب عند تفسيرنا لها ألا نهمل العلاقات الاجتماعية بين الجنسين ففى عهود الثروة والبذخ كانت توجد أرستقراطية أنيقة تخص الحب بكل عنايتها وتجعل منه سلوتها المضادة فى هذه البيئة تكونت فى داخل اللغة الأرستقراطية مفردات خاصة بمسائل الغزل، هكذا كانت الحال فى فرنسا فى العصور الوسطى[٣]. ويرى الأستاذ فندريس أن كلمات جديدة قد تنشأ فى لغة من

---

(١) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٩ ، ١٠ (٢) اللغة ٢٨٣

(٣) المصدر السابق ٣٨٨

اللغات دون حاجة إليها وبذلك كثر الترادف [1] فى الإنجليزية وتضخمت مفرداتها والفرنسية تهالكت كالإنجليزية على اتخاذ الكلمات الجديدة ولما تزل الكلمات القديمة فى حيوية تامة وكافية للتعبير وهذا عيب ينجم دائما من رخاء الحال الذى يمكن اللغة من استعارة كل ما ينقصها كما تشاء حتى ما يطلب منه لاستعمال مؤقت [2] .

وبهذا ندرك أن اللغات تحتاج إلى الزيادة بسبب من الأسباب وقد تستمد هذه الزيادة بطرق متعددة كالاشتقاق الذى يجدد الكلمات [3] . والقياس وتغير الدلالة والاستعارة من اللغات الأخرى أو من لغات قديمة وإنشاء كلمات مبتكرة لم تكن معروفة من قبل وغير ذلك من الوسائل اللغوية ويهمنا هنا بيان الوسيلة التى بها تنشأ كلمات جديدة ذات طابع غير معروف لأرباب اللغة وهو ما اصطلح اللغويون على تسميته بالارتجال .

حقيقة الارتجال : هو – فى أجلى معانيه – الاختراع كأن ينطق المتكلم بكلمة جديدة فى معناها أو جديدة فى صورتها فلا تمت لمواد اللغة بصلة أو لا تناظر صيغة من صيغها وقد يطلقون على الاشتقاق [4] .

وجـــوده فى اللغـــات

١ – رأى ابن جنى وغيره من القدماء :

يعترف ابن جنى بوجود فكرة الارتجال فى اللغة وقد أيد رأيه ببعض الكلمات التى جاءت عن ابن أحمر وبما روى عن رؤبة وأبيه من أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها، وفى كتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم – أيضا – بالارتجال فى أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى منقول ومرتجل وفى ذلك يقول ابن مالك :

ومنـــه منقـــول كفضـــل وأســـد
وذو ارتجـــــال كســـــعاد وأدد

---

(١) للترادف فى العربية أسباب دعت إليه أو ينشأ عنها انظر كتابنا « علم اللغة بين القديم والحديث » ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٢) اللغـة ٢٩٢

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٠

(٤) من أسرار اللغة (ط ٣) ص ٨٠ ، ٨٢

فالمرتجل عندهم ما لا يدل في صيغته على أى معنى أو بعبارة أخرى لم يكن قبل العلمية كلمة من كلمات اللغة هذا عند الجمهور وذهب سيبويه إلى أن الأعلام كلها منقولة والزجاج إلى أنها كلها مرتجلة [1] وقد وردت أمثلة فى كتب اللغة يمكن اعتبارها مرتجلة.

فأساس الارتجال عند القدماء هو: ما روى عن رؤبة، وأبيه، وما روى فى كتب النحاة والكلمات التى أوردها ابن جنى عن ابن أحمر والكلمات التى وردت فى بعض كتب اللغة.

وابن جنى - من القدماء - هو الذى عالج هذا الموضوع بطريقة تفصيلية وكلامه الذى يتصل به يشمل الاختراع من العدم والاشتقاق والاستفادة من اللغات القديمة الشقيقة أو الأجنبية فقد تحدث فى (باب فى الشىء يسمع من العربى الفصيح لا يسمع من غيره) عن كلمات انفرد بها ابن أحمر الباهلى منها (كأس رنوناة) أى دائمة وذلك قوله:

بنت عليه الملك أطنابها

كأس رنوناة وطرف طمر

ومنها (المأنوسة) وهى النار وذلك قوله (**كما تطاير عن مأنوسة الشرر**)
ومنها (الجبر) وهو الملك وإنما سمى بذلك - أظن - لأنه يجبر بجوده وهو قوله:

اسلم براووق حبيت به

وانعم صباحا أيها الجبر

ومنها: (مارية) أى لؤلؤية لونها لون اللؤلؤ ومنها قوله (البابوس) وهو أعجمى يعنى ولد ناقته وذلك قوله:

حنت قلوصى إلى بابوسها جزعا

فما حنينك أم ما أنت والذكر ؟

فالألفاظ التى ذكرها تشمل ثلاثة أنواع: المخترع والمستعار من لغة قديمة أو من لغة أجنبية، فكلمة الجبر يمكن أن نرجعها إلى الفصيلة السامية فهى معروفة

---

(١) الأشمونى ١ / ١٣١

فى العبرية والسريانية والآرامية وتعنى فيها جميعا معنى الرجل والسيد صاحب القوة والنفوذ [1] وكلمة البابوس أعجمية باعتراف ابن جنى والكلمات الأخرى تحتمل الاختراع ويقول ابن جنى عن هذه الكلمات: «إما أن تكون شيئا أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك فى سماع ذلك منه وإما أن يكون شيئا ارتجله ابن أحمر فإن الأعرابى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به» [2] .

والذى يقرأ كلام ابن جنى يفهم أنه يقصد بالارتجال أحد أمرين:

١ – اختراع ألفاظ من العدم كتلك التى حدثت من رؤبة وأبيه فقد «كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها ويمكن أن يجرى ذلك على طريقة القياس وهذا معنى قولهم عن رؤبة وأبيه إنهما قاسا اللغة وتصرفا فيها وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما [3] .

٢ – الاشتقاق من مواد معروفة على طريقة مخالفة للقواعد القياسية مثل قوله:

ترافع العز بنا فارفنععا

وهذا ما يعنيه قولهم عن رؤبة وأبيه إنهما «تهضما اللغة وولداها وتصرفا فيها غير تصرف الأقحاح فيها وذلك لإيغالهما فى الرجز وهو مما يضطر إلى كثير من التفريع والتوليد لقصره ومسابقة قوافيه» [4] .

ويبدو من كلام ابن جنى أنه يقبل الاختراع من العدم إذا كان سالكا طريق القياس ومما يدل على هذا أنه قرن حديث الارتجال بحديث الاشتقاق القياسى فقال: «وعلى نحو من هذا قال أبو عثمان: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب وفي هذا الضرب غار[5] أبو على فى إجازته أن نبنى اسما وفعلا وصفة ونحو ذلك من ضرب فنقول ضربب زيد عمرا وهذا رجل ضربب وضرنبى ومررت برجل خرجج وهذا رجل خرجج ودخلل وخرجج أفضل من ضربب ونحو ذلك»

---

(١) من أسرار اللغة (ط ٣) ٨٢
(٢) الخصائص ٢/٢٤، ٢٥
(٣) المصدر السابق ١/٣٦٩
(٤) المصدر السابق ٣/٢٩٨
(٥) من الغور وهو ما انخفض من الأرض ويريد تعمق فى البحث.

فقلت له : أفترتجل اللغة ارتجالا؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذا من كلامهم [(١)] فهذا ليس بارتجال كما قال أبو على ولكن العربى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته - كما قال ابن جنى - تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد إليه، فإنه لما أصبحت العربية طبيعة عنده أمكنه أن يولد جديدا جاريا على سمتها ولذا قسم ما يرد عن الفصيح قسمين : ما يوافق القياس وما يخالفه « فإن كان ما أورده مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان فإن الأولى فى ذلك أن يحسن الظن به ولا يحمل على فساده [(٢)] ... فلا نقطع على الفصيح يسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ما وجد طريق إلى تقبل ما يورده إذا كان القياس يعاضده ويحمل ذلك على أنه قد ارتجله أخذا من عبارته السابقة - وقد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتأبدت معالمها، فالمعروف أن لغات كثيرة قد ضاعت بعد الإسلام لموت الحفظة والرواة، قال عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب فى الأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير ولسنا نشك فى بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار فقد يمكن أن يقع شىء من تلك اللغة فى لغتهم فيساء الظن فيه بمن سمع منه وإنما هو منقول من تلك اللغة [(٣)] وحدث ابن جنى قال : « دخلت يوما على أبى على - رحمه الله - خاليا آخر النهار فحين رآنى قال لى : أين أنت؟ أنا أطلبك . قلت : وما ذلك؟ قال : ما تقول فيما جاء عنهم من « حوريت » ؟ فخضنا معا فيه فلم نحل بطائل منه فقال : هو من لغة اليمن ومخالف للغة ابنى نزار فلا ينكر أن يجىء مخالفا لأمثلتهم » [(٤)] .

---

(١) الخصائص ١ /٣٥٩

(٢) المصدر السابق ١ /٣٨٥

(٣) المصدر السابق ١ /٣٨٦

(٤) المصدر السابق ١ /٣٨٧

والعربى الفصيح إذا اجتمع فى كلامه لغتان فصيحتان .... فأخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على ذينك اللفظين ... وقد يجوز أن تكون لغته فى الأصل إحداهما ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى وطال بها عهده وكثر استعماله لها فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى [1] .... وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد [2] :

والقول بوقوع اللفظة للفصيح من لغة قديمة أيده القاضى الجرجانى فهو يقول فى كتابه الوساطة [3] «أما الألفاظ التى زعموا أن الشعراء تفردوا بها فإنها موجودة عن أئمة اللغة وعمن ينتهى السند إليهم ويعتمد فى اللسان عليهم وإنما نتكلم بما تكلموا به وواحد كالجميع والنفر كالقبيلة والقبيلة كالأمة فإذا سمعنا عن العربى الفصيح الذى يعتد حجة كلمة اتبعناه فيها ثم إن لم تبلغنا من غيره ولم نسمع بها إلا فى كلامه لم نزعم أنه اخترعها ولم نحكم أنه أبو عذرتها وعلى هذا أكثر اللغة» ويقول الإمام الشافعى - رضى الله عنه - «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لا يذهب منه شىء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب فيها عليه شىء فإذا جمع علم عامة أهل العلم أتى على السنن وإذا فرق كل واحد منهم ذهب عليه الشىء منها ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره وهم فى العلم طبقات، منهم الجامع لأكثره وإن ذهب عليه بعضه ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره وليس قليل ما ذهب من السنن على من جمع أكثرها دليلا على أن يطلب علمه عند غير طبقته من أهل العلم بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله - ﷺ - [4] » فالجرجانى والشافعى يؤمنان بأن الألفاظ التى ترد عن بعض الفصحاء يمكن أن تكون أضيفت إلى لهجتهم من لهجات أخرى قديمة أو معاصرة، وهذا هو احتمال قال به ابن جنى.

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٧٢

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٧٤

(٣) ص ٤٥٤ ، ٤٥٥

(٤) الرسالة للإمام الشافعى ص ١٨ ، ١٩

فإن لم يكن القياس مسوغا لما ورد عن الفصيح كرفع المفعول وجر الفاعل ورفع المضاف إليه فينبغى أن يرد وذلك لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا فلم يبق له عصمة تضيفه ولا مسكة تجمع شعاعه.

ولكن لو جاء شيء من ذلك عن ظنين أو متهم أو من لم ترق به فصاحته ولا سبقت إلى الأنفس ثقته كان مردودا غير متقبل [1] وبعبارة أخرى «إن كان الرجل الذى سمعت منه تلك اللغة المخالفة للغات الجماعة مضعوفا فى قوله مألوفا منه لحنه وفساد كلامه حكم عليه ولم يسمع ذلك منه هذا هو الوجه وعليه ينبغى أن يكون العمل، وان كان قد يمكن أن يكون مصيبا فى ذلك لغة قديمة - مع ما فى كلامه من الفساد فى غيره - إلا أن هذا أضعف القياسين والصواب أن يرد ذلك عليه ولا يتقبل منه [2].

وعلى هذا فالاشتقاق بما يخالف النهج العربى مردود ومن هنا تعقب العلماء رؤبة وأباه ويمكن فهم ذلك مما أجاب به ابن جنى عما روى عن الخليل من إنكاره قول رجل :

ترافع العــز بنــا فارفنععــا

وهو أن يكون الخليل إنما أنكر ذلك لأنه بناه مما لامه حرف حلقى والعرب لم تبن هذا المثال مما لامه أحد حروف الحلق إنما هو مما لامه حرف فموى وذلك نحو اقعنسس واسحنكك واكلندد واعفنجج فلما قال الرجل للخليل (فارفنععا) أنكر ذلك من حيث أرينا [3] «أو» أنه رأى نون (ارفنعع) فى موضع لا تستعملها العرب فيه إلا غناء غير مبينة فأنكره وليس كذلك فى اقعنسس لأنها قبل السين وهذا موضع تكون فيه مغنة مشابهة لحرفى اللين... وعلى ما نحن عليه فلو قال قائل كيف تبنى من ضرب مثل (حبنطى) لقلت فيه (ضرنبى) ولو قال كيف تبنى مثله من قرأ لقلت: هذا لا يجوز لأنه يلزمنى أن أقول (قرنأى) فأبين النون لوقوعها قبل الهمزة وإذا بانت ذهبت عنها غنتها وإذا ذهبت غنتها زال شبهها بحروف اللين فى نحو: عثوثل وخفيدد وسرومط وفدوكس وزرارق

---

(١) الخصائص ٢ / ٢٥ ، ٢٦

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٩٠

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٦٢

وسلالم وعذافر وقراقر – على ما تقدم – إلخ [١] ... وقد يجوز أن يكون إنكار الخليل قوله : (ارفنععا) إنما هو لتكرر الحرف الحلقى مع استنكارهم ذلك [٢] .

فخلاصة رأى القدماء – وعلى رأسهم عالمنا ابن جنى – أن الارتجال واقع فى اللغة فيجوز للفصيح من العرب أن يرتجل جديدا فى إطار القواعد العامة – ويفسر ما أتى به على أنه من اختراعه وابتكاره أو أنه استمده من لغة قديمة قريبة أو بعيدة .

والناظر فى أدلة هؤلاء يلاحظ أن ابن جنى ذكر أن رؤبة وأباه كانا يرتجلان اللغة وقد دفع إلى ذلك « أن الرواة كانوا مشغوفين بأن يقفوا على كل جديد لم يعرفوه وكان يقضى على العالم فى جهله بكلمة أو خطئه فى مسألة فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيدوا ويختلقوا إذا أحرجوا أو يلتمسوا مثل هذا المختلق من أعرابى اشتهر بالفصاحة كرؤبة بن العجاج » ومن هذا ما يرويه يونس عن رؤبة « أن الرواة كانوا يلحون عليه أن يمدهم بالغريب النادر فكان يستجيب لإلحاحهم ويشبع رغبتهم بكلمات لم يألفوها وأقيسة لم يعهدوها » وكان رؤبة نفسه يشعر بمبلغ هذا الاختلاق والكذب على العرب إذ إن بعض ذلك من عند نفسه وليس منقولا عن العرب أصحاب اللغة « فنرى رؤبة يصيح فى يونس بن حبيب حين طالبه بالمزيد قائلا : حتى متى تسألنى عن هذه الأباطيل وأزوقها لك ؟ أما ترى الشيب قد بلغ فى رأسك ولحيتك ؟

« ولكن هل كان رؤبة يرتجل المسائل ارتجالا ويخترعها اختراعا أو كان يلجأ فقط إلى القياس والاشتقاق ؟ » يشك الدكتور أنيس فى ذلك – كما هو نص عبارته السابقة – ويقول « من الصعب الإجابة على مثل هذا السؤال إجابة نطمئن إليها [٣] ولكننا نستطيع أن نجزم بأن بعض الجديد الذى كان يأتى به رؤبة وأبوه من اختراعهما وابتكارهما وإلا فإنه لو كان كله جاريا على القياس والاشتقاق ومن مواد عربية مألوفة لم يكن هناك داع إلى اعتبار هذا الجديد من الأباطيل والكذب فهذه الأوصاف تعبير صريح عن القلق لما كان يخترعه من عند نفسه

(١) المصدر السابق ١ / ٣٦٥ (٢) المصدر السابق ١ / ٣٦٦

(٣) من أسرار اللغة ٨٤ ، والشعر والشعراء ٢ / ٢٩٥

ويلقى به إلى الناس مفهما لهم أن ذلك وارد عن العرب وعلى نهجهم وليس كذلك فى حقيقة الأمر.

وهذا الاختلاق كما كان فى الألفاظ وبنية الكلمات كان فى المعانى بحيث غير رؤبة فيها وأبدى رأيا لم يعرفه العرب، فصاحب كتاب الشعر والشعراء – وهو أحد الكتب التى تذكر غرائب رؤبة – أخذ عليه بعض مآخذ تتعلق بخطأ فى المعنى فهو يجعل الأسود أخبث من الأفعى فى قوله :

*** فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا [١] ***

وذكر المبرد – فى باب تكاذيب الأعراب من كتابه الكامل – أن رؤبة سئل عن زمن الفطحل فى قوله :

لو أننى عمرت سن الحسل [٢] أو عمر نوح زمن الفطحل

فقال : أيام كانت السلام [٣] رطابا [٤] .

فلا ريب أن بعض ما أتيا به يعد من الاختراع وفي بعضه الآخر ما يرويانه عن اللغات القديمة أو الأجنبية بحيث كان يعد لدى الرواة من غرائب اللغة ويتبين ذلك للباحث من اطلاعه على أراجيز رؤبة وأبيه التى شرحها البكرى فى كتاب بعنوان (أراجيز العرب) فمعظم كلمات الأراجيز من الحوشى الغريب »[٥].

والكلمات التى أوردها ابن جنى عن ابن أحمر الباهلى تحتمل أيضا ما احتملته كلمات رؤبة وأبيه وقد أوضحنا ذلك بنص كلامه فيما سبق.

والباحث فى العربية يعثر فى بعض مصنفاتها على كلمات وصفت

---

(١) الشعر والشعراء ٢ /٥٩٧ ، ٥٩٨

(٢) الحسل – كالعلم – ولد الضب وسن الحسل مثل تضربه العرب فى طول العمر لأن الضب يعيش زمنا طويلا يقال: إنه لا تسقط له سن أبدا حتى يموت ويقال – أيضا – إن الضب والحية والقراد والنسر أطول شىء عمرا ولذلك قالوا: أحيى من ضب . انظر لسان العرب ١٣ / ١٦٠، ١٦١ ومجمع الأمثال للميدانى ٢ / ٢٢٦ والتعليق على بيت رؤبة السابق فى كامل المبرد ٢ / ٥٥٠

(٣) جمع سلمة وهى الحجارة الصلبة سميت بذلك لسلامتها من الرخاوة.

(٤) الكامل ٢ /٥٤٩ وانظر المزهر ط ١٢٨٢ هـ – ٢ /٢٥٢ (٥) من أسرار اللغة ٨٣

بالاختراع فقيل عنها إنها مصنوعة وقد أورد المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة – نقلا عن بعض المصادر اللغوية – فقد نقل عن ابن دريد فى الجمهرة أن الخليل قال: أما ضهيد وهو الرجل الصلب فمصنوع لم يأت فى الكلام الفصيح وكذلك عنشج للثقيل الوخم... إلخ [1] وقد روى فى بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا.

ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغانى منسوبا إلى بشار والمسعودى منسوبا إلى أبى العنبس أيام المتوكل من أن بشارا أو أبا العنبس جاء إلى أصدقائه يوما فقال له أحدهم: مالك مغتما؟ فقال مات حمارى فرأيته فى النوم فقلت له لم مت؟ ألم أكن أحسن إليك؟ فقال:

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنغران

فقال له سائله: ما الشنغران؟ قال: ما يدرينى؟ هذا من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله [2].

وكل هذه الكلمات مما يؤيد رأى القدماء فى وجود الارتجال فى اللغة العربية.

٢ – رأى المحدثين :

(أ) المؤيدون ودليلهم :

يرى بعض العلماء أنه «لا ينكر وقوع الارتجال فى لغة الإنسان إلا مكابر، وبنى أصحاب هذا الرأى نظرتهم على أسس منها :

---

(١) المزهر ط الأولى ١ / ٩٠ وانظر أبوابا كثيرة ذكرتها فى حديثنا عن الإبدال ص ٢٧٤ من هذا الكتاب.

(٢) الأغانى ٣ / ٦٢ ومروج الذهب ٤ / ٤٣ وبينهما خلاف فى ألفاظ الأبيات والشنغران بالنون والغين فى مروج الذهب وبالياء والفاء فى الأغانى.

١ - عند الإنسان ألفاظ لا يمكن إرجاعها إلى محاكاة الأصوات إلا بتكلف وتعسف فأحرى بها أن تكون من الألفاظ المرتجلة أنطقه بها الله الذى أنطق كل شىء [١] .

٢ - اختراع الأطفال للألفاظ والصيغ وقد أجروا فى ذلك التجارب الخاصة على الأطفال [٢] ويقول الأستاذ الاسكندرى «إننا سمعنا كثيرا من الأطفال يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة» [٣] ومن هنا يزعم بعض العلماء «إمكان نشأة لغات مستقلة من مثل هذا فى البيئات المنعزلة» .

ويقول الدكتور أنيس «لا تكفى تلك الأمثلة التى رويت لنا عن ارتجال الأطفال واختراعهم الكلمات اختراعا ... للفصل فى ارتجال الأطفال برأى حاسم فهذه الأمثلة يحوطها الإبهام والغموض» [٤] . ويرى أن الارتجال جائز عند الكبار «فالارتجال ممكن ولا يحتاج إلى قدر كبير من الثقافة بل فى مكنة كل منا أن يرتجل متى شاء وأنى شاء وليس مثل هذا الحق مقصورا على قوم دون آخرين فنحن نستطيع فى سهولة ويسر أن نرتجل كلمات عربية ما أنزل الله بها من سلطان وأن نخلع عليها من المعانى ما يشاء لنا الهوى وهى لا تقل حينئذ عما نسبه القدماء من اللغويين للأعراب، ومثل للارتجال بما كانوا يقولونه وهم طلبة من مثل :

ومد عشر بالعثلمين تفنطحت ... سلفا قناه كبز فرع القنطل

وقال : إن أصحاب الحرف والطوائف المختلفة يمكن أن تخترع ألفاظا خاصة بصنائعها واتجاهاتها الدينية والاجتماعية، وأكد أن تلك الكلمة المخترعة تشيع بين الناس فتكتسب احترامهم وهنا قد يبدأ الكتاب والشعراء فى استعمالها ولا يمر زمن طويل حتى تصبح بلفظها ومعناها مقبولة فى تلك اللغة [٥] .

---

(١) فقه اللغة «الاسكندرى» ص ٢٩ (٢) من أسرار اللغة (ط ٣) ص ٨٧ - ٨٩

(٣) فقه اللغة ص ٣٠

(٤) من أسرار اللغة (ط ٣) ٩٠ ، وزعم بعض العلماء أن ارتجال الألفاظ للدلالة على المعانى راجع إلى طبائع الحروف المتآلفة هى منها فعنده أن كل حرف يرمز إلى معنى كلى يتفرع إلى فروع يدور فيها هذا الحرف (فقه اللغة للاسكندرى ص ٣١) .

(٥) من أسرار اللغة ٩٠ - ٩٢

وهذا الارتجال يظهر أثره فى اللهجات الدارجة إلا أنه قليل محدود الأثر فقد يمر جيل أو جيلان من الزمان قبل أن نظفر فى اللغة بكلمة أو كلمتين يمكن أن نعزوهما إلى الارتجال.

أما فى لغتنا العربية الفصحى التى لا نتركها نهبا للتطور بل نحصنها بحصون منيعة فرضها علينا القدماء من اللغويين فلا أمل من رقى أمثال تلك الكلمات المرتجلة إلى مصاف غيرها من كلمات اللغة الفصحى (١) .

ويؤمن الدكتور تمام حسان بفكرة الارتجال أيضا ويقرها لخضوعها لعناصر اجتماعية تطورية يقول: والحق أن العنصر الاجتماعى لا يمكن تجاهله فى اللغة مادمنا نعترف بوجود أسلوب خاص لكل متكلم وبجواز الارتجال فى اللغة والاحتجاج بأقوال الأفراد سواء أكانوا شعراء أم خطباء أم حكماء أم غير ذلك لأن الاعتراف بكل أولئك اعتراف بما يسمى شخصية المتكلم ويستتبع الاعتراف بهذه الشخصية اعترافا آخر بالتطور فى اللغة، وهو يتفق فى هذا مع الدكتور أنيس وأنه يمكن حدوثه من الكبار وذلك قد يستعمله الشعراء والكتاب وقد يرقى بعض تلك الكلمات إلى اللغة الفصحى (٢) .

والمحدثون بذلك يعترفون بالارتجال فى اللغات الفصحى والعامية قديما وحديثا «ولندرة تلك الكلمات المرتجلة فى اللغة الأخرى وضعف أثرها فى نمو تلك اللغات يرى معظم الباحثين من المحدثين أن الارتجال أتفه طرق الوضع اللغوى(٣) .

(ب) المانعون ودليلهم :

لم تؤمن طائفة من المحدثين بفكرة الارتجال ورفضوها لأدلة منها:

١ – أن ما يرويه المؤيدون ليس فى حقيقته إلا نوعا من عبث الأطفال باللغة المألوفة المعهودة (٤) .

٢ – أن توليد الثلاثى من الثنائى أو من الحرفين الأولين ثم توليد الرباعى من

---

(١) المصدر السابق ٩٢ – ٩٣

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ٨٣

(٣) من أسرار اللغة ٣

(٤) المصدر السابق ٨٩

الثلاثي وهذا لا يخلو من مواضعة واصطلاح وصدورهما من الأناس الأولين غير معقول [١] .

وهم يرون أن تلك الكلمات الجديدة التي نسمع عنها في اللغات الأوربية وقد أطلقت على مستحدثات جديدة قد اشتقت أصولها من اللاتينية أو اليونانية أو اتخذ اسم صاحب الاختراع علما على تلك المستحدثات كاسم (مكنتوش) الذي أطلق على نوع من معاطف المطر لأنه صاحب المصنع الذي أنتجها فليست تلك الألفاظ مخترعة بل إنها راجعة إلى الاشتقاق أو القياس أو النحت أو الاستعارة وغير ذلك من طرق وضع الكلمات الجديدة [٢] .

ولئن سلمنا للمانعين بعبث الأطفال وتسمية المستحدث الجديد باسم مخترعه أو الرجوع في اشتقاق اسمه إلى أصول لغوية قديمة كاللاتينية أو اليونانية فإننا لا نسلم له بأن كل مخترع يجري على هذا النمط بل إن بعض ذلك يطلق عليه اسم جديد لم يعرف من قبل واستبعاد حدوث المواضعة والاصطلاح من القدماء غير مقبول « لأن المواضعة والاصطلاح لا يعني أنهم كانوا يعقدون المحافل والمؤتمرات للاتفاق على كلمة - كما تفعل المجامع اللغوية الآن - وإنما كان القائل ينطق عن فطرة أو قياس يراعيه في وضع الألفاظ فيسمعه منه غيره ويفهم مراده بقرينة إشارة أو خطاب ثم لا يلبث أن يفشو بين الناس [٣] .

ونحن مع ابن جني والأقدمين ومع المحدثين أيضا : فاللغة الفصحى يقتصر الارتجال فيها على العرب الفصحاء وكان ذلك أيام شبابها في عصور الاحتجاج وهو ما أقره ابن جني فقد كانت الجماعة العربية تلجأ إلى هذا الطريق متى أعوزتها الحاجة شأنه في ذلك شأن طرق الوضع الأخرى كالاشتقاق والمجاز ونحو ذلك وكان الفرد العربي يضيف كلمات جديدة وطرقا جديدة « فمخالفة فرد عدل فصيح للكثرة الغالبة ليس عيبا فهو رب اللغة ومالكها فله أن يبتكر من ألفاظها ما يشاء وإلا فكيف تنشأ اللغة ؟ [٤] .

---

(١) فقه اللغة للاسكندري ٣٠
(٢) من أسرار اللغة ٧٩
(٣) فقه اللغة للاسكندري ٣١
(٤) اللغة والنحو (عباس حسن) ٤١ ، ٤٢

وربما يتساءل السائلون فيقولون: هل نشأت اللغة من هذا الطريق؟ فنجيب على ذلك بأن هذا بحث آخر بيناه فى حديثنا عن نشأة اللغة الإنسانية الأولى.

ونحن مع المحدثين فى أن الارتجال يحدث فى حياتنا اليومية أيضا واللغة العامية تحوى ألفاظا من هذا النوع الذى لا أصل له فى اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية بل هو من اختراع الأفراد والجماعات ولكن شتان بين اختراعنا واختراع العربى الفصيح الذى تكلم عنه ابن جنى، فالعربى الفصيح كان يبتكر ما يعد الآن جزءا من اللغة الفصحى أما ابتكاراتنا فليست من ذلك بل تعد من اللهجات الدارجة.

وقد عد المحدثون الارتجال من أتفه طرق الوضع اللغوى - كما سبق - وربما لم يكن فى العربية الفصحى كذلك فما اخترعة العرب الأولون هو من صميم العروبة لأنهم متشبعون بروحها لا يحيدون عنها ولذا فليس من المبالغة أن نقول إنه كان - كغيره - طريقا سلكته العربية منذ نشأتها لنموها واتساعها.

* * *

الفصـــل الرابـع
الحقيقــة والمجـــاز

من عوامل التوليد فى اللغة العربية أن الألفاظ تنقل من معنى إلى آخر، فهى لا تبقى على وضع واحد جامدة لا تتحرك وهذا يغنى اللغة ويزيد من ثرائها.

ونقل الألفاظ إلى معان غير الموضوعة لها مرهون بوجود ما يسوغه ومنوط بأغراض لغوية كثيرة، والعربى قد تعود هذا النقل فى تاريخه الطويل، فلم يقف بالكلمات عند استعمالها الأول. بل استعمل كثيرا منها فى معان جديدة متمشيا بذلك مع حاجات نفسه، وحاجات عصره وما يجد فى حياته، ولنا أن نتابع العرب على ما فعلوا لتحقيق حاجات الحضارة المتجددة.

ولغتنا العربية - كما نقلت إلينا عن الأسلاف - تحقق لنا ما نريد باستخدامها لطرائق المجاز والكناية، وهذا يقتضينا أن نبين أحوال الألفاظ من حيث الحقيقة والمجاز والكناية، وأهمية هذه الاستعمالات فى نمو اللغة، واتساعها، وكثرة أغراضها.

الحقيقـــة :

فى اللغة : ما أقر فى الاستعمال على أصل وضعه [1] ، وفى اصطلاح البلاغيين اللفظ المستعمل فيما وضع له، فى اصطلاح التخاطب كأسد الموضوع للحيوان المفترس، وشمس للكوكب المعروف، وكالصلاة بمعنى الدعاء عند العرب، وبالمعنى الشرعى وهو الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم بشرائط خاصة إذا كان المخاطب من علماء الشريعة فإنه يعد حقيقة بالنسبة له.

والواقع أن اللفظ بالمعنى الشرعى كان مجازا ثم تنوسى فأصبح حقيقة عرفية عند أهل الشرع على طريق النقل - الذى سنتحدث عنه - ولذلك تعد المصطلحات العلمية - فى نظر الباحث اللغوى - مجازات تنوسيت.

---

(١) لسان العرب ١١ / ٣٢٦ ، وتاج العروس ٤ / ١٩ ، والخصائص ٢ / ٤٤٢.

المجـــــاز :

فى اللغة كلمة: بوزن (مفعل) - بفتح الميم والعين - من جاز الطريق إذا قطعه من أحد جانبيه إلى الآخر، وقد توسع فى استعماله فأصبح يطلق على كل ما يوصل إلى المراد، يقال: جعلت كذا مجازا إلى حاجتى أى طريقا لها، وموصلا إليها [1].

وفى اصطلاح البلاغيين: هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فى اصطلاح التخاطب لعلاقة وقرينة.

فالعلاقة إذا كانت المشابهة سمى اللفظ استعارة مثل: رأيت أسدا يتكلم، وإن كانت غيرها كان اللفظ مجازا مرسلا مثل قوله تعالى: ﴿وينزّل لكم من السماء رزقًا﴾ وهذا إذا كانت القرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى فإن كانت غير مانعة سمى اللفظ كناية، مثل: محمد فى ثوبه المجد وكثير الرماد [2]، ومن هذا نعرف أن المجاز ينقسم ثلاثة أقسام، فهو :

١ - مجاز مرسل: إن كانت العلاقة غير المشابهة.

٢ - استعارة: إن كانت العلاقة المشابهة.

وفى كليهما تكون القرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى.

٣ - كناية: وفيها يستعمل اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة غير مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن للمجاز المرسل علاقات كثيرة كالسببية فى قولهم (رعينا الغيث) فالمراد النبات، وعبر بالغيث لكونه سببا له، والمسببية فى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ فالمعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبر بالمسبب وهو الفعل عن السبب وهو إرادته، والكلية فى قوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ فالمراد

---

(١) تاج العروس ٤ / ١٩ ومختصر سعد الدين التفتازانى على متن التلخيص ٣ / ١٥٥ والصاجى ١٩٧ ، ١٩٨

(٢) مختصر التفتازانى ٢ / ١٥٥ وما بعدها.

بالأصابع: الأنامل، تعبيرا بالكل عن جزئه، والجزئية في قولهم للربيئة (أي الرقيب) عينا تعبيرا بالجزء عن الكل» وغير ذلك من العلاقات.

والاستعارة تكون تصريحية أصلية إن ذكر المشبه به وكان جامدا كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ فالمراد بالنور القرآن والحق والبرهان وتكون تصريحية تبعية إن ذكر المشبه به وكان مشتقا مثل قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ فالمراد من (اشترى) استبدل واختار وتكون مكنية إذا كان المشبه هو المذكور في الكلام وكان المشبه به محذوفا مرموزا إليه بشيء من لوازمه كقوله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ فقد شبه الذل بطائر ثم حذفه ورمز إليه بالجناح وأبقى المشبه وهو الذل.

أما الكناية فلها أقسام:

١ – كناية عن صفة: كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ كناية عن البخل والإسراف.

٢ – كناية عن موصوف: كقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ كناية عن السفينة.

٣ – كناية عن نسبة: كقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ كناية عن التفريط في حقه.

وللمجاز أمارات يعرف بها منها:

١ – النقل عن أئمة اللغة، بأن استعمال اللفظ في هذا المعنى حقيقة، وفي ذلك مجاز لأن الظاهر أنهم لم يقولوا ذلك إلا عن ثقة، وهذا – كما ورد عنهم – في استعمال (أسد) للحيوان المفترس – على سبيل الحقيقة – وللرجل الشجاع على سبيل المجاز.

٢ – وجود القرينة التي تبين أن المراد خلاف المعنى الحقيقي، فقولك: رأيت أسدا يتكلم يفهم منه أن المراد الرجل الشجاع بدليل (يتكلم) فهي قرينة على ذلك المعنى أما إذا قلت: رأيت أسدا دون ذكر (يتكلم) فينصرف الذهن إلى المعنى الحقيقي وهو الحيوان المفترس.

٣ - إطلاق اللفظ على ما يستحيل تعلقه به: كقولهم: استوى فلان على متن الطريق ولا متن لها، وفلان على جناح السفر ولا جناح للسفر وشابت لمة الليل ولا لمة له، وقامت الحرب على ساق ولا ساق لها، ونحو ذلك.

وإذا غلب استعمال اللفظ فى غير ما وضع له على طريق المجاز المرسل أو الاستعارة أو الكناية بحيث أصبح الذهن لا ينصرف إلا إليه عند إطلاقه سمى هذا اللفظ منقولا ويعرف عند البلاغيين بالمجاز الراجح (١).

طرق النقـــــل

وللنقل طرق أهمها :

١ - أن يغلب استعمال اللفظ بطريق الاستعارة أو المجاز، مثل كلمة (الفصاحة) ، معناها الأصلى: صفاء اللبن وذهاب رغوته، ثم شاعت فى صفاء القول وعذوبة البيان.

٢ - أن يغلب استعمال اللفظ الذى يدل على معنى كلى فى جزئى من جزئياته مثل إطلاق لفظ (دابة) الموضوع فى الأصل لكل حيوان يمشى على الأرض على بعض الحيوانات، وهى التى تمشى على أربع، وشيوع هذا المعنى الأخير فى عصر من العصور.

٣ - أن يغلب استعمال اللفظ الخاص في معنى عام، بحيث يفهم منه العموم عند الإطلاق، كلفظ (البأس) فمعناه الأصلى: الحرب ثم غلب استعماله فى كل شدة.

٤ - أن ينقل اللفظ من معناه الأصلى لمعنى اصطلاحى، علمى أو مدنى كمصطلحات النحويين (الفاعل والمفعول والجار والمجرور إلخ) ومصطلحات الفقهاء. (الصلاة والصوم والزكاة والحج إلخ) ومصطلحات المناطقة (المقدمة والنتيجة والقضية والقياس إلخ) (٢).

---

(١) المزهر ١/٣٦٢ - ٣٦٥ ومجلة مجمع اللغة العربية ١/٢٩٦ من بحث للشيخ محمد الخضر حسين.

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية العدد السابق ١/٢٩٦ - ٢٩٨ وفقه اللغة د. وافى ص٢٢١ - ٢٣

والوضع الشرعى، والعرف الخاص، والعرف العام كلها داخلة تحت نوع الوضع المجازى [1] .

ويقول الدكتور وافى : قد كثر استخدام العرب لبعض المفردات فى غير ما وضعت له، فاشتبه أمرها على كثير من جامعى المعجمات، فعدوا بعض المعانى المجازية من قبيل الحقائق اللغوية، ولم يعن بالتفرقة بين معانى الكلمة الحقيقية، ومعانيها المجازية إلا عدد قليل من أشهرهم الزمخشرى فى كتابه (الأساس) [2] .

* * *

---

(١) فقه اللغة للاسكندرى ص ٩١ (٢) فقه اللغة ص ٢٢٨

اللغــة حقيقـة أم مجــاز ؟

كثر انتقال الألفاظ من معنى إلى معنى عبر تاريخ العرب الطويل، وكان هذا مثارا للجدل والخلاف في اعتبار ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها حقيقة أو مجازا فنظر بعض العلماء إلى تناسي المعاني الأصلية للألفاظ وأنهم لا يدركون إلا المعاني الشائعة الآن، فعدوا اللغة كلها حقيقة.

وظهر لبعضهم أن هذه الألفاظ كانت لها معان أخرى قديمة استعملت فيها زمنا، ثم نقلت – لتطور الحياة العربية – إلى تلك المعاني التي تستعمل فيها الآن فقالوا بأن « معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي » [١] .

وإليك تفصيل ما قالوه :

١ – اللغــة كلهــا حقيقــة :

رأى بعض العلماء [٢] أن ألفاظ اللغة كلها مستعملة في معانيها الحقيقية، فلا مجاز فيها، فالعرب قد وضعت ألفاظها لمعان حقيقية فوضعت – مثلا – الأسد للحيوان المفترس وللرجل الشجاع، والغيث للمطر والنبات.

واستدلوا لرأيهم بأن المجاز يؤدي إلى نقل اللفظ عن وضعه الأساسي إلى شيء آخر (وهذا يستدعي منقولا عنه متقدما ومنقولا إليه متأخرا، وليس في لغة العرب تقديم وتأخير، بل كل زمان قدر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة، فقد نطقت فيه بالمجاز فجعل هذا حقيقة وهذا مجازا ضرب من التحكم) .

ورد هذا الرأي بأن تقدم الحقيقة على المجاز أمر مسلم، وجهلنا بتاريخ التطور الدلالي في اللغة العربية لا يؤدي إلى القول بأن المعاني نشأت دفعة واحدة دون تقديم بعضها على الآخر.

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ص ١٢٤ (٢) منهم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني .

ولا يمكن القول بوضع الحقيقة والمجاز وضعا واحدا، فلو أن العرب وضعت (الأسد) للحيوان المفترس وللرجل الشجاع على سبيل الحقيقة لتناول اللفظ المعنيين تناولا واحدا، ولأمكن استخدامه للرجل الشجاع دون حاجة إلى قرينة، والواقع غير ذلك فنحن لا نفهم عند إطلاق لفظ (الأسد) إلا الحيوان المفترس، والرجل لا يسمى (أسدا) إلا إذا شبه به فى معنى الشجاعة، ووجدت القرينة الدالة على ذلك [١] .

وفى كلام الدكتور إبراهيم أنيس ما يرشد إلى متابعته لهذا الرأى لأنه لم يعتد بالمعانى المجازية التى لا تثير دهشة لدى السامع أو القارىء (فاللفظ قد يشيع استعماله فى جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين، وكلما ذكر اللفظ خطرت نفس الدلالة فى الأذهان دون غرابة أو دهشة وهو من أجل هذا مما يسمى بالحقيقة، فإذا انحرف به الاستعمال إلى مجال آخر فأثار فى الذهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز) [٢] .

فالحكم على الحقيقة والمجاز فى الألفاظ – كما يرى – لا يكون صحيحا إلا إذا اقتصر على بيئة معينة، وجيل خاص، فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار، وتبقى الألفاظ إذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال إلى آخر.. بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان [٣] .

ويقول : إن تلك هى الظاهرة التى جهلها أو تجاهلها الزمخشرى حين عرض للحقيقة والمجاز فى معجمه أساس البلاغة ففى رأيه [٤] أن القراءة والكتابة والخلق والأسماء كلها من المجاز وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء.

---

(١) المزهر ط. الحلبى ١ / ٣٦٤ – ٣٦٦ بتصرف وانظر فقه اللغة د. وافى ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، وتاريخ آداب العرب ١ / ١٧٩

(٢) دلالة الألفاظ د. أنيس ص ١٢٦

(٣) المصدر السابق ص ١٢٧

(٤) المصدر السابق ص ١٢٨

فمن الواجب ألا يفوتنا أن الدلالة الحقيقية قد تتعذر، أى أن اللفظ ينحرف عن مجاله الحقيقى إلى مجال مجازى، ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفا ويعد حينئذ من الحقيقة وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ فى حدود ضيقة ويكون للفظ دلالتان أو استعمالان وكلاهما من الحقيقة [١].

فهو يتفق مع منكرى المجاز فى اللغة العربية غاية الأمر أن المنكرين القدامى يرون أن اللفظ وضع للمعنيين فى زمن واحد والدكتور أنيس يرى أنهما وضعا في زمنين مختلفين.

ويبدو أن ربط المجازات بمبدأ الدهشة والغرابة ربط غير منهجي والأولى أن يقاس ذلك بمقياس واع يقوم على معرفة معانى الكلمات الأصلية، فاعتبار المعنى حقيقة بمجرد شيوعه يؤدى إلى خلط كبير فى اللغة، وتناسى تاريخ الأمة الذى يمكن معرفته من خلال تطور المعانى التى تتداولها مفردات اللغة وتراكيبها.

وبحث الزمخشرى يعد بحثا تاريخيا عن الألفاظ ودلالالتها (فالاستعمال المجازى قد يصبح قديما باليا بالتكرار المستمر بحيث لا نحس بأنه مجاز فالمتكلم الحديث مثلا لا يدرك وجود أية علاقة بين (خلق) بالمعنى المعروف كما فى نحو « خلق الله الخلق » وبين « خلق » فى نحو « خلق الحذاء الأديم والخياط الثوب » قدره قبل القطع، وإنما يدرك هذه العلاقة أولئك اللغويون المهتمون بالبحث فى تاريخ الكلمات وأصولها والذين يعرفون أن « خلق » الأولى كانت فى الأصل استعمالا مجازيا، لـ« خلق » الثانية [٢].

ومع أن معرفة المجازات التى تنوسيت يحتاج إلى التوغل فى العصور التاريخية للبحث عن نصوص قديمة استعملت فيها الكلمات بشكل مجازى واضح [٣] فإن متابعة السير فيه تكشف عن تاريخ الأمة العربية، وتطور حياتها من خلال لغتها، فاللغة مرآة أربابها وسجل حياتهم.

٢ - المجاز واقع فى اللغة إلا أنه مقصور على العرب:

يرى بعض العلماء أن المجاز ورد عن العرب، فقد استخدموا بعض الألفاظ فى معان مجازية فالأسد استعملوه للحيوان المفترس على سبيل الحقيقة وللرجل

---

(١) دور الكلمة في اللغة - ترجمة وتعليق د. كمال بشر ص ٧٤

(٢) فى اللهجات العربية د. أنيس ص ١٩٤ (٣) مجلة مجمع اللغة العربية ١/٢٩٣

الشجاع على سبيل المجاز، والغيث استعملوه فى المطر حقيقة وفى النبات مجازا ، و« اليد » للجارحة المعروفة حقيقة، وللنعمة مجازا، وغير ذلك مما استعملوه فى معان مجازية.

ويرى أصحاب هذا الرأى أن هذه الألفاظ التى استعملوها يصح لنا أن نحذو حذوهم فيها، ولا نتعداها إلى غيرها فلا يجوز لنا استعمال ألفاظ أخرى فى معان مجازية جديدة فـ« هذا المذهب صريح فى أن المولد لا يباح له نقل لفظ من معنى إلى معنى لم ينقله إليه العرب، وإن كان بين المعنيين علاقة من تلك العلاقات المقررة فى فن البيان، فلا يستعير لفظ الغضنفر مثلا للرجل الشجاع إلا إذا ثبت أن العرب استعاروه له كما استعاروا لفظ الأسد وهلم جرا.

وهذا الرأى فاسد - كسابقه - يقول الإمام محمد الخضر « هذا المذهب ساقط بنفسه ولا أظنك تجد له نظيرا بين علماء لغة يجرى فى عروقها دم الحياة، ولو كان استعمال الألفاظ على سبيل المجاز موقوفا على النقل لدعا ذلك علماء اللغة أن يلتزموا في كتبهم بعد بيان المعانى الحقيقية ذكر المعانى التى استعمل العرب فيها اللفظ على وجه من المجاز وما رأيناهم يفعلون، ولا يقصد الزمخشرى بتعرضه فى كتاب (أساس البلاغة) للمعانى المجازية بعد الحقيقية أن يقصر المجاز على تلك الألفاظ، ولا أن يحجر على الناس التصرف فى تلك الألفاظ بنقلها إلى معان لم ينقلها إليها العرب، وإنما قصده التنبيه على جانب عظيم من أساليب البلغاء، وتصرفاتهم فى المعانى، ليقتدى بها الناشئون، ويتخذوها سلما يرتقون به إلى المرتبة العليا من مراتب البلاغة [1] .

٣ - أكثر اللغة مجاز :

القائلون بذلك فريقان :

(أ) أحدهما يجريه فى معظم التراكيب العربية التى لا يتصور وقوع المجاز فيها .

وعلى رأس هذا الفريق ابن جنى فى الباب الذى عقده فى خصائصه بعنوان (باب فى أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة) وجعل فيه من المجاز نحو قام زيد وقعد

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤

عمرو، وانطلق بشر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء، فالفعل يفاد منه معنى الجنسية، فقولك قام زيد معناه: كان منه القيام أى هذا الجنس من الفعل، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام وكيف يكون ذلك وهو جنس والجنس يطبق جميع الماضى، وجميع الحاضر وجميع الآتى، من كل من وجد منه القيام، ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد فى وقت واحد، ولا فى مائة الف سنة مضاعفة القيام كله الداخل تحت الوهم، هذا محال عند كل ذى لب، فإذا كان كذلك علمت أن قام زيد مجاز لا حقيقة وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع وتشبيه القليل بالكثير.

كما قال بالمجاز أيضا فى مثل: خرجت فإذا الأسد فتعريفه هنا تعريف للجنس، وأنت لا تريد: خرجت وجميع الأسد التى يتناولها الوهم على الباب، وإنما أردت خرجت فإذا واحد من هذا الجنس بالباب، فوضعت لفظ الجماعة على الواحد مجازا.

وقد دلل ابن جنى على رأيه بورود التوكيد فى اللغة العربية، فالتوكيد – كما تعرف – يكون لرفع المجاز، وهو أقوى دليل على شياع المجاز فيها واشتماله عليها، فأنت تقول: قطع الأمير اللص، ويكون القطع له بأمره لا بيده، فإذا قلت: قطع الأمير نفسه اللص رفعت المجاز من جهة الفعل، وصرت إلى الحقيقة، لكن يبقى عليك التجوز من مكان آخر، وهو قولك اللص، وإنما لعله قطع يده أو رجله، فإذا احتطت قلت: قطع الأمير نفسه يد اللص أو رجله، وكذلك جاء الجيش أجمع، ولولا أنه قد كان يمكن أن يكون إنما جاء بعضه – وإن أطلقت المجىء على جميعه – لما كان لقولك أجمع معنى، ومثل توكيد المجاز قولنا: قام زيد قياما، وجلس عمرو جلوسا فقد قدمنا الدليل على أنه مجاز وهو مع ذلك مؤكد بالمصدر فهذا توكيد المجاز كما ترى [1].

ولكن رأى ابن جنى ينطوى على كثير من المبالغة، والتعسف فليس أمر المجاز ساريا فى اللغة على هذا الأساس الذى يحيلها إلى فلسفات، ومنطق لا إلى عاطفة واجتماع وأدب وفن [2].

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٧ – ٤٥١

(٢) فقه اللغة د، وافى ص ٢٢٥ ، ٢٢٦

(والحق أن المجاز وارد وكثير في اللغة، ولكن من التعسف المبالغة فى وروده، ومحاولة إدخال معظم التراكيب العربية فى باب المجاز) [1] .

(ب) الفريق الثاني – وهو جمهور العلماء – يذهب إلى أن أكثر اللغة مجاز دون تعسف :

فالواضع لها جعل بعضها للدلالة على حقائق لغوية، ولكنه أجاز – لسعة اللغة وكثرة تصرفها – أن يلجأ إلى المجاز لظروف لغوية اجتماعية وأدبية .

وقد سار على ذلك الأدباء ، والشعراء وأرباب البيان فى القديم والحديث فهم يستعملون فى كلامهم المجازات اللغوية، فينقلون الألفاظ من معانيها إلى معان جديدة لعلاقاتها بالمعانى الأصلية .

وليس المراد مطلق علاقة، بل للبيانيين فى كل علاقة نظر خاص [2] .

ونحن نؤمن مع هؤلاء بأن اللغة العربية اشتملت وتشتمل على مجازات لغوية كثيرة فالفاظها وتراكيبها مما تحققت فيه علاقة مقبولة، ففى ماضى اللغة تمت مجازات فى الألفاظ على أساس هذه العلاقة [3] .

ويجوز لنا فى كل حين أن نسلك طريق المجاز على هذا النحو .

ولا ندعى أن ذلك وصل إلى حد تفسير كل كلمة نطقها العربى وينطقها على المجاز، كما فعل ابن جنى ومتابعوه .

وهذا المذهب قد لقى قبولا كبيرا من العلماء فى مختلف العصور .

أغراض التجوز والنقل وأثرها فى نمو اللغة :

لا ريب أن نقل الألفاظ من معانيها الوضعية إلى معان أخرى على سبيل المجاز أو الكناية ينشأ عن أغراض يهدف إليها المتكلم، وذلك كالبيان والإيضاح لما يريد حتى يتأكد فى النفس ويتقرر كاستعارة الأسد للرجل الشجاع أو لأن الحقيقة قليلة الشأن والمجاز يبرزها فى صورة ألطف أو أقوى، أو لأن التعبير بالحقيقة يكون نابيا عن الذوق كقضاء الحاجة بدلا من التغوط . وكقول السيدة عائشة – رضى الله عنها – «ما رأيت منه ولا رأى منى» بدلا من التصريح بالعورة [4] .

---

(١) مجلة المجمع ١/٢٩٥

(٢) أوضح بعضها الزمخشرى فى كتابه الأساس.

(٣) فقه اللغة د. وافى ص ٢٢٦

(٤) المزهر ١/٣٦٠

إلى جانب الأغراض الحضارية الكثيرة التى تدعو إلى هذا النقل، وتعده أمرا فى غاية الاهتمام، وقد لاحظنا أن ألفاظا عربية كثيرة جرت على هذا الطريق فنقلت من معانيها الحقيقية إلى معان أخرى، وتنوسى المجاز فيها حتى أصبحت فى درجة الحقائق، ولكن التاريخ اللغوى يكشف لنا عن ذلك التطور الدلالى، وبتتبعه يمكن معرفة حال الأمة وحضارتها على مر العصور.

واللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية، أو الغربية فلا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم، وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربى من مادة ألفاظه، ومفرداته فى أسلوب الواقع وأسلوب المجاز (١) .

فالكتابة والشكل والرسم والبلاغة، والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة أقوام رعاة، وقبائل مترحلة، فالكتابة والشكل بمعنى القيد، والرسم: أثر خطو الإبل على الرمال فى رسيمها أو سيرها على العموم، والبلاغة من الوصول إلى غاية المسير، والفصاحة من اللبن الفصيح الذى زال رغوه، والدلالة للقافلة كالدلالة فى الكلام (٢) .

وبهذا اتسع صدر العربية للعلوم، والمعارف والفلسفات التى جدت، وتجد كل يوم.

* * *

(١) اللغة الشاعرة ٦٠ ، ٦١ (٢) المصدر السابق ص ٤٢

دلالة الألفاظ فى القرآن الكريم حقيقة ومجازا

اللغة لفظ ومعنى، واللفظ وعاء المعنى، واللغة العربية لغة الألفاظ والمعانى، تختار اللفظ المناسب للمعنى المناسب، وقد كان العرب حكماء فى اختيار الألفاظ للمعانى.

وجاء القرآن الكريم ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] حاملا لسمة العرب فى استعمالهم اللغوى، وقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم تحمل المعانى التى أرادها الشارع الحكيم فى دقة وشمول للأغراض المرادة.

والقرآن الكريم هو الدستور السماوى الخالد الذى يشتمل على المبادىء والقيم، والمثل التى أرادها الخالق جل وعلا لإصلاح البشرية وتوجيهها إلى الاتجاه السليم النافع لها، والذى يبعد بها عن الضرر إذ هو من لدن حكيم خبير ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢].

والذى يريد أن يستنبط المبادىء التى جاءت فى القرآن الكريم عليه أن يكون عالما بمدلولات الألفاظ القرآنية، ودارسا لها دراسة متأنية حتى يستطيع أن يخرج بالثمرة المرجوة من كتاب الله كما أراده المولى جل وعز.

وإن الخطورة الكبرى تتمثل فى الانحراف باللفظ أو المعنى حين يفهم لفظ القرآن الكريم إذ يلوى عنق الحقيقة، ويضيع الحكم الشرعى حين الفهم السقيم.

ونحن ندعو إلى التأمل والوعى الكامل فى هذا الجانب ليدرك الباحث ما يدل عليه اللفظ حقيقة ومجازا، ويفهم المراد القرآنى من خلال ذلك، ويعرف آراء الفقهاء وعلماء الشريعة فى استنباط الحكم الشرعى.

نقول: إن الدلالة اللغوية تقوم على الوضع والاستعمال، وهنا نجد الكلمة الواحدة أو اللفظ المفرد وضع لمعنى من المعانى، أو لعدة معان، ويستعمل فى التراكيب الكلامية، فيفهم المراد منه حسب السياق.

وقد قسم العلماء المعانى التى يدل عليها اللفظ إلى ما وضع له على سبيل الحقيقة، وما استعمل فيه على سبيل المجاز.

وقد يقصد المتكلم المعنى الحقيقى، فيدل عليه اللفظ بحسب وضعه، وإذا

أراد الدلالة على المعنى المجازى دل عليه بالقرينة التى يعلم منها أن اللفظ مستعمل فى معنى مجازى، ولم يقصد معناه الحقيقى، وهذا لا يكون إلا باستعمال اللفظ فى تركيب كلامي، ولابد كذلك من وجود علاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى حتى يصح نقل اللفظ من مجال استعماله الأصلى إلى المجال الجديد، وقد فصلنا ذلك من قبل.

وقد جاءت الكلمات فى القرآن الكريم مستعملة على هذين الطريقين طريق الحقيقة، وطريق المجاز، ويستنبط الحكم الشرعى حسب المراد حقيقة ومجازا.

والمعانى الحقيقية كثيرة فى القرآن الكريم، كقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] فهو دليل ونص لوجوب العدة للمتوفى عنها زوجها، ومقدارها، لا يجوز مطلقًا تجاوزها اللهم إلا إذا قام دليل على النسخ أو التخصيص.

وقوله سبحانه: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] فهو بيان لحكم السرقة، وجزائها، وكذلك قوله عز حكمه: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤] ويجب العمل بكل ذلك وفق ما قرره الشرع وحدده.

واستعمال اللفظ على سبيل المجاز – فى القرآن الكريم – مثار بحث ونظر بين الفقهاء.

فالشافعية يرون أن الأصل أن يستعمل اللفظ فى معناه الحقيقى، وإنما يستعمل فى المعنى المجازى ضرورة، وفى حدود ضيقة كقوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ [المائدة: ٦] ، الغائط: هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا يقصدون هذه الأماكن لقضاء حاجتهم، فالمجيء من الغائط يقصد به قضاء الحاجة، وهذا مجاز من باب تسمية الحال باسم المحل، وهذا يقصد به أنه أحدث حدثا أصغر.

ولكن فقهاء الحنفية يرون أن العرب لهم طرق متنوعة فى الاستعمال اللغوى، منها طريق الحقيقة، ومنها طرق المجاز التى تؤدى المعنى المراد سواء كان

مجازا مرسلا، أو مجازا بالاستعارة، أو مجازا بالحذف أو غير ذلك مما ورد فى (علم البيان) – عند البلاغيين – ، وكذلك بعض أساليب (علم البديع) فيما يسمونه (المشاكلة) مثلا.

فالمولى سبحانه يقول: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤] فالاشتعال – أصلا – يكون فى إيقاد الحطب ونحوه، فيقال – فى الأصل – اشتعلت النار، واستعار ذلك لبياض شعر الرأس.

وكذلك قوله تعالى – فى حق الوالدين – : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الاسراء: ٢٤] فالذل لا جناح له، فشبه بما له جناح وهو الطائر على سبيل الاستعارة المكنية، وقوله سبحانه: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾[النحل: ١١٢] فأصل الذوق بالفم فى ذوق الطعام، ولكن لا يذاق اللباس ولا الجوع أو الخوف، وقوله جل ثناؤه: ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨] فالمس لا يذاق – أيضا – فهى استعارات – كما نعلم – تبين قدر القرآن الكريم فى البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر: ١٣] فالرزق مراد به المطر الذى ينشأ عنه الرزق على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته المسببية.

ومن المجاز بالحذف قوله تبارك وتعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧] فالمراد أوقات الحج أشهر معلومات، وليس المراد أن الحج هو الزمان، ففى الكلام حذف «ومن عادة العرب الحسنة فى خطابها أنهم يحذفون من الكلام ما يدل عليه المذكور فى الكلام للاختصار كما قال المولى سبحانه: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾ [الشعراء: ٦٣] فأصل الكلام: فضرب فانفلق لأن المذكور من الكلام دليل عليه».

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] فالمراد: أهل القرية إذ الجدران والأبنية لا تسأل وإنما يسأل ساكنوها.

ومن طرائف علم البديع فى باب المشاكلة قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

معروف أن العدوان مجاوزة الحد، فلفظ «العدوان» لتعدى الحد الفاصل بين الحق والباطل، والاعتداء الأول ظلم، والثانى دفاع ورد لهذا الظلم، فكان المساق الكلامى أن يقال: فمن اعتدى عليكم فردوا العدوان عن أنفسكم، ولكنه عبر عن رد العدوان بلفظ العدوان مشاكلة لوروده قبل ذلك.

وكذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالسيئة يقصد بها الإساءة، فإذا أساء إنسان إليك فلك أن تجازيه على إساءته بمثلها، لكن حق الرد عدل وليس سيئة وسماه كذلك مشاكلة.

وعلى ذلك قول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥] أى، يجازيهم على استهزائهم، فسمى جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فهم مكروا لعيسى ومحمد عليهما السلام بأن دبروا لقتلهما فى الخفاء ولكن الله حفظهما فسمى حفظه مكرا مع أن الله تعالى لا يدبر فى الخفاء بل يفعل ما يشاء علانية ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] وذلك من باب المشاكلة.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وقوله عز حكمه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وعلى هذا فالحنفية يرون أن هذه الطرق من طرق أداء المعنى، والتعبير عن المراد، وليست مقصورة على الضرورة، بل هى شائعة فى القرآن الكريم.

ولكن السؤال هو: ما المعنى الذى يؤخذ به هل المعنى الحقيقى أو المعنى المجازى أو هما معا؟

نقول:

الأصل أن اللفظ يستعمل فى معناه الحقيقى الذى وضع له، ولا يصرف عنه إلا بصارف من قرينة حالية أو مقالية.

ونرى أن الفقهاء لا يمنعون استعمال اللفظ فى معناه الحقيقى إذا كان مرادا، أو فى معناه المجازى إذا دلت على ذلك قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، وكذلك إذا كان المعنى الحقيقى داخلا فى المعنى المجازى.

وقد دار خلاف بين الفقهاء حول استعمال اللفظ فى معنييه الحقيقى والمجازى، وتعليق الحكم بكل منهما على استقلال.

ومن المجيزين لذلك الشافعي وكثير من أصحابه، وبعض علماء الكلام، وأهل الحديث.

لكن الحنفية، وبعض الشافعية، وجمهور المتكلمين على أنه لا يجوز ذلك، لأن اللغة لم ترد به، فلم يسمع عن العرب - مثلا - أن استخدموا فى جملة واحدة لفظ (البحر) للدلالة على مجرى الماء المعروف، وعلى الرجل الكريم.

وتظهر ثمرة الخلاف فى مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦] فيجيز الفريق الأول أن يكون المراد من الملامسة اللمس باليد، والوطء، على حين يرى الفريق الثانى أن المراد المعنى المجازى فحسب وهو الجماع، ويدل لذلك استعمال صيغة المفاعلة، وهى تمنع إرادة المعنى الحقيقى، وهو اللمس باليد.

ولنا أن نسأل: هل المعانى الكثيرة للفظ الواحد تراد جميعها أو يراد بعضها فحسب؟

ونقول فى الإجابة:

لا شك أن الألفاظ الموضوعة للمعانى بعضها وضع لمعنى واحد، وبعضها وضع لأكثر من معنى، وما وضع لأكثر من معنى سمى (المشترك اللفظى) وهو نوعان: ما دل على معنيين ضدين، وما دل على غير ضدين، فالأول كالقرء للطهر والحيض، والثانى كالسجود بمعنى الانقياد والطاعة، وبالمعنى الشرعى المعروف فى الصلاة.

وإنما يستعمل اللفظ لأحد هذه المعانى أو أكثر من واحد منها بالقرائن التى تدل عليها، وقد لا يوجد دليل على ذلك.

ولهذا الاشتراك أسباب كثيرة:

منها ما يعود إلى القبائل المختلفة التي يستعمل بعضها اللفظ في معنى، ويستعمله بعضها الآخر في معنى مخالف، ثم يشتهر الاستعمالان ويخفى الواضعان، أو يكون تعدد المعاني ناشئا عن استعمال اللفظ في معنى اصطلاحي كما يحدث في نقل الألفاظ في العلوم المختلفة الشرعية وغيرها كلفظ السجود، ولفظ الصلاة ولفظ الصيام.

أو يكون استعمال اللفظ وقع مجازا، فيجتمع المعنى المجازي مع المعنى الحقيقي أو يكون هناك أصل عام تتفرع منه تنوعات للمعنى، كالصريم لليل والنهار – فهما يرجعان إلى معنى عام واحد هو القطع.

ويستعمل اللفظ المشترك في أحد معانيه أو بعضها تبعا للقرائن الدالة على ذلك [1].

وإذا كان المعنيان متضادين لم يجز إرادتهما دفعة واحدة، وإنما يراد أحدهما بالقرينة الدالة على المعنى المراد، ويرجح أحدهما تبعا لذلك، وفي هذا يأتي مجال الخلاف بين الفقهاء في المعنى المراد منهما.

ففي قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾ وردت كلمة (قروء) جمع (قرء)، وهو يطلق في اللغة على الطهر وعلى الحيض، ولذلك اختلف الفقهاء، ففسر الحنفية القرء بالحيض – وتابعهم الإمام أحمد – وعلى ذلك رأوا أن عدة المطلقة ثلاث حيضات لأن الحيض هو أساس معرفة براءة الرحم من الحمل حتى تنتهي الصلة بين الزوجين ليباح للزوجة الزواج من آخر وترجح ذلك بالحديث (طلاق الأمة ثنتان وعدتها حيضتان) ففيه تصريح بأن العدة تكون بالحيض لا بالطهر.

وذهب الشافعية إلى أن المقصود بالقرء الطهر، لأن الطلاق السني ما يكون في طهر مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ [الطلاق: ١] والطلاق لا يكون في العدة إلا إذا وقع في طهر، فالعدة ثلاثة أطهار.

---

(١) انظر تفصيلا لذلك في كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث) ص ٢٨٦ وما بعدها.

وقد لا تقوم القرينة على أحد المعنيين، فيمكن أن يراد أيهما، أو هما معا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧] فالفعل (ترغب) يستعمل فى معنيين: حب الشيء وكراهيته، ويتضح ذلك ويعرف عادة باقترانه بحرف الجر (فى) إذا أريد المعنى الأول – وباقترانه بحرف الجر (عن) – إذا أريد المعنى الثانى، فإذا ورد – كما فى الآية الكريمة – خاليا من الاقتران بأحد الحرفين لم يدر المراد من المعنيين، فيمكن أن يراد أيهما شئت، والآية الكريمة تحتمل ذلك، ويؤخذ من سبب النزول ما يدل عليه، فإن الذين كانوا يكفلون اليتيمات آنذاك حدث منهم طمع في أموالهن فكانوا يستولون عليها، وينفقون منها متذرعين بالزواج أحيانا من اليتيمات – إذا زغبوا فيهن لجمالهن – وأحيانا كانوا لا يتزوجون بهن لدمامتهن مع الاستيلاء على أموالهن، فنزلت الآية تبين أن كلا من المعنيين يمكن أن يكون مرادا.

أما إذا لم يكن المعنيان أو المعانى متضادة فإن القرائن – أيضا – توضح المعنى المراد منها.

وإذا لم توجد قرائن توضح المعنى المراد فإن المعانى التى يدل عليها اللفظ المشترك تكون كلها حينئذ محتملة، لكن الفقهاء يختلفون فى إرادتها كلها أو بعضها.

فعند أكثر الشافعية – فى حال عدم وجود القرينة الدالة على بعض المعانى – يجب أن يراد من المشترك كل معانيه – إذا لم يكن بينها تعارض.

واستدلوا على ذلك بوقوعه فى التنزيل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨] .

فللسجود معنيان: أحدهما: الانقياد والطاعة، والثانى: وضع الجبهة على الأرض، وهما مرادان فى الآية، لأن السجود نسب إلى ما لا يعقل كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، ونسب إلى من يعقل وهم الناس،

ولا يصح أن يفسر بواحد منهما فقط، لأن المعنى الأول مناسب لغير العقلاء، والمعنى الثانى مناسب للعقلاء، وعلى ذلك فالمشترك مراد به المعنيان معا، ولا يصح أن يفسر لفظ السجود هنا بمعنى الانقياد والطاعة فقط على أنه شامل للجميع لأن الناس جميعا ينقادون لخالقهم لا كثير من الناس، فالتعبير بقوله تعالى: ﴿ **وكثير من الناس** ﴾ دليل على إرادة السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض بالنسبة لهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ [البقرة: ٤٣] [1].

الإقامة تحتمل عدة معان، هى السكن فى مكان على سبيل الدوام، واعتدال العود، ونفاق السلعة بمعنى الإقبال عليها والرغبة فى شرائها - واللفظ يحتمل ثلاثة معان: المداومة والاعتدال، والرغبة، وكلها مرادة هنا، فالمطلوب منا أن نداوم على الصلوات فى أوقاتها، ولا نترك شيئا منها، وأن نعدل أركانها، وواجباتها وسننها فنستوفى القيام والقراءة والركوع والسجود والقعود، وكل ما تتطلبه من قول وعمل، بتأن واطمئنان يحقق الخشوع المطلوب فى الصلاة، وكذلك أن نرغب فى الصلاة فندخل فيها محبين لها عن إقبال وشوق، وألا نكون كارهين لها، كما قال - ﷺ - : «وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

ويرى الحنفية أن المشترك لا يدل على كل المعانى دفعة واحدة بل يدل على كل معنى على استقلال فى مقام خاص، وعلى ذلك لا يجوز أن يستعمل لكل معانيه، فإذا اشتمل الكلام على لفظ مشترك وجب وضع قرينة لفظية أو حالية تصرفه إلى المعنى المراد فقط، وتمنع غيره من الدخول، فإذا لم تقم قرينة كان المعنى المراد مجهولا فيؤدى ذلك إلى الإبهام والتعمية، وهو ما ينأى عنه الواضع العربى الحكيم، لأن العربى الحكيم وضع الألفاظ للإبانة عن المعانى وإيضاحها لا للإلغاز، والإبهام.

فإذا لم تتضح القرينة التى تدل على المعنى المراد، وخفيت على الباحث الفقيه فعليه أن يلتمسها من دلائل ترشد إليها من السنة النبوية القولية أو فى

---

(١) الآيات ٤٣، ٨٣، ١١٠ من سورة البقرة، وفى كثير من سور القرآن الكريم: انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية ٢ /٤٤٧، ٤٤٨

فعل الرسول الكريم وصحابته الأجلاء أو في قياس أو إجماع إلخ كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] فاليد تشمل اليمين والشمال، وبينت السنة أن المراد اليد اليمنى.

كذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] أوضحت السنة أن الصيام هو الشرعي لا اللغوي، وكذلك الألفاظ التي نقلت من معانيها اللغوية إلى معانيها الشرعية كالصلاة والزكاة والربا والحج ونحو ذلك أو التي كانت عامة فخصصها الشرع كالطارق والقارعة والواقعة إلخ.

وفسر الحنفية الآية الأولى التي استدل بها الشافعية – على أن السجود بمعنى واحد هو الخضوع والانقياد لما يريده الله تعالى في ملكه وخلقه ، وقوله ﴿ **وكثير من الناس** ﴾ خرجوه على أنه فاعل لفعل محذوف وبتقديره ﴿ **ويسجد كثير من الناس** ﴾ بمعنى السجود الشرعي في الصلاة أو يعرب ﴿ **كثير من الناس** ﴾ مبتدأ و ﴿ **حق عليه العذاب** ﴾ خبره وعطف كثير الثاني على كثير الأول مبالغة في الكثرة أو ﴿ **كثير** ﴾ مبتدأ خبره الجار والمجرور ﴿ **من الناس** ﴾.

وكل هذه تأويلات متكلفة، وفسر بعضهم السجود بمعنى عام واحد – هو السابق – ويشمل جميع المخلوقات العقلاء وغيرهم، وقد نقض هذا التفسير فيما سبق.

والراجح رأى جمهور الشافعية.

من هنا نرى أن القرآن مائدة الرحمن للعالمين يجب الحفاظ عليه أن ينال فهمه تحريف أو تنزلق قدم دعي يدخل إليه دون التسلح بسلاح اللغة التي تعد أساسا قويا لعلوم القرآن الكريم، وبدون ذلك يضل ويهوى من يتطفل دون أن تكون له معرفة بـ (المبادىء اللغوية).

* * *

معانى الحروف

يرى البصريون أن معانى الحروف لا تتعدد، ولا يقولون بنيابة بعض الحروف عن بعض قياسا كما لا تنوب حروف الجزم عن حروف النصب، فليس للحرف عندهم وضعا إلا معنى واحد، فإذا جاء ما يخرج عن ذلك من تعدد معانى الحرف فينقل الحرف من معناه الأصلى إلى المعنى الجديد عن طريق الاستعارة التبعية، أو يضمن الفعل الواقع فى الجملة - أو ما يقوم مقامه - معنى فعل آخر يتعدى بالحرف بمعناه الأصلى إذا كان لا يستساغ بلاغة إجراء الاستعارة فيه، مع وجود علاقة مقبولة، ووجود قرينة يؤمن معها اللبس.

وتتحقق العلاقة بوجود مناسبة بين المعنى الأصلى، والمعنى المجازى، ولا يجوز فى ذلك أن تقول: سرت إلى زيد، وأنتَ تريد: معه مثلا، ولا: رويت الحديث بزيد، وأنت تريد: عنه.

ولابد من وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس كحرف الجر الذى يتعدى به الفعل ولم يكن من حقه أن يتعدى به - كما فى الأمثلة التى ستأتى أو تكون القرينة المفعول.

أما إذا لم يؤمن اللبس، بل أمكن أن يراد المعنى الحقيقى للفعل فليس من التضمين، بل من سوق المعنى الحقيقى.

فإذا لم يمكن أحد هذين الأمرين (الاستعارة فى الحرف أو تضمين الفعل) عد استعمال الحرف فى غير معناه شذوذا.

ويرى الكوفيون أن الحروف ينوب بعضها عن بعض قياسا فلا حاجة لهم بما يسمى التضمين - عند البصريين - فالحرف عند الكوفيين موضوع لأكثر من معنى واحد وضعا لغويا.

وعلى ذلك نجد بعض الحروف تستخدم فى غير معانيها الأصلية، وبمعنى بعض الحروف الأخرى من أخواتها.

ولذلك اختلفت آراء العلماء والفقهاء فى المعانى المرادة للحروف الواردة فى بعض النصوص القرآنية، واختلف الحكم الشرعى المستنبط تبعا لها ووجدنا لذلك مباحث فى علوم القرآن الكريم.

والحروف التى بين أيدينا - فى العربية - أنواع:

منها حروف جر، ومنها حروف عطف، وغيرهما:

معانى حروف الجر

هى كثيرة نقتصر على بعضها: الباء - فى - إلى - عن - على - من.

البـــاء :

من معانيها الإلصاق، وهو الأصل، ومعناه اختلاط الشيء بالشيء، ويكون حقيقة وهو الأكثر نحو: به داء، ومجازا نحو: مررت به، إذ معناه جعلت مرورى ملصقا بمكان قريب منه لا به، فهو وارد على الاتساع.

وجعل بعض الفقهاء منه قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فحكموا بأن الجزء الذى يمسح ربع الرأس.

وتأتى لمعنى التبعيض كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] فيكون بمنزلة (من) الجارة فى إفادتها معنى التبعيض.

وخرج بعض الفقهاء قوله عز وجل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ على هذا المعنى أى بعضا، فيكون المطلوب أى جزء من الرأس ولو شعرة واحدة.

وفسرها بعضهم على أن الباء للاستعانة - وهى الدالة على آلة الفعل نحو كتبت بالقلم ومنه فى أشهر الوجهين «بسم الله الرحمن الرحيم» - فإن الفعل «مسح» يتعدى إلى مفعول بنفسه وهو المزال عنه، وإلى آخر بحرف الجر وهو المزيل، فيكون التقدير: (فامسحوا أيديكم برءوسكم).

وتأتى زائدة إذا تأدى المعنى المقصود بوجودها وحال عدمها، فتزاد مع الفاعل: نحو قوله سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] فلفظ الجلالة فاعل وشهيدا نصب على الحال أو التمييز، والباء زائدة، ودخلت لتأكيد الاتصال أى لتأكيد شدة ارتباط الفعل بالفاعل، لأن الفعل يطلب فاعله طلبا لابد منه،

والباء توصل الأول إلى الثانى، فكأن الفعل يصل إلى الفاعل، وزادته الباء اتصالا، وهذا - كما يقول ابن الشجرى - إيذان بأن الكفاية من الله ليست كالكفاية من غيره فى عظم المنزلة فضوعف لفظها لتضاعف معناها، ويدل لزيادتها حذفها فى قول الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وعليه جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٨٣] أى أذاعوه.

وقوله عز حكمه: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] أى: تبذلونها لهم.

وعليه وجه قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ فهو يدل على مباشرة العضو بالمسح. على أن الباء زائدة فى المفعول.

وأول البصريون - فى هذه الآيات - بما يجعل حرف الجر أصليا لا زائدا فالفعل «أذاعوا» مضمن معى تحدثوا والعلاقة واضحة وهى الاعلان أى: لأعلنوه أو لأعلنوا به.

والفعل «تلقون» مضمن معنى «ترمون» من الرمى بالشئ، يقال: ألقى زيد إلى بكذا أى، رمى به وفى الآية إنما هو إلقاء بكتاب أو رسالة فعبر عنه بالمودة لأنه من أفعال أهل المودة والمراد: تلقون اليهم النصيحة بالمودة.

وأولوا ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ على أن المراد اجعلوا المسح ملاصقا برءوسكم ففى هذه الآية والتى قبلها حذف المفعول الأول.

والفعل (كفى) فعل تعجب والباء هى التى توجد فى فعل التعجب فى مثل (أحسن بزيد).

وعلى ذلك تخرج الباء من باب الزيادة.

فى:

أصل معناه الظرفية.

ويكون الظرف والمظروف حسيين مثل قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي

ظلال وعيون ﴾ [المرسلات: ٤١] فسر بعضهم (في) على أنها للظرفية الحسية، وقد يكونان معنويين مثل قوله سبحانه: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقد يكون المظروف جسما نحو قوله تعالى: ﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقد يكون الظرف جسما كما في قوله جل ثناؤه: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة: ١٠].

والمعنى في الأول حقيقي، وفي الثاني والثالث والرابع مجاز.

وتجئ (في) بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات ﴾ [النمل: ١٢] أي جعلنا معه تسع آيات، وقوله سبحانه: ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ [الفجر: ٢٩] أي مع عبادي.

وتأتي بمعنى (على) مثل قوله عز حكمه: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ [يونس: ٢٢] بدليل قوله سبحانه: ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وكذلك قوله عز وجل: ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل لما في الكلام من معنى الاستعلاء، وجعل بعضهم الظرفية أساسا للمعنى، لأن الجذع للمصلوب كالقبر للمقبور وتأتي بمعنى (إلى) نحو قوله سبحانه: ﴿ فتهاجروا فيها ﴾ [النساء: ٩٧]، وكذلك قوله جل شأنه: ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ [إبراهيم: ٩].

وتأتي بمعنى (من) كما في قوله تعالى: ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا ﴾ [النحل: ٨٩].

إلى:

المعنى الأصلي لها هو انتهاء الغاية:

وقد تأتي بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤]، وقوله عز حكمه: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء: ٢]

وقيل يرجع ذلك إلى معنى الانتهاء فالمعنى - في الآية الأولى -: من يضيف نصرته إلى نصرة الله؟ أي: من أنصاري مضافا إلى الله؟ والمعنى - في

الأخرى -: ولا تضيفوا أموالكم إلى أموالهم، وكنى عنه بالأكل كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] أى: لا تأخذوا.

ويترتب على ذلك خلاف فى حكم ما يقع بعدها، هل يدخل فى حكم ما قبلها أو لا على مذاهب:

أحدها:

من قال إنها لانتهاء الغاية - ولم يجعلها بمعنى مع - لا يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها إلا مجازا، لأنها تدل على غاية الشئ ونهايته التى هى حده، وما بعد الحد لا يدخل فى المحدود كما نرى ذلك واضحا فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] وفى قوله تعالى: فى آية الوضوء - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾.

الآية تدل على وجوب الغسل إلى المرافق، ولا ينبغى وجوب غسل المرفق لأن الحد لا يدخل فى المحدود - فيما إذا جعلت اليد لما دون المرفق - ولكن إذا غسل لم يكن ذلك ممنوعا أو مؤثما، كما نقول: سرت إلى الكوفة فهذا لا يقتضى دخولها لكنه لا ينفى الدخول، فقد يكون المتكلم قد دخلها فعلا.

الرأى الثانى:

الذى يقول إنها بمعنى (مع) يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها ولا يخرج إلا مجازا، وقد استدل أصحاب هذا الرأى لذلك بآية الوضوء المذكورة، فتدخل المرافق فى الغسل.

ومنشأ الخلاف فى هذه الآية أن (إلى) حرف مشترك يكون لمعنى انتهاء الغاية وللمعية، وتبعا لإطلاق اليد فى كلام العرب، فهى تطلق على معان: على الكفين فقط، وعلى الكف والذراع والعضد، فمن فهم من (إلى) الغاية ومن اليد ما دون المرفق لم يدخل المرفق فى الغسل، ومن فهم من (إلى) المعية ومن اليد مجموع الثلاثة أوجب دخول المرفق فى الغسل.

ويرى بعض العلماء أن المرفق واجب الغسل عند أصحاب الرأيين السابقين

جميعا سواء كانت (إلى) للغاية أو بمعنى (مع)، ذلك أن اليد تشمل العضد - عند العرب - والمرفق هو الموضع الذى يتكئ الإنسان عليه فى رأس العضد، فيدخل فى الغسل ولا يجب فى الغسل أكثر منه.

الرأى الثالث:

أنها مشتركة فيهما لوجود الدخول وعدمه، فإن كان ما بعدها من جنس ما قبلها أو جزءا كالمرافق دخل وإلا فلا، فقد يدخل نحو ﴿ **وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** ﴾، وقد لا يدخل نحو ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ** ﴾.

عـــن:

تفيد معنى تجاوز أمر من المتحدث عنه إلى غيره كأن تقول: أطعمته عن جوع فقد أزلت عنه الجوع، وجعلته يتجاوز المتحدث عنه إلى غيره، ورميت عن القوس أى: طرحت السهم عنها، وتقول: أخذت العلم عن فلان، فقد تلقيت العلم عن الأستاذ فصار كالمنتقل عنه إليك.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾ [النور: ٦٣] لأنهم إذا خالفوا أمره بعدوا عنه وتجاوزوه.

وتأتى بمعنى الباء كقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ [النجم: ٣] فنفى عنه النطق فى حال كونه متلبسا بالهوى، وهو صحيح.

وبعضهم يجعل (عن) على بابها، ولكنه غير مقبول لأنه حينئذ نفى عنه النطق حال تجاوزه الهوى أى حينما لا يخضع لهواه لا يتكلم وأثبت له النطق حال كونه متلبسا بالهوى، وهو فاسد.

وتأتى بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله عز وجل: ﴿ **إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي** ﴾ [ص: ٣٢] أى: قدمته عليه.

ويقول أبو عبيدة - فيما حكاه الرمانى - ﴿ **إِنِّي أَحْبَبْتُ** ﴾ منْ أحبَّ البعيرُ إحْبَابًا: إذا برك فلم يقم، فأحببتُ بمعنى تثبطتُ عن ذكر ربى.

وتأتى بمعنى (من) كقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾

[الشورى: ٢٥]، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف: ١٦] أى منهم بدليل قوله: ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ [المائدة: ٢٧]

وتأتى بمعنى (بعد) كقوله جل شأنه: ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٠] أى: بعد قليل، وقوله سبحانه: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩].

علـى:

تستعمل حقيقة فى معنى الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢] أو مجازا نحو قوله سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ [الشعراء: ١٤].

وتأتى بمعنى الباء كقوله جل ثناؤه: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [الأعراف: ١٠٥] وهى قراءة أُبى بالباء.

وبمعنى (من) كقوله جل وعلا: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] أى: من ربك، وقوله عز وجل: ﴿ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ ﴾ [المائدة: ١٠٧] أى منهم، وقوله سبحانه: ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين: ٢] أى: منهم.

وبمعنى (فى) كقوله سبحانه: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص: ١٥] وكقوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أى فى ملك سليمان أو فى زمن سليمان أى: زمن ملكه.

وبمعنى اللام كقوله جل شأنه: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وقد تأتى للمصاحبة بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦] وقوله سبحانه: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾. [البقرة: ١٧٧]

مـــن :

تأتى لابتداء الغاية إذا كان فى مقابلتها (إلى) التى للانتهاء فى المكان مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وما ينزل منزلة المكان مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل: ٣٠]، وبكونه فى الزمان مثل قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]، وبكونه فى المعنى مثل زيد أفضل من عمرو لأن معناه زيادة الفضل على عمرو وانتهاؤه فى الزيادة إلى زيد.

وتأتى للتبعيض، ولها علامتان: أن يقع البعض موقعها، وأن يعم ما قبلها ما بعدها إذا حذفت، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ولهذا جاء فى مصحف ابن مسعود (بعض ما تحبون)، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [ابراهيم: ٣٧]؛ فإنه كان نزل ببعض ذريته، وقوله عز حكمه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الانعام: ٣٤]، فهى للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] فهى للتبعيض لأن النظر يكون عن تعمد وغير تعمد، والنهى إنما يقع عن نظر العمد فقط، ولهذا عطف عليه: ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ من غير إعادة (من)، لأن حفظ الفروج واجب مطلقا، ولأنه يمكن التحرز منه، ولا يمكن فى النظر لجواز وقوعه اتفاقا، وقد يباح للخطبة، وللتعليم ونحوهما وقال الأخفش (من) هنا زائدة، والأصل: يغضوا أبصارهم.

وكذلك قوله عز حكمه: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [محمد: ١٥]، يعنى بعضا من كل نوع لأن الله تعالى وعد أهل الجنة أن يكون لهم فيها كل نوع من أجناس الثمار مقدار ما يحتاجون إليه وزيادة، ولم يجعل جميع الذى خلقه الله من الثمار عندهم، بل عند كل منهم من الثمرات ما يكفيه وزيادة على كفايته، وليس المعنى على أن جميع الجنس عندهم حتى لم تبق معه بقية، لأن فى ذلك وصف ما عند الله بالتناهى.

وهنا سر لطيف فقد خاطب المولى سبحانه المؤمنين بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] وفى جانب الكفار يقول: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح: ٤]، ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، فوعد الكفار مغفرة بعض ذنوبهم بشرط الإيمان لا مطلقا وهو غفران لا يتناول مظالم العباد.

وتكون (من) لبيان الجنس ولها علامتان: أن يصح وضع الذى موضعها، وأن يصح وقوعها صفة لما قبلها.

ومثالها قوله تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠] فمن لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان، فهى راجعة إلى معنى الصفة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [النور: ٥٥] فقوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ أى: الذين هم أنتم لأن الخطاب للمؤمنين فلهذا لم يتصور فيها التبعيض.

وقد وردت آيات قرآنية تتكرر فيها (من) وتتنوع معانيها فتكون إحداها لابتداء الغاية والأخرى للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٤٣]، فالأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية للتبعيض أى بعض جبالها، والثالثة لبيان الجنس، لأن الجبال لا تكون بردا وغير برد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥] فالأولى للبيان لأن الكافرين نوعان كتابيون ومشركون، والثانية للتبعيض – أو زائدة – والثالثة لابتداء الغاية.

وتأتى بمعنى الباء كقوله سبحانه: ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥] أى بطرف، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، أى بأمر الله.

وبمعنى (فى) كقوله عز حكمه: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ [الجمعة: ٩].

وبمعنى (عن) نحو قوله جل شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وبمعنى (على) مثل قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧] أى على القوم، وجعل ذلك بعضهم على معنى التضمين، أى: منعناه منهم بالنصر.

وتاتى للتعليل بمعنى اللام نحو قوله عز وجل: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥].

وبمعنى (عند) كقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠].

حروف العطف

(الواو - الفاء - ثم - أو)

الواو العاطفة:

العطف هو أصل استعمالها، وهى تشرك المعطوف مع المعطوف عليه فى الإعراب والحكم، وهى لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أن الثانى بعد الأول، بل قد يكون كذلك، وقد يكون قبله، وقد يكون معه.

فمن الأول - الذى يدل على أن الثانى بعد الأول - قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢] فالإخراج متأخر عن الزلزال، وذلك معلوم من قضية الوجود لا من الواو.

ومن الثانى - الذى يكون فيه الثانى قبل الأول - قوله سبحانه: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] والركوع قبل السجود، ولم ينقل أن شرعهم كان مخالفا لشرعنا فى ذلك.

وكذلك قوله عز حكمه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] فالأيام - هنا - قبل الليالى، إذ لو كانت الليالى قبل الأيام كانت الأيام مساوية لليالى، أو أقل، ولو كان الأمر على الترتيب لقال: سبع ليال وستة أيام أو سبعة أيام، وأما ﴿ثَمَانِيَةَ﴾ فلا يصح على جعل الواو للترتيب.

وتكون للإباحة نحو قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾

[التوبة: ٦٠] فأنت مخير فى دفع الصدقات لأى من هؤلاء، أو لهم جميعا، وبهذا أخذ الإمام مالك.

الفاء العاطفة:

معناها الترتيب، فيكون ما بعدها حاصلا بعد الذى قبلها، والتعقيب أى أن الثانى (المعطوف) حصل بعد الأول (المعطوف عليه) من غير مهلة زمنية.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٣٦].

وتأتى للدلالة على تفاوت المراتب مثل قوله تعالى: ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** ﴾ [الصافات: ١ - ٣] فرتبة الصف قبل رتبة الزجر، ورتبة الزجر قبل رتبة التلاوة.

وقد يأتى نص يفهم منه ظاهرا عدم الترتيب بجعل المعطوف حادثا قبل المعطوف عليه كقوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا** ﴾ [الأعراف: ٤] قال بعضهم إنها لا تفيد الترتيب كالواو - هنا - والتقدير - على التقديم والتأخير - فجاءها بأسنا فأهلكناها.

وأول علماء المباحث القرآنية ذلك على أن (أهلكناها) مسبب حذف سببه والتقدير: أردنا إهلاكها، أو قاربنا إهلاكها، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [النحل: ٩٨] أى أردت قراءة القرآن، فاكتفى بالمسبب عن السبب.

وقال بعضهم إنها تأتى للعطف مع مهلة زمنية كقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فلا شك أن بين كل مرحلة وأخرى فترة زمنية وكذلك قوله عز وجل: ﴿ **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ** ﴾ [الأعلى: ٤، ٥] فبين الإخراج والفناء مدة زمنية، فالفاء هنا بمعنى (ثم) لتراخى معطوفها.

وأجيب عن ذلك بأن للخلق عدة مراحل يقتضى كل منها زمنا، ونحن لا ننظر إلى طول زمن المرحلة، وإنما ننظر إلى تعاقب المراحل الخاصة بخلق الإنسان

بعضها إثر بعض، فكأننا ننظر إلى نهاية زمن كل مرحلة، وبدء المرحلة التى تليها، فهى بلا مهلة، فلا تخرج الفاء عن بابها، وهو إفادتها التعقيب.

وقد جاء وصف المراحل فى آية أخرى معطوفة بـ(ثم) وهى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ [الحج: ٥] فعطف الكل بـ(ثم) ملاحظا أول زمن كل مرحلة فى المعطوف عليه، فتكون المدة قد طالت بين بدء كل مرحلة ونهايتها وانتقالها إلى المرحلة التى بعدها فتتحقق المهلة مما يسوغ العطف بـ(ثم).

وبهذا يزول التناقض الظاهرى بأن المخبر عنه مراحل خلق الإنسان وقد عطفها فى إحدى الآيتين بالفاء - وهى للتعقيب - وفى الأخرى بـ(ثم) وهى للمهلة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله تعالى: فى آية أخرى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠] فالمولى سبحانه يبين بقوله ﴿ يُنَبِّئُكُم ﴾ أن المحاسبين بعد البعث - أمة محمد ﷺ ثم الأمم الأخرى.

ونسب الفعل وهو الحساب إلى الجميع من باب نسبة الفعل إلى الجماعة إذا صدر عن بعضهم.

وقد عطف بالفاء - فى الآية الأولى - مع وجود مهلة زمنية بين البعث والحساب - حملا على أول المحاسبين - وهم أمة محمد ﷺ لقربهم من زمن البعث، ويقال أيضا: إن للفاء دلالة على بعض التراخى لكن (ثم) أشد تراخيا.

وقد تفيد الفاء معنى السببية مع العطف نحو قوله تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ثـــم:

للترتيب مع التراخى زمنيا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ [الأعراف: ١١] فالمعنى: ابتدأنا خلقكم، لأن الله تعالى خلق آدم من تراب ثم صوره، وابتدأ خلق الإنسان من نطفة ثم صورة.

وتأتى لترتيب الأخبار لا لترتيب المخبر عنه كقوله تعالى: ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٩٠] وقيل إن (ثم) - هنا - بمعنى الواو.

وتأتى - كثيرا - لبيان تفاوت ما بين رتبتين أو صفتين فى قصد المتكلم من غير قصد مهلة زمنية ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله وأنه لو انفرد لكان كافيا فيما قصد فيه، ولا يقصد فى هذا ترتيب زمنى بل تعظيم الحال فيما عطف عليه، وتوقعه وتحريك النفوس لاعتباره وهذا كقوله سبحانه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

وهنا يريد المولى سبحانه أن يبين التفاوت بين رتبتى فعلين مع السكوت عن رتبتى الفاعل لكل منهما فـ(ثم) هنا لتفاوت مرتبة الخلق والجعل التى هى منسوبة لله سبحانه، ورتبة العدل المنسوبة للكفار، مع السكوت عن منزلة الخالق الجاعل، ومنزلة هؤلاء الذين عدلوا وكفروا، وقال بعض العلماء إنها دخلت لبيان بعد ما بين الكفر وبين خلق السموات والأرض، وقيل: إن فيها أيضا قصد التعجب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ إلى أن قال ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البلد: ١١ - ١٧].

دخلت (ثم) لبيان تفاوت رتبة الفك والإطعام من رتبة الإيمان لا فى الوقت لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره، وفيها زيادة تعرض لوصف المؤمنين ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾.

وعلى ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣]، فـ(ثم) فيها من تعظيم منزلة النبى ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأنه أولى وأشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أوتى من النعمة اتباع رسول الله ﷺ فى ملته.

ويرى بعض الناس أن (ثم) لا تفيد الترتيب ولا التراخي بل تكون لمطلق الجمع كالواو ومثلوا لذلك بالآيات السابقة مؤولين لها.

ففي الآية الأولى – خلق آدم والأمر بسجود الملائكة له كان قبل خلقنا فالمعنى، وصورناكم وقلنا.

وفي الآيتين الثانية والثالثة (ثم) بمعنى الواو.

وفي الآية الرابعة: الإيمان أسبق من الإطعام والصدقة.

وفي الآية الخامسة: الاهتداء سابق للمغفرة.

وفي الآية السادسة: الرسول ﷺ متأخر عن الرسل الآخرين.

لكننا نقول: إن الأولى أن تحمل الآيات على الترتيب والتراخي – حقيقة في الآية الأولى – وعلى تفاوت المراتب في الآيات التالية، و(ثم) على بابها.

أو:

تأتي لمعان أهمها:

الإباحة: نحو قوله تعالى: ﴿ **فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله عز حكمه: ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ﴾ [المائدة: ٨٩] وذلك لأن المراد الأمر بأحدها رفقا بالمكلف فلو أتى بالجميع لم يمنع منه لأنه أفضل.

ومثله قوله تعالى: ﴿ **وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ** ﴾ [النور: ٦١] وقوله عز حكمه: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا** ﴾ إلى أن قال: ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ** ﴾ [البقرة: ١٧ – ١٩] فتمثيل المنافقين مباح إن شبهتهم بأي النوعين، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة: ٧٤] يعني إن شبهت قلوبهم بالحجارة فصواب أو بما هو أشد فصواب.

التخيير: كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٥] التقدير فافعل، كأنه خير على تقدير الاستطاعة أن يختار أحد الأمرين، لأن الجمع بينهما غير ممكن.

والفرق بين التخيير والإباحة أن التخيير فيما أصله المنع، ثم يرد الأمر

بأحدهما لا على التعيين، ويمتنع الجمع بينهما، وأما الإباحة فإن يكون كل منهما مباحا، ويطلب الإتيان بأحدهما، ولا يمتنع من الجمع بينهما.

وإنما يذكر بـ (أو) لئلا يوهم أن الجمع بينهما هو الواجب لو ذكرت الواو.

وإذا أتى النهي عن الإباحة جاز صرفه إلى مجموعهما، وهو ما كان يجوز فعله، أو إلى أحدهما وهو ما تقتضيه (أو).

ومما صرف إلى المجموع وإلى كل منهما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] قيل: إن (أو) هنا بمعنى الواو لأنه لو انتهى عن أحدهما لم يعد ممتثلا بالانتهاء عنهما جميعا.

وقيل: (أو) على معنى التخيير، والنهي عام بالصورة المطلقة سواء كانت الطاعة لواحد منفرد الآثم أو الكفور أو لهما معا، وفهم العموم من وقوع النكرتين (آثما أو كفورا) في سياق النهي الداخل عليهما، لأنه لا يحصل الانتهاء عن أحدهما حتى ينتهي عنهما، وفضلت (أو) دون الواو لئلا يتوهم أن النهي عن طاعة من اجتمع فيه الوصفان.

وتأتي بمعنى الواو مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] وقوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦] وعليه قال الإمام الشافعي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية إن «أو» – هنا – بمعنى الواو.

* * *

أنواع الدلالـــة

١ - دلالة المطابقة: وهى دلالة اللفظ على تمام معناه الموضوع له كقولك: الإنسان حيوان ناطق.

٢ - دلالة التـضـمين: دلالة اللفظ على جـزء من المعنى الموضـوع له، كقولك: الإنسان (ناطق).

٣ - دلالة الالتزام: دلالة اللفظ على لازم معناه كقولك: الإنسان (عالم).

وهذا قد يجرى فى أنواع من الدلالات.

الدلالة المطابقية للعبارة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣] فهى تفيد المعنى المطابقى فقط وهو وجوب الاقتصار على زوجة واحدة عند خوف الجور.

وقد تعطى العبارة المعنى المطابقي ويتبعه معنى ليس مقصودا كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالمراد وجوب نفقة الأم المرضع على الأب، وكان يكفى أن يقول، وعلى الأب رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لكن قال: وعلى المولود له، فأفاد معنى آخر هو اختصاص الابن بأبيه.

وقد يقصد - أصلا - جزء المعنى وهو دلالة التضمين، ويقصد البعض الثانى تبعا كقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: ٣] فالمثنى والثلاث والرباع جزء من معنى العبارة المطابقى (إباحة ما طاب من النساء).

وقد يقصد أصلا - دلالة الالتزام، ويكون حينئذ المعنى المطابقى مقصودا تبعا مثل قوله عز وجل: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فالنص مسوق للتفريق بين حل البيع، وحرمة الربا، وهو معنى التزامى، والمعنى المطابقى

للنص حل البيع وحرمة الربا وهو مقصود تبعا، وهذا ما يدخل فى باب الكناية فى علم البلاغة مثل (نئوم الضحى - طويل النجاد - كثير الرماد) إلخ.

وهذا كله يدخل تحت ما يسمى دلالة المنطوق، وهو ما دل عليه اللفظ.

دلالة الإشارة: هي الدلالة علي معنى ليس مقصودا من إيراد العبارة كقوله تعالي: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، فالمعنى المقصود جواز الطلاق قبل الدخول، وقبل فرض المهر، ويفهم منه - على سبيل الإشارة - صحة عقد الزواج دون فرض المهر، لأن الطلاق لا يكون إلا بعد عقد صحيح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] بيان أصلى لمدة الحمل والفصال، وقوله سبحانه ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] بيان أصلى لمدة الفصال فقط، ويلزم من الاثنين معا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر من إشارة التضمين، وبه انعقد إجماع العلماء.

فهذا لازم غير مقصود - أصلا - فلا يعد من مدلولات العبارة ولذا عد من مدلول الإشارة.

وقد اعتبر بعض العلماء المعنى المقصود تبعا للمعنى الأصلى من دلالة الإشارة، ولكن الراجح الأول.

دلالة الاقتضاء: هى دلالة العبارة على شئ لم ينطق به، وتتوقف صحة الكلام عليه، وصدقه حقيقة وشرعا مثل قوله سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] أى، وقت الحج، وقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أى: أهل القرية، وكقوله تعالي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية أى التزوج بهن وقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة﴾ الآية، فلا تكون الحرمة فى أجسامها أو ذواتها، إنما فى أكلها والانتفاع بها، وقد يتعين المقدر كما سبق.

وحينما يحتمل الكلام عدة مقدرات تختلف آراء الفقهاء، فالشافعية على أنه يقدر بكل أفراده كالمشترك، والحنفية على تقدير بعض أفراده التى يصح بها الكلام والحكم الشرعى.

ومن الدلالة:

دلالة المنطوق: وهى ما يدل عليه اللفظ من المطابقة أو التضمن أو الالتزام صراحة وهى الدلالة الصريحة - كما مر.

ومنها:

دلالة المفهوم: وهى ما لا يدل عليه اللفظ المنطوق به لفظا لكنه يشارك ما دل عليه صريح اللفظ فى علة الحكم وهى نوعان:

مفهوم الموافقة: وهو ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى سمى فحوى الخطاب كدلالة قوله سبحانه: ﴿ **فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ** ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريم أنواع الايذاء كالضرب لأنه أشد، وإن كان مساويا سمى لحن الخطاب أى معناه كدلالة قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا** ﴾ على تحريم الإحراق، لأنه مساو للأكل فى الإتلاف.

ولا شك أن المسكوت عنه إذا كان أولى بالحكم من المنطوق به فهو داخل فى حكمه الذى طبق على دلالة المنطوق، أما إذا كان مساويا للمنطوق به فهو محل خلاف بين الفقهاء.

فالشافعية اختلفوا فى إثبات حكم المنطوق لحكم المسكوت عنه المدلول عليه.

وجمهور الحنفية أثبتوا نفس الحكم وطبقوه مطلقا، وبعضهم أثبت به غير الحدود والكفارات.

ومن ذلك حد قطع الطريق فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا** ﴾ الآية، فطبق جمهور الحنفية حكم قطاع الطريق على الردء الذى يقوم لإخافة الناس على وجه يقطع به الطريق، ولم يثبت الحكم على الردء الشافعية وبعض الحنفية.

مفهوم المخالفة: ما تجاوز حكمه المنطوق بثبوت نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه - وهو أنواع:

مفهوم صفة: نعتا كان أو حالا أو ظرفا أو غيره بأن يثبت نقيض الحكم المقيد بذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] مفهومه أن غير الفاسق لا يجب التبين فى خبره، فيجب قبول خبر الواحد العدل، وقوله سبحانه ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أى: فلا يصح الاحرام به فى غيرها.

مفهوم شرط: بثبوت نقيض الحكم المقيد بشرط عند انتفاء هذا الشرط نحو قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦] أى: فغير أولات الحمل لا يجب الإنفاق عليهن.

مفهوم حصر: نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤] أى: فغيره ليس بإله، وقوله ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩] أى: فغيره ليس بولى، وقوله: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨] أى لا إلى غيره، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أى: لا غيرك

مفهوم غاية: وذلك بانتفاء الحكم المقيد بغاية نحو قوله سبحانه ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] أى: فإذا نكحته تحل للأول بشرطه.

مفهوم عدد: مثل قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، أى: لا أقل ولا أكثر، فينتفى الحكم عما قل أو كثر من هذا، وقوله: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد اختلف الفقهاء فى الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة أهمها:

ما ذهب إليه الشافعية والمالكية ومن وافقهم من الاعتداد بالمفاهيم، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به وإلا ما كان للقيد فائدة، واستوى المنطوق به والمسكوت عنه، فقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، فلا يمكن أن يستوى العمد والخطأ وإلا كان ذكر المتعمد ليس بذى فائدة وهذا غير مقبول.

وبعض علماء الأصول – ومنهم جمهور الحنفية – على عدم الاحتجاج بالمفاهيم، لأن المسكوت عنه يبقى على الأصل حتى يقوم عليه دليل، وذكروا لرأيهم أدلة منها:

١ - أن المسكوت عنه لم يفهم من اللفظ لا بطريق الوضع ولا بطريق العقل ولا النقل بالتواتر ولا بأخبار الآحاد.

وليس مفهوم المخالفة مدلولا للألفاظ.

٢ - أنه قد ينص على المفهوم إذا قصد إصدار حكم عليه كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾[البقرة: ٢٢٢]

٣ - أن المفهوم لو كان محكوما عليه ومهتما به لوجب العمل به مع أن الملاحظ أن الشارع قد يهمل اعتباره مع إمكان العمل به كما فى قوله تعالى: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا المفهوم لم يعتبره الأكثرون، فإن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج فلا مفهوم له، لأنه إنما خص بالذكر لغلبة حضوره فى الذهن، وكذلك إذا لم يكن موافقا للواقع، ومن ثم لا مفهوم لقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

٤ - ويقول الحنفية ردا على المعتدين بالقيد إنه لا بد للقيد من فائدة هذا أمر مسلم، وفائدته تتمثل في السكوت عما لا قيد فيه ليؤخذ حكمه من دليل آخر، أو يظل على الإباحة الأصلية.

وهذه الدلالات تفهم بالقرائن حيثما يستخدم اللفظ فى السياق.

وقد تكون الدلالة قطعية، وقد تكون ظنية، وحين تكون الدلالة ظنية تكثر فيها الآراء والاحتمالات والتفسيرات ويعتمد فى هذه الاحتمالات على أدلة تعد كالقرائن لإرادة المعنى وهذا يكون فى المشترك والحقيقة والمجاز ونحوهما.

وقد يمكن الاعتماد على تفسير بعض ما يخفى من الألفاظ التى تتصل بحكم شرعى اختص بلفظ معين كلفظ ﴿ السَّارِقُ ﴾ و (القاتل) فقد ورد قطع يد السارق فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨].

فالسارق حدد معناه بمن يأخذ مال غيره خفية من حرز مثله، فوجد أشخاص يأخذون مال الغير فى اليقظة تغفيلا لهم أو استيلاء عليه عنوة والاختفاء به، ومن يفتح قبور الموتى ويأخذ أكفانهم.

وقد عد الفقهاء آخذ المال عنوة سارقا، وزيادة فى أنه أخذ والأعين متيقظة، فيطبق عليه حكم السارق، أما نابش القبر فعد غير سارق.

° وكذلك الحديث: (لا ميراث لقاتل)، فالقاتل يشمل العمد والخطأ واتفق العلماء على حرمان القاتل عمدا من مال مورثه، واختلفوا فى القتل الخطأ، فذهب الحنفية إلى حرمان القاتل خطأ كذلك لتقصيره، وسدا لهذا الباب الذى قد يفتح المجال للطامعين فى مال مورثيهم.

ويرى المالكية أنه إذا ثبت القتل الخطأ بدليل قطعي ورث القاتل عن مورثه المقتول لعدم توافر القصد. وإذا ما تعارض نصان أو عارض النص أصلا من أصول الدين وفق بينهما على أساس السابق واللاحق منهما أو تفسير القرآن بالسنة والعكس.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ** ﴾.

فالبيع بالتراضي جائز لكن الرسول - ﷺ - نهى عن بيع الغرر وعن تلقي الركبان، فاعتبر العلماء شرط جواز التجارة المباحة خلوها من الغرر والتلقي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾، يتعارض معه قول الرسول - ﷺ -: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» فقيل: المراد بالولى الولد لأن الولد من عمل الإنسان كما قال - ﷺ - «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث إلخ» الحديث.

* * *

الفصل الخامس

التعريب والترجمة

أولا : التعريب

استعملت له عدة مصطلحات :

منها مصطلحان – يفهم مما ورد فى كلام علماء العربية – اعتبارهما متساويين فى الدلالة المقصودة، وهما : المعرب والدخيل.

فالمعرب : مأخوذ من الفعل (عرب) – بالتضعيف – ويسمى – أحيانا – المعرب – من الفعل أعرب [(١)] لكن الأكثر اختصاصا بالباب هو (عرب) – المضعف – لا (أعرب) لأن الثانى أوضح استعمالا فى موضوع (الإعراب) النحوى.

والدخيل : استعمله شهاب الدين الخفاجى فى عنوان كتابه (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل)، واستعمله – أيضا – ابن فضل الله المحبى فى عنوان كتابه (قصد السبيل فيما فى اللغة العربية من الدخيل) وقد استعمله الخليل وابن دريد كثيرا فى العين والجمهرة للألفاظ المعربة، واسترعى ذلك اهتمام ابن منظور فى لسان العرب فقال فى مادة (دخل) كلمة (دخيل) أدخلت فى كلام العرب وليست منه استعملها ابن دريد كثيرا فى الجمهرة [(٢)].

وكلا المصطلحين يعنى نقل الألفاظ من لغات أجنبية إلى العربية، مع إخضاعها – غالبا – للتغيير لتلائم لغة العرب [(٣)].

---

(١) ورد هذا فى بابين فى كتاب سيبويه (هذا باب الأسماء الأعجمية) ٣ / ٢٣٤، ٢٣٥ و(هذا باب ما أعرب من الأعجمية) ٤ / ٣٠٣ وفى قول السيوطى فى المزهر فى النوع التاسع عشر (معرفة المعرب) تقول : عربته العرب وأعربته أيضا ١ / ٢٦٨.

(٢) المزهر ١ / ٢٦٩ ولسان العرب (دخل).

(٣) خص بعضهم « الدخيل » بما لم يخضع للتغيير كخراسان ونحوه (من أسرار اللغة ص١١٠) وبعضهم خصه بما عرب بعد عصر الاحتجاج (كلام العرب د. حسن ظاظا ص ٧٩).

ويستعمل مصطلحان آخران هما :

الأعجمى والألفاظ المقترضة [1].

ويطلق كل منهما على الألفاظ المنقولة إلى العربية من غيرها من اللغات الأجنبية سواء خضعت للتغيير لتلائم العربية أم لا، ويغلب استعمال كل منهما فى نقل الألفاظ دون إخضاعها للتغيير وفق النظام العربى [2].

تعريف التعريب :

عرفه الجوهرى والسيوطى والخفاجى دون تحديد زمنى .

فهو عند الجوهرى : أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية على نهجها وأسلوبها [3].

وعند الشهاب الخفاجى هو : نقل اللفظ من العجمية إلى العربية [4].

والمعرب عند السيوطى – ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها [5].

فهذه التعريفات تفيد إطلاق اسم « المعرب » على المنقول من اللغات الأخرى إلى العربية دون نص على نوعها إن كانت أجنبية أو سامية، ودون تقييد للمنقول بعصر خاص قديم أو حديث، ولكن بعضها ينص على إحداث تغيير فى اللفظ المنقول ليلائم طبيعة اللغة العربية .

ويعرف أبو منصور الجواليقى (المعرب) بما يفيد اقتصاره على عصر

---

(١) من أسرار اللغة ص ٩٤ ، ١٠٢ .

(٢) يستعمل مصطلح خامس هو (المولد) فى باب التعريب الخاص بما عرب على لسان المتأخرين – بعد عصر الاحتجاج – فى المجالات العلمية كالطب والكيمياء ونحوهما . انظر شفاء الغليل ص ٣ .

(٣) الصحاح ١ / ١٧٩ .   (٤) شفاء الغليل ص ٣ .

(٥) المزهر ١ / ٢٦٨ وفى بعض المعربات تغير معانى الألفاظ الأعجمية إلى معان أخرى يقول السيوطى : « فصل فى ألفاظ مشهورة فى الاستعمال لمعان وهى فيها معربة، وهى عربية فى معان أخر غير ما اشتهر على الألسنة : من ذلك الياسمين للزهر المعروف فارسى، وهو اسم عربى للنمط يطرح على الهودج، والورد للمشموم فارسى، وهو اسم عربى للفرس، ومن أسماء الأسد . المزهر ١ / ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

الاحتجاج فيقول: هو «ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمى ونطق به القرآن المجيد وورد فى أخبار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وذكرته العرب فى أشعارها، وأخبارها» (١).

فهذا التعريف يحدد عصر الألفاظ المعربة بأنه زمن الفصاحة الذى على أساسه وضعت قواعد العربية – وهو عصر الاحتجاج – وعليه جرى المجمع اللغوى فى القاهرة ، فعرف (المعرب) بأنه:

هو: اللفظ الذى نقله العرب الذين يعتد بعربيتهم من لغة أعجمية واستعملوه فى كلامهم (٢).

وهذا هو الرأى الراجح.

دواعيه وتاريخه:

لا ريب أن ذلك حدث فى العربية منذ زمن بعيد، فقد اتصل أهلها بالأمم المجاورة عن طريق الغزو والهجرة والاختلاط معها فى شئون التجارة وغيرها من وجوه التبادل الاقتصادى والاجتماعى والفكرى لوجودهم فى صحراء جرداء (٣).

واتصال الشعوب يؤدى إلى احتكاك لغاتها (والأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيرا ما يلعب دورا مهما فى التطور اللغوى) (٤).

وقد اتصل العرب بالفرس والروم، إلى جانب إخوانهم الساميين فى العصر الجاهلى وبعد الإسلام وزاد اتصالهم بعد انتشار هذا الدين الحنيف، واتساع الدولة الإسلامية، فاتصلت العربية بلغات كثيرة واستفادت منها كالفارسية والقبطية والرومية واليونانية والتركية والبربرية وغيرها.

فإذا أضيف إلى ذلك عوامل الحضارة وعلومها التى دخلت إلى العرب – بعد تحضرهم – وجدنا كثيرا من الألفاظ الأجنبية العلمية والحضارية تدخل إلى نطاق اللغة العربية (٥).

---

(١) المعرب بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر ص ٥١ . (٢) مجلة المجمع ١ / ٣٠٢.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٣ / ٧٧ وفقه اللغة للاسكندرى ٦٠، ٦١ واللغة والمجتمع د. السعران ١٧٩ . (٤) اللغة ٣٤٨ .

(٥) ونتيجة لاتصال العرب بغيرهم فى نواحى العلوم والثقافات اتسعت العربية =

ويغلب أن يكون ذلك فيما احتاجت إليه اللغة مما ليس موجودا فيها، ونجد ذلك واضحا فى أشعار الجاهليين كالأعشى حيث يقول:

عليـــه (ديابوذ) تســربـل تحته

(أرندج) إسكاف يخالط عظلما [1].

ففى البيت كلمتان مأخوذتان من الفارسية هما (ديابوذ وأرندج)، وفى أشعار الإسلاميين كما فى قول البحترى:

والمنـــايا مواثل وأنـــو شـــر

وا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس [2]

ففى البيت كلمتان فارسيتان - أيضا - هما: (أنو شروان والدرفس).

وقد كثر ذلك فى شعر العباسيين، بل ربما استعاروا الكلمة من كلام العجم، للقافية استطرافا وتحذلقا كقول أحدهم:

(أنا العربى الباك) أى: النقى من العيوب.

وقول الآخر:

(كما رأيت فى الملاء البردجا) أى: السبى [3].

فالأعجمى قد دخل العربية على مر عصورها ولا يزال إلى اليوم، لتجدد الداعى إليه.

ما المراد بالدخيل؟:

١ - يرى بعض علماء اللغة أن المراد بالدخيل: ما ليس عربيا وعلى هذا فما

= للتعبير عن شتى الفنون والمعارف بحيث أصبح لها شأنها بما وضعته من مفردات جديدة وما اقتبسته من اللغات الأخرى.

(١) ديابوذ: أصله دوابوذ، فى الفارسية، وهو ثوب ينسج على نيرين والأرندج واليرندج أصله، بالفارسية: رنده. وهو جلد أسود تعمل منه الأحذية، وطلاء أسود تسود به الأحذية. انظر المعرب ١٦، ١٣٨، ١٣٩ والاشتقاق والتعريب ٢٦ .

(٢) انظر ديوانه ط دار المعارف ١٩٦٣ جـ ٢ ص ١٥٦ وأنو شروان اسم لأحد ملوك كسرى، ودرفس، أصله بالفارسية بالشين بدلا من السين وهو العظيم من الإبل، والضخم من الرجال، والعلم الكبير، والحرير، والمراد هنا: العلم، انظر القاموس ط ٣ ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) المعرب ٩ وشفاء الغليل ٧ .

نقل من الساميات أخوات اللغة العربية، كالحبشية أو الآرامية أو السريانية - إحدى فروع الآرمية - أو نحوها يعد أجنبيا دخيلا، وممن سلك هذا المسلك السيوطى فقد أورد بعض الألفاظ من الحبشية والسريانية مثل: شهر، واليم، وأواب، وقال: إنها أعجمية وقعت فى القرآن الكريم [١].

والأستاذ المغربى يعتبر كلمة (مصحف) معربة عن اللغة الحبشية، وكذلك (عنبسة) اسم الأسد بالحبشية، وعاشوراء معربة عن العبرانية [٢].

٢ - وبعضهم يرى أن المراد بالدخيل ما ليس ساميا، وهو المنقول من لغات أجنبية غير سامية كالفارسية، والرومية، والتركية، والإنجليزية وغيرها، أما الساميات فهن أخوات لأم واحدة هى السامية الأم، فليس من المعقول أن تعد الكلمة التى توجد فى لغتين منها مستعارة من الأخرى لرجوعهما إلى أصل واحد . فهى ألفاظ سريانية وهى عبرية وهى حبشية وهى عربية أيضاً [٣] فنحن نجد كلمات مشتركة بين عدة لغات سامية فكلمة (جنة) منسوبة إلى العبرية والآرامية والسريانية، والحبشية والعربية الجنوبية، و(أحد) منسوبة إلى العبرية والعربية الجنوبية والآرامية والسريانية، وكلمة (كفلين) حبشية بمعنى ضعفين وعبرية بمعنى جزءين [٤].

وقد بدا ذلك فى كلام بعض القدماء كابن جنى الذى عرض للدخيل فى (باب ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم) [٥] . ولم يذكر فيه كلمات سامية حبشية أو سريانية أو غيرهما، وأكد هذا الرأى بعض المحدثين من علماء اللغة [٦]، وهذا الرأى أولى، وأجدر بالقبول.

* * *

---

(١) الإتقان ١ /١٣٧ - ١٤٠.

(٢) الاشتقاق والتعريب ٢٧، ٢٨.

(٣) من أسرار اللغة ١١٣.

(٤) الزينة للرازى ٢ /٤٢، ١٣٥، ١٩٦.

(٥) الخصائص ١ /٣٥٧.

(٦) من أسرار اللغة ط ٣ ص ١١٤ والقراءات القرآنية ٢٣٣ وما بعدها ومقدمة المعرب للأستاذ شاكر ١٣ .

طرائق التعريب

لم يكن العربى يستعمل الكلمة الأعجمية كما هى فى اللسان الأعجمى – غالبا – بل يدخل عليها بعض التغييرات بحيث يجعلها ملائمة لنطقه وطبيعة لغته والتغييرات كثيرة منها: الجانب الصوتى والجانى الصرفى والنحوى.

أولا : الجانب الصوتى : ويتناول :

١ – تغيير الحرف غير الملائم.

٢ – تغيير الصيغة غير الملائمة.

فالنوع الأول : ما غير فيه الحرف، وقد لا يغيرون فيه البناء اللغوى عما كان عليه فى لغته الأصلية. ومنه :

إبدال مطرد :

وذلك فى كل حرف – فى الكلمة الأعجمية – ليس من حروف العربية يبدل منه ما قرب منه من حروف العربية [١] وجعل ذلك بعضهم فى خمسة حروف يطرد إبدالها وهى الباء والفاء والكاف والجيم والقاف [٢].

١ – الباء الثقيلة :

فإذا اشتملت الكلمة الأعجمية على (باء) ثقيلة (P) حولت إلى أقرب الحروف منها وهى الباء مرة والفاء أخرى، وفى ذلك يقول سيبويه : «ويبدلون من الحرف الذى بين الباء والفاء الفاء نحو الفرند، والفندق، وربما أبدلوا الباء لأنهما قريبتان جميعا قال بعضهم البرند»، وفولاذ وأصلها بولاذ [٣] وقال ابن فارس فى فقه اللغة : «حدثنى على بن أحمد الصباحى قال : سمعت ابن دريد يقول : حروف لا تتكلم العرب بها إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها، وذلك كالحرف الذى بين الباء والفاء مثل بور إذا اضطروا قالوا فور» [٤].

---

(١) الكتاب ٤ /٣٠٦. (٢) المزهر ١ /٢٧٤.

(٣) هو مصاص الحديد المنقى من خبثه. المعرب ٢٤٧ وتعليق المحقق والقاموس ١ /٣٥٧.

(٤) فور : بلد بساحل بحر الهند معرب بور. المزهر ١ /٢٧٢.

٢ - الحرف الذى بين الكاف والجيم:

إذا اشتملت الكلمة على صوت بين الجيم والكاف - وهو ليس من حروف العرب، فلا بد من إبداله، فإنه يحول مرة إلى جيم أو كاف، ومرة أخرى إلى قاف - لقربها من هذه الحروف، فقد استعملوا للحانوت الكربج والقربج والقربق وكذلك الآجر والجورب وأصلهما الآكر والكورب فى الفارسية.

ويقول سيبويه: «وربما غيروا الحرف الذى ليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه فى الفارسية نحو فرند وبقم وآجر»[١].

إبدال غير مطرد:

أحيانا تكون الكلمات الأعجمية مشتملة على حروف لا تأباها العربية ومع ذلك يبدل العرب مكانها حروفا عربية أخرى وذلك فى حروف لا يطرد فيها الإبدال وهى السين والشين والعين واللام والزاى[٢].

١ - السين والشين والعين:

فإذا اشتملت الكلمة على حرف هو من حروف العربية كالشين فإنها تحول إلى سين فى مثل دشت فصارت دست[٣] ومثل شراويل وإشمائيل فصارت سراويل وإسماعيل والهمزة تحول إلى عين، يقول سيبويه: «وأما ما لا يطرد فيه البدل فالحرف الذى هو من حروف العرب نحو سين سراويل وعين إسماعيل، أبدلوا للتغيير الذى قد لزم، فغيروه لما ذكرت من التشبيه بالإضافة، فأبدلوا من الشين نحوها فى الهمس والانسلال من بين الثنايا، وأبدلوا من الهمزة العين لأنها أشبه الحروف بالهمزة»[٤].

---

(١) الكتاب ٤ / ٣٠٤ الفرند: وشى السيف أو جوهره وماؤه الذى يجرى فيه، وطرائقه ويطلق على السيف نفسه على حذف مضاف، أى ذو فرند. والبقم - بفتح الباء وتشديد القاف المفتوحة - نوع شجر اللسان ١٤ / ٣٣١ والمعجم الوسيط ١ / ٦٦، والآجر: طبيخ الطين وما يبنى به فارسى معرب. تاج العروس ٣ / ٨.

(٢) المزهر ١ / ٣٧٤.

(٣) الصحراء.

(٤) الكتاب ٤ / ٣٠٦ وانظر شفاء الغليل ٥ - ٧ والمزهر ١ / ٢٧٢ - ٢٧٤ وفى هذا نظر لأن الدراسات السامية المقارنة أثبتت أن كلمات هذا النوع سامية الأصل فلا تعريب فيها. انظر ص٣٧٨، ٣٧٩، ٣٩٦، ٣٩٧ من هذا الكتاب.

٢ - اللام والزاى:

مثل قفشليل [١] أبدلوا الشين من الجيم، واللام من الزاى والأصل: قفجليز، فأتبعوا الآخر الأول لقربه فى العدد لا فى المخرج [٢] وأما القاف فى أول هذه الكلمة فتبدل من الحرف الذى بين الكاف والجيم [٣].

٣ - بعض الكلمات الفارسية المنتهية بالهاء:

قد تقع حروف آخر الكلمة الأعجمية لا تشبه ما تنتهى به الكلمات العربية مثل الهاء التى تنتهى بها بعض الكلمات الفارسية مثل كوسه فتصير كوسج وقد تحول إلى قاف فتصير كوسق [٤].

يقول سيبويه: «ويبدلون مكان آخر الحرف الذى لا يثبت فى كلامهم - إذا وصلوا - الجيم وذلك نحو كوسه وموزه لأن هذه الحروف تبدل وتحذف فى كلام الفرس همزة مرة وياء مرة أخرى، فلما كان هذا الآخر لا يشبه أواخر كلامهم صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم ، وأبدلوا الجيم لأن الجيم قريبة من الياء، وهى من حروف البدل، والهاء قد تشبه الياء، ولأن الياء أيضا قد تقع آخرة، فلما كان كذلك أبدلوا منها كما أبدلوها من الكاف، وجعلوا الجيم أولى لأنها قد أبدلت من الحرف الأعجمى الذى بين الكاف والجيم، وربما أدخلت القاف عليها - كما أدخلت عليها فى الأول فأشرك بينهما» [٥].

٤ - وأحيانا ينقل الاسم الأعجمى بصورة حروفه فى اللغة الأجنبية إذا كانت حروفه تتفق مع حروف العرب، يقول سيبويه: «وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم كان على بنائهم أو لم يكن نحو خراسان وخرم - بتشديد الراء - والكركم والقمقم» [٦].

---

(١) المغرفة. (٢) الكتاب ٤/٣٠٧. (٣) المزهر ١/٢٧٤.

(٤) هو الذى لا شعر على عارضيه والناقص الأسنان والبطئ من البراذين. المعجم الوسيط ٢/٧٨٦.

(٥) الكتاب ٤/٣٠٥.

(٦) المصدر السابق ٤/٣٠٤. والخرم الناعم من العيش ونبت كاللوبياء بنفسجى اللون (المعجم الوسيط ١/٣٣٠) والكركم: نبت شبيه بالورس وتسميه العرب الزعفران وزعم السيرافى أن الكركم الرزق بالفارسية، والقمقم: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره، ويكون ضيق الرأس أو الجرة. اللسان ١٥/٣٩٦، ٣٩٧، ٤٢١.

وأجاز مجمع اللغة العربية – بالقاهرة – فى بعض الأعلام الأجنبية أن تنقل بحروفها الأعجمية، وقد نقد هذا الاتجاه المحققون كالأستاذ أحمد شاكر يقول: «والقارئ لقرارات الأعلام التى أقرها المجمع يرى فيها معنى واحدا يجمعها، وروحا واحدا يسيطر عليها الحرص على أن ينطق أبناء العربية بالأعلام التى ينقلون إلى لغتهم بالحروف التى ينطقها بها أهلوها، وقسر اللسان العربى على ارتضاخ كل لكنة أعجمية لا مثال لها فى حروف العربية، وتسجيل هذه الغرائب من الحروف برموز اصطلاحية تدخل على الرسم العربى» [1].

والنوع الثانى: تغيير الصيغة غير الملائمة (بتغيير بعض مقاطعها):

فالكلمات المخالفة لنظام تكون الكلمات فى العربية على النظام المقطعى المعروف فيها تغير بما يتفق معها حتى تلحق بكلام العرب، فإذا كان فى أول الكلمة الأعجمية مقطع مكون من أكثر من صوت صامت، أو انتهت الكلمة الأعجمية بمقطع مكون من صوتين صامتين غير النظام المقطعى للكلمة لتتفق مع طريقة العربية وأنواع مقاطعها، إذ لا تتوالى الصوامت فى المقطع الواحد – فى العربية – إلا فى حال الوقف.

ومثال تغيير المقطع غير الملائم – فى صيغة الكلمة – «درهم» وهى كلمة فارسية أو رومية عربت وألحقت بهجرع [2] ونطقها القديم درخم **drahm** والحديث درم – بسكون الحرف الأول الدال – وكلا النطقين للكلمة ينافى النظام المقطعى للعربية، فالكلمة – بنطقها القديم – مكونة من ص + ص + ح + ص + ص، وبنطقها الحديث مكونة من: ص + ص + ح + ص، ولا يوجد فى العربية مقطع مشابه لما وقع فى صدر الكلمة – بالنطقين – ولا لما وقع فى آخرها – بالنطق الأول – أيضا – فى غير حال الوقف وهذا ناشئ عن بدء الكلمة الأعجمية بالساكن، وفقدان الإعراب، فغيرت بكسر الحرف الأول وهو الدال ونقلت فتحة الراء – فى النطق الأول – إلى الخاء الساكنة بعدها، وقد حولت الخاء فى هذا

---

(١) مقدمة المعرب للجواليقى ص ١٨.

(٢) هجرع هو الأحمق ويقولون أنها عربت عن الفارسية فى العصر الهلينى وانظر فى نقلها عن الرومية: الاشتقاق والتعريب ٤٩، ٥٠.

النطق إلى هاء فى النطق العربى للكلمة، ثم حرك آخرها بتطبيق قواعد الإعراب عليها .

ثانيا : الجانب الصرفى والنحوى :

ومن ذلك مثلا :

الاشتقاق :

فيقال : درهمت الخبازى : صارت كالدرهم فاشتق من الدرهم، وهو اسم أعجمى وقيل رجل مدرهم [١] .

ومع صحة إجراء الاشتقاق من الأعجمى كما ذكر ابن جنى لا يشتق العجمى من العربى كما لا يشتق العربى من العجمى ولذلك لا تعد الأعلام التى وافق لفظها مادة عربية مشتقة من العربية مثل إسحاق ويعقوب فليس الأول من سحق وثوب سحق [٢] ونخلة سحوق [٣]، وليس الثانى من اليعقوب [٤] .

التثنية والجمع والتصغير :

قد ثنوا الأعلام الأعجمية وجمعوها قال ثعلب فى أماليه «الأسماء الأعجمية كإبراهيم لا تعرف العرب لها تثنية ولا جمعا، فأما التثنية فتجيئ على القياس مثل : إبراهيمان وإسماعيلان، فإذا جمعوا حذفوا فردوها إلى أصل كلامهم، فقالوا : أباره وأسامع، وصغروا الواحد - على هذا - بريه وسميع، فردوها إلى أصح كلامهم [٥] .

دخول لام التعريف والإعراب :

يطبق العربى طريقة لغته فى التعريف والتنكير فيدخل الألف واللام المعرفة[٦]

---

(١) الخصائص ١ /٣٥٧، ٣٥٨ . (٢) بفتح السين وسكون الحاء - خلق .

(٣) طويلة بعد ثمرها على المجتنى .

(٤) اسم لطائر هو ذكر الحجل والغراب . انظر المزهر ١ /٢٩٢ .

(٥) المزهر ١ /٢٩٣ .

(٦) بعض اللغات السامية تختلف علامة التعريف فيها عن العربية ففى السريانية تستخدم الألف علامة للتعريف فى آخر الكلمة فيقال فيها (يما): اليم (وطورا) : الطور على حين أن العلامة هى الألف واللام فى العربية وتوضع فى أول الاسم لا فى آخره ويدعى بعض الناس أن اليم والطور معربتان من الآرامية ونحن - على مذهبنا - لا نرى ذلك . انظر الزينة فى الكلمات الإسلامية نقلا عن أبى عبد القاسم بن سلام ١ /٧٧ .

على بعض الكلمات الفارسية، من أسماء الأجناس كالديباج والفرند والإبرسيم والسهريز والآجر [1] ويستعملها استعمال النكرات – حال خلوها من الألف واللام ويصرفها إذا سمي بها.

يقول سيبويه: «اعلم أن كل اسم أعجمى أعرب وتمكن فى الكلام فدخلته الألف واللام وصار نكرة، فإنك إذا سميت به رجلا صرفته إلا أن يمنعه من الصرف ما يمنع العربى وذلك نحو: اللجام، والديباج واليرندج والنيروز والفرند والزنجبيل والأرندج والياسمين – فيمن قال ياسمين والسهريز والآجر» [2].

وكما يقول ابن جنى:

(ويؤكد هذا عندك أن ما أعرب من أجناس الأعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها، ألا تراهم يصرفون – فى العلم – نحو آجر وإبريسم، وفرند، وفيروزج [3] وجميع ما تدخله لام التعريف، وذلك أنه لما دخلته اللام فى نحو الديباج والفرند والسهريز والآجر أشبه أصول كلام العرب – أعنى النكرات – فجرى فى الصرف ومنعه مجراها) [4].

أما ما كان علما فى تلك اللغات الأعجمية فاستعمله العرب جاريا على علميته كما كان مع دخول التغيير عليه بما يتفق مع نظام العربية الصوتى فهذا النوع يعتد بعجميته فى منع الصرف وذلك كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وجميع أسماء الأنبياء إلا ما استثنى منها من العربى كهود وصالح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وغير الأنبياء من الأعلام المنقولة على علميتها، وكأسماء البلدان التى هى غير عربية كاصطخر ومرو وخراسان وغير ذلك [5].

---

(١) الإبريسم: بر: صدر. سام: الموت. فالإبريسم جنس لعلل الصدر، أو هو الحمى وهو معرب من الفارسية.

والسهريز – بكسر السين وتضم – نوع من التمر يقال تمر سهريز على الوصف أو الإضافة وورد شهريز – بالشين – المعرب ص ١٩٩.

(٢) الكتاب ٣ / ٣٣٤ النيروز أو النوروز: اليوم الجديد وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ويوافق اليوم الحادى والعشرين من مارس من السنة الميلادية وهو أكبر الأعياد القومية للفرس. المعجم الوسيط ١ /١٥، ٢ /٩٦٢.

(٣) حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو أميل إلى الخضرة يتحلى به (مع) ويقال: لون فيروزى: أزرق إلى الخضرة قليلا. المعجم الوسيط ٢ /٧٠٨.

(٤) الخصائص ١ /٣٥٧. (٥) المزهر ١ /٢٨٦، ٢٨٧.

وبعض اللغات التى نقلت عنها كلمات إلى العربية - كالفارسية - لا إعراب فيها، فالعربى حين يدخل كلمات منها يطبق عليها قواعد الإعراب من رفع ونصب وجر فى جميع حالات الإعراب كالفاعلية والمفعولية والحالية وغيرها (١). قال ابن جنى قال أبو على إذا قلت طاب الخشكنان فهذا من كلام العرب لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته فى كلام العرب؛ (٢).

ويقول الزمخشرى: فإن قلت كيف ساغ أن يقع فى القرآن العربى المبين لفظ أعجمى؟ قلت: إذا عرب خرج من أن يكون عجميا، لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب (٣).

* * *

(١) الزينة ١/٧٧. (٢) الخصائص ١/٣٥٨. (٣) الكشاف ٣/٥٧.

أقسام المعرب

الواقع أن الألفاظ المعربة لم تسلك كلها المناهج العربية على طريقة التعريب، فمن التعرف على الكلمات التى دخلت العربية يبدو أنها أربعة أقسام:

١ - قسم غير وألحق بالأبنية العربية، يقول سيبويه: «فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم فدرهم ألحقوه ببناء هجرع وبهرج [١] ألحقوه بسلهب، ودينار ألحقوه بديماس [٢] وديباج ألحقوه كذلك، وقالوا إسحاق فألحقوه بإعصار، ويعقوب فألحقوه بيربوع، وجورب فألحقوه بفوعل، وقالوا آجور [٣] فألحقوه بعاقول [٤] وقالوا شبارق فألحقوه بعذافر، ورستاق فألحقوه بقرطاس [٥] لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم» [٦].

٢ - قسم غير ولم يلحق بالأبنية العربية كآجر.

٣ - قسم لم يغير وألحق بالأبنية العربية نحو كركم للملحق بقمقم.

٤ - قسم لم يغير، ولم يلحق بالأبنية العربية كخراسان [٧].

وهذا التقسيم سائغ (فأهل اللغة قد صرحوا بأنه لا يلزم فى المعربات أن تجرى على أمثلة الأوزان العربية، بل إن جاءت فحسن لتكون مع إقحامها على العربية شبيهة بأوزانها) [٨].

---

(١) البهرج: الباطل والردئ وقيل: إنه نقل من الهندية إلى الفارسية. القاموس ١ / ١٨٦ وتاج العروس ٢ / ١١.

(٢) السهلب الطويل والديماس: الكن - بكسر الكاف وتشديد النون - والسرب - بتشديد السين المفتوحة وفتح الراء - المظلم.

(٣) لغة فى آجر.

(٤) العاقول: نبات صحراوى شجيرى شائك زهوره حمراء تتفتح فى الربيع، والأرض لا يهتدى لها لكثرة معاطفها، وما التبس من الأمور. الوسيط ٢ / ٦١٧.

(٥) ثوب شبارق، بضم الشين وفتحها وشباريق: مقطع ممزق ولحم شبارق: مطبوخ ألوانا، الوسيط ١ / ٤٧٠ والعذافر: الأسد والعظيم الشديد من الإبل والمؤنث بهاء واسم رجل، القاموس ٢ / ٩٠ والرستاق - بالضم - كالرزداق: السواد والقرى معرب رستا - القاموس ٣ / ٢٤٣.

(٦) الكتاب ٤ / ٣٠٣، ٣٠٤.

(٧) المزهر ٢ / ١٣١ وشفاء الغليل ص ١٠.

(٨) الاشتقاق والتعريب ٤٣.

كيف يعرف الأجنبى من الأصيل؟

وضع القدماء أمارات لمعرفة المعرب أهمها:

١ – نص علماء اللغة على أن اللفظ أعجمى.

٢ – خروج الكلمة عن أوزان العربية المعروفة مثل خراسان وآمين وإبريسم.

٣ – أن يوجد فى آخر الكلمة زاى قبلها دال كمهندز، وهنداز، ولذلك أبدلوها سينا.

٤ – وجود الجيم والقاف فى الكلمة كالمنجنيق لآلة حربية، (فالجيم والقاف لا يجتمعان فى كلمة واحدة من كلام العرب إلا أن تكون معربة أو حكاية صوت نحو الجردقة للرغيف، والجرموق الذى يلبس فوق الخف) [١].

٥ – اشتمال الكلمة على الصاد والجيم كصولجان وجص وجلنبلق [٢] وصنج [٣].

٦ – ابتداء الكلمة بنون بعدها راء كنرجس.

٧ – خلو الكلمة الرباعية أو الخماسية المجردة من حروف الذلاقة المشهورة (مربنفل) مثل جوسق [٤] اللهم إلا ما نص العلماء على أنه عربى مع عدم وجودها فيه، مثل: العسجد للذهب، «فإن السين أشبهت النون للصفير الذى فيها» [٥].

ويرى المحدثون من علماء اللغة أن تحديد المستعار – غير الأعلام – أمر جد عسير لعدم وضوح تاريخ اللغات، ومعرفة الأقدم منها، والآخذة والمعطية على وجه اليقين.

---

(١) المزهر ط عيسى الحلبى ١/ ٢٧١.

(٢) حكاية صوت باب ضخم فى حالة فتحه وإصفاقه جلن على حدة وبلق على حدة.

(٣) صفيحة مدورة من صفر يضرب بها على أخرى وتوضع فى أطراف الدف. الوسيط ١/ ٥٢٥.

(٤) الجوسق القصر وقرية ودار بنيت للمقتدر فى عاصمة الخلافة.

(٥) المعرب ١١، ١٢ والمزهر ط صبيح ١/ ٢٧٠ وشفاء الغليل ٧.

فالوقوف على أقدم لغة إنسانية لم يتوصل إليه البحث العلمى حتى الآن، كما أن محاولة معرفة الآخذة، والمعطية يفتقد الأدلة العلمية الكافية لأن تحديد أسبقية لغة على أخرى غير معلوم بطريقة مؤكدة والتبادل يحدث بين اللغات وما يثبت اليوم يمكن أن ينتفى غدا.

فقد حدث أن شابا يابانيا أراد أن يستقصى الكلمات الإنجليزية التى دخلت اليابانية ثم اتضح له آخر الأمر أن تلك الألفاظ التى ظنها إنجليزية هى يابانية الأصل أخذها الإنجليز ثم عادت مرة ثانية إلى اليابانية التى هى أصلها [1].

ومع تسليمنا بصعوبة البحث، ومعرفة الأصيل وغيره فى اللغات ولا سيما العربية [2] فإننا نثق بالقوانين التى وضعها القدماء فى معرفة هذا وذاك، ولا شك أن للعربية سمات معينة يمكن تميز اللفظ بها، ومعرفة ما عداه فيمكن – بسهولة معرفة أعجمية: خراسان، وآجر وإبريسم، ومهندز ونحو ذلك لمخالفتها للأوزان والمناهج العربية وهكذا غيرها كثير.

أما ما يخفى علينا بيانه منها فيمكن أن يكون للأبحاث العلمية والتاريخية أثر فى إلقاء الضوء عليه.

* * *

---

(١) من أسرار اللغة ط ٣ ص ١٠٨.

(٢) لجريان نواميس الاشتقاق والقلب والإبدال والنحت على المعرب فأبعده عن أصله فى اللغة المنقول عنها بعدا شاسعا، فلم يعد هينا إرجاعه إليه. فقه اللغة للاسكندرى ٦١.

قضية التعريب فى القرآن الكريم

انقسم العلماء فى وقوع الألفاظ المعربة فى القرآن الكريم إلى ثلاث فرق: « منكرين لوقوعها فى القرآن، ومثبتين، وموفقين بين الرأيين » (١) ونحن نفصل تلك الآراء:

الأول: يرى بعض العلماء – ومنهم الإمام الشافعى (٢) وابن جرير، وأبو عبيدة والقاضى أبو بكر وأحمد بن فارس من القدماء، والشيخ أحمد شاكر من المحدثين – أن كتاب الله تعالى ليس فيه شئ من غير العربية، وقد شدد الشافعى النكير على القائل بوقوع المعرب فى القرآن الكريم قال: « قد تكلم فى العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله فقال منهم قائل إن فى القرآن عربيا وأعجميا، والقرآن يدل على أنه ليس من كلام الله شئ إلا بلسان العرب ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له وتركا للمسألة عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم » (٣).

وقال أبو عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربى فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول » (٤).

ويقول الشيخ شاكر: لا يعقل أن تكون كلمة من كلماته – حاشا الأعلام – دخيلة على لغة العرب » (٥).

وحجة هذا الفريق:

١ – تصريح القرآن فى آيات كثيرة بأنه أنزل بلسان عربى مبين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ وقال عز حكمه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ . وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

---

(١) من أسرار اللغة ٣/١١١.

(٢) الرسالة ط ١٣١٠ هـ ص ١٨، و٢٠.

(٣) المصدر السابق ١٨ .

(٤) الاتقان ١/١٣٥ والمعرب ص ٣ وتحقيقه ص ١١ والصاحبى ص ٥٩ – ٦٢ .

(٥) من كلمة بعنوان (تحقيق أن ليس فى القرآن شئ من المعرب) ذكرها فى تحقيقه لكتاب المعرب للجواليقى ص ١١، ١٢ .

وقال: ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية، وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال الإمام الشافعي: فأقام حجته بأن كتابه عربى فى كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (١).

٢ – قضى الله تعالى أن ينذر العرب بلسانهم العربى وفقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وهذا يتضح أيضا من آيات الذكر الحكيم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فخص قومه بالذكر معه، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وقال: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأم القرى مكة وهى بلده وبلد قومه، فجعلهم فى كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة (٢).

٣ – وقال ابن أوس: لو كان فيه من لغة غير العرب شئ لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها (٣).

وأجابوا عن الكلمات التى اعترف ابن عباس وغيره من القائلين بوقوع الأعجمى فى القرآن بأنها فارسية أو نبطية أو نحو ذلك بإجابات مختلفة فى نوعها متحدة فى نتائجها، وهى الاتفاق على تنزيه القرآن من وجود الأعجمى فيه:

(أ) فالإمام الشافعي يقول: لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لا يذهب منه شئ على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شئ فإذا جمع علم عامة أهل العلم أتى على السنن، وإذا فرق على كل واحد منهم ذهب

---

(١) الرسالة ١٩، ٢٠ وانظر المراجع السابقة.

(٢) الرسالة: ٢٠.

(٣) الإتقان ١/ ١٣٥.

عليه الشئ منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره، وهم فى العلم طبقات منهم الجامع لأكثره، وإن ذهب عليه بعضه ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره، وليس قليل ما ذهب من السنن على من جمع أكثرها دليلا على أن يطلب علمه عند غير طبقته من أهل العلم، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله ﷺ، بأبى هو وأمى، فينفرد جملة العلماء بجمعها، وهم درجات فيما وعوا منها، وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها، لا يذهب منه شئ عليها، ولا يطلب عند غيرها ولا يعلمه إلا من قبله عنها ولا يشركها فيه إلا من اتبعها فى تعلمه منها، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها، وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فإذا صار إليه صار من أهله، وعلم أكثر اللسان فى العرب أعم من علم أكثر السنن فى العلماء، فإن قال قائل: فقد تجد من العجم من ينطق بالشئ من لسان العرب فذلك قد يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم، فإن لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد من ينطق إلا بالقليل منه، ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه، ولا تنكر إذا كان اللفظ قيل تعلما، أو نطق به موضوعا أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلا من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة فى أكثر كلامها مع تنائى ديارها، واختلاف لسانها وبعد الأواصر بينها، وبين من وافقت بعض لسانه منها [1].

ويوخذ من هذا النص الذى نقلناه من رسالة الشافعى أنه يرى أن تلك الألفاظ المقول بأعجميتها ربما كانت عربية، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلة، لأن لسان العرب واسع المذهب ولا يحيط باللغة إلا نبى، وقد خفى على ابن عباس معنى فاطر وفاتح [2] ومجئ مثل تلك الألفاظ فى لسان الأعاجم يعد من توافق اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد [3].

وهذان الأساسان هما اللذان اعتمد عليهما أبو عبيدة معاصر الشافعى فقد قال: «وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد، أحدهما بالعربية والآخر

---

(١) الرسالة ٤٢ – ٤٨ .

(٢) من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ .

(٣) الإتقان ١ / ١٣٦ .

بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك (الاستبرق) بالعربية هو الغليظ من الديباج، وبالفارسية هو (استبره) .. إلخ »[1].

(ب) لا يكتفى الأستاذ أحمد شاكر بان تلك الألفاظ عربية، ولعلها من توافق اللغات - كما يقول الشافعي وأبو عبيدة - بل يرى أنه يحتمل أن تكون تلك الألفاظ عربية الأصل ونقلت إلى غير العرب. يقول: العرب أمة من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات وجودا كانت قبل إبراهيم وإسماعيل وقبل الكلدانية والعبرانية والسريانية وغيرها بل الفارسية وقد ذهب منها الشئ الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله وبقى الحرف وحده» وقد قال عن كلمة (دينار) ردا على الأب أنستاس الكرملي من أن (دينار) لفظ رومى الأصل - قال: «ونحن عند رأينا الذى ذهبنا إليه فيما مضى أن ليس فى القرآن من غير العربية شئ، وهذا الحرف فى لغة العرب قديم وقد جاء فى القرآن واشتق منه العرب ما ساقه المؤلف (الجواليقى) أو ما سقناه عن التهذيب ومقاربة اللغة الرومية إياه فى اللفظ لا يدل على أن العرب أخذوه عنهم، بل يحتمل أنه منقول إليهم عن العرب».

الثاني: ويرى فريق آخر من كبار الباحثين وجلة العلماء أمثال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم أن الأعجمى وقع فى القرآن وقد روى عن هؤلاء فى أحرف كثيرة أنها من غير لسان العرب مثل: (سجيل والمشكاة واليم والطور وأباريق واستبرق) وغير ذلك.

وحجة هؤلاء:

١ - ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال: فى القرآن من كل لسان.

٢ - أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شئ فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته لكل شئ.

---

(١) الزينة (ط ٢) ١/١٣٧، ١٣٨ وفى المعرب ص ١٥ أنه فى الفارسية (استفره) أو (استروه).

٣ - من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم ينزل فيها شئ بلغة غيرهم .. والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شئ كثير.

٤ - النبى ﷺ مرسل إلى كل أمة وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو.

٥ - وقوع الأعلام الأجنبية فى القرآن باتفاق العلماء، وإذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس [١].

وأجابوا عن نحو قوله تعالى: ﴿قرآنا عربيا﴾ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيا، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية، وعن قوله تعالى: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بأن المعنى من السياق: أكلام أعجمى ومخاطب عربى [٢].

الثالث: يوفق فريق من العلماء بين الرأيين السابقين فيقف موقفا وسطا خلاصته أن هذه الألفاظ التى اختلف فيها الفريقان «قد علقتها العرب العاربة من لغات الأمم التى خالطتها فى أسفارها، ثم غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها فى أشعارها، ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربى الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن».

ويذكر الأستاذ المغربى أن المعرب عربى لأدلة هى:

١ - قول الخليل: ليس فى كلام العرب على وزن (فعلل) غير درهم ثم عدد كلمات أخر ثلاثا مع أن (درهم) معرب من الرومية.

٢ - المعرب تجرى عليه أحكام العربى من تصرف فيه، واشتقاق منه مثل كلمة (لجام) معرب (لغام) أو (لكام) الفارسية، وقد جمع على (لجم)

---

(١) الإتقان ١/١٣٦ ويؤيد الرأى الثانى كثير من الباحثين المحدثين كأستاذنا الدكتور نجا (فقه اللغة ٣/٨٠) والدكتور وافى: فقه اللغة ٢٠١ والدكتور تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ٧١ وغيرهم.

(٢) الإتقان ١/١٣٦.

ككتب، وصغر على (لجيم) وأتى الفعل منه بمصدر وهو (الإلجام) وقد ألجمه فهو ملجم وغير ذلك، واستعمل فى المعانى المجازية مثل ألجمه الماء: إذا بلغ منه موضع اللجام من الفرس وهو الفم، وفى الحديث «التقى ملجم» أى أنه مقيد اللسان لا يطلقه فيما لا يحله له الشرع من الخوض فى الباطل، وهكذا [1].

وعلى هذا قال أبو عبيد القاسم بن سلام - بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية - والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية، كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: عجمية فصادق، ومال إلى هذا القول الجواليقى، وابن الجوزى وآخرون كأبى منصور الأزهرى صاحب التهذيب، وكثير من علماء الأصول، ومن علماء اللغة [2].

ويقول الجواليقى - توفيقا بين الرأيين - كلاهما مصيب إن شاء الله تعالى، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب فى الأصل فقال أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربيا بتعريبها إياه، فهى عربية فى هذه الحال أعجمية الأصل [3].

وقد مال إلى ذلك الأستاذ المغربى الذى يقول: «إن الكلمة الأعجمية إذا استعملتها العرب على مناهجها أصبحت عربية، أو نقول: تحولت عربية بحيث يصح أن ينزل بها الوحى الإلهى، فمن قال: إنها عربية كان صادقا، ومن قال: إنها أعجمية كان صادقا، فهى أعجمية فى الابتداء، عربية فى الانتهاء، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا﴾ حقا وصدقا [4] وفى القرآن على هذا كثير من الكلمات المعربة.

رأينا: ونحن نسلم بأن تحديد المستعار غير الأعلام فى أية لغة أمر يحتاج

---

(١) الاشتقاق والتعريب ٤٨ - ٥١ .

(٢) من تحقيق كتاب (المعرب) للأستاذ أحمد شاكر ص ١١ .

(٣) المعرب ص ٥ .

(٤) الاشتقاق والتعريب ٨٣ .

إلى مشقة وعناء، كما أن الحكم بالأخذ يحتاج إلى الكثير من المقدمات العلمية الضرورية مع تقديرنا أن مبدأ الأخذ أو الاستعارة أمر مسلم به بين اللغات، كذلك فالبحث عن أقدم لغة إنسانية أمر لم يتضح على وجه التحديد، وكما أن الساميات يباح لها أن تأخذ من غيرها فكذلك لا يوجد ما يمنع من أن اللغات الأخرى المجاورة قد اقتبست منها بعض مفرداتها فمن المحتمل أن «اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا فى عصور متطاولة قبل الإسلام فدخل فى الفارسية مثلا ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسى يظن أصلا للفظ عربى وهو فى الحقيقة لفظ سامى تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية» (١).

ومن هنا يبدو لنا أن الباحث لا يستطيع الجزم بحال اللفظ فالاحتمالات كثيرة متشعبة، فإذا كان الحكم بنقل اللفظ من لغة ما إلى غيرها محتملا فمن الجائز كذلك أن تكون الأخرى هى التى منحت ذلك اللفظ للأولى، ومن المحتمل أيضا أن يكون اللفظ مشتركا بين جميعها ذلك لأن التاريخ اللغوى غامض يحتاج إلى بحث واستدلال على جوانبه المختلفة ، ولذلك رأينا المحدثين يقومون ببحوث مقارنة بين مختلف اللغات والفصائل فهم يتتبعون الأصول اللغوية فى نموها وانتقالها مع الفتوح والهجرات، وتسلسل هذه الحركات التاريخية واللغوية، وهو ما لم يراعه القدماء فى إصدار أحكامهم الصادقة أحيانا ولكنها الموجزة أيضا (٢) وعلى الرغم من ذلك «فمحاولة البحث فى الألفاظ ونسبتها إلى بيئة أصلية محل للزلل فى كثير من الأحيان، فقد يتصور الباحث أن كلمة من الكلمات أصلها إنجليزى ثم يتضح فيما بعد أن لها أصلا آخر كما أشرنا من قبل (٣).

وبناء على ذلك وجدنا من علماء اللغة من يدعى توافق اللغات فى بعض كلماتها، ويمكن أن نجد بعض تلك الكلمات التى تنسب إلى لغة سامية وأخرى

---

(١) الدكتور عبد الوهاب عزام فى تقديمه للمعرب للجواليقى ص ٤.
(٢) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٣٢٣ .
(٣) انظر ص ٣٨٩ من هذا الكتاب.

أجنبية فكلمة (سريا) منسوبة إلى السريانية والنبطية واليونانية [١] وكلمة (ابلعى) منسوبة إلى الحبشية والهندية [٢].

وعلى كل حال فلا ضير على العربية فى أن تستمد من اللغات الأخرى ما تمس حاجتها إليه [٣].

وقد أشرنا إلى آراء العلماء فى المراد بالدخيل وكان السائرون على النظام الأول الذى يعد النقل عن الساميات إلى العربية تعريبا - كانوا يبعدون عن الصواب فى تعليلهم لتعريب بعض الكلمات، فالكلمة الواحدة تأخذ صورا متعددة فى هذه اللغات الأخوات، ولا يصح لهذا أن نعد أمثال هذه الكلمات أجنبية عن اللغة العربية [٤].

وعلى هذا فنحن نؤمن بوقوع المعرب فى القرآن الكريم، ونقصره على الوارد من لغات غير سامية كالفارسية أو الرومية ونحوهما وذلك لا يخل بمنزلة القرآن الكريم ولا يغض من شأنه بل إن اللفظ الأجنبى يصبح فى موقعه أفصح من نظيره العربى، فلو حاولنا أن نرفع لفظ (استبرق) مثلا فى قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ لنضع مكانه كلمة (حرير) - مثلا - لما وقع اللفظ الثانى موقع الأول من الفصاحة والبلاغة « ولو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك » [٥].

ولهذا لا ينبغى أن تقطب ما بين عينيك فى وجه الكلمات المعربة أو تسئ إليها بإهمالها والإعراض عنها [٦].

بقى هنا دعوى فى غاية الخطورة والخبث وهى اتهام العرب وعلماء العربية بالقول بعدم وقوع الأعجمى فى العربية والقرآن تعصبا وعنصرية.

وأحد أصحاب هذه الدعوى يجعل العصبية والعنصرية مدخلا للطعن على

---

(١) الزينة ١ / ١١٧، ١١٨.

(٢) المصدر السابق ١ / ١٢٧ وانظر أيضا ص ٣٧٩ من هذا الكتاب.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٤ / ٦٣.

(٤) من أسرار اللغة ١١٤.

(٥) الإتقان ١ / ١٣٦.

(٦) الاشتقاق والتعريب ٥١.

القرآن واللغة ويكيل التهم من هذه الزاوية التى سنخرجه منها وقد وضح زيفه وضلاله.

وفى مجال زعمه التعصب للعربية بالقول بخلوها من الأعجمى ذكر أن « دعاة السيادة العربية – كما يقول – كانوا حريصين أشد الحرص على إثبات نقاء لغة القرآن من كل كلمة أعجمية، أما الشعوبيون فقد حرصوا على أن يثبتوا أن القرآن قد داخلته ألفاظ أعجمية عديدة ثم امتد البحث عن لغة القرآن إلى فقه اللغة بصفة عامة » (١).

وفى زعمه أن الإحساس العربى قد تطرف عند العرب وبعض المستعربين لشرف اللغة العربية وعلوها عن غيرها من اللغات بعلة نزول القرآن الكريم إلى حد أنهم كانوا ينظرون إلى وجود الألفاظ الأجنبية فى اللغة العربية نظرهم إلى شئ نجس ينبغى أن تتنزه عنه اللغة العربية أو عورة ينبغى الاعتذار عنها، وقد ظل فقهاء اللغة العربية قرونا لا يعترفون بدخيل الكلام فى اللغة العربية إلا ما ورد منه فى القرآن لاضطرارهم إلى ذلك » (٢).

وقد عرض لآراء العلماء العرب القائلين بعدم وقوع الأعجمى فى اللغة العربية والقائلين به وذكر من الفريق الأول أبا عبيدة (٣) والإمام الشافعى (٤) ويبين أن رأيهما بعدم وقوع الأعجمى فى اللغة العربية ينقل – فى زعمه – القداسة من القرآن إلى اللغة العربية، واتهم قول الشافعى بسعة العربية وإمكان اتفاق لغتين فى بعض الألفاظ بأنه موقف دعاة العنصرية العربية الذين غالوا فى تصورهم لقدم الجنس العربى والحضارة العربية بما ينافى حقائق التاريخ ونسوا أن العرب لم يظهروا كجنس من أجناس الشرق الأوسط ولم يبرز لهم ذكر فى تاريخ المنطقة إلا فى الألف الأولى قبل الميلاد بل نسوا أن العربية لم تدخل عصر التدوين إلا فى القرن الرابع الميلادى، ونقد فى هذا الصدد رأى الأستاذ المحقق أحمد شاكر بأن العرب أمة من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات وجودا كانت قبل إبراهيم، وإسماعيل وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها بل الفارسية وقد ذهب منها

---

(١) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٩١، ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق ص ٩٢ .

الشئ الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، وأن بعض الألفاظ التى يظن أنها دخيلة على العربية ربما كانت منها ثم فقد أصلها [١].

وبنى على ذلك أن نظرية التعصب للغة العربية بجعلها لا تقبل الألفاظ الدخيلة هو السبب فى دخول العربية في مأزق شطرها إلى لغتين: لغة الكتابة المقدسة ولغة الكلام الدارجة ولو أننا أخذنا بمبدأ التعريب، والامتصاص والتمثيل اللغوى السائد فى جميع اللغات لتغيرت حال معاجمنا بل ولجرت قوانين الصيرورة على النحو العربى والصرف العربى بما يقرب اللغة الفصحى من اللغة العامية [٢].

وهذه كلها دعاوى زائفة فالقول بعدم وقوع الأعجمى فى القرآن ليس ناشئا عن نظرية عنصرية، وليس القول بوقوع الأعجمى في القرآن خاصا بالشعوبيين من غير العرب بل قال به جمع غفير من العلماء العرب والصحابة وصدر الأمة منهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهم من جلة العلماء وكبار الباحثين قديما وحديثا كما ذكرنا من قبل.

أما الإمام الشافعي وأبو عبيدة فلهما وجهتهما التى قبلها علم اللغة الحديث على حد ما أشرنا إليه فى مبدأ الإعطاء والأخذ من اللغات وصعوبة البحث عن أقدم لغة إنسانية.

. وعلى هذا فحكم الشافعي وأبى عبيدة بنى على اعتبار احتمال اشتراك لغتين أو أكثر فى لفظ واحد لا سيما مع سعة العربية ونشوء مشكلات عدم معرفة الأصول اللغوية.

وقد تبين عن طريق فهم الساميات خطأ بعض القائلين بالتعريب فى نسبة لفظ معين إلى لغة من اللغات الأجنبية التى ينقل عنها مثل لفظ (دست) الذى قالوا إنه معرب عن الفارسية وأصله فيها (دشت) بالشين فحولت إلى سين فى العربية – ومثله كثير – وقد استعارته الفارسية من السامية فى عصر متوغل فى القدم ثم عاد إلى العربيةعلى أنه فارسى، وهذا هو ما يفسر لنا قلب الشين فى

---

(١) المعرب للجواليقى ص ١٣، ومقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٩٤ .

(٢) مقدمة فى فقه اللغة العربية ص ٧٩ .

الكلمة الفارسية إلى سين فى العربية، لأننا نعلم من المقارنات السامية أن معظم الكلمات العبرية المشتملة على شين ويكون لها نظائر عربية نلحظ أن النظير العربى يشتمل على سين مكان الشين فى الكلمة العبرية (١).

ويمكن أن نجد بعض الكلمات التى تنسب إلى لغة سامية وأخرى أجنبية كما أشرنا من قبل (٢).

وهذا ما دافع به الإمام الشافعى فى رسالته، ودفاعه يتلخص فى أمرين:

١ – لسان العرب واسع المذهب فلعل اللفظ المقول بأعجميته كان عربيا ولكنه لا يعلم عربيته إلا بعض العرب ممن بلغهم علمه، والقرآن ذاته يدل على أنه خال من الأعجمى.

٢ – أن ما جاء من الأعجمى موافقا للعربى يعد من باب توافق اللغات (٣).

وعلى نحو من هذا التوافق بين اللغات وعلم بعض العرب للكلمات دافع أبو عبيدة معاصر الشافعى (٤) وقد يظن – كما يزعم الكاتب – أن الإغريق واللاتين الرومان كانوا هم أهل الحضارة حين كان العرب بدوا بدائيين لكن تبين قدم حضارة الساميين الأكديين البابليين والآشوريين والفينيقيين والآراميين والحميريين والعرب بصورة عامة.

والدليل على سبق الحضارة العربية للحضارات الهندية الأوربية ما يعرفه التاريخ من خصب الجزيرة العربية قديما، وتوافر النبات والحيوان فيها قبل أحد عشر ألف سنة أيام أن كان الجليد يغطى شمال أوربا، ولم تكن صالحة لحياة الإنسان أو الحيوان عليها، فلما أشرقت الشمس على أوربا، وأقفرت الجزيرة نزح الساميون – كما هو معروف فى هجراتهم القديمة – شمالا إلى الشام والعراق، وشرقا إلى إيران وما وراءها وغربا إلى مصر وما وراءها، وبعضهم اتجه إلى أوربا عبر بلاد فارس وكان ذلك فى عصور سحيقة قبل الميلاد منذ ستة وثلاثين قرنا.

---

(١) من أسرار اللغة ص ١١٤، ١١٥ وتاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ٢٠ وفقه اللغة للدكتور وافى ص ١٨.

(٢) انظر ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ من هذا الكتاب.

(٣) الرسالة للإمام الشافعى ط ١٣١٠ هـ ص ١٨، ١٩ و ط ١٣٥٨ هـ ص ٤٢ – ٤٨ .

(٤) انظر ص ٣٩٢ من هذا الكتاب.

والمعتمد أن الساميين – ومنهم العرب – كانوا – حينئذ – على درجة من الحيوية، وكانت لغتهم حيوية كذلك، فطغت على اللغة أو اللغات المحلية فى الجهات التى هاجروا إليها، كما طغت حضارتهم [1].

وتثبت حقائق التاريخ قدم حضارة الساميين، وأن حضارة أرض الرافدين كانت معروفة فى حين كان العالم فى مناطق أخرى فى سبات عميق، ونظرية المثلث القائم الزاوية قد اكتشفت فى أرض الرافدين مكتوبة بالبابلية قبل عهد إقليدس بسبعة عشر قرنا أي منذ أربعة آلاف سنة، وشريعة حمورابى البابلى كانت معروفة قبل الشرائع والحضارات الأخرى بآلاف السنين.

وعلى هذا فقد استفادت لغات الشرق والغرب من اللغات السامية ونموذجها العربية قبل الإسلام وقبل التاريخ، وفى المعجمات الأجنبية ما يعرفه المعجميون الأجانب وكثير من اللغويين العرب من الكلمات المستفادة من العربية.

والدليل على استفادة اللغات الآرية من العربية أن هذه الكلمات المستفادة لها أصول وفروع فى العربية، على حين أنها فروع بلا أصول فى اللغات الآرية.

ومن الكلمات الأصيلة فى العربية التى أخذتها اللغات الآرية (الأداء والتادية)، والفعل منها (أدى) وهى تدل على معنى العطاء وهى فى الفارسية (داد) أى أعطى، وفى اللاتينية addo و datio و dono ومنها فى الإيطالية date ، ومن صورها فى الفرنسية donner ، و donation و date ، وللكلمة فى كل من هذه اللغات اشتقاقات أخرى، ولها فى الإنجليزية أيضا بعض الصور منها الكلمتان الفرنسيتان الأخيرتان أعنى donation و date .

ويدل على أن العربية هى المعطية والآريات هى الآخذة كثرة الأصول والاشتقاقات العربية المتصلة بهذا الجذر اللغوى، فالعرب اشتقوا من (اليد) التى هى أداة العطاء (أيد تاييدا) وصاغوا الفعل (ودى يدى وديا ودية) و(أدى) بمعني أعطى باليد، وقالوا – مع بعض التغيير – أهدى والهدية، و(أندى) بمعنى أعطى، و (الندى) السخاء، ثم (آتى).

---

(١) مغامرات لغوية لعبد الحق فاضل ص ١٨٨، ١٩٠ ، ١٩٩ .

ومن هذا التحليل نرى أن شجرة النسب فى العربية لهذه الكلمة كاملة.

وقد انتقلت الكلمة إلى اللغة الآرية بأن انتقل فعل الأمر (د) من (ودى) إلى الفارسية فهو فعل الأمر عند الفرس، وصاغوا منه الماضى (داد) والمصدر (دادن)، ومن الفعل (أيد) تسرب إلى الفارسية والإنجليزية معنى did بالمعنى العربى نفسه أى: المساعدة، والفعل (أدى) أخذه اللاتين فنطقوه addo بالمعنى نفسه، ومن الفعل (ندانو) الأكدى أو ما يقاربه صاغوا فعل (dono) بمعنى أهدى، وعن اللاتينية أخذت اللغات الأوربية الحديثة، وزادت فى التوليد والاشتقاق [1].

وعلى ذلك يبطل الزعم بأن العربية استمدت من اللغات الهندية الأوربية أصول كلماتها.

وعلى هذا فاتهام هذا الكاتب للإمام الشافعى وأبى عبيدة بأنهما من دعاة العنصرية اتهام زائف لا أساس له من الصحة، وقد ثبت أن نظرية الإمامين العربيين المسلمين مبنية على أسس علمية وطيدة وليست لها علاقة بالتعصب أو الهوى أو صفة القداسة كما يزعم هذا الكاتب.

ومع كل ذلك فإن علماء العربية لم يزعموا لأنفسهم التعصب ضد دخول الألفاظ الأجنبية فى القرآن الكريم، وهذا ابن فارس فى كتابه الصاحبى فى الباب الذى عقده بعنوان (باب القول فى اللغة التى نزل بها القرآن وأنه ليس فى كتاب الله جل ثناؤه شئ بغير لغة العرب) [2] يعرض لآراء العلماء فى قضية وقوع المعرب فى القرآن سواء منهم المانعون من الوقوع أو القائلون به، وإنه لفى غاية الأسلوب العالى والبحث الموضوعى حين صرح بأن اختلاف الرأى أمر يرد فى كل بحث علمى وأنه لا مانع من الاختلاف فذلك شئ طبيعى قال أحمد بن فارس: ليس كل من خالف قائلا فى مقالته فقد نسبه إلى الجهل، وذلك أن الصدر الأول إختلفوا فى تأويل آى من القرآن فخالف بعضهم بعضا، ثم خلف من بعدهم

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(٢) الصاحبى ص ٤١ وما بعدها .

خلف فأخذ بعضهم بقول وأخذ بعضهم بقول حسب اجتهادهم وما دلتهم الدلالة عليه [١].

وهذه الآراء التى قالوا بها مبنية على أسس وأدلة قوية لكل منهم وليست دعاوى مفتراه كالتى يحاولها الكاتب المشار إليه.

وعلى هذا فاتهامه لفقهاء اللغة العربية بالتعصب اتهام غير موضوعى، بل إنهم قالوا بوقوع المعرب فى اللغة العربية وعقدوا له أبوابا فى كتبهم مثل ابن جنى الذى عقد بابا فى كتابه الخصائص عنوانه (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) [٢]: وذكر فيه بعض طرائق التعريب، وهناك كتب المعربات كالمعرب للجواليقى وشفاء الغليل للشهاب الخفاجي وغيرهم كثير.

واتهام الكاتب للعربية بأنها لغة حديثة – لأن العرب أحدث من غيرهم – اتهام لا يجد الدليل فقد بنى رأيه على أن العرب موجة قادمة إلى الجزيرة من خارجها وأنهم قدموا من القوقاز وأرض الرافدين [٣]، مع أن حقائق التاريخ تخالفه وتنفى ما يقول. فالجزيرة العربية هى مهد الساميين باعتراف المحققين من الباحثين والمؤرخين، ومن المسلم به أن العرب هم الطائفة السامية الوحيدة التي لم تغادر الجزيرة منذ قرون سحيقة قبل الإسلام بل قبل الميلاد بل ظلت فى الجزيرة ممثلة للساميين الأولين.

فقول العلامة الأستاذ أحمد شاكر إن العربية من أقدم اللغات والعرب من أقدم الأمم سليم تدعمه المكتشفات العلمية والبحوث الجيولوجية والآثار، وقد تحدثنا من قبل عن ذلك بالتفصيل [٤].

ومع هذا فالعربية – كغيرها – تتبادل ألفاظا من لغات أخرى تبعا لضرورة الاتصال الحضارى بين الأمم ولا يعد ذلك عيبا ينال منها أو ينقص من قدرها.

---

(١) الصاحبى ص ٤٦ .

(٢) انظر الخصائص ١ /٣٥٧ وانظر: المنصف له أيضا ١ / ١٨٢ .

(٣) انظر كتابه ص ٣١ وما بعدها.

(٤) انظر حديثنا عن موطن الساميين والعرب فى الباب الثانى من هذا الكتاب.

وقد حاول الكاتب أن ينفر من هذا الاتجاه فادعى أن العرب يعتبرون اللفظ المعرب نجاسة تلحق باللغة، وهذا التعبير لم يوفق فيه صاحبه لأن الكلمة الأجنبية التى تحتاجها اللغة، عن طريق نقل اسم معين لمخترع معين مثلا - إذا لم يوجد فى اللغة العربية ما يعبر به عنه - هذه الكلمة الأعجمية تعد داخلة فى نطاق لغة العرب، وجزءا لا يتجزأ منها ولا يعد ذلك عيبا، بل ربما كان اللفظ بعد تعريبه أحسن موقعا من نظيره العربى فلا يعد نجاسة كما زعم، ولذا فإنه بالتعريب يدخل فى كلام العرب وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم كما قال ابن جنى.

والذى يمنعه علماء العربية المحققون أن يفتح الباب على مصراعيه للدخيل كما يريد الكاتب فإن ذلك من شأنه أن يفسد اللغة ويقضى على خصائصها وسماتها، وقد حاول علماء العربية أن ينبهوا على عدم الإكثار من الدخيل، أما استعماله عند الضررة فهذا شئ لا عيب فيه.

ودعوى الكاتب أن هذه المحافظة شطرت العربية إلى شطرين فصيح ودارج دعوى غير صحيحة، بل بالعكس فطبيعة الانضباط وعدم التهاون هى التى حفظت لنا لغة القرآن سليمة حتى الآن.

والتعليل العلمى والتاريخى لهذا الانشطار راجع إلى اختلاط العرب بغيرهم من الأمم التى دخلت فى حوزة الإسلام، واستعمال العربية فى هذه المجتمعات فدخلت فى صراع مع لغاتها الأصلية وخرجت على أثره منتصرة عليها لكنها تأثرت بها ونالها الخلل - على المستوى الشعبى - مما أفقدها بعض جوانب صحة العبارة وبعض الجوانب الصوتية والمفردات وقضى على الإعراب الذى كان أصلا من أصولها.

ومع ذلك استمرت العربية الفصحى منذ بدأ الإسلام حتى الآن تنطق بطريقة تقرب إن لم نقل تماثل ما كان ينطق به أسلافنا وتفهم فى جميع الأوساط على المستوى الشعبى أو الرسمى وهذا جعل صلاتنا بتراثنا الإسلامى والحضارى مستمرا وسيظل كذلك إن شاء الله تعالى.

ومن هنا طولب العربي بأن يستعمل الألفاظ والعبارات التي يستمدها من العربية أصلا، ولا يلجأ إلى المعرب إلا للضرورة.

وإن فتح الباب على مصراعيه لكل دخيل من شأنه أن يقوض صرح اللغة، ولا يمكن أن تقارن العربية في ذلك بأية لغة أجنبية فللعربية طابع متميز.

فقد احتفظت والحمد لله وستظل – بإذن الله – تحتفظ بطابعها كما كانت منذ أكثر من ستة عشر قرنا.

ولو فتح الباب للدخيل كالأجنبيات لانماعت وتلاشت فتراث العربية موصول الأواصر لبقاء معظم الألفاظ والتعبيرات مستعملا وقد فتحت العربية طرقا كثيرة كالاشتقاق والمجاز والقياس وغيرها من الوسائل لنمو العربية ومجاراتها للحضارة والعلوم.

* * *

ثانيا : الترجمة ومشكلاتها

تعريف الترجمة :

في اللغة: يقال ترجم فلان كلامه : إذا بينه ووضحه وذلك يكون بتفسيره بكلام آخر كأن يأتي المتكلم بجملة عالية المستوى ثم يوضحها بعبارة أخرى يفهمها السامع.

ويقال : ترجم فلان كلام غيره : إذا عبر عنه بلغة غير لغة المتكلم.

ويقال : ترجمه وترجم عنه نقله من لغة إلى أخرى، والترجمان كريهقان وعنفوان وزعفران.

ففيه ثلاثة ألوان من الضبط فتح التاء وضم الجيم وهى المشهورة منها وضم التاء والجيم – على سبيل إتباع التاء للجيم فى الضم، وفتح التاء والجيم بإتباع الجيم للتاء فى الفتح.

وورد استعمال المترجم فى معنى الترجمان وهو المفسر للسان وبجمع تراجم وتراجمة وهو من المثل التى لم يذكرها سيبويه.

والتاء والميم – فى الفعل ترجم – أصليتان فترجم يوزن فعلل كدحرج.

ويستعمل الفعل ترجم لسيرة الشخص وحياته فيقال : ترجم لفلان ذكر ترجمته (مولد) [(١)].

والترجمة فى الاصطلاح: نقل الألفاظ والمعانى والأساليب من لغة إلى أخرى [(٢)].

ويمكن أن تتم فى لهجات اللغة الواحدة بذكر كلمة أو عبارة فى إحدى

---

(١) انظر فيما تقدم : القاموس المحيط ٤ / ٨٤ ط ٢ ولسان العرب ط دار المعارف ١٨ / ١٠٦٣ (ترجم) والمصباح المنير ١ / ٧٤ والمعجم الوسيط ١ / ٨٧.

(٢) انظر : اللغة العربية كائن حى ص ٧٥ وما بعدها، وفن الترجمة د. صفاء خلوصى ص١٤.

اللهجات وذكر ما يقابلها فى لهجة أخرى لتوضيح معناها أو الإفادة منها أو بنقل نص من أساليب التراث وشرحه بعبارة توضحه، أو نثر المنظوم أو نظم المنثور[1].

وتتم الترجمة من لغة إلى أخرى.

فالترجمة متعلقة بنقل الألفاظ والأساليب عن طريق ذكر معناها فى اللهجة أو فى اللغة الأخرى.

أما التعريب فهو خاص بنقل الألفاظ نفسها من لغة إلى أخرى فالترجمة نقل معنى، والتعريب نقل اللفظ عينه لكن بينهما نسبا وقربى.

فيمكن أن يتفقا عند نقل الألفاظ والمصطلحات الأعجمية كما هى وحين لا يمكن الترجمة بالإتيان بلفظ عربى مرادف للأجنبى يلجأ إلى التعريب.

فالترجمة أعم من التعريب، فمثلا كلمة هاتف ترجمة وكلمة (تليفون) تعريب وسيارة ترجمة وأتومبيل تعريب وبعض الباحثين يطلق على الترجمة مصطلح التعريب تسامحا، ونرى الآن كثيرا من الباحثين لا يفرقون بين المصطلحين تفرقة دقيقة.

* * *

---

(١) يمكن تسمية هذا النوع بالترجمة التفسيرية، وفيه تشرح الفكرة وتنقل الألفاظ إلى ما يقابلها مما يوضح المعنى بسهولة.

أنواع الترجمة

١ - الترجمة الشفوية :

تستخدم فى اللغات التى لا تعرف الكتابة - وهى كثيرة - كما تستخدم فى الاجتماعات والندوات والمنظمات الدولية المتخصصة .

وقد نشأ عن ذلك ما يسمى (الترجمة الفورية) - التى لم يكن لها وجود منذ حوالى نصف قرن -، وهذا النوع يؤدى إلى سماع ما يلقى باللغة التى يريدها المستمع من اللغات الرسمية العالمية (العربية - الإنجليزية - الفرنسية - الأسبانية - الروسية) .

كذلك تستخدم فى الاجتماعات الرسمية وغيرها لغات عديدة الآن وتنقل معانيها إلى لغات أخرى حسب المطلوب للسامع .

. ومن هذه الترجمة ما يكون مواكبا لحديث المتكلم وتستعمل لها طرق متعددة .

(أ) طريقة الهمس : بأن يتجه المترجم نحو أذن المترجم له فردا أو أكثر ليعلمه بمضمون ما يقول المتكلم أو الخطيب .

(ب) طريقة السماعات : كأن يسمع المترجم الكلام ويترجمه فى مكبر الصوت فورا .

(جـ) الترجمة العاجلة أو المتطورة : بأن يحصل المترجم على نص مكتوب ويترجمه فورا من غير إعداد .

ومن هذا النوع من الترجمة ما يعرف بالترجمة، التتبعية، وفيها تتم الترجمة بعد أن ينتهى المتحدث من كلامه .

٢ - الترجمة التحريرية :

لها مجالات عديدة منها :

(أ) ما يتم فى الدواوين، والمصالح ، والصحافة، والإعلام، وتلقى الرسائل فى المجالات الاجتماعية والسياسية وغيرها .

(ب) ما يتم بنقل الآثار العقلية فى النشاط العلمى والتأليف فيه من كتب ومقالات ورسائل وغيرها

وفى مجال الدراسات الأدبية نشطت مصر نشاطا ملحوظا فى القرن الماضى وكثرت الترجمات الأدبية لما للغة العربية من غنى ملحوظ فى هذا المجال.

وعلى المترجم أن يكون على معرفة بأصول العلم الذى ينقله فى اللغتين المنقول منها وإليها فى الرياضيات أو الفيزياء أو الهندسة أو الكيمياء أو الطب إلى غير ذلك.

وفى الأدب والعلوم الاجتماعية يبرز الأثر واضحا فيما يتعلق بالجوانب العلمية والأسلوبية كمجالات الفلسفة والتاريخ والتشريع ونحوها.

رفى الأدب تبرز جوانب الروعة فى التعبير، واعتماده على عنصر الخيال فى الشعر والنثر والقصص والمسرحيات والروايات، والمقالات الأدبية، ويعنى بجمال اللفظ إلى جانب جمال العبارة، وتظهر روح النص ومحتواه بعد قراءة مستفيضة [١].

(جـ) الترجمة الشعبية: تعنى بالموضوعات الترفيهية كتلك التى تتعلق بالقصص والمسلسلات، وينشر بعضها فى الصحف والمجلات، وهى نوع من الترجمة الأدبية.

(د) الترجمات فى المجالات الأخرى: كنقل القوانين واللوائح ونصوص المعاهدات والعقود الدولية وغير ذلك.

وعلى المترجم فى هذا النوع حسن اختيار الألفاظ وملاءمتها وتحاشى الغموض وسوء التعبير .

طرائق الترجمة

١ - الترجمة الحرفية (أو ترجمة المفردات).

هى طريقة أبى يحيى يوحنا البطريق المتوفى سنة ٨٠٠ م [٢] وابن الناعمة الحمصى ونحوهما.

وفى هذه الطريقة يفسر المترجم الكلمة - فى اللغة المنقول منها - بكلمة

---

(١) فن الترجمة د. محمد عوض محمد ص ١٣ - ١٥ .

(٢) ترجم للمنصور أهم مؤلفات جالينوس وابقراط وبطليموس السكندرى.

أخرى – فى اللغة المنقول إليها – مرادفة لها فى الدلالة والمعنى وينتقل إلى كلمة أخرى وهكذا حتى ينتهى مما يريد ترجمته.

كما يمكن استخدام الآلة فى هذا النوع من الترجمة.

وهذه الطريقة – كما يرى الأستاذ أحمد أمين – رديئة، ومن عيوبها أنها تفكك المعنى، وقد لا توجد كلمة – فى اللغة المنقول إليها – تقابل الكلمة – فى اللغة المنقول منها – ومن هذا القبيل معظم الكلمات الدالة على الأخلاق والعواطف والمشاعر كاللغة اللاتينية ففيها كلمات مثل Sericotdie (الرحمة) و Virtws (الفضيلة) لا توجد لها نظائر فى اليونانية أو الإنجليزية.

وأيضا اختلاف خصائص التراكيب من لغة إلى أخرى، فالتراكيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظائرها فى اللغات، ويقع الخلل فى وجوه المجازات.

وللآلة عيوب فى اختزان المعلومات، وذكر نظائرها فى الترجمة مثلا tspvlfte les atotens ترجم حرفيا (أن ينزل الركاب) لكن المعنى المراد أن ينزل من على ظهر الدابة.

ومع عيوب الترجمة الحرفية للألفاظ قد يحتاج إليها فى بعض الأحيان لشرح كلمة – فى لغة – بكلمة أخرى عند طالبها.

٢ – ترجمة الجمل والعبارات أو طريقة المعنى العام للعبارة أو الترجمة العلمية:

وهى الطريقة المنسوبة إلى حنين بن إسحاق [١] (من سنة ٨٠٩ – ٨٧٣م) والجوهرى وغيرهما.

فيعبر عن الجملة فى النص المراد ترجمته من لغة بمعناه الجملى فى اللغة المنقول إليها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها.

ويحتاج إلى هذه الطريقة فى الترجمة العلمية.

---

(١) ترجم وحده إلى العربية تسعا وثلاثين رسالة وترجم على أساسها كثيرا من كتب الطب والمنطق والطبيعة والإلهيات.

وهذه الطريقة أجود من سابقتها ورجحها الجمهور لفائدتها فى نقل المعانى نقلا صحيحا.

وعيب هذه الطريقة أن المترجم قد يهمل كلمات وفقرات مهمة فى خدمة المعنى لأنه لم يفهمها أو لأنه يرى أنها غير ضرورية.

٣ - التلخيص والاختصار:

يقوم فيها المترجم بفهم النص، والتعبير عنه باختصار، بالاقتصار على معانى الجمل الأساسية وحذف الحشو والزيادة.

وبعض الباحثين يوافق على هذه الطريقة فى نقل النصوص وبعضهم يرى المحافظة على بسط النص والموضوع كاملا دون اختصار ويرى أن الاختصار يؤدى إلى وقوع الخلل فيما ينقل وربما تكون فى النص كلمة أو جملة يظن أنها هامشية وهى تدخل فى صميم المعنى المراد.

والواقع أن التلخيص يجب أن يحذر فيه وقوع الخلل إذ قد ينتج عنه - أحيانا - تحريف النص بإبعاده عن أصله كما فعل الدكتور عبد الرحمن أيوب فى ترجمة كتاب «اللغة بين الفرد والمجتمع لأوتو جسبرسن» فقد استبدل بأمثلة المؤلف الأجنبية أمثلة من العامية المصرية وبعد - كثيرا - عن المصدر الأصلى.

٤ - طريقة الأستاذ أحمد حسن الزيات (من كبار المترجمين فى العصر الحديث):

ويمكن تسميتها (الطريقة الحرفية المعنوية):

يأخذ محاسن طريقتى الترجمة الحرفية وترجمة الجمل والعبارات ويضيف إليهما فى الترجمة الأدبية استشعار التجربة العاطفية ليشارك الأديب - شاعرا أو كاتبا - فيها، يقول الزيات: «والمذهب الذى اتبعته فى كل ما ترجمت توفيق بين المذهبين يجمع ما فيهما من المحاسن، بالإضافة إلى مزية جديدة وهى استشعار التجربة العاطفية التى شعر بها الكاتب أو الشاعر، فأنا أنقل النص الأجنبى إلى العربية نقلا حرفيا، ثم أعود فأجريه على الأسلوب العربى الأصيل، ثم أعود فأفرغ فى النص روح المؤلف وشعوره باللفظ الملائم والمجاز المطابق».

٥ – طريقة يعقوب صروف :

تقوم على اتباع ما يأتى :

(أ) معان على سبيل الحقيقة المألوفة مثل ركوب الفرس ومثل هذا يترجمه بما يدل على معناه .

(ب) معان على سبيل الحقيقة غير المألوفة فيما هو طارئ على أفكار العربية فيترجم بلفظه، أو بما يقاربه .

مثل صوت لفلان فى الانتخاب، وأطلق المدفع، فالتصويت والإطلاق معنيان جديدان غير مألوفين عند العرب من قبل (١) .

(جـ) معان على سبيل المجاز المألوف مثل : أيقظ الفتنة وفرق الشمل وأمات العواطف، ولا صعوبة فى ترجمة الصور بما يرادفها .

(د) معان على سبيل المجاز غير المألوف مثل : لعب فلان دورا، وذر الرماد فى العيون .

فإما أن يبحث عن نظائر لهذه المجازات فى العربية أو يكتفى بالعبارة الأجنبية لسهولتها وشيوعها .

وعد عمله هذا جريا على عادة المترجمين السابقين كابن المقفع والطوسى وحنين بن إسحاق الذين استخدموا تعبيرات لم تكن مألوفة فيما ترجموا من كتب ورسائل .

الشروط التى يجب تحققها فى المترجم

١ – يجب أن يجيد المترجم كلا اللغتين المنقول منها والمنقول إليها إجادة تامة كالعربية والإنجليزية، وأن يكون على معرفة دقيقة بعباراتهما ومصطلحاتهما فى مختلف العلوم، وأن يواكب تطور اللغتين، وما يحدث فيهما من اختلاف ليتمكن من قراءة النصوص بلغاتها الأصلية ويحسن نقلها، وعليه ألا يتعصب لإحدى اللغتين .

---

(١) إطلاق المدفع من المستحدثات فى نهاية عهد المسلمين بالأندلس .

٢ – أن يحظى بثقافة واسعة فى دراسة التاريخ والعادات والتقاليد وحضارة الشعب الذى يترجم من لغته وإليها.

٣ – أن يتمتع ببصيرة نافذة تسهل عملية الترجمة بقوة وإبداع.

٤ – التخصص فى الموضوع المترجم، فيعرف حقائقه وما يقوم عليه من أصول العلم بالموضوع الذى يتعرض لترجمته ومصطلحاته وقواعده فى اللغتين، فالذى يترجم كتابا أو بحثا فى الطب أو الهندسة لا بد أن يكون على إلمام واضح بمبادئ كل علم، وقواعده وأصوله، ومصطلحاته.

٥ – أن تتوافر لديه مراجع المادة المترجمة التى يمكنه الإفادة منها.

٦ – أن يحاول فهم النصوص التى يريد ترجمتها بتأمل وتأن ليكون المترجم كالمؤلف فى نقل الأفكار والأهداف.

وإذا وجد غموضا أو احتمالا لأكثر من معنى فعليه أن يختار المعنى الأنسب للسياق.

وعلى أساس هذا الفهم وحسن التعبير عنه تقوم دقة الترجمة أو عدمها كما يرى الجاحظ.

٧ – أن يكون على علم بمترادفات اللغة والكلمات المقابلة لها فى اللغتين لسرعة الترجمة ودقتها.

٨ – البعد عن الغريب، واستعمال أسهل الألفاظ والأساليب وأجزلها ليمكن تحقق الإفهام للقارئ والسامع، فبعض المترجمين ينقلون أحيانا عبارات مستغربة لا تقع فى الأذواق موقعها الحسن.

وقد عاب ميخائيل نعيمة على خليل مطران ترجمته لمسرحية «عطيل لشكسبير» لاستخدامه الألفاظ الغريبة فى الترجمة مما أفقدها جوانب من الإفادة المرجوة، مع ما بذل فيها من جهد.

٩ – حسن استخدام طرق الترجمة الحرفية أو المعنوية والمفاضلة بينها حسب المقام المقتضى لها، مع الأمانة، والحرص على أداء المعنى كاملا.

مشكلات الترجمة

هناك مشكلات وصعوبات تعترى القائم بالترجمة، ولا تمكنه من نقل ما

يريد نقلا كاملا لا نقص فيه، ولذلك يقول الجاحظ: «إن الترجمان لا يؤدى أبدا ما قاله الحكيم عن خصائص معانيه، ولا يقدر أن يوفيها حقها، ويقوم فيها بما يجب على الوكيل أن يقوم به نيابة عن الأصيل.

وعليه إذا أراد ذلك أن يكون على مستوى الأصيل فى إجادة اللغة الأجنبية فيبلغ مبلغه فى علم دقائق هذه اللغة، ومعانيها واستعمالات تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها وتتوقف درجة الدقة فى الترجمة على حظه من ذلك كله».

ومن أهم تلك المشكلات ما يلى:

١ - معرفة الفروق بين دلالة الألفاظ فى اللغات المختلفة:

فلكل لغة أنماطها فى ذلك والسيرافى كان ينبه يونس بن متى إلى ما للألفاظ من اختلاف فى اللغات، يقول: «اعلم أن هناك سرا ما علق بك، ولا أسفر لعلمك، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها، بحدود صفاتها فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها، وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها».

ومن هذا القبيل ما يتعلق بالألفاظ المترادفة ومشكلاتها، فقد لا يكون المرادف متوافرا أو لا يكون اللفظ مرادفا لما فى اللغة الأخرى على التساوى بين اللفظين، وقد يظهر ترادف بين لفظين وهما ليسا كذلك ومن ذلك أن بعض اللغات تستخدم لفظا للأخضر من النبات أو الملابس فى حين أن بعضها تستخدم لفظا للأخضر فحسب وقد يؤدى ذكر المرادف إلى مصادمة التقاليد الاجتماعية واللياقة اللغوية كما فى الألفاظ المعبرة عن الأمور التى تخدش الحياء، والأخلاق ونحو ذلك.

٢ - التراكيب أو ما يعرف بهندسة الجملة:

فعلى المترجم أن يلاحظ اختلاف التراكيب بين اللغات فى الجمل الفعلية والجمل الاسمية وما يتعلق بهما وما يعترى ذلك من تقديم وتأخير وهذا يحتاج من المترجم إلى جهد كبير لمعرفة خصائص كل لغة فى ذلك لتكون ترجمة سائرة على النهج المألوف.

٣ - التعبيرات المجازية:

يبتعد فيها عن الترجمة الحرفية، ويتحدث الإمام عبد القاهر الجرجانى عن ترجمة الاستعارات فيقسم الاستعارة قسمين الاستعارة المفيدة والاستعارة غير المفيدة.

فغير المفيدة أباح عبد القاهر ترجمتها بالمعنى إذا تعذر العثور على لفظ مقابل فى اللغة التى تنقل إليها، وضرب عبد القاهر أمثلة للاستعارة غير المفيدة باستعمال العربى بعض الألفاظ الخاصة بأجزاء جسم الإنسان أو الحيوان مكان الأخرى مثل الشفة للإنسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس والأنف للإنسان والمرسن للبعير، فالعربى - أحيانا - يستخدم ما للحيوان للإنسان والعكس دون قصد بلاغى، فللفارسى - مثلا - أن يترجمها إلى لغته باللفظ العام الذى يدل على الشفة لا بالكلمة الخاصة بالإنسان أو الحيوان، واعتبر عبد القاهر هذا من التوسع فى اللغة الذى لا يقتضى نقله بلفظه.

يقول: - بعد تقسيمه الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة -:

وأنا أبدأ بذكر غير المفيدة، فإنه قصير الباع قليل الاتساع .. وموضع هذا الذى لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة .. لوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت فى غير لغة العرب، وربما لم توجد، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها فى غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره منه، ونقله عن أصله وجاز به موضعه كقول العجاج:

وفاحما ومرسنا مسرجا

يعنى به أنفا برق كالسراج ، والمرسن فى الأصل للحيوان لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن، وقال الآخر يصف إبلا:

يسمع للماء كصوت المسحل ... بين وريديها وبين الجحفل

وقال آخر:

والحشو من حفانها كالحنظل

فأجرى «الحفان» على صغار الإبل، وهو موضوع لصغار النعام. وقال آخر:

فبتنا جلوسا لدى مهرنا   ننزع من شفتيه الصفار

فاستعمل الشفة فى الفرس، وهى موضوعة للإنسان.

فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت الأصل لم يحصل لك فلا فرق من جهة المعنى بين قوله من شفتيه وقوله من جحفلتيه لو قاله إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فجسب.

فهو يرى أن نقل الاستعارة غير المفيدة من باب التوسع فى اللغة الذى لا يلزم له وجود مقابل فى اللغة المنقول إليها.

أما الاستعارة المفيدة فإنه لا يجيز نقلها بالمعنى لأن هذا يفوت النكتة البلاغية فيها، يقول: «ولو أنه ترجم قولنا: رأيت أسدا - مريدا رجلا شجاعا. فذكر ما معناه معنى قولك: شجاعا شديدا، وترك أن يذكر الاسم الخاص فى تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجما للكلام، بل كان مستأنفا من عند نفسه كلاما، وهذا باب من الاعتبار يحتاج إليه فحقه أن يحفظ» [1].

وتوجد فى العربية تعبيرات مجازية لا يجوز ترجمتها حرفيا من مثل هذه المجازات التى كثر استعمالها ومنها، تبتسم الأزهار - تطير الفرس - تذبح الأشجار .. إلخ.

ومن ذلك الكلمات التى لا يفهم معناها إلا فى سياق اجتماعى أو نحوه كالكلمات المعبرة عن الموت والأمراض والكوارث: لبى داعى ربه. ذهب إلى بارئه - إلخ.

كما أننا فى اللغات الأجنبية نجد تعبيرات مثل قولنا: يلعب المال دورا هاما فى الاقتصاد الدولى، فالعبارة - كما هى فى اللغات الأجنبية - فيها مجاز فى التعبير باللعب، وهذا أمر غير مألوف فى العربية، فهل يختصر المترجم

---

(١) أسرار البلاغة بتحقيق الأستاذ محمد عبد العزيز النجار ط ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م ص ٤٠، ٤١.

هذه الاستعارة، أو يزيد فى توضيح الأمر؟ ويترتب على هذا أن ينقص من النص أو يزيد عليه، وللباحثين خلاف فى هذا الأمر بين مؤيد ومعارض.

٤ - الألفاظ المستحسنة والمستقبحة:

يجب أن يكون المترجم على علم بالدلالات اللغوية والألفاظ التى تؤديها حسب المألوف وغيره فى العادات والتقاليد والمناسب وغيره منها حتى لا يقع فى خروج يعترض عليه، فقد أرسل أحد المستشرقين إلى الدكتور أحمد أمين يمدحه - فى رسالة - بغزارة علمه فقال (وقد استفدت كثيرا بخرارة علمكم) وهذا ما يسمونه - فى العربية - بالاستعارة الغريبة البعيدة.

٥ - الألفاظ ذات الجمال اللغوى:

. قد لا يجد المترجم لفظا فى اللغة المنقول إليها يضارع جمال اللفظ وموسيقاه فى اللغة الأولى المنقول منها ولا يجد ما يؤدى مؤداه، وما يحتوى من محسنات بديعية كالطباق والجناس والتورية والعكس والتبديل إلى غير ذلك، فنقل المعنى فقط هنا يقلل من أهمية الجمال اللغوى، ويضيع ما للألفاظ الأصلية من رونق وبهاء، فكيف يترجم - إلى غير العربية مثل قول الشاعر:

ناظـراه فيـما جنـى ناظراه

أو قول الآخر:

دعـانى أمـت بما أودعانى

٦ - الألفاظ المستخدمة فى أكثر من معنى:

يحتاج استعمال اللفظ الذى يدل على أكثر من معنى إلى دقة فى استخدامه فى الصالح منها للمعنى المراد دون سواه وقد يؤدى عدم التوفيق فى ذلك إلى فساد كبير حين يختار المترجم أحد المعانى فيقع فى المحظور دون أن يشعر.

فالفعل اليابانى Makusatsu له معنيان (الأول: لا تعليق، والثانى، القتل بالصمت) وقد استعمل رئيس الوزراء اليابانى هذا الفعل حين طالب الأمريكيون اليابانيين بالاستسلام - دون قيد أو شرط - فى الحرب العالمية - فترجم إلى المعنى الثانى، وعليه ألقيت القنابل الذرية على هيروشيما ونجازاكى.

ومن ذلك الفعل (وثب) له معنيان القفز والجلوس ونجم عن استعماله بالمعنى الأول ما حل بأحد السفراء لدى ملك ظفار.

كذلك كلمة (الخصم) تستخدم لمعنيين: الطرف فى النزاع والعدو وترجمتها بالمعنى الثانى تؤدى إلى سوء فهم، وأضرار بالغة.

٧ - هناك كلمات يصعب ترجمتها مثل المصطلح الذى ذكره الأستاذ جويدى الذى درس فقه اللغة فى الجامعة المصرية - فى كلية الآداب سنة ١٩٢٦ وهو Philology فلهذا المصطلح معان كثيرة: فقه اللغة - متن اللغة - تاريخ اللغات والمقارنة بينها - علم الأدب بمعناه الواسع فيدخل فيه تاريخ الآداب وتاريخ العلوم دينية أو فلسفية أو لغوية إلى غير ذلك [١].

فليس له معنى محدد، ولذلك يقع المترجم فى حيرة ومشكلة عند ترجمته فلا بد من الاتفاق على إعطاء المصطلحات معانى محددة حتى تسهل ترجمتها.

٨ - البحث عن اللغة الأصلية للنص المترجم، فقد ينقل نصا من لغة وهو مترجم إليها من لغة أخرى، كما إذا كان النص بالفارسية وهو مترجم من اليونانية، أو كان النص بالفارسية ويراد نقله إلى العربية مع أنه مترجم إلى الفارسية منها، وهذا يحتاج إلى مراجعة فى اللغات الأصلية التى ترجم منها النص، حتى يمكن فهمه، وإجادة نقله.

٩ - صلاحية اللغة المنقول إليها أو منها لاستيعاب العلوم والمعارف، فلغة كالعربية صالحة لذلك، لكن هناك بعض اللغات التى يتعسر أن نجد فيها مقابلات لمعانى الألفاظ والمصطلحات العلمية فى اللغة الأخرى لضعف فى اللغة المنقول إليها كاللغات البدائية.

* * *

---

(١) انظر كتابنا علم اللغة بين القديم والحديث ط ٢ ص ٢٣، ٢٤ .

الترجمة عند العرب نشأتها وتطورها

فى عصر صدر الإسلام والعصرين الأموى والعباسى:

فيما سبق الإسلام من عهود كانت هناك ترجمات فى العالم القديم – على أساس التبادل الحضارى عند البابليين والأشوريين والفينيقيين والفراعنة والحيثيين وكان أساس ذلك التبادل ساميا نقل إلى شعوب عالمية فى مجالات الرياضيات والفلك والهندسة وغير ذلك مما كان له أثره فى بناء حضارة الإغريق ثم عاد بعد ذلك ليترجم إلى العربية ويعود العلم إلى مهده الأول فى المشرق [1].

وفى العصر الجاهلى – عند العرب – لم تكن تعرف الترجمة لعدم حاجة العرب إليها آنذاك – فى عهد بداوتهم حين لم تكن لهم ثقافة واسعة تؤهلهم لإجادة اللغات والنقل منها.

وبظهور الإسلام كثرت حاجات الحضارة، واتصل العرب بمن حولهم من الشعوب، وأدى ذلك إلى الحاجة إلى الإفادة من علوم الشعوب الأخرى، وكانت بعض الكلمات والمصطلحات تدخل إلى نطاق العربية – على سبيل التعريب – ثم تدرج الأمر إلى مقابلة المعانى والأساليب – فيما جد من تعامل اجتماعى للاتصال بين العرب وغيرهم وفى العلوم المختلفة، بما تشتمل عليه العربية من مفردات وتراكيب واسعة الدلالة تستوعب كل متطلبات الحضارة والتقدم، وتواكب النمو المطرد فى الأحوال الاجتماعية والعلمية والثقافية المتنوعة.

ثم ظهرت الترجمة فى العصر الأموى بطريقتين: النقل بالمشافهة، والنقل بالترجمة المنظمة.

وكانت محاولات الترجمة فى أول الأمر تتم على يد بعض الأفراد ثم أخذت العناية والاهتمام، وأول نقل ظهر فى الإسلام ثم على يد خالد بن يزيد ابن معاوية (ت ٨٥ هـ) من اليونانية والقبطية إلى العربية فى الطبيعة والكيمياء، ثم تكونت جماعات للترجمة يمكن ان تأخذ شكل المدارس اللغوية التى برز

---

(١) من بحث بعنوان «تطور الفكر الترجمى فى أوربا نحو علم الترجمة فى مدخله اللغوى» منشور فى مجلة عالم الفكر ص ٩٤ .

نشاطها فاصبحت تتجه إلى العلوم العملية كالطب والكيمياء، وأجاز ذلك عمر ابن عبد العزيز الذى أمر بعض المترجمين أمثال ابن أعين بترجمة بعض كتب الطب، ثم جاء الخليفة مروان بن الحكم فاهتم بالترجمة، ونقلت فى عهده كتب من السريانية إلى العربية، وسار على نهجه ابنه عبد الملك.

وقد نشطت حركة الترجمة فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٣٣٤ هـ) - فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين - لشدة الاختلاط بين العرب والأمم ذوات الحضارة من الفرس والروم والهنود واليونان. كما اتصلوا بالسريان وشهدوا مدارسهم.

وقد مرت الترجمة فى هذا العصر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

من عهد الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور إلى آخر عهد الرشيد (من سنة ١٣٦ هـ - ١٩٣ هـ).

وفى هذه المرحلة ترجمت بعض كتب أرسطاليس فى المنطق، من اليونانية عن طريق الفارسية وترجمت بعض الكتب الأدبية، مثل « كليلة ودمنة » على يد ابن المقفع الذى نقلها من الفارسية، وهى قصة ترجع إلى أصل هندى كما ترجمت بعض كتب الفلك.

وكانت التراجم الأدبية قليلة ولعل ذلك يرجع إلى أن العرب يملكون زمام اللغة والأدب، ولما كانت تشتمل عليه الآداب اليونانية من أساطير يتعلق أغلبها بالدين.

ومن المترجمين المشهورين فى هذه المرحلة ابن المقفع ، ويوحنا بن ماسويه، وجورجيس بن جبرائيل، وغيرهم.

المرحلة الثانية:

تبدأ بعهد الخليفة السابع عبد الله المأمون (١٩٨هـ) إلى نهاية القرن الثالث الهجرى.

وفى هذه المرحلة ترجمت أهم كتب الفلسفة والعلوم من اليونانية، مثل

حكم فيثا غورث، ومصنفات بقراط، وجالينوس، وأفلاطون على يد حنين بن إسحاق [1] والمعاصرين له ممن نهج نهجه فى الترجمة مثل ابنه إسحاق بن حنين وثابت بن قرة، ويحيى البطريق – مولى المأمون – وابن ناعمة الحمصى، وقسطا ابن لوقا البعلبكى وغيرهم.

وكان حنين يترجم بنفسه، ويشرف على ترجمة غيره، وقد نهضت الترجمة بعمله وسلست بين العربية واليونانية.

المرحلة الثالثة:

فيما تلا ذلك إلى منتصف القرن الرابع الهجرى وفيها ظهرت مترجمات فى المنطق، وعلوم الطبيعة على يد جماعة من المترجمين منهم متى بن يونس، وسنان ابن ثابت بن قرة، ويحيى بن عدى، وابن زرعة وغيرهم [2].

وقد نجم عن استخدام أساليب الترجمة فى هذه العصور أن انعكست آثارها على العربية فى مجالات عدة من الألفاظ، والاستعمالات. ومن ذلك ما تركته اليونانية من آثار فى العربية وأهم ذلك ما يلى:

١ – إدخال (ال) على (لا) النافية فيقال: اللاوعى – اللا إنسانى .. إلخ.

٢ – صوغ الاسم أو الضمير بإضافة ياء مشددة كقولهم: كيفية – كمية – ماهية .. إلخ.

٣ – نقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية كقولهم: الخاصية.

٤ – إدخال الألف والنون قبل ياء النسب مثل روحانى ونفسانى .. إلخ.

فى العصر الحديث:

ظلت الترجمة – بعد ذلك – قائمة على أساس فردى حتى القرن الثالث عشر الهجرى – التاسع عشر الميلادى – أو قبله بقليل فلما جاء عصر محمد على نشطت حركة الترجمة من جديد لأسباب كثيرة أهمها:

---

(١) كان يجيد أربع لغات: الفارسية واليونانية والسريانية والعربية.

(٢) ضحى الإسلام ص ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٨٥.

١ - تقدم العلوم والفنون والآداب.

٢ - سرعة المواصلات والتلاقى بين الشعوب.

٣ - الرغبة فى النهوض بالبلاد.

٤ - تشجيع الترجمة بإنشاء المدارس مثل مدرسة الألسن واستقدام الأجانب للتدريس بها، وقد تخرج فيها كثير ممن اشتغلوا بالترجمة.

٥ - البعثات وأثرها فى تكوين جيل يحمل الثقافات الأجنبية ويستطيع المشاركة فى النهضة الاجتماعية والترجمة.

وقد بدأت الترجمة منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بجهود رفاعة الطهطاوى [1] ورفاقه الذين عكفوا على نقل التراث الأوربى، وزادت الترجمة نشاطا منذ منتصف القرن التاسع عشر بهجرة عدد كبير من أدباء سوريا إلى مصر، فاتصلوا بخريجى الجامعة المصرية ممن تخصصوا فى اللغات، وكان لهم أثر كبير فى الترجمة.

واستمر نشاطها فى مطلع القرن العشرين ثم خبت حركتها خلال الحربين العالميتين ثم نشطت ما بين أواخر الأربعينيات ومنتصف السبعينيات من هذا القرن ولا تزال نشطة إلى الآن.

وقد بدأت الترجمة فى الجوانب الأدبية، ثم اتجهت إلى كل الفنون الأخرى علمية وثقافية وزراعية وتجارية وغيرها [2].

مجالات الترجمة

هذه المجالات كثيرة ومتنوعة أهمها:

١ - الترجمة العلمية والصناعية:

وتكون فى مناحى العلم المختلفة فى الزراعة والهندسة وغيرها من العلوم، وللعلم مصطلحاته التى تجد كل يوم تبعا لتقدم العلوم والحياة الحديثة التى لا تتوقف، وأكثر ما يكون ذلك فى أسماء العقاقير والأمراض والأدوات والمصنوعات.

---

(١) كانت له طريقته فى الترجمة التى تقوم على سلامة اللغة وقوتها وبلاغتها.

(٢) انظر: حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين. أحمد عصام الدين ص ٦٥.

٢ - الترجمة الأدبية:

تتناول فنون الأدب النثرية والشعرية.

وفى الترجمات الأدبية فن وإبداع يفوق غيرها من الترجمات العلمية [١].

ومع ذلك تحتاج الترجمة الأدبية إلى جهد وعناء لما تحويه النصوص الأدبية من خيال، وصور فنية، وعاطفة وما فيها من ألوان الشعور، والتعبير الجياش وهى تعتمد على التذوق الأدبى [٢].

وعلى المترجم أن يلم بتاريخ النص الذى يترجمه سياسيا واجتماعيا وعقليا وثقافيا ليعرف التأثر والتأثير.

٣ - ترجمة الشعر:

يرى الجاحظ أن ترجمة الشعر العربى أمر متعذر لذهاب الوزن والحسن فيه، يقول: «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب منه، وصار كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذى حول عن موزون الشعر» [٣].

وقد تأخرت الترجمة الشعرية من اللغات الأجنبية إلى العربية أحقابا طويلة منذ القرن الثانى الهجرى حتى القرن الثالث عشر - التاسع عشر الميلادى - فمرت تلك الأزمان دون ترجمة الشعر، وأرجع الباحثون ذلك إلى عدة أمور:

١ - أن العرب عندهم من الشعر ما يغنيهم عن ترجمة شعر الأمم الأخرى مع جودة الشعر العربى الوارد على ألسنة فحول شعراء العربية كالنابغة وزهير والأعشى وغيرهم، وهذا يؤكد أن العرب إنما ترجموا ما احتاجوا إليه فى الطب والعلوم والفلسفة وغيرها، وما لا يحتاجون إليه لم يترجموه [٤].

---

(١) دراسة فى فن التعريب والترجمة د. عبد الغنى عبد الرحمن محمد ص ٧٢ ودلالة الألفاظ د. أنيس ص ١٧٤.

(٢) دراسة فى فن التعريب والترجمة ص ١٢.

(٣) الحيوان ط السعادة ١٣٢٥ هـ /١٩٠٧ م ص ٣٧.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٠٨، وانظر فن الترجمة لمحمد عبد الغنى حسن ص ٧١.

٢ – أن أغلب المترجمين كانوا من نصارى النساطرة واليعاقبة والحرانيين والسريان، وكانوا مشغولين بالجوانب العلمية فى الطب والفلسفة، ولم تكن لهم اتجاهات أدبية، ولا سيما أنهم لم يكونوا يجيدون العربية بحيث تسمح لهم بصناعة الشعر ونقله.

ويرى المحدثون – من باحثى القرن العشرين – أن ترجمة الشعر أمر ضرورى للاطلاع على الفكر، والخيال الشعرى ومضمون الأدب عند الأمم الأخرى والإفادة منها.

ويمكن ترجمته بإحدى طريقتين:

فمنهم من يرى أن الترجمة يجب أن تكون شعرا، وأن المترجم يجب أن يكون شاعرا، وأن يحاول تمثل شخصية الشاعر ونقل تجربته الشعرية، ومعانيه وأخيلته فى صورة أقرب ما تكون إلى ما أراد الشاعر، وذلك كما فعل البستانى فى ترجمته إلياذة هوميروس، فقد ترجمها شعرا.

ومنهم من يرى أن الشعر يمكن أن يترجم فى صورة نثرية، وليس بلازم أن ينقل على وزن شعرى، لأن المهم هو النقل الأمين لمعانى الشاعر وخياله وصوره الفنية، وإبداعه، ونقل روحه الأدبى.

وقد حدث أن ترجم بعضهم الشعر نثرا مع قدرة المترجم على نقله شعرا، ومن هؤلاء الشاعر خليل مطران فقد قام بترجمة طائفة من مسرحيات شكسبير إلى اللغة العربية نثرا مع أنه شاعر، وترجم الأستاذ الزيات قصيدة البحيرة للشاعر الفرنسى لامارتين نثرا [١].

وبناء على الرأى بجواز ترجمة الشعر لإثراء الحياة الأدبية لاحظنا محاولات كثيرة فى تاريخ ترجمة الشعر إلى العربية.

ففى سنة ١٨٥١ م ترجم جبرائيل مخلع الدمشقى وكان عارفا بالتركية والفارسية – بعض قصائد من الفارسية.

وكذلك سليمان البستانى (١٨٥٦ – ١٩٢٢م) ترجم الإلياذة.

ونشطت حركة ترجمة الشعر فى القرن العشرين فظهر مطبوعا «العيون اليواقظ» لمحمد عثمان جلال (سنة ١٩٠٦م) وهو ترجمة لحكايات لافونتين الفرنسى، وترجمت رباعيات الخيام على يد وديع البستانى (سنة ١٩١٢م).

---

(١) فن الترجمة لمحمد عبد الغنى حسن ص ١١٢.

ثم كثرت ترجمة الشعر لاسيما فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين حتى الآن .

أما ترجمة الشعر العربى إلى اللغات الأخرى فيذكر أن المعلقات ترجمت إلى اللغة الإنجليزية تلك الترجمة التى أصدرها المستشرق الإنجليزى وليم جونز، وتأثر بها جوته وعاش - بفضل ترجمات المعلقات - مع العرب البادية بشمائلهم الغر [١] .

ويذكر بعض الباحثين أن المستشرق الفرنسى جاك بيرك أخبره بأنه ترجم بعض الشعر الجاهلى، وأنه عرض هذه الترجمة على جماعة من الأدباء الفرنسيين فتذوقوه، واستحسنوه، وذلك الشعر المترجم يغلب على ظن الباحث أنه من الشعر الوجدانى [٢] .

كما نعرف أن شعرا عربيا كثيرا قد ترجم فى الأندلس إلى اللغة الأسبانية وغيرها من اللغات الأوربية، وترك آثارا كثيرة فى - شعراء التروبادور - فى أوربا .

---

(١) من مقال بعنوان « الترجمة مفهومها ومذاهبها ودورها فى بناء الثقافة المعاصرة » للأستاذ إبراهيم زكى خورشيد . بمجلة الفيصل العدد (٩٢) صفر ١٤٠٥ هـ نوفمبر ١٩٨٤ م ص ٦١ .

(٢) من مقال بعنوان : « الآثار الأدبية والترجمة » للباحث عبد الرزاق البصير بمجلة العربى العدد ٣٣٣ فى ذى القعدة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

ترجمة القرآن الكريم

آراء العلماء فيها :

الرأى الأول : رأى علماء الفقه :

أجمـــع فقهاء المذاهب الشافعية والمالكية والحنابلة، والحنفية - على الراجح [١] على أن ترجمة القرآن الكريم بغير لسان العرب لا تجوز سواء لقراءته أو للصلاة به .

واستند هؤلاء الفقهاء - في رأيهم - إلى شهادة القرآن بعربيته كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢] لأن هذه الهيئة التى نزل عليها يتحقق بها مراد الشرع، وإعجاز القرآن الكريم .

وأيد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية معللا بأن العربية شعار الإسلام، وتتميز بها الأمة الإسلامية كما أن كل أمة تتميز بلغتها .

وعلى المسلم أن يتعلم العربية للتعبد بتلاوة القرآن وقراءته فى الصلاة وهذا هو ما كان عليه حال المسلمين فى الأقطار الإسلامية كالشام ومصر والعراق وغيرها .

ورأى ذلك الرأى أيضا الشيخ محمد رشيد رضا مستندا إلى ما جاء من أدلة عند أصحابه :

وقد استدلوا على منع ترجمة القرآن بأمور أهمها :

١ - أن الترجمة تؤدى إلى تحريف القرآن عن مواضعه، وذلك مذموم لقوله سبحانه فيمن حرفوا الكتب السماوية : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [٢] [المائدة: ١٣].

٢ - أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة، والترجمة المعنوية من اجتهاد المفسر فلا تعد الترجمة بصورتها قرآنا .

---

(٣) روى عن أبى حنيفة - رحمه الله - القول بجواز ترجمة القرآن وفى رواية أخرى أنه رجع عن هذا الرأى إلى المنع .

(١) ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ٤١].

٣ – عند ترجمة التفسير يكون ذلك رأى المفسر، فكيف يعد أساسا للدين الإسلامى؟ وكيف يعد أساسا للاجتهاد؟ فيمتنع الاجتهاد حينئذ.

٤ – عدم وجود نظائر لبعض الألفاظ العربية فى اللغات الأخرى كالفارسية، والتركية، والإنجليزية وغيرها، ولها معان قد لا تطابق معانى نظائرها فى اللغات من الألفاظ المترادفة، والمشتركة، إلى غير ذلك.

٥ – نظم القرآن وأسلوبه لا نظير له فى اللغات الأخرى التى تختلف عن العربية فى تصاريفها وتراكيبها فتفوت بالترجمة دلالات ذلك، وللقرآن طلاوته وحلاوته التى تضيع بالترجمة، وللنظم القرآنى تأثير خاص فى سامعيه لا يتحقق بالترجمة.

٦ – القرآن محفوظ من التغيير والتبديل، والترجمات تفتح مجالا للاختلاف فيه وفى ترجمته إلى الفارسية أو التركية أو غيرها كبير اختلاف، وربما يحدث ما حدث فى ترجمات العهد القديم.

٧ – إسناد الترجمة إلى الله كذب عليه، وافتراء فليس من ألفاظه، ولا يعتبر أنه الحقيقة.

الرأى الثانى: رأى علماء اللغة:

منع ترجمته علماء اللغة وورد ذلك عن ابن فارس ونقل هذا الرأى السيوطى لأن نقله عن العربية يفقده خاصية الإعجاز التى انفرد بها.

ويقول الجاحظ: ولن تجد ألبتة مترجما يفى بالمراد من النصوص هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب دينا وإخبارا عن الله عز وجل عما يجوز وما لا يجوز عليه.

ويقول: إن أحدا إذا أراد ترجمة القرآن الكريم يلزمه الوفاء بأمور كثيرة، وهيهات أن يستطيع ذلك ومنها:

١ – تصحيح المعانى فى الطبائع، وعقد ذلك بالتوحيد.

٢ – وجوه الإخبار واحتمالاته، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز.

٣ – علم العام والخاص.

٤ – معرفة ما يخصه الخبر الذى هو أثر مما يخصه الخبر الذى هو قرآن.

٥ – علم ما يخصه العقل مما تخصه العادة، أو الحال المرادة له على العموم.

٦ – معرفة ما يكون من الخبر صدقا أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمى بصدق أو كذب، ومعرفة اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أى معنى ينقلب ذلك الاسم.

٧ – معرفة المحال من الصحيح، وكيف يؤول المحال، وهل يسمى المحال كذبا أو لا يجوز ذلك؟ وأى القولين أفحش المحال أم الكذب؟ وفى أى موضع يكون المحال أقطع والكذب أشنع؟

٨ – معرفة المثل والبديع والوحى والكتابة.

٩ – فصل ما بين الخطل والعذر والقصور والبسط والاختصار.

١٠ – معرفة أبنية الكلام وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم.

وعقب على ذلك الجاحظ بأن المترجم متى لم يعرف ذلك أخطأ فى تأويل كلام الدين، والخطأ فى الدين أضر من الخطأ فى العلوم الأخرى – الرياضية والصناعية والفلسفية – وبقدر نقصان معرفته ينقص مقدار ترجمته وكلامه [١].

وهذا هو الرأى الراجح.

ومنع الأزهر الشريف [٢] ترجمة القرآن ترجمة لفظية وأجاز ترجمة تفسيره ليتيح ذلك العمل على نشر الإسلام، وتيسير دراسته لغير العرب [٣].

---

(١) الحيوان ط. السعادة ص ٣٧.

(٢) من شيوخه المانعين الشيخ محمد شاكر والشيخ الأحمدى الظواهرى والشيخ الحلبى ونسب للشيخ المراغى رأى فى جواز ترجمته ثم رجع عنه وأجاز الشيخ محمد رشيد رضا الترجمة المعنوية بقدر ما يحقق المصلحة الشرعية. انظر: (ترجمة القرآن وما فيها من مفاسد للشيخ رشيد رضا ص ١٨).

وقد ترجم القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية فترجم إلى اللاتينية فى القرنين الثانى عشر (سنة ١١٣٤م) والسابع عشر (سنة ١٦٩٨م) ثم ترجم إلى الفرنسية والألمانية والهولندية والايطالية والروسية وإلى بعض اللغات الشرقية السامية وغيرها كالعبرية والأردية والفارسية والاندونيسية والتركية ولا تزال الترجمات تتوالى حتى الآن.

(٣) المستشرقون وترجمة القرآن د. محمد صالح البنداق ص ٧٣ وانظر: فن الترجمة فى الأدب العربى لمحمد عبد الغنى حسن ص ١٤٦.

خـــــاتمة ومنهج

لا ريب أن هذا الكتاب يكشف عن خصائص اللغات البشرية – بعامة – واللغة العربية – بخاصة – ففيه تفصيل للنشأة اللغوية، وتتبع تاريخي عميق وشامل لكيفية التفرع اللغوى بدءاً من اللغة الإنسانية الأولى، وامتدادا إلى شجرة اللغات السامية، وانتهاء باللغة العربية المثالية.

ففى عدة أبواب وفصول تشتمل عليها عالجنا تدرج اللغات ظهورا، والصراع اللغوى الذى قضى على الضعيف منها، وأبقى القوى الذى كتبت له الحياة، وكيف تعاقبت مراحل التاريخ على اللغات السامية التى نشأت من أصل واحد كان مقره الجزيرة العربية وتمثله العربية الباقية.

وتظهر العربية فى صور متتابعة لا تلبث – نتيجة للصراع اللغوى – أن تتوحد – قبل نزول القرآن الكريم – وتستمر بها الحياة – بعد نزوله – وتتضافر جهود العلماء العرب على وضع قواعدها وإحاطتها بسياج من العناية والاهتمام فتصمد شامخة على الزمن.

ثم يكشفون عن معدنها الأصيل، وجوهرها الصافى، ومكوناتها البديعة، وحيويتها الفائقة التى قامت على أسس ومبادئ لن تتزعزع فقد كفل لها المولى سبحانه أن تكون وعاء الوحى الإلهى، وهيأ لها ما جعلها تتمتع بالأصالة والابتكار والقوة بعوامل من ذاتها تتمثل فى طبيعتها الراقية، وتفردها بالاشتقاق المنهجى الذى يكثر فيها التوالد والنتاج.

وفيها – كذلك – مرونة عجيبة فى مزج الألفاظ وتكوين الكلمات عن طريق النحت الذى يعد أحد روافد الاشتقاق – عند الحاجة إليه.

وكذلك القلب والإبدال، وهما عنصران مهمان يرسمان للمتكلم طريق الزيادة اللغوية وثراءها.

وهى لغة يتحقق لها الانتظام والاطراد فهى تملك من قوانين القياس والارتجال

الموروث ما يجعل الطريق ممهدا أمام سالكيه ممن يريد الوصول إلى لفظ أو صيغة أو تركيب لغوى دقيق.

وفى دلالتها الناشئة عن استعمال الحقيقة والمجاز تنوع فريد جعلها صالحة لاستيعاب المعانى والأغراض لا تعجز عن الوفاء بها مهما تكن طبيعتها قدما أو حداثة.

كما أن صدرها واسع للإفادة من اللغات الأخرى فى مجال الثروة اللفظية والمعنوية عن طرائق التعريب والترجمة.

وهذا كله يشهد للعربية بالجدارة والتفوق، واستحقاقها أن تكون رائدة اللغات العالمية.

وقد أودعت هذا الكتاب وفاء لهذه الجوانب من البحث والدرس اللغوى.

فهو يضم تأصيلا وافيا لآراء الباحثين والعلماء والدارسين للغات الإنسانية - بعامة - واللغات السامية والعربية - بخاصة - ويبين ما اعتمدوا عليه فى بحوثهم ودراساتهم من أسس علمية واجتماعية ونفسية وتاريخية وتطورية.

كما يتضمن تحليلا لهذه الآراء ومناقشة لها فى إطار الموضوعية والإنصاف المبنيين على دراسة متأنية فاحصة، ومنهج علمى دقيق.

وإن الدراسات اللغوية بحاجة إلى هذا التأصيل والبحث حتى تظهر حقائق الأمور جلية واضحة للباحث والدارس.

كما يبرز طبيعة العربية، وعوامل نموها، وصلاحيتها للحياة والحضارة، ويكشف عن المناهج اللغوية لاستخدام هذه العوامل فى وضع المصطلحات العلمية والأدبية.

وقد أودعت فى هذا الكتاب خلاصة للخبرات العلمية التى تكشف عن أسرار الإبداع فى هذه اللغة المبينة التى نزل بها القرآن الكريم شهادة برقيها وتفوقها.

وفى هذا الكتاب كشف عن المناهج اللغوية المتقدمة التى تعطى القارئ

صورة وافية لما يريد من كسب المهارات اللغوية العربية. ومعرفة حقائقها وظواهرها.

وفى هذا الكتاب ما يرشد المعلمين والباحثين إلى طرق تعليم اللغة، ونقلها إلى الأجيال بسهولة ويسر، وكيف يفيد الأبناء منها ويذلل لهم سبل معرفتها وفهمها على وجهها الصحيح.

كما يلقى الضوء على أثر العربية وتأثرها باللغات الأخرى وكيفية الإفادة من هذه الصلات فى تعريب العلوم والآداب والمعارف الإنسانية.

هـذا وبالله التوفيق.

* * *

أهـــم المصـــادر

● الإبدال لأبى الطيب اللغوى. ط. دمشق ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.

● أبحاث ثنائية ألسنية للأب مرمرجي الدومنكي . ط ١٩٣٧، ١٩٤٧، ١٩٥٠م.

● ابن جنى اللغوى . رسالة دكتوراه للمؤلف فى مكتبة كلية اللغة العربية مقدمة سنة ١٩٧١ م.

● أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى . د. عبد الغفار هلال . ط الأولى ١٩٧٩م.

● الإتقان للسيوطى . ط. مصطفى الحلبى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م.

● ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان الأندلسى . خ. دار الكتب المصرية ١١٠٦ (نحو).

● استراتيجية تطوير التربية العربية . لجنة تطوير البيئة . نوفمبر ١٩٧٩م.

● أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى . ط. المنار ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥م وبتحقيق أ. محمد عبد العزيز النجار ط. صبيح ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.

● أسرار العربية لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى . ط. ليدن.

● أسس علم اللغة العربية . د. محمود فهمى حجازى . ط ١٩٧٩م.

● الأشباه والنظائر للسيوطى . ط. حيدر آباد.

● أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب . أ. عباس العقاد . ط ٢ دار المعارف.

● الاشتقاق لابن دريد . ط. السنة المحمدية ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨م.

● الاشتقاق أ. عبد الله أمين . ط. لجنة التأليف ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م.

● الاشتقاق وأثره فى اللغة العربية . د. على البطشة . خ. مكتبة كلية اللغة العربية ٩٨٦٢ (رسائل).

● الاشتقاق والتعريب أ. عبد القادر المغربى . ط. لجنة التأليف ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م.

● أصوات اللغة . د. عبد الرحمن أيوب. ط. دار التأليف. ط الأولى.

● الأصوات اللغوية. د. إبراهيم أنيس. ط. لجنة البيان العربى ١٩٦١م.

● الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . ط. التقدم.

● الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير . ط. بيروت ١٩٠٨ م.

● الإنصاف فى مسائل الخلاف لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى. ط ١٣٨٠ هـ- ١٩٦١م.

● الإيضاح فى علل النحو لأبى القاسم الزجاجى. مطبعة المدنى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م.

● البداية والنهاية لأبى الفدا. ط. السعادة.

● البرهان فى علوم القرآن للزركشى. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة دار التراث.

● تاج العروس بشرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدى. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ، ط. بيروت ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦م.

● تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى. ط. دار الكتاب العربى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م.

● تاريخ آداب العرب أ. مصطفى صادق الرافعى. مطبعة الأخبار ١٩١١م.

● تاريخ آداب اللغة العربية. أ. جورجى زيدان. ط. دار الهلال.

● تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى . ألفه نخبة من العلماء منهم: د. محمد جمال الدين مختار ود. عبد المنعم أبو بكر. المجلد الأول.

● تاريخ العرب المطول. فيليب حتى . ترجمة حتى وآخرين. ط. بيروت ١٩٥٢م.

● تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى لجيمس هنرى برستد ترجمة د. حسن كمال. المطبعة الأميرية ١٣٤٧ هـ- ١٩٣٩ هـ.

● تاريخ اللغات السامية. د. إسرائيل ولفنسون. ط. الاعتماد ١٣٤٨ هـ- ١٩٢٩م.

- التبيان فى تصريف الأسماء. د. أحمد كحيل. ط. السعادة. الطبعة الأولى.
- التجويد والأصوات. د. إبراهيم نجا. ط. السعادة.
- الترجمة ومشكلاتها لإبراهيم خورشيد. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى. مطبعة الظاهر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م.
- التطور اللغوى التاريخى. د. إبراهيم السامرائى. ط. دار الرائد. القاهرة ١٩٦٦م.
- تهذيب اللغة للأزهرى. ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة. مطابع سجل العرب.
- الجامع لأحكام القرآن . القرطبى. ط. الشعب.
- حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين. أ. أحمد عصام الدين. ط. دار النهضة.
- الحيوان للجاحظ. ط. السعادة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧م، وط. مصطفى الحلبى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨م.
- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز. ترجمة (محمد عبد الهادى أبو ريدة) ط. لجنة التأليف ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م.
- الحضارات السامية القديمة. اسبتينو موسكاتى. ترجمة د. السيد يعقوب بكر. ط. دار الكاتب العربى.
- خزانة الأدب لابن عمر البغدادى بتحقيق. أ. عبد السلام هارون. الطبعة الأولى ببولاق ١٢٩٩ هـ وط. دار الكتاب العربى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
- الخصائص لابن جنى بتحقيق الشيخ محمد على النجار. ط. دار الكتب ١٣٧١ - ١٣٧٦ هـ (١٩٥٢ - ١٩٥٦م).
- خصائص العربية ومنهجها الأصيل فى التجديد والتوليد. د. محمد المبارك ط ١٩٦٠م.

● خلاصة تاريخ العرب. لسيديو. ط دار الآثار، بيروت ط ٢ – ١٤٠٠ هـ.
● داعي الفلاح بشرح مخبئات الاقتراح لابن علان. خ. دار الكتب المصرية.
● دراسات في العالم العربي. الجزء الخاص بتاريخ الشرق القديم. د. أحمد فخري. مطبعة مخيمر ١٩٥٨م.
● دراسات في العربية وتاريخها للإمام محمد الخضر حسين. ط. دمشق ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠م.
● دراسات في علم الصرف. د. عبد الله درويش. الطباعة القومية. ١٩٦٢م.
● دراسات في فقه اللغة. د. صبحي الصالح. ط. بيروت ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٢ م.
● دراسة في فن التعريب والترجمة. د. عبد الغني عبد الرحمن محمد ط. الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.
● دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني. المطبعة العربية ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨م.
● دلالة الألفاظ. د. إبراهيم أنيس. ط. الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.
● ديوان البحتري. ط. دار المعارف ١٩٦٣م.
● الرسالة للإمام الشافعي. ط. ١٣١٠ هـ، ط ١٣٥٨ هـ.
● الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية لأبي حاتم الرازي (ط ٢) – ١٩٥٧م.
● سر صناعة الإعراب لابن جني. الجزء الأول ط ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٦م ومخطوطة مكتبة الأزهر (١١٦ لغة) ودار الكتب ٥٨١٦ هـ.
● الساميون ولغاتهم. د. حسن ظاظا. ط. دار المعارف ١٩٥٨م.
● شرح الأشموني مع الصبان وشرح الشواهد للعيني. ط. دار إحياء الكتب العربية.

● شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى. ط. دار إحياء الكتب العربية، المطبعة الأزهرية ١٣٢٥ هـ.

● شرح الشافية لعبد الله الحسينى والفاضل العصام. ط. دار إحياء الكتب العربية.

● شرح كتاب سيبويه للسيرافى. خ. دار الكتب المصرية ١٣٦ (نحو).

● شرح الكافية للرضى. المطبعة العامرية ١٢٧٥ هـ.

● شرح المفصل لابن يعيش . ط. المنبرية.

● الشعر والشعراء لابن قتيبة. ط. دار المعارف ١٩٦٦م.

● شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجى ط ١٢٨٢ هـ.

● الصاحبى لابن فارس. ط. المؤيد ١٣٢٧ هـ - ١٩١٠م، وبيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٤ م.

● ضحى الإسلام لأحمد أمين. ط. التاسعة ١٩٧٧م.

● طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى. ط. دار المعارف ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

● طرق تنمية الألفاظ فى اللغة. د. إبراهيم أنيس. النهضة الجديدة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ م.

● العربية ليوهان فك. ترجمة . د. عبد الحليم النجار. ط. دار الكتاب العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م.

● علم اللغة. د. على عبد الواحد وافى. ط. السلفية ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م ونهضة مصر ١٨٨٢ هـ - ١٩٦٢ م.

● علم اللغة . د. محمود السعران. ط دار المعارف ١٩٦٢م.

● علم اللغة بين القديم والحديث. د. عبد الغفار هلال. ط. الثالثة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

● العمدة لابن رشيق. ط. السعادة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م وحجازى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤م.

• العين للخليل بن أحمد . الجزء الأول إلى الثامن . ط . بغداد ١٩٦٧– ١٩٨٥م .

• الغربال لميخائيل نعيمة . ط . مؤسسة نوفل . بيروت .

• فقه اللغة . د. إبراهيم نجا . ط . السعادة ج ٣ – ١٩٦٥م – ج ٤ – ١٩٦١م وطبعة أخرى جديدة .

• فقه اللغة . أ. أحمد الاسكندرى . مطبعة القاهرة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦م .

• فقه اللغة . د. وافى . ط . لجنة البيان العربى ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٦م، ١٣٨١هـ – ١٩٦٢م .

• فقه اللغة . د. محمد المبارك . ط . جامعة دمشق ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠م .

• فلسفة اللغة العربية . د. عثمان أمين . ط . الدار القومية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م .

• فلسفة اللغة العربية وتطورها . أ. جبر ضومط . مطبعة المقتطف ١٩٢٩م .

• الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . أ. جورجى زيدان . ط . دار الهلال ١٩٢٣م .

• الفهرست لابن النديم . المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ .

• فن الترجمة فى ضوء الدراسات المقارنة . د. صفاء خلوصى . ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب – بالاشتراك مع دار الشئون الثقافية ببغداد .

• فن الترجمة . د. محمد عوض محمد . ط . معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩م .

• فى أصول اللغة «مجموعة القرارات التى أصدرها المجمع اللغوى عن الدورة التاسعة والعشرين إلى الدورة الرابعة والثلاثين فى أقيسة اللغة وأوضاعها» ط ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م .

• فى اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس (ط ٢) لجنة البيان العربى ١٩٥٢م، (ط ٣) المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٥م .

● القـامـوس المحـيط للفـيـروزابادى. ط ١٢٧٢ هـ، ١٢٨٩ هـ. بولاق، ط. الحسينية ١٣٣٠ هـ، وط. السعادة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٣م.

● القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث. د. عبد الصبور شاهين. ط. دار القلم ١٩٦٦ م.

● قـصـة الجنس البـشـرى. د. هندريك فـان لون. ترجـمـة إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى. كتاب الشعب (٣) ط ٢.

● قضايا لغوية د. كمال بشر ١٩٦٢م.

● القواعد والتطبيقات للشيخ عبد السميع شبانة.

● القيـاس فى اللغة العربيـة للإمام محـمـد الخضر حسين. ط. السلفيـة ١٣٥٣هـ.

● الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ط ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م.

● الكتاب لسيبويه. ط. بولاق ١٩١٦م، ١٩١٧م وبتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط. دار القلم وط. دار الكاتب العربى.

● الكشاف للزمخشرى. ط. بولاق ١٢٨١ هـ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

● لسـان العـرب لابن منظور. ط. بولاق ١٣٠٠ هـ ١٣٠٧ هـ، ط. بيـروت ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.

● اللسان والإنسان. د. حسن ظاظا. ط. دار المعارف ١٩٧١م.

● اللغة لفندريس تعريب. أ. عبد الحميد الدواخلى ود. محمد القصاص. ط. لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠م.

● اللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ترجمـة د. عبـد الرحمن أيوب. ط. الأنجلو المصرية ١٩٥٤م.

● اللغة بين المعيارية والوصفية د. تمام حسان. ط. الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

● اللغة الشاعرة. أ. عباس العقاد. مطبعة مخيمر ١٩٦٠م.

● اللغة والمجتـمع. د. محـمـود السعـران. ط ٢ دار المعـارف بالاسكندرية ١٩٦٣م.

- اللغة والنحو بين القديم والحديث. أ. عباس حسن . ط. دار المعارف ١٩٦٦م.
- اللهجات العربية د. إبراهيم نجا. ط. السعادة.
- اللهجات العربية نشأة وتطورا. د. عبد الغفار هلال ط. الجبلاوى. ١٤١٠ - ١٩٩٠م.
- اللهجات العربية فى القراءات القرآنية. د. عبده الراجحى. ط. دار المعارف ١٩٦٩م.
- المبهج فى تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة لابن جنى. ط. دمشق ١٣٤٨ هـ.
- المثل السائر لابن الأثير. ط. حجازى ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م، ط. نهضة مصر بتحقيق د. أحمد الحوفى ود. بدوى طبانة.
- مجمع الأمثال للميدانى. ط. السعادة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩م.
- محاضرات فى فقه اللغات السامية. أ. حامد عبد القادر ١٩٦٤م.
- محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها. د. أنيس فريحة ١٩٥٥م.
- المحتسب لابن جنى. ط. دار التحرير ١٣٨٦ هـ - ١٣٨٩ هـ.
- مختصر الإمام سعد الدين التفتازانى على متن التلخيص. المطبعة الخيرية ١٣٢٩ هـ.
- المخصص لابن سيدة. ط. الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ، ط. بيروت.
- المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية. أ. عبد المجيد عابدين. الطبعة الأولى ١٩٥١م.
- مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو. د. مهدى المخزومى ط. مصطفى الحلبى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م.
- المرجع فى تعريب المصطلحات للمهندس حسين فهمى. ط. النهضة المصرية ١٩٥٨م.

● مروج الذهب للمسعودى. ط. الرجاء ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

● المزهر للسيوطى. ط. الأولى. المطبعة السنية ١٢٧٢ هـ، ط. صبيح.

● المستصفى من علم الأصول للإمام أبى حامد الغزالى. ط. بولاق ١٣٢٢هـ.

● المسلك اللغوى ومهاراته. أ. محمد أبو العزم. مطبعة مصر ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م.

● المعاجم اللغوية د. إبراهيم نجا. ط. السعادة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢م.

● معجم البلدان لياقوت الحموى.

● المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

● المعرب للجواليقى بتحقيق أحمد شاكر. ط. دار الكتب ١٣٦١ هـ.

● مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام. المطبعة الأزهرية ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٧م وط. المدنى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.

● مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده. مطبعة الاستقلال الكبرى.

● مفتاح العلوم للسكاكى. الطبعة الأولى ١٣١٧ هـ.

● المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى. ط. مصطفى الحلبى ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م.

● المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد على. ط. بيروت ١٩٦٨م.

● مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق. أ. عبد السلام هارون. ط. دار إحياء الكتب العربية.

● مقدمة ابن خلدون ج ١ ط. بولاق ١٢٧٤ هـ، ج ٤ ط. لجنة البيان العربى ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م.

● مقدمة لدرس لغة العرب. أ. عبد الله العلايلى. المطبعة العصرية.

● من أسرار اللغة. د. إبراهيم أنيس. ط. الأنجلو المصرية. ط. الأولى ١٩٥١م والثالثة ١٩٦٦م.

● مناهج البحث في اللغة. د. تمام حسان. ط. الرسالة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م.

● المنصف لابن جني. ط. مصطفى الحلبي ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.

● نشأة الفعل الرباعي في اللغات السامية الحية. د. مراد كامل. ط. المعهد العلمي الفرنسي ١٩٦٣م.

● نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوي. مطبعة وادي الملوك ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٤م.

● نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها للأب أنستاس الكرملي. المطبعة العصرية ١٩٣٨م.

● النشر في القراءات العشر لابن الجزري بتحقيق الشيخ الضباع. ط. مصطفى الحلبي.

● نهاية الأرب لأبي العباس أحمد القلقشندي. العربية للطباعة والنشر ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م.

* * *

الـــدوريات

* مجلة الأزهر – عدد شوال ١٣٨٠ هـ – وعددا جمادى الآخرة وشعبان ١٣٨١ هـ، وعدد ذى الحجة ١٣٨٢ هـ، وعدد شوال ١٣٨٦ هـ.

* مجلة عالم الفكر: العدد (٤) – ١٩٨٦م.

* مجلة العربى: العدد ١٨٢ – المحرم ١٣٩٤ هـ، والعدد ٣٣٣ فى ذى القعدة ١٤٠٦ هـ.

* مجلة الفيصل: العدد ٩٢ صفر ١٤٠٥ هـ – نوفمبر ١٩٨٤م.

* مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد العاشر ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

* مجلة كلية اللغة العربية بالرياض – العدد السادس ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦م – والثانى عشر ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م.

* مجلة اللسان العربى جـ ١ المجلد الثامن.

* مجلة لغة العرب ١٩٢٨م.

* مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة (ج ١ – ٤) ط ١٣٥٣ – ١٣٥٨ هـ (١٩٣٥ – ١٩٣٩م)، ج ٧ ط ١٩٥٣م.

المراجع الأجنبية:

1 - Noldeke: Die semitischen. sprachen.

2 - Enno Litmann: Zur Entzifferung der safa inschriften .

المحتـــوى

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثانى
الفصائل اللغوية واللغات السامية

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الفصل الثانى

العربية المثالية وأطوارها

الموضـــوع	الصفحة

الباب الرابع
مميزاتها وعوامل نموها
الفصل الأول
الاشتقاق والنحت

الموضـــوع	الصفحة

الصفحة | الموضوع

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الفصل الرابع
الحقيقة والمجاز

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* ● * ● *

رقم الإيداع: ٢٤٠٤ / ٩٥